

جيضري S.H.M

# أصول التشيع الإسلامي وتطوره المبكر (المعارضة)

ترجمة:  
مهايب عيزوقي

- أصول التشيع الإسلامي وتطوره المبكر ( المعارضة )
- تأليف: جيفري S.H.M.
- ترجمة: مهيب عيزوقي
- التدقيق اللغوي: حسين محفوظ
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨
- جميع الحقوق محفوظة
- الناشر: دار الكنوز الأدبية - بيروت - لبنان
- تلفاكس ٧٣٩٦٩٦ - ٠١
- ص.ب ٧٢٢٦ - ١١
- دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع
- سورية - دمشق
- تلفاكس: ٦٧١٣٠٧٩
- ص.ب: ٢٢١٠٥

**جيفري S.H.M**

**أصول التشيع الإسلامي وتطوره المبكر  
( المعارضة )**

**ترجمة:**

**مهيب عيزوقي**





## الإهداء

إلى أستاذي الكبير الذي علمني حب التاريخ د. عباس همداني.  
وإلى محبي البحث عن الأصول للارتقاء بالفروع.

المرجم



## تقديم المحرر

اتجه انتباه الرأي العام العالمي منذ بعض الوقت إلى العالم العربي للواقع الاستراتيجي للبلدان العربية، والنقط الذي تنتجه، وتحررها السريع وظهورها كدول مستقلة وثوراتها والانقلابات العسكرية. كل ذلك كان موضع اهتمام رجال الحكم والسياسيين ورجال الأعمال وأساتذة الجامعات والصحفيين وكذلك الرأي العام.

وكل ذلك جعل فهم مشاكل العالم العربي الحالية ومطالب جيرانه المباشرين ضرورياً من النواحي الجغرافية والخلفية الاجتماعية والسياسات الرئيسية الحالية وتاريخها السياسي والثقافي والديني وذلك لفهم القضايا المعاصرة. فالعرب كانوا موجودين قبل ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي بزمان بعيد، ولكن الإسلام جعلهم قوة عالمية. ونشر الحضارة العربية التي نتجت عن اتصال العرب بثقافات الشعوب الأخرى، وبخاصة بعد تحقيق دولتهم الكبرى التي جعلتهم قوة عالمية والتي وصلت ذروتها في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر الميلاديين والقرون التالية وعلى رقعة واسعة من العالم.

وهذه السلسلة من الكتب التاريخية المخصصة للناطقين بالإنكليزية تحاول توضيح ماضي العرب التاريخي، وتحليل المشاكل المعاصرة. وقد جاء المساهمون في هذه السلسلة من أنحاء متعددة من العالم، وكلّ منهم متخصص في مجاله. وهذه السلسلة من المقاربات والمواقف المتنوعة تقدم لقراء الإنكليزية صورة فريدة للعالم العربي.

يقولاً زيادة

أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية. بيروت

محرر سلسلة خلقية العرب



## تنويه المترجم:

في ربيع عام ٢٠٠٢ وبعد أن تصفحت بحث كتاب S.H.M. جيفري The Origins and Early development of Shia' Islam أصول التشيع الإسلامي وتطوره المبكر. رأيت أن أترجمه وأضعه بين يدي القراء العرب الذين كثيراً ما ظلموا الشيعة والتشيع لأسباب غير ذات صلة بأصول التشيع. وكلها سياسة، قائمة على تفسيرات متأخرة لأصول قسرت نصوصها وحملت ما لا تحمل. وهذا يصح على المتشيعين كما يصح على سواهم. "نكايات بـ نكايات"

رأيت أن استشير مرجعاً محترماً (مؤرخاً). وكان جوابه: "برغم أن هذا البحث قديم، فلا بأس بترجمته." وللحق أقول أن إجابته أدهشتني لأن هذا البحث صدر عام ١٩٧٩ إذا كان بحث عمره ثلاثة عقود أو أقل صار قديماً، فماذا نقول عن كتب صار عمرها قروناً؟ وأية علوم نجني منها، ونحن نعلق بها أكثر من نعلقنا بالبحوث المعاصرة؟ وعرفت عمدها لماذا نعيش في القرن الحادي والعشرين بعقلية القرون الحالية.

رغم ما قيل عن الكتاب، وما قد يقال، ورغم أنني لا أتفق مع كل فقرة فيه، فإنه ما يزال بحثاً جديراً بالعناية والدراسة والاستناد إليه؛ لاسيما وقد قبله نقولا زيادة.

**المؤلف:** ولد المؤلف في لوكتاو، الهند عام ١٩٣٦ ودرس العلوم الإسلامية في مدرسة تقليدية. ثم حصل على شهادتي دكتوراه: الأولى من جامعة لوكتاو، والثانية من جامعة لندن مدرسة الدراسات الأفريقية والشرقية. ثم درس في جامعة مالاي في كوالالمبور ثم الجامعة الأمريكية في بيروت حيث شغل كرسي الشيخ زايد للدراسات الإسلامية، وصار رئيس قسم الدراسات الدينية. مثل د. جيفري الجامعة الأمريكية في

العديد من المؤتمرات العلمية العالمية، وكتب في مختلف فروع الدراسات الإسلامية، وساهم في دائرة المعارف الإسلامية. وهو الآن معاون رئيس تحرير مجلة همدارد الإسلامية في باكستان (مجلة فصلية).

المعلومات قديمة مأخوذة عن غلاف الكتاب باللغة الإنكليزية أي منذ عام ١٩٧٩

إقرار: لابد من التنويه إلى أن المحرر اللغوي الأستاذ حسين محفوظ قدم إلى جانب التحرير اللغوي نصائح مفيدة في الترجمة ذاتها؛ أما أسلوب الترجمة فيقع على عاتق المترجم بالذات، لأنه يصّر على بناء الجملة المترجمة بطريقة قد لا تروق للعروبيين تماماً؛ ولكنها على كل حال لا تخالف قواعد اللغة. لذلك أرجو من الأخ حسين أن يتقبل فائق تقديري واحترامي لكل ما أبداه نحوي ونحو هذا العمل.

كما أن شكري يجب أن يصل للأخ علي اليازجي الذي تضد هذا الكتاب على الحاسوب وأخرجه بأناة وصبر كبيرين على سوء خط المترجم وغلاظته في المعاملة.

كما أسدي شكري لكل المساهمين في إخراج هذا العمل إلى الوجود

كانون الثاني ٢٠٠٣

ميهب عزوقي

## الفصل الأول

### أسس المفاهيم

جرى تفسير انقسام الجماعة الإسلامية إلى فرعين: السنة والشيعة بأنه اختلاف سياسي. ونسبت أصوله إلى ولاءات سياسية في الأساس فيما يخص قيادة الجماعة، تلك الولاءات التي انفجرت على شكل حرب أهلية بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. هذه الحرب لم تحدد وصول الأمويين إلى السلطة فقط، بل بداية التشيع بصفته حركة دينية منفصلة عن الكتلة الرئيسية للمؤمنين أيضاً. هذا التفسير العام بسط بشكل كبير موقفاً معقداً جداً. وهؤلاء الذين يؤكدون الطبيعة السياسية للتشيع ربما كانوا يرغبون في تبني المفهوم الغربي الحديث في التفريق بين الكنيسة والسياسة ويسقطونه على ما جرى في مجتمع الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، في حين أن هذا المفهوم ليس غريباً فحسب، بل إنه غير مفهوم أصلاً. وهذا التفسير يعني أيضاً أن التشيع ظهر بشكل تلقائي، ولم يكن ظهوره متدرجاً وتطور داخل الجماعة الإسلامية. وأما رأي الاستغراب -عكس استشراق- بأن التشيع "هو حركة روحانية" فهو استثناء. لقد التصق الدين وعلى مر العصور بكل جوانب حياة الإنسان في المجتمع، ولم يكن محمداً بالسياسة. حتى تعليم عيسى المسيح الديني النقي - كما ينظر إليه - لا يفقد صلته بالسياسة.<sup>١</sup>

ولقد كان النبي محمد/ص/ معلماً دينياً وروحياً بشكل أساسي ورسول الله، وفي الوقت عينه، وبفضل الظروف قائداً دليوياً ورجل دولة، وهكذا كان الإسلام منذ ظهوره الأول تربية دينية وحركة سياسية، كما يمكن

القول. كان ديناً بفضل مقام النبي بصفته رسول الله اصطفاؤه وأرساله ليبلغ رسالته إلى البشرية، وسياسياً بفضل المناخ والظروف التي نشأ وتطور فيها. وعلى هذا الأساس فإن التشيع في طبيعته الأصلية الموروثة كان دائماً ديناً وسياسة جنباً إلى جنب، والحالتان موجودتان عبر تاريخه الطويل. وهكذا فإن من الصعوبة الهائلة الحديث عن وجوده وعلى أي مستوى ياحدى صفته دون الأخرى. وخلال الثلاثة أو الأربعة قرون الأولى من التطور المؤسسي والديني لا يمكن للباحث أن يتجاهل أن المناقشات بين المسلمين كانت ذات صلة بالقضايا السياسية والاجتماعية. عندما نحلل العلاقات الممكنة المختلفة التي انطوى عليها الإسلام ونقارن بعضها ببعض، نجد مطالب شيعة علي واتجاهاتهم العقائدية تميل إلى مفاهيم دينية أكثر منها سياسية، لذلك يبدو من غير المقبول أن يُلصق الأصل السياسي بالفئة - الشيعة - ذات التوجه الروحي والاعتبارات الدينية أساساً - وكما سنشرح لاحقاً -.

إن مصطلح "شيعة" هو كما تطور تاريخياً يعني - ويجب أن يؤخذ كذلك في هذا الفصل - الأتباع والجماعة والحزب والأنصار والمؤيدين<sup>2</sup> وباختصار المؤيدون. وترد كلمة شيعة بهذه المعاني في القرآن الكريم<sup>3</sup>. وهذه المعاني بصفاتها تخص أولياء علي وأهل بيته جرى استخدامها وهي بذلك تميزهم عن السنة. في سنوات الإسلام الأولى لم يكن بمقدور المرء الحديث عن ما يقال سنة "أرثوذكس" أو شيعة "منحرفة" - بل عن وجهتي نظر غير محددتين بدقه - ومتباعدتين باستمرار إلى حد لم يعد التصالح ممكناً فيه. ومن هنا، فإن هدفنا في هذا العمل هو تأصيل خلفية



مؤيدي عليّ وتقصّي أصولها في المجتمع العربي منذ ظهور الإسلام. وبالتالي فإن هذا العمل يبين كيف اتضح هذا الموقف منذ وفاة النبي محمد.

يجب أن تكون نقطة بداية كل دراسة للإسلام الشيعي، من حيث الضرورة التاريخية، من طبيعة وتشكيل الجماعة الإسلامية التي قامت في المدينة تحت قيادة محمد. لم تكن هذه الجماعة متجانسة لا في التقاليد ولا الخلفية ولا المؤسسات السياسية الاجتماعية. وتوحيد شعوب مختلفة أو جماعات من شعب في نظام جديد لا يعني إزالة أو حتى تغيير بعض تقاليدهم وقيمهم المتجذرة بعمق. وهكذا فإن من الطبيعي أن قيماً أو أفكاراً أو ميولاً معينة لمختلف أفراد الجماعة، تنعكس في وجهات نظر معينة للنظام الديني الجديد. وبالتالي، وبدلاً من مقارنة متجانسة أو وجهة نظر واحدة تجاه كل القضايا، وبخاصة التي ليس لها طبيعة أصولية، أو جوهريّة فإن على المرء أن يتوقع وجود مقاربات وأراء عديدة ضمن الأمة، إلا فيما يخص نبوة محمد ورسالته (الشهادتين) فهما عاملان أصليان جوهريان يوحّدان الجماعات المختلفة ضمن الأمة الإسلامية.

كان ميل بعض العرب من جماعة صحابة النبي لتأييد علي نتيجة لازمة لما هو موجود مثلاً من أفكار منتشرة بين قبائل عربية عديدة أسست الجماعة الإسلامية في المدينة. هذه الجماعة تألفت من قريش البطاح (وهم سكان مكة حول الكعبة) وقريش الظواهر (هم سكان ضواحي مكة) والمدنيين (نسبة إلى المدينة المنورة) وكانوا منقسمين إلى الأوس والخزرج وكلا القبيلتين من عرب الجنوب ويحتفظون بكثير من الميزات الشخصية لبلاذهم الأصلية، ومن بعض العرب مما حول المدينة، وبعض العرب وغير

العرب من أماكن بعيدة مثل بلال الحبشي من أثيوبيا وسلمان الفارسي من فارس. وكلهم شكلوا جماعة واحدة تحت علم الإسلام، ولكن عندما نظر إلى أية قضية جماعية في داخل هذه الجماعة، فإن علينا أن نراعي الأمزجة والميول المتنوعة لكل فريق، وليس لفريق واحد بعينه من قبيلة واحدة أو بلد بعينه. علينا أن نفترض أن العرب من أصول وخلفيات اجتماعية وثقافية مختلفة فهموا الإسلام، على الأقل في بداياته بحسب مثلهم الاجتماعية والأخلاقية.

كان المجتمع العربي بقرعهِ البدو والخضر منظماً على أسس قبلية، ومن أهم الروابط الاجتماعية هو الولاء للقبيلة "العصبة" وشكّلت هذه العصبة إلى جانب مفاهيم أخرى في الحياة القبلية أهم التعابير التي جرى تأكيدها باستمرار في شعر العرب ما قبل الإسلام. وأسس النظام القبلي على النسب الفعلي أو المزعوم لجد أفراد القبيلة، وهو ما حدد الوضع الاجتماعي والأخلاقي لأفرادها. ومن لم يكن قادراً على الفخر بأجداده كنموذج للعظمة نظر إليه على أنه وضع، وكثيراً ما كان عرضة للازدراء. وكانت معرفة الجد الأعلى والوعي بمكانته قضية مركزية في الوجدان الاجتماعي العربي، فشرف ومجد قبيلة ما بالمقارنة مع شرف ومجد قبيلة أخرى هو أساس الفخر. وكان أي ادعاء بالهوية والشرف لأفراد القبيلة يعتمد إلى حد بعيد - على ما كان منه للأجداد. والمصطلح الذي استخدمه العرب للتعبير عن ذلك هو "الحسب" الذي فسّره اللغويون العرب على أنه تعداد الأعمال المشهورة للأجداد.<sup>٤</sup> وهذا الحسب لم يقتصر على الأجداد من طرف الآباء فقط بل شمل أيضاً النسب من طرف

الأمهات. فإذا كانت الأعمال العظيمة عديدة لدرجة يمكن أن يذكرها ويفخر بها الأبناء فإن ذلك يجعل حسبهم أو شرفهم أعظم كما اصطلاح على تسميته بالحسب أو الشرف الرفيع. مما يعني أن نبيلهم أعظم وأقوى بحسب الأعمال العظيمة التي قام بها الأجداد وتوارثها الأبناء جيلاً بعد جيل<sup>٦</sup> وهذا ما رددته الشاعر العربي النابغة الذبياني:

أبوه قبله وأبو أبيه بنوا مجد الحياة على إمام<sup>٧</sup>

والقبيلة الكبيرة العدد ولكن بقليل من أسباب الفخر بأعمال أجدادها لم تكن تعد قليلة القيمة اجتماعياً فحسب بل وكانت موضوعاً للسهجاء والازدراء من طرف ذوي الحسب الرفيع. وهكذا نرى الشاعر ضمرة يقول:

وما جمعنا من آل سعد ومالك وبعض زناد القوم غلث وكاسد<sup>٨</sup>

في نظام قبلي صارم كما هو عند العرب، شهرة الأجداد بأعمالهم العظيمة تصبح المصدر الأهم للفخر وإدعاء التفوق، وجعل نبل قبيلة ما عاملاً جامعاً لادعائها التفوق في علاقتها بالقبائل الأخرى. وأما ضمن القبيلة فإن الفخذ "الفرع" الذي يستطيع تعداد الأعمال العظيمة لأجداده ويفخر بها كان يحوزُ السيادة على الفروع الأخرى الأقل نبلاً منه ضمن القبيلة الواحدة. وكان هذا النبل لا يشمل كل الفرع بالتساوي، بل وجد تميز بين الأفراد كان مهماً لشرف فرد واحد أيضاً. فقد سأل النعمان بن المنذر ملك الحيرة عامر بن أحيمر بن همدلة الذي ادعى المقام الأسمى في مجلس: "هل أنت أنبل العرب جميعاً فيما يخص قبيلتك؟" فأجاب: "تميز

معد بالشرف والعدد، ومن بينهم نزار، ومن بينهم مضر، ومن بينهم خندف، ومن بينهم تميم، ومن بينهم عوف ومن عوف عائلة بهدلة. ومن لا يرضى ذلك فلينازلي<sup>١١</sup>

ما كان العرب يعتبرون أن الميزات الجسدية هي وحدها التي تورث فحسب،<sup>١٢</sup> بل كانوا يعتقدون أن سمات النبل تورث أيضاً في سلالة بعينها. وبما أن السمات الأخلاقية هي موضوع تحول جيني، فإن أفضل قيم فرد ما تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء. وميز العرب بين الشرف الموروث والشرف الذي يحوزه فرد ما، ورأوا أن الشرف الموروث هو مصدر عظيم للمكانة الاجتماعية، بينما الشرف المكتسب أقل قدراً منه. وبكلام آخر فإن شهرة شخص ما وكفاءته تضمن له مكانة مميزة لكنها أقل بالمقارنة مع الشهرة والكفاءة الموروثة التي تضمن شهرة وهيبة في المجتمع.<sup>١٣</sup> وفي الشعر العربي مما قبل الإسلام ما يؤكد ما قلناه من أن النبالة الموروثة تضمن المقام العالي لذرية الأشراف،<sup>١٤</sup> وكان من الشناعة على الوارثين تخريب ذلك الشرف.<sup>١٥</sup> وكان من واجب الأبناء المحافظة على ما ورثوه من شرف. وبهذا المعنى فإن مصطلح "سنة" صار يتداول منذ زمن بعيد فيما قبل الإسلام.<sup>١٦</sup> واستمر استخدام هذا المصطلح متداولاً بقوة كما كان قبلاً، ولكن مضمونه تغير جذرياً وحل مكانه السنة النبوية. مع أن معاني أخرى استمرت في طابعها القديم عند بعض العرب على الأقل حتى ضمن الجماعة المسلمة.

وكان الفرد الأنبل بين العرب، حيث نشأ الإسلام، هو الذي يمكن أن يفخر بأن قدره أن آباءه لم يتركوا له شيئاً بصفته "سنة" مما يحط من

مكانته. والمصطلح الذي استخدم للتعبير عن فكرة النبل الموروث من الأجداد هو "عرق وجمعها أعراق وعروق" ومعنى عرق أصل ومصدر. وهكذا تم التعبير عن المكانة الاجتماعية بأقوال مثل "له نصيب موروث في الكرم والنبل"<sup>١٧</sup>، أو "دم نبيل يعود لأجداده"<sup>١٨</sup>

إن من الواضح أن تقوى الآباء وأعمالهم النبيلة وميزاتهم الأخلاقية بصفتها سنة قامت بدور هام في وجدان العرب الديني. ودين العرب الذي تباين من منطقة إلى أخرى من حيث القوة والأهمية في كل أنحاء شبه الجزيرة العربية كان بالأصل عبادة الرموز القبلية، الذي تم تعريفه من خلال قوى الطبيعة، وشخص بآهة متعددة. ورمز لآلهة القبيلة بأحجار مقدسة سميت أنصاب، ودعيت "رب المعبد" أما الله وهو الإله الأعظم للمكان المقدس عند المكين فقد وصفوه بأنه "رب الكعبة أو رب هذا البيت"<sup>١٩</sup> ومن المهم أن نلاحظ أن كلمة رب كانت لا تشير إلى "إله" وإنما للشخص المسؤول عن المعبد.

لم يكن هناك مؤسسة دينية منظمة، لكن بطوناً محددة قامت بدور العناية بالمعابد. وهذه المهمة تم توريثها للأبناء من جيل إلى جيل يليه متدافقة بصيت من القداسة الموروثة.<sup>٢٠</sup> وأصل هذه القداسة مأخوذ من القوة السحرية للصنم الذي اهتم به هؤلاء المكلفون بالعناية به، وصارت قداستهم مرتبطة بفكرة شرف عرقهم ومرادفة لشرفهم الموروث من أجدادهم. ومثلت نبالة العرق الموروثة، وشرف القداسة الناتج عن خدمة الصنم الرب: الأرستقراطية في جزيرة العرب قبل الإسلام. وآثار هذه الأرستقراطية موجودة في عقائد العرب وخاصة الجنوبيين منهم، حيث

نعثر على عائلات معينة لديها هذه الجاذبية الشخصية charisma أو المقدرة الروحانية أو الشرف. كما جرى العرف بأن العناية بمعبد "بيت" والشرف متلازمان. ونتيجة لذلك، فإن الكهانة "العناية بمعبد" كانت غالباً من حق شيخ القبيلة أو الملك. ويمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك لنقول أن القيادة السياسية في الجزيرة العربية كانت بالأصل ذات طبيعة دينية وكهانة. والمؤسسة الملكية في الجنوب العربي التي عرفت بـ "المقرّب" هي خير دليل على الملك - الكاهن الذي يجمع بين السلطة الدينية والدنيوية.

استطاعت البطون التي أفرزت الحكام السياسيين الاستحواذ على الشرف العظيم بعدما استولت أولاً على السلطة بوسائل سياسية، ومع ذلك لم تستطع مساواة نفسها بالسلالات الكهنوتية (التي تعني بالمعابد)؛ مثلاً، عدّ ملوك كندة من حيث الشرف بعد البطون الثلاثة ذات الشرف العظيم المستمد من موقعها الكهنوتي. وهذه البطون "البيوت" الثلاثة هي: بعد "بيت هاشم بن عبد مناف من قريش"، ١- زرارة بن عداس من قيسم، ٢- حذيفة بن بدر الفزاري من قبيلة فزارة، ٣- ذر الجذّين بن عبد الله بن همام من قبيلة بني شيان. أما فيما يخص كندة فلم تحسب من بين "أصحاب البيوت" مع كونهم ملوكاً.<sup>٢٢</sup>

ومن الواضح أن الوضع الكهنوتي لم يكن أساس القيادة السياسية، ولكن بعدما يحقق رجال القيادة السياسية موقعهم، كانت تمنح لهم مهمات دينية. وكانوا يقومون بدور الوسطاء بين الناس والآلهة. ونتيجة لذلك فإن القيادة القبلية وخدمة الإله أصبحتا مترادفتين. وأولئك الذين

يقودون القبيلة يصبحون بالضرورة حماة بيت القبيلة (المعبد الخاص بها). وبالتالي يصبحون "أهل البيت" <sup>٢٢</sup> وجميع البطون القائدة شكلوا نبلاء العرب أو بيوتات العرب. وإلى عهد متأخر، وحتى بعدما صار مصطلح أهل البيت مقصوراً على سلالة النبي، بقي مصطلح بيوتات العرب حياً إلى قرون متأخرة بصفته يمثل الأرستقراطية القبلية النبلية. <sup>٢٥</sup>

وبناءً على هذه الخلفية نستطيع تقدير أهمية بني هاشم، لا ضمن المكين فقط، بل في محيط أوسع بفضل صلاتهم بالقبائل الأخرى من خلال سوق عكاظ والحج إلى الكعبة. بعض المستشرقين الغربيين تساءلوا هل كان أجداد محمد على هذه الدرجة من الأهمية والنبالة والتأثير كما توضح المصادر، ومن ثم يدّعون بأن أهمية بني هاشم بولغ فيها. ويررون ذلك بأن العباسيين كانوا فعلاً من بني هاشم، في حين أن منافسيهم بني أمية المغلوبين كانوا من سلالة عبد شمس، وأن المؤرخين الذين دونوا تواريتهم تحت رعاية العباسيين حطّوا من قدر بني أمية. ولهذا السبب أدعى هؤلاء الغربيون أن أجداد الخلفاء العباسيين صوروا على قدر عظيم في كتابات المؤرخين أكثر مما كان لهم فعلاً. وهذا الافتراض، على كل حال، قابل للنقد بالتأكيد. إن فحصاً دقيقاً يبيّن أن ذلك لم يكن صحيحاً إلى أي مدى مقبول، وليس هناك أساس لافتراض أي مغالطة أو إدعاء مبالغ فيه عند عرض واقع حال أجداد محمد. <sup>٢٦</sup>

إننا لا نحتاج أن نعود إلى قصي والد عبد الدار وعبد مناف، هذين اللذين تبرزهما الشهادات التاريخية بأهما استأثرا بأعلى سلطة سياسية ودينية بغير منازع. بعد وفاة قصي ورث ابنه عبد الدار سلطته، ولكنه مات

سريعاً، وكان أبنائه صغاراً لا يستطيعون النهوض بحقهم في السلطة. لذلك فإن عبد مناف أخا عبد الدار الأصغر استحوذ على المسؤوليات الهامة التي كان قصي يقوم بها. وأخيراً ورث أبناء عبد مناف نفوذ والدهم؛ ومن بينهم هاشم ورغم أنه الأصغر فيهم منح مهمة شريفة تخص الكعبة وهي الرقادة والسقاية؛ وهي تزويد الحجيج بالطعام والماء.<sup>٢٩</sup>

وليس هناك أي أساس للشك بالروايات التي ذكرت أن هاشماً أحرز نجاحاً عظيماً ومجداً كبيراً خلال حياته بفضل أعماله الجليلة لخدمة مجتمعه وكرمه الرائع الذي أولاه للحجاج الذين زاروا الكعبة من مختلف أنحاء الجزيرة العربية. وعندما توفي هاشم خلفه أخوه المطلب. و يبدو أن حظ العائلة النخط تحت قيادة المطلب، و لكنه تعافى بقيادة عبد المطلب بن هاشم الذي تربى عند أخواله في يثرب، ثم أحضره عمه المطلب إلى مكة لتولي القيادة ( ميراث أبيه ).<sup>٣١</sup>

و نظراً إلى أن أولاد هاشم الآخرين توفوا بلا ذرية فإن عبد المطلب استحوذ على شؤون العائلة بكاملها، و هذا معناه إعادة الوحدة إلى عائلة هاشم و مهامها بقيادة عبد المطلب. ليس من المهم هنا مناقشة هل كانت العائلة في ذلك الوقت متألفة و فعالة في مكة كما تعودت أن تكون أم لا. المصادر التاريخية التي كانت غالباً موضع شك في عرض ظروف أجداد محمد بشكل مبالغ فيه، هي نفسها لم تتردد في رواية كيف واجه عبد المطلب تراجعاً خطيراً في بداية حياته. حققت مهمة الرقادة و السقاية لبني هاشم تأثيراً دائماً و قائداً، و يبدو طبيعياً أنه بفضل هاتين الوظيفتين انتشرت شهرة بني هاشم في كل الأنحاء، و جلب لهم الاحترام في مكة.



كان عبد المطلب رجلاً صاحب مبادرة و قدرة<sup>٢٢</sup> وهما ضرورتان لكي يحقق المرء مكانته في مجتمع مكة التجاري الأرستقراطي. وعزز مكانته بحفر بئر زمزم المعروف منذ القدم. و بمرور الوقت أصبح عبد المطلب حامي الكعبة و نظر إليه بأنه قاض مشهور بحسب الأعراف السائدة يومئذ. ومن موقعه هذا بصفته الشخص الوحيد المسؤول عن الخدمات الأساسية لأقدس بيت في الجزيرة العربية، فقد أصبح أحد أهم، إن لم يكن الأهم بين شخصيات مكة. أخبرنا ابن سعد و ابن هشام: ( أنه كان سيد قريش حتى وفاته ) و أنه ( نال شرفاً عظيماً و مكانة رفيعة لم يحظ بها أحد من آبائه قبله، لقد حاز على احترام عظيم إلى جانب حب شعبه).

وورث أبو طالب مقام أبيه بعد وفاته. و يبدو أن أبا طالب لم يُظهر أنه يمتلك طاقة و شخصية والده و أجداده، وبالتالي فقدت العائلة الهاشمية بعض مكانتها و قيادتها التي حازت عليها ضمن دائرة الأرستقراطية المكيّة.<sup>٢٤</sup>

ومع ذلك فليس من الضروري أن تؤدي بعض الخسائر المادية في العائلة إلى فقدانها شرفها وأهميتها في ذاكرة الشعب. ولم يتلاش احترام آل هاشم الذي تكرس خلال ثلاثة أو أربعة أجيال فوراً، وبخاصة في عيون جماعات خارج مكة. فالكعبة بصفته المعبود الرئيسي والقديم، كانت مهمة جداً ومعروفة بصفته مركزاً للعبادة في كل أنحاء الجزيرة العربية،<sup>٢٥</sup> ومهمتا (السقاية وعمارة البيت) ذكرتا في القرآن الكريم.<sup>٢٦</sup> لقد كان تزويد الحاج بالماء عملاً مربحاً في مكة حيث الماء نادر، واشترك القوافل التجارية التي تحط في مكة بماء زمزم إلى جانب الحاج زاد في أرباح

القائمين بالعمل ، أي بني هاشم،<sup>٢٧</sup> لقد سجل المؤرخون القدامى بالتفصيل أثر الكعبة عن طريق توسع اتصالات المكيين بالعالم الأرحب من خلال مكة بصفته محطة القوافل التجارية القادمة من اليمن جنوباً، ومن دومة الجندل في أقصى الشمال ومن أماكن أخرى بعيدة وكذلك بسبب سوق عكاظ السنوي وهو أعظم أسواق (معرض) العرب يومئذ. وهكذا صار من الطبيعي أن الخدمة الشريفة المتصلة بالكعبة التي قدمها بنو هاشم لمدة طويلة قد وسعت انتشار شهرة وجلال العائلة مع مغادرة الحاج والقوافل التجارية لمكة. وهكذا نستطيع الاستنتاج أنه عند ظهور محمد كانت عائلته تحوز على مجد سلالة هاشم الكهنوتي العميق بعيداً في التاريخ رغم أنها فقدت بعض سلطتها السياسية وانحسرت ثروتها المادية. ومن الناحية النفسية على الأقل، فإن الأعمال والأفعال التي قام بها ثلاثة أجيال لا يمكن أن تختفي من وعي الناس البعيدين لجرد التراجع المفاجئ في الثروة والسلطة السياسية للعائلة عندئذ. لقد نظر العرب إلى بني هاشم باعتبارهم حماة المعبد (أهل البيت) في مكة.<sup>٢٨</sup>

واعتماداً على هذه الخلفية فإن محمداً فُض بصفته رسول الله وأحيا الدين الحقيقي (سنة إبراهيم وإسماعيل)،<sup>٢٩</sup> التي أفسدها الناس وانحرفت عبر القرون الخالية. لم يقر العرب أن إبراهيم هو أبوهم وقائدهم القبلي فقط، بل ومؤسس معبد الكعبة المكيّة أيضاً. ولم تكن هذه أسطورة مسلمين. لو لم تكن هذه الحقيقة شائعة بين الناس قبل بعثة محمد بزمان طويل، لما كان القرآن ذكرها وأكدها، ولما كانت زوايا مهمة من الكعبة نسبت لإبراهيم وإسماعيل.<sup>٣٠</sup> كان محمد واعياً تماماً بهذا التقليد عميق الجذور

المتصل بعلاقة إبراهيم بالكعبة عند جميع العرب عامة، وعند الأجيال الأربعة السابقة عليه وعلاقة هذه الأجيال بهذا التقليد. أقر ابن خلدون أن توارث القيادة في أجيال أربعة على التوالي كان شيئاً أكبر من الوصف لعظمة شرفه.

عند مناقشة خلافة محمد يجب أخذ جميع العوامل التي تمت مناقشتها سابقاً بعين الاعتبار. وكما أشرنا، هذه القضية لا يجوز أن تقتصر على المجتمع المكي في القرن السابع الميلادي، وذلك لأن الجماعة التي أقامها محمد كانت عند وفاته مؤلفة من خلفيات وقيم وأفكار متعددة قادمة من مختلف أنحاء الجزيرة العربية. ولذلك كان من الطبيعي أن ينظر أتباع محمد إلى مسألة خلافته من زوايا متعددة. أما طريقة حل القضية في سقيفة بني ساعدة فسوف نعرض لها فيما بعد. إنما من المهم ملاحظة أن طريقة الحل كانت متوافقة مع تقليد عريق وممارسة جماعية عربية، وعلى الأقل جماعة منهم.

تألفت أمة محمد من جماعتين رئيسيتين من العرب الأولى من عرب الشمال ووسط الجزيرة العربية، وكانت من بينهم قبيلة قريش وهي الأهم والمسيطرة، والثانية من عرب الجنوب أصلاً من بني قيلة ممثلة بفخذها الرئيسيين الأوس والخزرج وكانا يقطنان يثرب. وقد عرف عرب الجنوب (الأوس والخزرج) بالأنصار لأنهم قدموا الملجأ والمسكن لمحمد والاسلام في لحظات الشدة في بعثة النبي. والاختلافات في وجهات النظر جميعها تقريباً من الناحية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية والجغرافية وافترضاً العرقية بين عرب الشمال وعرب الجنوب كانت

معروفة لا تحتاج إلى مزيد من الشرح والتفصيل. جولدزهير<sup>٢٧</sup> ولهاوزن<sup>٢٨</sup> نيكلسون<sup>٢٩</sup> وغيرهم من الأساتذة المعروفين درسوا هذا الموضوع بعمق. وعلى كل حال، فإن اعتبار العرب جميعاً جماعة من ثقافة واحدة هو خطأ فادح. فما كانوا كذلك البتة. فقد كان عرب الشمال مقطوعين عن الوسط بصحراء، كما كان الجنوبيون منقطعين عن الوسط بالربع الحثلي. والاختلافات الجغرافية الواسعة والظروف الاقتصادية لعبت دوراً أكيداً في مختلف وجوه التطور للفرعين الأقربين.

فقد تطور عرب الشمال والوسط "الحجاز ومرتفعات نجد" بشكل مختلف عن عرب الجنوب اليمنيين من حيث الميزات الشخصية وأسلوب الحياة والمؤسسات الاجتماعية - السياسية والاجتماعية - الدينية. وكما تمايز الفرعان في كل مناحي الحياة فإنهما تمايزا كلٌّ عن الآخر في الأحاسيس الدينية والمشاعر. لقد ظهرت بين أكثرهم تقدماً وتخصراً من سكان مناطق الجنوب أفكار دينية واضحة بينما كانت بين عرب الشمال قليلة. فمثلاً أمير من عرب الجنوب نقش على نصب تذكاري شكره للآلهة التي نصرته على خصومه، كما نذر المقاتلون إقامة نصب للإله الذي يساعدهم في تحقيق انتصارهم. وعلى العموم فإن الشعور بالامتنان والتسليم للآلهة هو المحور الرئيسي للنصب في جنوب الجزيرة العربية. بينما افتخر عرب الشمال بشجاعتهم البطولية وإقدام رجائهم. ولم يشعروا بأنهم مضطرون لشكر قوى إلهية عند نجاحهم، رغم أنهم لم يرفضوا أبداً وجود هذه القوى.<sup>٣٠</sup> وحتى وجود شعور ديني فاطر بين عرب الشمال لا يمكن عزله عن تأثير عرب الجنوب الذين استوطنوا في الشمال<sup>٣١</sup> هذا الاختلاف

من حيث الأساس الدينية ظهر في أسلوب القيادة القبلية. ربما كان هناك أحياناً اعتبارات أخرى مثل النبل والشرف الموروث لكنها في الشمال أقل منها في الجنوب فقد كان عرب الجنوب معتادين على نظام القيادة الوراثية المبنية على القداسة الموروثة وبفضل هذه الحقيقة أبرز عرب الجنوب من الأوس والخزرج في المدينة مناخاً قابلاً للفهم بصورة أكثر يسراً من الوجهة الدينية الهامة في قضية خلافة محمد وبذلك نعتقد بأن معظم عرب الشمال فهموا الإسلام باعتباره على الأقل في أيامه الأولى عندما قبلوه - نظاماً سياسياً - اجتماعياً مبنياً على دين علمه النبي، فبدوا فاترين تجاه الأوامر الدينية. أما عرب الجنوب الأوس والخزرج فقد فهموا الإسلام بصفته مبدأ دينياً مقروناً بحركة اجتماعية - سياسية، ذلك لأنهم في ماضيهم الثقافي - برغم بعده - كانوا حساسين جداً بالدين. لقد كانت مسألة تأكيد في المقاربة والفهم - على الأقل - في الاستجابة الأولى.

عندما توفي محمد فاهتمت قضية خلافته على أنها تجمع الناحيتين: القيادية السياسية والدينية، وهذا المبدأ (مبدأ الجمع) كان معروفاً جداً لدى العرب، وطبيعياً مع تركيز متباين بين الناحيتين لهذه الجهة أو تلك. فبعضهم أراد التركيز على الناحية السياسية، وبعضهم الآخر أراد التركيز على الناحية الدينية أكثر من السياسية. الأغلبية من المسلمين، الذين قبلوا أبا بكر بسهولة، ركزوا أكثر على الجانب الاجتماعي - السياسي - بمعنى أنهم قبلوا بذلك بحسب الإجراءات المعتادة في الخلافة لمركز القيادة الشاغر مع تفسير جديد قدمه الخليفة الأول (أبو بكر)، كما نبحثه فيما

بعد. فهم أهلوا إلى حد بعيد، إن لم يكن كلياً، المبدأ الديني وفكرة القداسة الموروثة في بيت (سلالة) معين. هذا الافتراض يؤيده بقوة ما قاله عمر بن الخطاب لابن عباس : (إن القوم لا ترضى أن تجتمع النبوة والخلافة في بطن)<sup>٤٧</sup>

علينا أن نفترض أن عمر وأبا بكر كلاهما كانا واعيين لأهمية فكرة القداسة الموروثة التي تمسك بها الجزء الآخر من المسلمين. وفي الوقت عينه كانا متأكدين من أن ترك الباب مفتوحاً للجدل حول اختيار أبي بكر سيعرض وحدة الأمة لخطر أكيد وجسيم. ومع ذلك رأيا ضرورة التفريق بين الخلافة وكهانة (العناية) الكعبة، التي حفظت لبني هاشم بصفتها قداسة موروثة.

أما في الجانب الآخر من الأمة وبخاصة عرب الجنوب، فقد شعروا أن القيادة المكيّة مع حق الكهنوت (القيام بالشؤون الدينية) المقصور على الموروث في فتخذي بني عبد مناف كان من حق الهاشميين<sup>٤٨</sup> ذلك برغم أن بني أمية استولوا على المسائل السياسية أيام عبد المطلب. ولكن قوض محمد بصفته نبي الله والسلطة الأعلى في الجزيرة العربية أعاد القوة والسلطة لبني هاشم، تلك هي الحقيقة التي أقر بها أبو سفيان حين استسلم للنبي يوم فتح مكة. وكان الخيار الطبيعي المنطقي - بناءً على ما تقدم - عند بعض الصحابة أن الخليفة يجب أن يكون هاشمياً آخر، وأن قضية الخلافة بكاملها كانت عندهم هي مشكلة ذات طبيعة وأهمية دينية عظيمة. وبالإضافة إلى الفرصة السياسية السالمة، فإن اعتبارات دينية متجذرة بعمق يجب أخلاها بالحسبان كما رأى بعض الصحابة. هؤلاء

الذين ندعوهم بذوي الميول القانونية، لم يكن بإمكانهم الموافقة على التفسير الذي قدمه أبو بكر ومعاونوه، لأنهم - كما سنرى فيما بعد - فهموا قيادة الأمة على أنها منصب ديني فوق كل شيء. فهم فهموا أن محمداً كان مجدد دين إبراهيم وإسماعيل الحقيقي، ومعه وصلت القداسة الموروثة في عائلته ذروتها العليا. هذه الفكرة يؤيدها القرآن بقوله: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين).<sup>٩</sup> وقد أجمع مفسرو القرآن على أن محمداً إبراهيمي النسب وهو المقصود بهذه الآية. وهكذا عندما توفي محمد فإن خليفته يجب أن يكون من العائلة ذاتها ويمتلك الميزات عينها التي كانت لمحمد بموجب المبادئ عينها

على ضوء هذا الذي ذكرنا - ثمة ما يدعونا لملاحظة المفهوم القرآني للعائلات المفضلة وذات المقام الرفيع - والتي جاء فضلها عند الله من الأعمال الصالحة والخدمات التي قدمها أفرادها في سبيل الله. وفي كل العصور كان الأنبياء مهتمين بشكل خاص بأن يضمنوا فضل الله هداية البشر، وأن تبقى هذه المهمة (الهداية) في ذريتهم. ويردد القرآن حديث الأنبياء وهم يدعون الله لذريتهم ويسألونه أن تستمر هدايته في ذريتهم. وإجابة هذه الأدعية فإن آيات القرآن تشهد ببساطة أن فضل الله بقي في ذريتهم المباشرة، ودعتهم الآيات لحفظ عهد آبائهم وليبقوا قدوة لأتباعهم في تجسيد تقوى آبائهم وليتابعوا خطى الأنبياء أجدادهم. واستخدم القرآن للتعبير عن فضل الله في الذرية مصطلحات مثل ذرية، والأهل، والقربى.

لقد استخدمت كلمة ذرية في اثنتين وثلاثين آية من آيات القرآن الكريم. وقد وردت إما بشكل مباشر لتعبر عن حرص الأنبياء على أن تبقى ذريتهم على الصراط المستقيم، وإما لكي تستمر هدايتهم في ذريتهم. وغالباً ما استخدمت هذه الكلمة في آيات حيث قال الأنبياء أن الله اصطفاهم كي يكونوا قدوة في التقوى المبنية على أساس أنهم سلالة مباشرة لأنبياء سبقوهم. وورد اهتمام الأنبياء بذريتهم في الآية رقم ١٢٤ من سورة البقرة حيث يبلغ الله إبراهيم بقوله: (إني جاعلك للناس إماماً).

عندها طلب قائلاً: (ومن ذريتي؟) أجاب الله "لا ينال عهدي الظالمين" وفي آية أخرى نجد إبراهيم يدعو ربه قائلاً (ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون). وقد أجاب الله هذا الدعاء حين قال: (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم، ومن حملنا مع نوح، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبينا.) سورة مريم آية ٥٨

أما مصطلح (الآل) الذي يعني القرابة القريبة مثل الأولاد المباشرين للأب أو الأحفاد، أو أحفاد الأحفاد، فقد استخدمه القرآن ستاً وعشرين مرة فيما يخص سلالة الأنبياء أو خلفاءهم في هداية البشرية وبفضل خاص من الله.

أما فيما يخص محمداً وكونه من ذرية إبراهيم كما اقتبسنا سابقاً وهو (إن الله اصطفى ...) فنجد جوابه في الآية ٥٤ النساء (أم يحسدون الناس على



ما آتاهم الله من فضله، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً.)

أما مصطلح ( الأهل ) الذي استخدم مرات عديدة في القرآن فهو تقريباً بمعنى الآل مع توسع قليل، فهو يشير إلى أهل القرية أو جماعة، أو القوم أو الأتباع. أما عندما استخدمه بإضافته إلى البيت، فهو يشير إلى السلالة المباشرة لعائلة. وفي هذه الحالة، أي عندما يرد بصيغة (أهل البيت ) فهو يعني ذرية محمد المباشرين نجد ذلك حين يقول: ( إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ) الآية ٣٣ سورة الأحزاب. وقد أجمع مفسرو القرآن على أن أهل البيت المقصودين بهذه الآية هم: فاطمة بنت محمد وابن عمه علي بن أبي طالب وحفيدا محمد المفضلان الحسن والحسين.

أما المصطلح الرابع "قربى" فهو يعني قرابة الدم "الأبناء" وكما هي الحال مع مصطلح أهل البيت، فإن قربى استخدم ليندل على ذرية محمد المباشرين. يقول تعالى: (وذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى.) الشورى ٢٣

ومرة أخرى نواجه بإجماع المفسرين بأن "ذوي القربى" هم: فاطمة بنت محمد وعلي والحسن والحسين. والفارق الوحيد هو أن المفسرين السنة دمجوا زوجات النبي مع ذوي القربى، بينما استبعد المفسرون الشيعة الزوجات. ويصل مجموع الآيات القرآنية التي تذكر فضلاً خاصاً طلبه مختلف الأنبياء لذريتهم وأجيوا إليه إلى ما فوق مائة آية قرآنية. وبناءً على ذلك يمكن أن نصل إلى استنتاجين: إذا قبل المرء أن القرآن أوحى

بمصطلحات مفهومة في المناخ الثقافي للجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، فإنه يصبح من الواضح أن فكرة القداسة في عائلة النبي كانت مبدأ مقبولاً في ذلك الوقت. والأهم من ذلك هو أن حقيقة تكرار القرآن لهذه الفكرة ترك انطباعاً بين بعض المسلمين بأن عائلة محمد تمتعت بحق ديني خاص بها فوق الآخرين.

وبما أنه لم ينسب أي فضل ديني لفتحذ بني تيم بن مرة القرشي وهي عائلة أبي بكر، ولا لبني عدي بن كعب عائلة عمر بن الخطاب، فإن الذين أخذوا بالمبدأ الديني لا يمكنهم قبول ترشيح أي من أبي بكر وعمر لخلافة محمد، والمرشح المقبول يجب أن يأتي من الهاشميين وأبرزهم علي بن أبي طالب. فهو ولد حفيد هاشم وعبد المطلب وابن أبي طالب عم النبي الذي ربي وأحب وقدم محمد الرعاية الأبوية التي افتقدها النبي قبل مولده. وكان علي هو الأقرب للنبي الذي اعتنى به خلال القحط الذي ضرب مكة، وتبناه بصفته أخاً له قبل وبعد الهجرة.<sup>٥٠</sup> كان علي أول المسلمين من الذكور،<sup>٥١</sup> وخديجة زوج النبي أول النساء، وكان زوج فاطمة بنت الرسول الوحيدة التي عاشت بعده، وأم الحسين حفيدي النبي ورعيانته.

وهكذا يبدو أن هذه الميزات الشخصية الموروثة وقضائل الأعمال ضمنت لعلّي مقاماً فريداً متقدماً على جميع عائلات الصحابة، وجعلت جماعة من الصحابة يؤيدونه بحماسة خاصة ويخلصون في دعمهم له حتى خلال حياة النبي. وربما لهذا السبب ظهرت دعوى أن التشيع وجد خلال حياة النبي، وهذا ما يقوله بوضوح سعد الأشعري والنوبختي وهما من أوائل كتاب الفرق.<sup>٥٢</sup> ودعم فكرة أحقية علي بالخلافة سلسلة أحداث

حصلت خلال حياة النبي أظهر النبي على أثرها اعتبارات خاصة لعلي.  
نعرض هنا لأهمها وهي التي تشير لتصاعد هبة وفضل علي:

١ في أوائل البعثة: وبالتحديد بعد ثلاث سنوات من يدايتها وحين أنزل الله على نبيه محمد أمره "وانذر عشيرتك الأقربين" الشعراء ٢١٤  
جمع محمد ذرية عبد المطلب، وأخبرهم بالمهمة التي اختير لها، وطلب منهم التأييد والمساعدة لتعزيز دعوته، وبدلاً من ذلك تلقى محمد السخرية والازدراء منهم باستثناء علي، الذي برغم كونه في الثالثة عشرة من عمره قدم تأييده الخالص بحماس.<sup>٥٣</sup>

٢ إن الأخوة الدينية الخاصة جداً بين محمد وعلي التي ذكرناها سابقاً يجب أخذها بعين الاعتبار في سلسلة الأحداث هذه. فقد تبني النبي هذه الأخوة قبل وبعد الهجرة وما من مؤرخ كتب تلك الحقيقة.

٣ إن موقف علي رفع من مكانته في أعين الصحابة حين عينه النبي لحمل رايته في موقعي بدر وخيبر وغيرهما.<sup>٥٤</sup>

٤ إن تعيين علي باعتباره نائب النبي على المدينة عند غزوة تبوك، أكسب علياً مزيداً من الثقة. ففي هذه المناسبة ورد الحديث النبوي: "يا علي أنت مني بعزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبي بعدي"<sup>٥٥</sup> وقد أورد هذا الحديث جميع المؤرخين والمحدثين تقريباً، وعندما نرى محمداً يومئ إلى نفسه وبعثته بالمقارنة مع الرسل الكبار فإننا لا نجد حرجاً في قبول هذا الحديث. وفي سياقات عديدة من القرآن نجد ما يتناسب هذا الموضوع. مثلاً سأل موسى ربه أن:

"واجعل لي وزيراً من أهلي. هارون أخي. أشدد به أزري. وأشرکه في أمري." طه ٢٩-٣٢ إن مقارنة محمد نفسه بموسى لا تكتمل بدون هارون، ومن الواضح أن ذلك كان علي بن أبي طالب.

هـ وهناك حدث آخر على قدر كبير من الأهمية وهو سورة براءة. في العام التاسع للهجرة عين النبي أبا بكر لقيادة الحجاج إلى مكة، وبعد مغادرته نزلت سورة براءة التي تتحدث عن العلاقة مع المشركين، سأل أناس النبي إن كان سيرسل هذه السورة إلى أبي بكر ليلفها بالنيابة عن النبي أجاب النبي: "لا لن أرسلها إلا مع رجل من أهل بيتي." بعد ذلك دعا النبي علياً وقال له ارتحل على ناقتي إلى مكة حالاً وابلغ أهلها ما أروحي فيهم.

ليس ثمة خلفية جدية للشك بصدق هذه الأحداث، التي دونها كتاب من مختلف المدارس الفكرية، والتي تبدو مقنعة في سياقها. ومهما كان المرء حذراً وشكاكاً، فلا يمكنه تكذيب هذه الأحداث في فضل علي لأنها كانت منتشرة وسجلها معظم المؤرخين والمحدثين منذ زمن مبكر. ومن بين هذه الأحداث وأشهرها حديث غدير خم - ومع أنه موضوع جدل- والشيعية تنظر إليه ببالغ الأهمية، ولكن جرى تجاهله عن قصد. وغدير خم هو عبارة عن بركة ماء أو مستنقع وحوله بعض الأشجار، ويقع على بعد أميال قليلة على طريق مكة المدينة، ومنه يغادر الحاج كل نحو غايته. عندما كان محمد عائداً من حجة الوداع، توقف في غدير خم يوم ١٨ ذي الحجة ١٠ آذار مارس ٦٣٢م ليعلم أمام الحجاج الذين رافقوه من مكة، والذين كانوا يستعدون ليتفرقوا كل إلى غايته. ويأمر من محمد

كُسح له شجيرات وأقيمت فيما يشبه المنبر. وبعد صلاة الظهر صعد النبي على المنبر وخطب في الجمع في آخر خطاب عام له قبل وفاته بثلاثة أشهر. ثم أخذ بيد علي وسأل أتباعه قائلاً: "ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟" فأجابوه: بلى يا رسول الله. عندئذ أعلن قائلاً: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه".

أما فيما يخص مصداقية هذا الحدث فمن الصعب إنكارها أو مسألتها حتى من طرف أكثر السلطات السنية محافظة وهم الذين أوردوا هذا الحدث. ومن بينهم الإمام أحمد بن حنبل في مسنده والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبو داود وغالبية الخدثين الستة مثل ابن الأثير في أسد الغابة وابن عبد البر في الاستيعاب وتبعهم آخرون من كتاب السير وحتى ابن عبد ربه في العقد الفريد والجاحظ في رسالة العثمانية.<sup>٥٨</sup> وأحاديث الغدير رويت في معظم المصادر وشهد بصحتها مئات من الرواة من مختلف المذاهب، ومن العبث الشك في مصداقيتهم. فابن كثير<sup>٥٩</sup> وهو من أكثر المتحمسين لتأييد وجهة النظر السنية خصص لهذا الحديث سبع صفحات وجمع عدداً وفيراً من الأسانيد التي روت الحديث. ويخبرنا ابن كثير أن المؤرخ الشهير الطبري دونه في "كتاب الفضائل" وهو من جزأين لم يكتملاً وذكر ذلك أيضاً ياقوت في "الإرشاد" في فصل فضائل علي بن أبي طالب وذكر فيه حديث غدير خم. وسجل الأستاذ المعاصر حسين علي محفوظ في بحوثه الأخاذة عن حديث غدير خم وبتوثيق دقيق أن الحديث روي من طرف ١١٠ صحابياً و٤٨ تابعين و٣٥٥ عالماً و٢٥ مؤرخاً و٢٧ محدثاً و١١ مفسراً و١٨ متكلماً و٥ لغويين. ومعظمهم يحسبون من الستة.

ودرس كلُّ من هوروفتر<sup>١١</sup> وجولد زيهير<sup>١٢</sup> حديث الغدير وقالوا بأن أقدم دليل على هذا الحديث هو أبيات الكميّ بن زيد توفي ١٢٦ هجرية ٧٤٣م ولا يسانلان صحة الأبيات. ويرفض هذان الدارسان أي دليل قبل أبيات الكميّ على أساس افتراضهم المشكوك فيه بأن أبيات شاعر النبي حسّان بن ثابت التي قالها تلقائياً يوم الحدث ربما لم تكن أصلية. وعلى كل حال، فالمصادر الشيعة وبعض المصادر السنية تزعم أن أقدم دليل على صحة الحديث بيت حسّان بن ثابت الذي قاله على رضا من رسول الله،<sup>١٣</sup> حين كان المسلمون يهتنون علياً بتلك المناسبة. ومن غير المعقول أن يمر هذا الحدث الهام من دون أن يسجله حسّان وهو الشاعر الملازم للنبي آخذين في الاعتبار أن حسّان كان يرافق النبي في أولى حجّاته بعد الهجرة وحقيقة أن حسّان اعتاد أن ينظم الشعر ويلقيه في كل نشاطات النبي الهامة.

وعلى كل حال، فإن هذا الحديث والحدث لم يسجلا في المصادر المعتمدة عادة في دراسة سيرة النبي مثل سيرة ابن هشام والطبري وابن سعد. فهذه المصادر إما تصمت عن ذكر الحدث، أو تذكر توقف الرسول في غدير خم ولا تذكر الحديث. ويفسر فيثيا فاغليري موقف هؤلاء المؤرخين بقوله: "من الواضح أن هؤلاء خافوا من جلب عداوة الحكام السنة عليهم إذا ذكروا روايات تدعم موقف الشيعة الذين يستخدمون هذا الحديث لدعم قولهم في حق علي بالخلافة. وبالتالي فإن المستشرقين الذين يؤسسون دراستهم على هذه المصادر الثلاثة المألوفة لديهم لم يذكروا شيئاً عن غدير خم. ومع ذلك فإن من المؤكد أن محمداً توقف في

غدير خم وقال ما ذكرناه، لأن حديث الغدير حُفظ بالنص كما ذكر بتفاصيل وافية لا من طرف اليعقوبي المتعاطف مع قضية علي، وإنما في صحاح الأحاديث المعتمدة وبخاصة مسند أحمد بن حنبل وروايات الحديث متعددة وبأسانيد كثيرة لدرجة أصبح من المستحيل رفضه.

لم يكن مثار الجدل بين السنة والشيعة صحة حدث غدير خم، ولا إعلان الرسول حول ولاية علي - كما عرضنا سابقاً- وإنما كان الخلاف حول المعنى المقصود بكلمة "مولى" التي استعمالها النبي. لقد فهم الشيعة وبدون لبس أو إهمام إن كلمة مولى تعني قائد وميد ومهيمن patron وبالتالي وبوضوح "خليفة" النبي. أما السنة فقد فسروا مولى بمعنى الصديق والقريب والثقة. إن غنى المعنى في كلمة مولى، كما في كثير من معاني بعض الكلمات العربية وبالتالي السماح ببعض الإهمام، يسمح بقبول التفسيرين معاً. فبينما قبل السنة حديث الغدير، فسروه بأن ما قاله النبي يعني ببساطة حث أتباعه على تبجيل علي ومحبة باعتباره ابن عمه وزوج ابنته الوحيدة على قيد الحياة. وأكثر من ذلك، فسروا الظروف التي أوجبت فعل النبي بأنه رد على تدمير بعضهم من تعامل علي معهم بشدة وبدون تمييز بينهم عند تقسيم غنائم غزوة في اليمن التي حدثت تحت قيادة علي، ومن هناك عاد علي ومن معه لينضموا إلى النبي في مكة في موسم الحج. ولكي يزيل النبي هذا الإحساس السلبي تجاه صهره تحدث النبي بما قاله في غدير خم.<sup>٦٦</sup> وحتى مع قبولنا لهذا التفسير، فإن الحقيقة تبقى أن هذا الإعلان النبوي وبطريقة مدهشة وخارقة للعادة مساوياً بين علي ونفسه في السلطة يدعم أسس التفسير الشيعي.

إن تدقيق النظر في سمة الخلاف حول تفسير حديث غدير خم المذكور سابقاً يمكن أن يفهمه بعض صحابة النبي ليعني إشارة واضحة لميل محمد تجاه علي برغم أنه لم يكن من الممكن جعل هذا الإعلان أكثر وضوحاً ربما بسبب عادة عرب الشمال في ترك اختيار القائد للأتباع. ومن العوائق التي شاعت في وجه اختيار علي للخلافة كانت صغر سنّه يوم وفاة النبي. ولكن على كل حال، فإن مصادرنا تؤكد أنه بالرغم من أن "الندوة" وهي اجتماع وجهاء مكة قبل الإسلام لمناقشة الأمور الهامة، فإن هذه الندوة سمحت لنذرية قصي بحضورها والمساهمة في المناقشة بغض النظر عن أعمارهم، وأعتبر ذلك حقاً خاصاً بهم. وفي وقت متأخر حدث تنازل لبرالي صار عادة حين سمح لأي جهل بحضور الندوة رغم حداثة سنّه، وسمح للحكم بن حمزة بذلك وكانت سنّه خمسة عشر أو عشرين عاماً.<sup>٦٧</sup> يخبرنا ابن عبد ربه: "ما كان هناك ملك في مكة في الجاهلية. لذلك فعندما كانت الحرب تنشب، كان شيوخ بطون قريش يجتمعون ويختارون زعيماً بغض النظر عن سنّه شيخاً كان أم صيباً. وهكذا في يوم الفجار كان دور بني هاشم في القيادة ونتيجة المداولات اختير العباس وكان طفلاً وأجلس في مقعد القيادة."<sup>٦٨</sup> أما يوم وفاة النبي فكان عمر علي ثلاثة وثلاثين عاماً، وبعض المصادر ثبت عمره بأنه ستة وثلاثون عاماً.

وفي الختام، إن فكرة خلافة محمد كانت بشكل أساسي دينية وليست سياسية، وكان التصور العام أن قداسة بني هاشم بالإضافة إلى الأحداث التي جرت خلال حياة النبي وفضل علي أدت إلى تبلور الرأي عند العديد من الصحابة بأن الأصلح لخلافة محمد هو علي وذلك لإبقاء العهد سليماً



غير مخترق. وفي المجادلات الحامية في سقيفة بني ساعدة لم يتردد هؤلاء الصحابة في الإدلاء بآرائهم. ونتيجة الخلاف في السقيفة التي سناقشها الآن حددت بداية ما انتهى إلى تطور انقسام الأمة الدائم إلى السنة والشيعة.

## مراجع الفصل الأول

- ١- مونتغمري وات. الفكر السياسي الإسلامي. لندن ١٩٦٨ ص ٢٦ E
- ٢- معجم لين ج ٦ ص ١٦٣٢ E
- ٣- سابقه ص ٦٩ و ٩٣
- ٤- ابن قتيبة. رسائل البلاغة ص ٣٦٠
- ٥- الأغاني ج ١ ص ٤٥
- ٦- الأغاني ج ١ ص ٧٢ وياقوت الحموي. معجم البلدان ج ٣ ص ٥١٩
- ٧- الأغاني ج ٥ ص ٣٠٠
- ٨- ديوان النابغة الذبياني. تح. د. شكري فيصل. بيروت ١٩٦٨ ص ١٦٥
- ٩- الفضليات ٩٣ ج ١٤ وفي موسوعة الشعر العربي- الشعر الجاهلي. شركة نياط. بيروت ١٩٧٤ ص ١٧٠
- ١٠- الفضليات ٣١ ج ٤
- ١١- ابن قتيبة. سابقه ص ٣٤٨، العقد الفريد ج ٣ ص ٣٣٢
- ١٢- الأغاني ج ١ ص ٣١
- ١٣- عمر بن كلثوم. المعلقات، الفضليات، وزهير بن أبي سلمى. معلقات. والأغاني ج ١ ص ٣٠٠
- ١٤- ليلى. المعلقات وابن كلثوم. المعلقات أيضاً
- ١٥- الأغاني ج ١٣ ص ٣
- ١٦- ليلى. المعلقات
- ١٧- معجم لين ج ٥ ص ٢٠٢٠
- ١٨- ياقوت ج ١ ص ٣
- ١٩- القرآن مذكور في النص
- ٢٠- ابن هشام ج ١ ص ١٢٦ والعقد الفريد ج ٣ ص ٣٣٣

- ٢١- ر. سرجنت. الحرم والحوطة (الأرض المقدسة في الجزيرة العربية)  
 وأسباد حضر موت، مقال في مجلة مدرسة اللغات الشرقية. لندن عدد  
 ٢١، ١٩٥٧ وابن دريد، الاشتقاق ص ١٧٣ E-1
- ٢٢- ابن دريد ص ٢٣٨ والأغاني ج ١٩ العقد ج ٣ ص ٣٣١
- ٢٣- ابن هشام ج ١ ص ١٤٣ والعقد ج ٣ ص ٣١٣ و ٣٣٣
- ٢٤- دائرة المعارف الإسلامية. مقال "أهل البيت" وبيوتات العرب " E
- ٢٥- سرجت
- ٢٦- مونغمري وات. محمد في مكة. اكسفورد ١٩٥٣ ص ٣١. سرجت،  
 أسباد حضر موت ص ٧ E
- ٢٧- ابن هشام ج ١ ص ١٣١ الأزرقى، أخبار مكة ج ١ ص ٦٤، ابن سعد  
 ج ١ ص ٦٩. القد ج ٣ ص ٣١٢
- ٢٨- ابن سعد ج ١ ص ٧٤. الأزرقى ج ١ ص ٦٦ ويذكر أن عبد مناف لم  
 يستلم السقاية والرفادة فقط بل وقيادة مكة.
- ٢٩- ابن هشام ج ١ ص ١٢٣. ابن سعد ج ١ ص ٧٨. الأزرقى ج ١  
 ص ٦٧ ويقول أن السقاية والرفادة ذهبت لهاشم أما القيادة فصارت  
 لعبد شمس.
- ٣٠- ابن هشام الفهرس وابن سعد الطبقات
- ٣١- ابن هشام ج ١ ص ١٤ ابن سعد ج ١ ص ٨١
- ٣٢- وات. محمد في مكة ص ٣١
- ٣٣- ابن سعد ج ١ ص ٨٥. ابن هشام ج ١ ص ١٥٠
- ٣٤- دائرة المعارف الإسلامية، مقال "أبو طالب" E
- ٣٥- المعجم المفهرس لإلقاط القرآن
- ٣٦- سابقه
- ٣٧- انظر محمد حميد الله، الدولة المدينة في مكة ١٩٣٨ ص ٢٦٦
- ٣٨- ابن هشام ج ١ ص ١٤٥ الطبري ج ١ ص ٢٧٨٦
- ٣٩- القرآن ١١. ١٣٥-١٣٧

- ٤٠- القرآن ١١ ١٢٥
- ٤١- ابن خلدون من ترجمة كرم ج ١ ص ٢٨٩
- ٤٢- دراسات محمدية ترجمة ي. سترن وسي باربر لندن ١٩٦٨ ج ١ ص ٧٩
- E ١٠٠-
- ٤٣- المملكة العربية وسقوطها ترجمة م. وير weir كلكتا ١٩٢٧ E
- ٤٤- تاريخ الأدب العربي. كامبردج ١٩٦٩ ص ١ E
- ٤٥- جولد زيهير. دراسات إسلامية ج ١ ص ١٢-١٣
- ٤٦- سابقه ص ١٤
- ٤٧- الطبري ج ١ ص ٢٧٦٩
- ٤٨- كان معظم مؤيدي أحقية علي بالخلافة من عرب الجنوب أصلاً وكانوا واضحين في دفاعهم عن قضيه علي على أساس ديني.
- ٤٩- آل عمران آية ٣٣
- ٥٠- ابن هشام ج ١ ص ٢٦٢ البلازري ج ١ ص ٢٧٠ ابن حبيب، المحبر ص ٧٠
- ٥١- كان عمر علي عند بعثة محمد عشر سنوات، وكان أول من صلى مع محمد وخديجة. ابن هشام ج ١ ص ٢٦٢ أما البلازري فيقول إن الكتاب الأوائل الذين ذكروا أن أبا بكر كان أول المسلمين من الرجال قد فعلوا ذلك نظراً لأن علي كان بعد صغيراً. ج ١ ص ١١٢ أما ابن عبد البر في الاستيعاب فيروي عدة أحاديث بأسانيد مختلفة تؤكد الرأي القائل بأن علي أول ذكر اسلم وصلى مع النبي وخديجة إلا أن أبا بكر هو أول رجل أظهر اسلامه علناً. ج ٣ ص ١٠٩٠
- ٥٢- سعد الأشعري. الفرق ص ١٥ التوحيخي الفرق ص ٢٣
- ٥٣- المسعودي، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٧ وانظر أيضاً تفسير الطبري، وابن كثير، والتعالبي سورة ٢٦ آية ٢١٤
- ٥٤- ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٤ وج ٣ ص ٣٤٥ والاستيعاب ج ٣ ص ١٠٩٧ والعقد ج ٤ ص ٣١٢

- ٥٥- ابن هشام ج ٤ ص ١٦٣
- ٥٦- ابن هشام. الفهرس. صحيح البخاري ج ٢ ص ١٩٤ التوحي. الفرق  
ص ١٩ العقد ج ٤ ص ٣١١ والاستيعاب ج ٣ ص ١٠٩٩
- ٥٧- ابن هشام ج ٤ ص ١٩٠ وردده المؤرخون والمحدثون.
- ٥٨- انظر فيشيا فاعليري في مقاله "غدير خم، دائرة المعارف الإسلامية.  
حيث يذكر جميع المصادر ما عدا العقد الفريد. E
- ٥٩- البداية والنهاية. القاهرة ١٣٤٨هـ - ج ٥ ص ٢٠٨-٢١٤
- ٦٠- تاريخ الشيعة. كربلاء ص ٧٧ وفي العصر الحاضر ثمة أعمال بمجلدات  
تتحدث عن غدير خم مثل الغدير للأميني في ٣٨ مجلد. والموسوي في  
عقبات الأنوار ٣٤ مجلد وكلها تتحدث عن رواية الحديث
- ٦١- مقال "الكميت" في دائرة المعارف الإسلامية. E
- ٦٢- مقال "غدير خم" في دائرة المعارف الإسلامية قائمة المصادر
- ٦٣- الغدير، الأميني ج ١١ ص ٣٢. والعاملي، أعيان الشيعة ج ٣  
ص ٥٢٤-٥٣٢
- ٦٤- انظر الملاحظة رقم ٦٢
- ٦٥- ابن كثير. معجم
- ٦٦- سابقه
- ٦٧- الأزرقى. أخبار مكة ج ١ ص ٦٥ وابن دريد، الاشتقاق ص ٩٧
- ٦٨- العقد الفريد ج ٣ ص ٣١٥

## السقيفة: المظهرات الأولى

في أية محاولة لتحديد أصول التشيع في الإسلام، على المرء أن يحاول فحص تفاصيل أقدم الأحداث المتزامنة مع هذه الأصول. وإن تاريخ أي شعب ومن كل الجوانب سواء أكانت سياسية أو ثقافية أو دينية أو تنظيمية هو استمرارية غير متقطعة، ولا يمكن فهم أي منظمة سياسية أو دينية بدقة ولا حتى أي رأي خاص ضمن تقليد ديني ما بدون الرجوع إلى ظهوره الأول الملموس. فمن الناحية التاريخية إن حدث السقيفة مرتبط بصورة وثيقة بظهور وجهة النظر الشيعية. السقيفة- كما سميت بعد الحدث- هي قاعة اجتماع قديمة في المدينة اعتاد الناس الاجتماع فيها لمناقشة وحل مشاكلهم الجدية. وهناك اجتماع أهل المدينة لاختيار قائد "أمير" فور وصول أخبار وفاة النبي. وقامت جماعة من المهاجرين بإجبار الأنصار على القبول برغبتهم ومبايعة أبي بكر أميراً وحيداً للجماعة الإسلامية. وفي هذا الاجتماع ارتفعت الأصوات تأييداً لحق علي في الخلافة؛ ولذلك يجب اعتبار حدث السقيفة المولد الأصلي لأول انقسام بين المسلمين. وإن تجاهل هذا الحدث سيقود بالتأكيد إلى سوء فهم لأصول التشيع وإلى استنتاجات خاطئة. وهكذا فإن الإلزام التاريخي يضطر الباحث إلى فحص مجريات السقيفة ومحاولة توثيق النقاط التي أثبتت يومها وتجسدت في نهاية المطاف بتأسيس المبدأ الشيعي في الإسلام. ثمة مشكلة ذات طابع ناتج عن كتابات الفرق يجب أخذها بالاعتبار بصورة جدية قبل أية محاولة لبيان الخطوط العريضة لحدث السقيفة. ربما

كان من المهم التساؤل عن مصداقية الروايات لتأكيد التفاصيل الصحيحة لما حدث في اختيار الخليفة الأول للنبي. إن الطبيعة الجدلية لهذا الموضوع نفسه والصعوبة الكامنة في مصادر الموضوع تجعل هذا البحث من الصعوبة بمكان وتصبح الصعوبة أكثر تعقيداً عندما نعرف أن الروايات الأقدم للحدث أعيدت كتابتها بعد قرن ونصف القرن من الهجرة، وذلك خلال حكم الخليفين الأولين من خلفاء بني العباس (حكما ما بين ١٣٢-١٥٨ هـ). في هذا الوقت تعمق الانقسام في صفوف المسلمين ما بين سنة وشيعة، وبدأ الطرفان يتهمان بعضهما بعضاً بالخروج على الإسلام الصحيح. في ظل هذه الظروف يبدو من المحتمل جداً أن مختلف الروايات التي تصف مجريات اختيار أبي بكر بدأت تظهر وتنتشر وكل منها كتب بحسب اهتمام وميول كاتبها. وبالتالي، ربما شك الباحث في روايات المؤرخين المتعاطفين مع وجهة النظر الشيعية مثل ابن إسحاق واليعقوبي والمسعودي، وبالمقابل في كتابات ابن سعد والبلاذري وحتى الطبري باعتبارهم يكتبون وجهة النظر السنية. ومع ذلك، فإن تدقيقاً عميقاً في المصادر المبكرة التي ذكرناها يُظهر أن حدث السقيفة روي بخطوطه الأساسية ونقاطه الجوهرية بتشابه قريب فيما عدا الاختلاف في بعض التفاصيل، وفي التأكيد على محتويات الرواية وأي الروايات أكثر دقة. هذه الاختلافات ناجمة عن ميول الكتاب بشكل واضح أو عن ميول من أخبرهم الروايات، ويمكن تمييز ذلك لكن بصعوبة أكيدة. كما يسهل تمييز الكتابات المتحيزة بشكل واضح عند مقارنتها بروايات أخرى. ولدراسة من هذا القبيل سيكون من الأصح أخذ وفحص أقدم رواية

معروفة بتماسكها كأساس للمقارنة مع ما ذُوت من روايات أخرى. إن أقدم رواية موجودة نقلت سلسلة أحداث السقيفة هي رواية محمد بن إسحاق بن ياسر (٨٥-١٥١ هـ - ٧٠٤ - ٧٦٨ م) "سيرة رسول الله" وهي كما يدل اسمها سيرة حياة النبي محمد. تقدم هذه الرواية -برغم قصرها وإيجازها- كل المعلومات الجوهرية تقريباً عن الحدث من غير تطرق إلى كثير من التفاصيل وإلى الروايات المتباينة التي دونها مؤرخون أعقبوا ابن إسحاق مباشرة. وقصر رواية ابن إسحاق يعود إلى أنها تتناول سيرة وأعمال النبي بشكل أساسي. وهكذا صار حدث السقيفة خارج نطاق السيرة، وإذا كان الحدث قد ورد في السيرة فالسبب يعود إلى أنه حدث قبل دفن جثمان النبي. وهذا الأمر واضح من ترتيب الفصول الأخيرة من السيرة التي ترد كما يلي: ١- مرض النبي. ٢- وفاته. ٣- أمر سقيفة بني ساعدة. ٤- تحضيرات الجنازة ودفن النبي.

بدأ ابن إسحاق روايته للحدث بأسطر قليلة، ومن غير ذكر سنده.<sup>١</sup> وهذه هي طريقة ابن إسحاق حيث يعتمد إلى ذكر حديث جماعي بضم روايات مختلفة في حديث واحد بسيط يقوم بدور المقدمة للرواية التفصيلية التي تليه. وهو بذلك يثبت ولاءه لمعلمه الزهري الذي اعتاد ذكر الحديث الجماعي.<sup>٢</sup> (نص واحد مؤلف من عدة روايات) فالذي يظهر على أنه مقطع تقديمي في رواية السقيفة عند ابن إسحاق، ورواه الآخرون بروايات متعددة الإسناد (الإسناد هو سلسلة الرواة)، وبكلمات واستطرادات متغايرة. فبعد مقدمة ابن إسحاق الوجيزة روى كامل الحدث في رواية واحدة بإطالة ملحوظة، تصل إلى ثلاث صفحات ونصف



الصفحة تقريباً،<sup>٢</sup> وتغطي جميع النقاط الجوهرية للحدث. وهذه الرواية تستحق بعض التحفظات.

أولاً: ترد الرواية كاملة بكلمات مقتبسة عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في إحدى خطب الجمعة في جامع المدينة. وكان عمر دقيقاً في مراقبة الصيغ والأشكال الدينية، ومن الضروري أن صلاة الجمعة حضرها عدد كبير من أهل المدينة، وأن عرضه للموضوع انتشر بين المهاجرين والأنصار وهذا ما يجعل روايته عصية على التزوير في وقت لاحق.

ثانياً: هذه الخطبة رواها وأجمع عليها معظم المؤرخين الذين أعقبوا ابن إسحاق مثل الطبري وحتى البلاذري الذي كان يختار غالباً ما يدونه لكي يؤيد وجهة نظر السنة من معاصريه.

ثالثاً: من المؤكد أن عمر قام بالدور الأكثر أهمية في اللحظة الحاسمة، وأخذ المبادرة في تقرير مصير الحدث، وكان بالفعل القوة المحركة في اختيار أبي بكر. وقبلت روايته بالإجماع وبكلماته نفسه وصارت ذات أهمية تاريخية عظيمة. ولحسن الحظ بدأ ابن إسحاق روايته بتقديم كلماته: "فيما يخص أحداث السقيفة حدثني عبد الله بن أبي بكر ويشير هذا إلى أن ابن إسحاق كان واعياً لروايات أخرى غير رواية عمر وأكثر تفصيلاً، ولكن للإختصار أخذ إحدى الروايات التي اعتقد أنها الأكثر مصداقية وتفصيلها كافية لتغطية الحدث كاملاً.

إسناد حديث ابن إسحاق هذا إسناد مباشر وقصير ومعتمد على مخبرين من المدينة المنورة فقط، وبدأه ابن إسحاق بفعل توكيدي هو "حدثني"

وعلى اتصال شخصي مباشر. والإسناد هو كما يلي "حدثني عبد الله بن أبي بكر عن (١) ابن شهاب الزهري عن (٢) عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود عن (٣) عبد الله بن عباس. "وعبد الله بن أبي بكر (٤) ولد حوالي ٦٠ هـ - ٦٧٩ م وتوفي حوالي ١٣٠ هـ - ٧٤٧ م والزهري ولد حوالي ٥١ هـ - ٦٧١ م وتوفي ١٢٤ هـ - ٧٤٢ م كلاهما ينتمي إلى الجيل الثالث (تابع التابعين) بعد النبي، والجيل الثاني من جيل المحدثين. وكلّ منهما كان من رواد مدوني الوقائع الرسمية للمسلمين، وتلقى معلوماته من التابعين الذين كانوا من شهود الوقائع في سني عمرهم الأولى، أو تلقوا معلوماتهم من صحابة النبي. وبالعودة إلى بحوث نية آبت Nabia Abbott الحديثة في التاريخ الإسلامي وآخرين، توفر لدينا وبدون أدنى شك تاريخ حياة وغزوات النبي معروف بشكل عام بـ"سيرة"، وما تبعه من أحداث، صارت موضوعاً لبحث تاريخي بدأ مع الجيل الذي تلا جيل النبي (التابعون). ومن الأسماء ذات الصلة بهذا التاريخ ظهرت أسماء مثل أبان<sup>٥</sup> (٢٠-١٠٠ هـ - ٦٤١-٧١٩) بن الخليفة عثمان بن عفان؛ وعروة بن الزبير بن العوام<sup>٦</sup> (٢٣-٩٤ هـ - ٦٤٤-٧١٢ م)؛ وهب بن منبه<sup>٧</sup> (٣٤-١١٠ هـ - ٦٥٤-٧٢٨ م) وآخرين. هذا الاهتمام بالتدوين التاريخي أدى إلى ظهور قوة دافعة عظيمة عند الجيل الثالث (تابعي التابعين) ووصل ذروته في أعمال السيرة أو المغازي لاثنتين من الرواد ومعلمي ابن إسحاق هما عبد الله بن أبي بكر والزهري. والآن، أصبح من المعقول افتراض أن هذين الرائدين في كتابة تاريخ الإسلام اهتمتا بحدث السقيفة، الذي كان بدون شك أهم الأحداث

التي حصلت عند وفاة مؤسس الإسلام "محمد" وعلى المستوى ذاته يمكن افتراض أن ابن إسحاق فضّل أن يروي الحدث كما وصله من استاذيه المقربين والمحترمين بدلاً من أخذه من مصادر أخرى، وبخاصة لأن اهتمامه كان مقصوراً على الأحداث التي تتصل بوفاة النبي. كما أنه من المهم أن روايات هذين المصدرين (الزهري وابن أبي بكر) ظهرت في جميع الكتب التي تصف حدث السقيفة. فالبلادري والطبري الذين لا يقصران اهتمامهما على حدث السقيفة ذاته وصلته بوفاة النبي، يقتسان من هذين المصدرين عينهما في روايتهما، ويعتبران حدث السقيفة الحدث الأهم في التاريخ الإسلامي.

إن مصدر رواية ابن إسحاق ورواية الزهري هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وهو أحد أربعة معلمين محترمين وثقة عند الزهري. وهؤلاء الأربعة هم سعيد بن المسيب<sup>١١</sup> (توفي ٩٤هـ - ٧١٢م) وقد أمضى الزهري عشرة أعوام يتعلم منه، وعروة بن الزبير وأبان بن عثمان وعبيد الله بن عبد الله. وجميع هؤلاء الأربعة ثقات في الفقه والسير والمغازي. وغالباً ما أخذ عنهم الزهري معبراً عن تقديره العالي لهم، وقد وصفهم بأنهم "أركان العلم الأربعة"، و"بحار قریش الأربعة"<sup>١٢</sup> وأربعتهم - ما عدا أبان - هم أيضاً من بين الفقهاء السبعة المشهورين في المدينة. وجميع هؤلاء الأربعة عُذّوا ممن ترك أعمالاً مكتوبة للأجيال القادمة بالإضافة لما نقلوه شفهيّاً لتلامذتهم. واهتمامنا هؤلاء المؤرخين اللامعين في التاريخ الإسلامي لا يعود إلى حقيقة أن أحدهم يظهر في إسناد ابن إسحاق فقط، بل لأن أسماءهم تتكرر في كثير من إسناد مؤرخين آخرين لحدث السقيفة.

ولابد من ذكر شيء يسير عن عبد الله بن عباس<sup>١٣</sup> (ولد قبل ثلاثة أعوام من الهجرة وتوفي ٦٨هـ - ٦٨٧م)، وهو الذي يظهر بصفته المصدر الأخير في رواية ابن إسحاق، وفي كثير من روايات السقيفة التي نقلت رواية ابن إسحاق. ويكفي أن أنه يجعل دائماً باعتباره أحد أصدق الثقات دائماً ومن طرف كل المذاهب الإسلامية، ليس في علم تفسير القرآن فقط بل وفي فروع المعرفة الأخرى التي نمت وتطورت في المدينة. ولقد كان في الحقيقة أحد المؤسسين المتميزين لمدرسة المدينة العلمية وأستاذها، وهي التي اهتمت بشكل أساسي بالعلوم الدينية. لقد قيل صدقه ونقل عنه كل من البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه (أصحاب كتب الحديث الصحاح الستة لدى الفريق المسلم السني) وكذلك آخرون. وفي بحثه المعهود منه جمع معلوماته الخاصة بحياة الرسول بسؤاله صغار senior الصحابة.<sup>١٤</sup> إنه لم يشهد حدث السقيفة حين كان يافعاً فحسب، ولكنه أيضاً حفظ ما سمعه من والده العباس عم النبي وهو بدون شك من الشخصيات الهامة التي شاركت بالجدل الحاد الذي عمّ المدينة فور وفاة النبي. ولهذا فليس من العجب أن يظهر أسم عبد الله بن العباس في جميع الروايات التاريخية لأحداث تلك الفترة، وبخاصة الروايات التي تتحدث عن السقيفة.

والمؤلف الثاني المعروف والذي اهتم بحدث السقيفة هو عبد الله محمد بن سعد (ولد حوالي ١٦٨هـ - ٧٨٤م) وهو صاحب الكتاب المنظم المشهور والواسع في التراجم، "الطبقات الكبرى"، وهذا الكتاب يتحدث عن سير الشخصيات الهامة بداية من شخصية النبي محمد وحتى وفاة المؤلف عام

٢٣٠هـ - ٨٤٥ م. وفي ترتيبه لمواد الكتاب يتحدث بالتفصيل عن حياة وأعمال الجيل الأول من المسلمين، وبخاصة الصحابة والمقرين منهم إلى النبي. ويتوقع المرء منه بينما كان يدون سيرة أبي بكر في إحدى وأربعين صفحة<sup>١٥</sup> أن يناقش حدث السقيفة بتفصيل أكثر مما فعل سلفه ابن إسحاق. ومع أن حدث السقيفة يبدو كما يتوقع الباحث أحد أهم وأخطر الأحداث في حياة أبي بكر كلها، فمن العجب أن ابن سعد يبدو غير مكثرت بمجرياته البتة. لقد حاول طمس جميع الروايات التي تبين الجدل الذي دار يوم اختيار أبي بكر، وبعبارة اختار الروايات التي تُعلي شأن أبي بكر فقط وتُظهر مؤهلاته لقيادة الأمة يوم وفاة الرسول. واستجمع كل أفكاره المدح وتمجيد وتعداد ميزات وفضائل الخليفة الأول وخدماته للإسلام وكل ما يؤهله ليخلف محمد فوراً. وبالفعل، فإنه يستخدم التكتيك نفسه عندما يكتب سيرة علي ليظهر أن علياً كان أفضل مرشح للخلافة في زمانه (وقت اختيار علي للخلافة عقب مقتل عثمان). وبذلك برهن على أنه الممثل الحقيقي للتقليد السني في الإسلام خلال القرن الثالث الهجري، وكذلك ممثل تقوى أهل المدينة المستسلمة وكلاهما أسس على عقيدة المرجئة. هذه العقيدة التي نُظمت ونُقيت وطُورت في القرن الثالث الهجري توجب على المسلم الابتعاد عن أية مناقشة تضر ببريق وسمعة واحترام وشرف شخصيات الإسلام الأولى وبخاصة احترام الصحابة. كل من يقرأ ما كتبه ابن سعد عن أبي بكر يدرك أنه اهتم بإبراز الصفات والفضائل التي استحوز عليها أبو بكر.

وإن نظرة سريعة لما أدرجه ابن سعد في كتابة هذا الموضوع تظهر رغبته بالكيفية التي يريد لقارئه أن يرى أحداث السقيفة من خلالها.

يبدأ ابن سعد بكتابة صفحتين عن بني تميم الفخذ (البطن) من قريش الذي كانت أسرة أبي بكر تنزعمه وعن اسم أبي بكر وعائلته ولقبه. وفي هذه السيرة يركز ابن سعد على لقبه "الصدّيق" ويدخل حديثاً يقول فيه أنه على أثر معراج محمد إلى السماء، خاف محمد تكذيب الناس معراجهم، عندئذ تدخل الملاك جبرائيل وأكد له أن أبا بكر سيقبل الرواية عن المعراج لأنه "الصدّيق" في المقطع الثاني يضع ابن سعد عنواناً يقول: "إسلام أبي بكر"،<sup>١٧</sup> يحتوي هذا المقطع على خمسة أحاديث تؤكد أن أبا بكر كان أول المسلمين من الرجال، ويتجاهل تماماً الأحاديث الكثيرة التي تؤكد أن علياً كان الأول. يتبع ذلك المقطع الثالث وعنوانه "وصف الكهف والهجرة إلى المدينة"،<sup>١٨</sup> ويورد ستة وعشرين حديثاً حوله. وهذه الأحاديث تؤكد الصداقة الحميمة بين أبي بكر ومحمد، حيث كان أبو بكر "أحد اثنين" حين التجأ محمد إلى غار ثور في طريق هجرته من مكة إلى المدينة، وهذا ما يعني أن خدمات أبي بكر كانت كبيرة جداً في اللحظة الحرجة. ثم بعد ذلك يروي عدة أحاديث تخص أبا بكر وإقامته في المدينة، ومؤاخاته مع عمر بن الخطاب في الإيمان، وإعلان النبي أن أبا بكر وعمر هما قائد الرجل في الجنة فيما عدا الأنبياء والرسل. ثم يتبع ذلك بحديث ذكر فيه الفضل الذي أولاه محمد لأبي بكر حين أمره أن يبني بيتاً ملاصقاً لمسجد النبي في المدينة، حين منع الرسول الآخرين من فعل ذلك، وأن أبا بكر حمى الرسول في كل الغزوات، وكيف أن الرسول حملته الراية في

غزوة تبوك. والأحاديث الخمسة الأخيرة في هذا المقطع تدور حول قول محمد: "لو كنت متخذاً خليلاً من أمي لاتخذت أبا بكر خليلاً." و"سأل عمرو بن العاص قال: قلت يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة. قلت: إنما أعني من الرجال، قال أبوها." أما المقطع الرابع فجعل له عنواناً: "ذكر الصلاة التي أمر رسول الله عليه وسلم أبا بكر بها عند وفاته." ولعل هذا العنوان أهم إشارة إلى موقفه. ويروي ابن سعد عشرة أحاديث، الخمسة الأولى منها تصف إصرار النبي على أن أبا بكر لا غيره يجب أن يؤم الصلاة مادام محمد مريضاً. أما الأحاديث الثلاثة التي تليها فتصف طلب الرسول أدوات الكتابة ليكتب وصيته "لأكتب لأبي بكر كتاباً لا يُخلف عليه. فذهب عبد الرحمن ليقوم فقال: اجلس أباي الله والمؤمنون أن يُخلف على أبي بكر". وفي الحديث التاسع فيسر كما يلي: "عن أبي ملكيه قال سمعت عائشة وسلت يا أم المؤمنين من كان رسول الله مستخلفاً لو استخلف؟ قالت: أبا بكر. ثم قيل لها من بعد أبي بكر؟ قالت: عمر. ثم قيل لها: من بعد عمر؟ قالت: أبا عبيدة بن الجراح." ثم ضمت السائل. وينتهي المقطع بالحديث العاشر الذي يجري كما يلي: "عن أبي معشر عن محمد بن قيس قال: اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر يوماً فكان إذا وجد خفة صلى، وإذا ثقل صلى أبو بكر." ومن الجدير بالملاحظة هنا أن الأحاديث العشرة ما عدا اثنين رويت عن عائشة ابنة أبي بكر ومنافستها لفاطمة بنت محمد وزوجها علي أشهر من أن تحفى.

إن كل من يقرأ هذا المقطع من ابن سعد سيدرك فوراً أن ابن سعد كان ينفذ مهمة موضوعة أمامه ويعهده. لقد تم تخطيط كتابة هذا المقطع بعناية كي يظهر أن ما أبداه النبي من تفضيل لأبي بكر هو إشارة بعيدة عن الشك بأن أبا بكر هو المرشح الوحيد لخلافة النبي. ويغدو ابن سعد عجباً حتى أنه تخلّى عن الموضوع الأساسي في الفصل، وفي الحديث الثاني الذي كان يجب أن يدرج تحت عنوان أحداث السقيفة فيصف جدال عمر مع الأنصار في فضل أبي بكر، والذي بناه عمر على أن أبا بكر أمّ الناس في الصلاة. ونص الحديث كما يلي: " لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت الأنصار: منّا أمير ومنكم أمير، قال فأتاهم عمر فقال: معشر الأنصار أستم تعلمون أن رسول الله أمر أبا بكر أن يصلي بالناس؟ قالوا: بلى، قال: فأياكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ قالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر.<sup>٢١</sup>

بعد هذا الفصل جاء ابن سعد إلى حدث السقيفة. وعلى خلاف المؤرخين سابقه ولاحقه لم يسم هذا الفصل "أمر السقيفة، وإنما دعاه: "ذكر بيعة أبي بكر". لن يخطئ المرء حين يرى أن ابن سعد أعد الفصول الأربعة السابقة لتهيئة القارئ نفسياً ليقبل روايته بأن بيعة أبي بكر تمت بغير جدل وعلى أساس جدارته وميزاته التي عددها ابن سعد في الفصول الأربعة السابقة. وفي موضوع السقيفة يورد ابن سعد خمسة عشر حديثاً<sup>٢٢</sup> منها ستة أحاديث ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة بموضوع السقيفة. وفي الحديث الأول: "أتى عمر أبا عبيدة بن الجراح فقال: ابسط يدك فلأبأبعك فإنك أمين هذه الأمة على لسان رسول الله، فقال أبو عبيدة



لعمر: ما رأيت لك فهة (ضلالة) قبلها منذ أسلمت— أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين؟" والحديث الثاني مماثل تقريباً. أما الحديث الثالث فهو مثال خاص يتعامل ابن سعد مع هذا الموضوع. في هذا الحديث يقتطف ابن سعد جملاً قصيرة من الحديث الطويل الذي رواه ابن إسحاق والآخرين على شكل خطبة عمر في مسجد المدينة. أما مقتطفات ابن سعد فهي: "سمعت عمر بن الخطاب، وذكر بيعة أبي بكر فقال: وليس فيكم من يُقَطَّعُ إليه الأعناق مثل أبي بكر" وفي الحديث الرابع لم يستطع ابن سعد تجاهل الجدل الذي دار حول المسألة، ولكنه عرض الجدل بأنه في فضل أبي بكر.<sup>٢٣</sup> والحديث كما يلي: "لما أبطأ الناس عن أبي بكر قال: من أحقّ بهذا الأمر مني؟ أأست أول من صلى؟ أأست أأست؟ قال فذكر خصالاً فعلها مع النبي." الحديث الخامس وهو الوحيد المروي عن حفيد أبي بكر القاسم بن محمد بن أبي بكر ويذكر فيه أمر السقيفة. وهو مختصر سريع في سبعة أسطر، وبقية الحديث تتحدث عن ما وزعه أبو بكر إثر مبايعته، أما الأحاديث الباقية فإن من الصعب أن تجد فيها شيئاً ذا صلة بشأن السقيفة، وإنما تتحدث عن فضائل أبي بكر وإخلاصه وتقواه.

لسنا بحاجة لمتابعة تعليقنا على تعامل ابن سعد مع حدث السقيفة. ويكفي القول أن ما ورد في طبقات ابن سعد من ذكر الجدل في السقيفة كان بعيداً عن طبيعة البحث التاريخي. ومع ذلك لا يمكننا تجاهل ابن سعد بصفته من المؤرخين المبكرين في تاريخ المسلمين. إنه من المرجعيات التاريخية في وقته، وعمل مدرسة في التراجم التقليدية ذات الأهمية البالغة؛ ولا يصح تجاهله عند دراسة شأن السقيفة. يبلغ ابن سعد أهميته أيضاً

عندما نلاحظ تمسكه المخلص بالتكنيك (الأسلوب) التقليدي، ونعلم أن مدوناته تبنّاها الذين جاؤوا بعده. إنه يمثل المدرسة التي سيطرت على تطور المفهوم السني للإسلام. إن عرضه لموضوع السقيفة يقود قارئه ليعتقد أن اختيار أبي بكر تم بيسر ومن دون أية معارضة أو جدل وأن اختياره جرى بتلقائية وقبله الجميع فوراً بما في ذلك عليّ بن أبي طالب الذي أقرّ بعلو مكانته وجدارته لهذه الخلافة.

نعود الآن إلى معاصر ابن سعد الأصغر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري<sup>٢٩</sup> (توفي ٢٧٩هـ - ٨٩٣ م) وكتابه الضخم "أنساب الأشراف" وربما كان هذا الكتاب أهم عمل في التراجم التاريخية خلال القرن الثالث الهجري. فمن جهة أولى اتبع البلاذري تكنيك ابن سعد ونقل معظم رواياته، ومن جهة ثانية يتعمق أكثر منه ويجمع كل رواية يُحتمل أن تكون ذات صلة بحدث السقيفة ومن مصادر متنوعة ووجهات نظر مختلفة. فبينما اعتمد ابن سعد بشكل رئيسي على أخبار أهل المدينة، فإن البلاذري يجدهم غير مقنعين، لذلك يذهب أبعد وغالباً ما يقتبس المدائني الذي يتخذ موقفاً وسطاً بين المحدثين الكوفيين والمدنيين. كما أنه يروي عن ابن الكلبي وأبي معشر وأعرانا وفي حالتين على الأقل يروي عن شيعي هو أبو مخنف.<sup>٣٠</sup> وبذلك أراد أن يظهر اهتمامه التاريخي في تحري ما حصل في السقيفة وأهمية هذا الحدث في حوليات (التأريخ بالسنوات) التاريخ الإسلامي المبكر، والموقف الورع الذي كان يطغى على مدرسة المدينة وبخاصة عند الحديث عن الاختلافات بين كبار الصحابة الذي لم يكن بارزاً كثيراً عند

المؤلفين الكوفيين والبصريين ذوي الميول التاريخية. وكون البلاذري من هذا الرعيل يجعله ذا أهمية معتبرة لهذا البحث.

في خطة البلاذري لمعالجة موضوع السقيفة اتبع خطوات مماثلة لتلك التي درج عليها ابن سعد في متابعته للأحداث المرتبطة بوفاة النبي. فتحت عنوان "أمر السقيفة"، دون البلاذري ما مجموعه ثلاثة وثلاثون حديثاً. سبعة من هذه الأحاديث مطابقة تماماً لما ورد عند ابن سعد. ويظهر البلاذري بذلك احترامه الكبير لمعاصره الأسن الذي يقتبسه بقوله: "حدثني" مشيراً بذلك إلى أنه لم ينقل عن الطبقات (كتاب ابن سعد)، بل استملى منه شخصياً. وتحدث الأحاديث الستة والعشرون الباقية عن الجدل حول موضوع الخلافة والمناقشات الحامية التي حصلت في السقيفة، والمنافسة بين المهاجرين والأنصار، واحتجاج علي على الاختيار، ومعارضة بني هاشم وبعض الأنصار لأبي بكر، وقول أبي بكر نفسه بأنه لم يكن أفضل المرشحين، ولكنه قبل الخلافة لينقذ الأمة من الفتنة. وأخذ البلاذري أحد عشر حديثاً عن المدائني (واسمه علي بن محمد المدائني) الذي غالباً ما ينقل عن الزهري الذي أخذ عن "بحار قريش الأربعة" الذين ذكرناهم سابقاً.<sup>٢٨</sup>

والقضية المفيدة في هذه الأحاديث الستة والعشرين هي: ١- أنها تروي وتصف النقاش الجدلي الذي دار في السقيفة كاملاً، ٢- أن أبا سفيان الأموي عرض مساعدة علي الهاشمي؛ ٣- تورد عبارة أبي بكر التي تقول أنه لم يكن أفضل المرشحين ولكنه قبل الخلافة لتجنب الفتنة؛ ٤- تنقل جزءاً من خطبة عمر التي ذكر فيها: "كانت بيعة أبي بكر فتنة وقى الله

شرها"، كل ذلك رواه البلاذري عن ابن سعد مباشرة لقوله "حدثني" وعرف ابن سعد هذه الأحاديث ووجدها هامة بما يكفي لينقلها إلى البلاذري، ولكنه هو نفسه كره أن يثبتها في طبقاته.

أورد البلاذري خطبة عمر الطويلة التي تصف السقيفة بكاملها بما في ذلك ما ورد في رواية ابن إسحاق، كما رأينا سابقاً، بثلاث روايات؛ أولاً الحديث رقم ١١٧٣ عن ابن سعد ونصه: "سمعت عمر بن الخطاب وذكر بيعة أبي بكر، فقال: وليس فيكم من تمد إليه الأعناق - أو قال: تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر" وهي جملة قصيرة تبرر جدارة أبي بكر، وقد أثبت ابن سعد في الطبقات؛ ومرة ثانية في الحديث رقم ١١٧٦ حيث أثبت جزءاً من الخطبة فقط؛ ثم نقلها كاملة في الحديث رقم ١١٨١ كما هي في نص ابن إسحاق.

"ملاحظة نخب تدوينها في أسفل الصفحة، وهي "المؤلف يعتمد طبعة القاهرة ١٩٦٠ لأنساب الإشراف بتحقيق محمد حميد الله، لكن المترجم اعتمد الكتاب نفسه بتحقيق الدكتور سهيل زكار والدكتور رياض زركلي. دار الفكر. بيروت ١٩٩٦ وهذه الطبعة لم ترقم الأحاديث، وأمر السقيفة يقع في الجزء الثاني ص ٧٦٣-٧٧٧"

في الروايات الثلاث نجد أسماء الرواة الذين أخذ عنهم أحداث السقيفة كما هم في "السيرة": عن الزهري عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس، أما رواية الذي أخذ عنه الرواية مباشرة فإنها تتغير. في الحديث رقم ١١٧٣ نجد السلسلة كما يلي: ابن عباس، عبيد الله، ابن شهاب، صالح بن كيسان،<sup>١١</sup> أيه كيسان، يعقوب بن إبراهيم، محمد بن

سعد؛ في الحديث رقم ١١٧٦ نجد السلسلة: ابن عباس، عبيد الله، الزهري، معمر بن راشد<sup>٢٠</sup> هشام بن يوسف، بكر بن الهيثم؛ وفي الحديث رقم ١١٨١ نجد البلاذري ينقل النص كما يلي: ابن عباس، عبيد الله، الزهري، ابن جعدية،<sup>٢١</sup> المدائني. وفي هذا النص الأخير نجد اختلافات قليلة بين نص المدائني الذي اقتبسه البلاذري وذلك النص الذي رواه عبد الله بن أبي بكر واقتبسه ابن إسحاق. ولكي نختم هذا المقطع يكفينا القول أنه برغم أن البلاذري أظهر ميلاً نحو تفضيل أبي بكر للخلافة كما هو واضح من رواته وترتيب مصادر معلوماته، إلا أنه لا يخفي الأحاديث الكثيرة التي تظهر ميول بعض كبار الصحابة نحو علي.

لكن صورة السقيفة لا تكتمل حتى نأخذ في الاعتبار معاصر البلاذري الأصغر سناً وذلك هو ابن واضح العقبوي (توفي ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ هـ). إن كل من يقرأ عرض العقبوي للسقيفة، وهو يكتب مباشرة بعد ابن سعد والبلاذري، سوف يلاحظ تعارضاً حاداً في الروايات وتأكيدها. فبينما يريدنا ابن سعد أن نعتقد أن أبا بكر لم يلق تقريباً أي معارضة من الذين فضلوا علياً، فإن العقبوي يؤكد لقارئه أنه كان ثمة معارضة جديدة لأبي بكر من طرف مؤيدي حق علي في الخلافة.

وعلى عكس ما فعل ابن سعد والبلاذري لم يعرض أحاديث متفرقة مسبوقة بإسناد، ولم ينقل مصادره حرفياً فيما عدا الاقتباسات والكلام المباشر. وهذه هي طريقتة في تاريخه كله، ولم تكن السقيفة استثناء. فهو يفتح بعنوان "خبر سقيفة بني ساعدة وبيعة أبي بكر"، ويكتب أربع صفحات متواصلة ناقلاً عن المصادر المتاحة له<sup>٢٢</sup> وهذه الصفحات ما هي

إلا دمج أحاديث متعددة في رواية متصلة، لكن كل الاقتباسات والخطب نقلت بأمانة بدون أي تحوير. وهذا بين من مقارنة مصادر كتبت قبله وبعده.

أما فيما يخص المصادر، فنحن نعرف أنه باعتباره أسلوباً عاماً وربما من أجل نص متماسك، فإن اليعقوبي نادراً ما يذكر رواته. ومع ذلك، فليس من الصعب في العادة تحديد هذه المصادر.<sup>٢٣</sup> وفيما يخص السقيفة فإن بعض المصادر مثل المدائني وأبي مخنف هما كما أوردتهما الطبري. ويجب أن نؤكد هنا، وبدون أي شك حقيقة تاريخية وهي أن حدث السقيفة صار موضوع اهتمام تاريخي بالغ منذ بداية كتابة التاريخ في الإسلام. وهذا واضح من فهرست ابن النديم وفهارس الطوسي ورجال النجاشي وكتابات أخرى في الترجمات التي تدرج العديد من المؤلفات والرسائل عن السقيفة تحت أسماء العديد من الكتاب الكبار منذ مطلع القرن الثاني الهجري. فمثلاً ذكر أن لأبي مخنف<sup>٢٤</sup> والمدائني<sup>٢٥</sup> كتباً مستقلة في الموضوع، وعندما نقرأ رواية السقيفة في تاريخ الطبري والبلاذري وآخرين نجد عدداً من الأحاديث المروية عنهما. وكتب ابن أبي الحديد (توفي ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م) في كتابه الضخم "شرح نهج البلاغة"، وهو منجم معلومات تاريخية قيمة استقاه من مكتبة غنية بمخطوطات نادرة كانت بتصرفه، دون أربعين صفحة عن السقيفة، وفيها دمج بعض ما في هذه الكتب المخطوطة التي بقيت حتى زمانه. ومن ذلك نص كتبه أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجواهري<sup>٢٦</sup> (توفي ٢٩٨ هـ - ٩١١ م) الذي أخذ عن رواة مبكرين كثر عن موضوع السقيفة. وسجل أستاذ معاصر

معروف هو آغا بوزرغ الطهراني في كتابه الواسع عن الأدب الشيعي عدداً كبيراً من المؤلفات التي كتبت عن السقيفة في القرون الهجرية الأولى.<sup>٢٨</sup> وكثير من هذه المؤلفات مؤرخة قبل اليعقوبي بزمان غير قليل، وقلة منها كتبها مؤلفون كانوا من تلامذة تجمعوا حول الإمام جعفر الصادق (توفي ١٤٨ هـ - ٧٦٥ م).

حين بدأ ابن سعد والبلاذري وكتاب سنة آخرون يكتبون كان مبدأ "الإرجاء" السني قد تحدد وثبت موقفه من التجميع والتوليف والتسامح. وهكذا، كان من الطبيعي هؤلاء الكتاب أن يطمسوا أو يتجاهلوا أي رواية قد تصطدم مع ما أصبح معايير مقبولة في ذلك الوقت. ومعظم المعلومات التي قد تؤيد موقف الشيعة في تأييد علي كانت إما طمست أو ببساطة تم التشكيك بصحتها. وهذا ما حصل لتاريخ اليعقوبي تماماً. فثمة ميلٌ للشك بروايته التي قد تبدو مؤيدة لقضية الشيعة على أساس أنه نفسه كان شيعياً. ولكن المنطق يقضي بأنه إذا كان يمكن التشكيك بمول اليعقوبي تجاه الموقف الشيعي، فلماذا لا يمكن التشكيك بكتابات المؤرخين الآخرين من معارضي وجهة نظر بأنها طمست الروايات التي تخدم هدفاً شيعياً؟ في هذه الحال، نشعر بأن علينا أن نعتبر تاريخ اليعقوبي موجزاً لوثائق تاريخية عالية القيمة مما بقي لنا وهو يتجاوز جهود مؤرخي حزب الأغلبية "السنة" المعرضة. أما الجدل حول مصداقية رواياته فتؤكد صدقها حقيقة أن معظم رواياته لأحداث السقيفة رواها، وإن بشكل جزئي، مؤرخون غير شيعيين ممن جاوزوا بعده. وهكذا صار من واجبنا أن نختم بالقول بأن معلومات معينة نقلها إلينا اليعقوبي، وإن تجاهلها ثلاثة

مؤرخين من سابقه، هي ذات قيمة تاريخية عالية لإعادة كتابة تاريخ السقيفة. وقد غطى هؤلاء المؤرخون الأربعة كل الآراء وما تركوا إلا القليل ليضيفه محمد بن جرير الطبري (توفي ٣١١ هـ - ٩٢٣ م) في دائرة معارفه الحولية التاريخية. ولقد أظهر الطبري بشكل عام ورائع موقفاً محايداً في تاريخه، وهو بلا شك الكتاب الأشمل الذي بقي على قيد الحياة. والطبري لم يبن اختياره لمصادره على مواقف دينية طائفية، وإنما اختارها بحسب قناعاته التاريخية فيما يخص كل حدث. لقد بنى روايته بتسجيل روايات متماثلة ومتناسقة، وعند الضرورة قدم لنا روايات متنوعة جاءت من مصادر مختلفة. وشاهدنا على الحالة الأخيرة (تسجيل روايات متنوعة) أنه يعطي رأيه التاريخي إما بشرحه كيفية عرض كل حدث وتفسيره، وإما بترتيب رواياته بحسب أفضليتها. واستخدم هذا الأسلوب حين عرض حدث السقيفة. إنه يتجاهل كلية رواية ابن سعد للحدث، بينما دمج معظم رواية ابن إسحاق واليعقوبي والبلاذري في مراجعته وأضاف إليها مما لديه. فقد روى خطبة عمر عن السقيفة كاملة كما فعل ابن إسحاق، ولكنه اعتمد على رواية عبّاد بن عبّاد المهلبي<sup>٣٩</sup> عن عبّاد بن رشيد<sup>٤٠</sup> أما الرواة الثلاثة الآخرون فهم كما عند ابن إسحاق. وهو الوحيد من بين كل مؤرخي الإسلام الذي حفظ لنا رواية أبي مخنف عن السقيفة. وإجمالاً: عرض تاريخ الطبري رواية حدث السقيفة بموضوعية متوازنة. فهو يوضح بصورة مطلقة أنه كان هناك مجموعة قوية تؤيد عليّ. ولكنه من جهة أخرى يؤكد أن أبا بكر اختير بتأييد الأغلبية.



لا تقوم أية حاجة حقيقية لفحص أعمال الكتاب الذين جاؤوا بعد المصادر الخمسة المبكرة التي فحصناها سابقاً. فالمؤرخون المتعاقبون مثل المسعودي<sup>٢١</sup> (توفي ٣٤٤ هـ - ٩٥٥ م) وابن الأثير<sup>٢٢</sup> (توفي ٦٣٠ هـ - ١٢٣٢ م) وابن عبد ربه<sup>٢٣</sup> (توفي ٣٢٧ هـ - ٩٣٩ م) وحتى السيوطي (توفي ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م) في كتاباتهم المتخصصة حول موضوع الخلافة<sup>٢٤</sup>، فما أضافوا شيئاً مهماً لمعلوماتنا عن الحدث.

وأعمال المؤلفين الشيعة المتأخرين مثل الطبرسي<sup>٢٥</sup> والمجلسي<sup>٢٦</sup> فهي بشكل عام جدلية تقدم روايات متحيزة للشيعة ولا قيمة تاريخية لها.

من الأفضل لإعادة كتابة حدث السقيفة هو أخذ ابن إسحاق أساساً، ليس لأنه الأبعد فقط، بل لأنه وصل إلينا عبر نص ابن هشام (توفي ٢١٨ هـ - ٨٣٣ م) المنقح وهو نفسه سني وأبعد من الأربعة الآخرين الذي فحصنا كتاباتهم سابقاً. ولم يتردد ابن هشام أبداً في إعادة كتابة سيرة ابن إسحاق بإصلاح أو في التعليق على أية نقطة لم توافق رأيه، وغالباً ما أدخل بعض الإضافات التي اعتقد أن ابن إسحاق تغافل عنها أو حذفها.<sup>٢٧</sup> ولم يعلق ابن هشام على أو يضيف إلى أو يصحح رواية ابن إسحاق لحدث السقيفة البتة. وهكذا فإن حدث السقيفة في السيرة رواية دونها كاتب شيعي الميل،<sup>٢٨</sup> قبلها ونقحها ناقد سني الاعتقاد، وأثبتها معظم المؤرخين الذي أعقبوا ابن إسحاق بأسانيد متنوعة كما ذكرنا سابقاً. أما فيما يخص التفاصيل الضرورية التي لم يذكرها ابن إسحاق فسوف نعتمد على ما وردنا في المصادر الأربعة الأخرى. ولنوي هنا أن نؤسس إعادة كتابة حدث السقيفة على ما قاله عمر بن الخطاب في خطبته كما رواها

ابن إسحاق. وحيث أن من الطبيعي ألا تغطّي خطبة كل التفاصيل، فإننا سنأخذ من المصادر الأخرى ونحاول رسم صورة كاملة لما تم في السقيفة من إجراءات. وسوف نمكّن القارئ من تمييز الإضافات المأخوذة من المصادر الأخرى للء الفجوات مباشرة.

قبل أن يروي ابن إسحاق خطبة عمر افتتح بمقدمة من غير إسناد، لكن يمكن العثور عليه في البلاذري ج ١ ص ٥٨٣ وهو عن أحمد بن محمد بن أيوب<sup>١</sup> عن إبراهيم ابن سعد<sup>٢</sup> عن ابن إسحاق عن الزهري وهو كما يلي: "لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم انحاز هذا الحمي من الأنصار إلى سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة، واعتزل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر، وانحاز معهم أسيد بن خضير في بني عبد الأشهل، فأتى إلى أبي بكر وعمر، فقال: إن هذا الحمي من الأنصار مع سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة، قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة، فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم يُفرغ من أمره، قد أغلق دونه الباب أهله، فقال عمر: فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، حتى ننظر ما هم عليه."<sup>٣</sup>

وبعد هذا يدون ابن إسحاق خطبة عمر الشهيرة والتي فحصنا سلسلة إسنادها سابقاً. ثم يتابع ابن إسحاق سرد أحداث السقيفة كما يلي: "وكان من حديث السقيفة حين اجتمعت بها الأنصار أن عبد الله بن أبي بكر: حدثني عن ابن شهاب الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن

مسعود عن عبد الله بن عباس قال: أخبرني عبد الرحمن بن عوف، قال ركنت في منزله بمنى انتظره، وهو عند عمر في آخر حجة حجها عمر، قال: فرجع عبد الرحمن بن عوف، فوجدني في منزله بمنى انتظره، وكنت أقرئه القرآن، قال ابن عباس فقال لي عبد الرحمن بن عوف: لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين، فقال: هل لك في فلان يقول: والله لو قد مات عمر لقد بايعت فلانا، والله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت.

وهنا يجب أن نشير إلى أن هذا الخبر، وبرغم أن أغلبية الكتاب أوردته، لا يذكر اسم الشخص الذي كلم عمر، ولا اسم الشخص الذي ستقدم له البيعة، سوى في البلاذري الذي أوردته في الخبر رقم ١١٧٦ كما يلي: "إن الشخص الذي تحدث إلى عمر كان الزبير وأنه كان يريد مبايعة علي." وفي الخبر رقم ١١٨١ يذكر البلاذري اسماً واحداً: خطب عمر فقال: "إن فلانا وفلاناً قالوا: لو قد مات عمر بايعنا علياً." ورواية البلاذري يمكن توكيدها بما ذكره مؤرخون متأخرون مثل ابن أبي الحديد الذي يذكر اسم علي روايةً عن الحافظ.<sup>٤١</sup> وهذا على كل حال، يحتم ملاحظة هامة جداً وهي أن اسم علي هو الذي أدى إلى أن يدلي بهذا الخطاب الحماسي والهام.

نعود الآن إلى تمة الخبر كما ورد عند ابن إسحاق: "فغضب عمر، فقال: إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس، فحذّره هؤلاء الذين يريدون أن يغصوهم أمرهم فقال عبد الرحمن: فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل، فإن الموسم "الحج" يجمع رعاك الناس وغوغاءهم، وإفهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وإني أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطير بها

أولئك عنك كل مطير، ولا يعوها، ولا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة، فإنها دار السنة، وتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلت بالمدينة متمكناً، فيعي أهل الفقه مقاتلك، ويضعوها على مواضعها، قال: فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة.

قال ابن عباس: فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة، فلما كان يوم الجمعة عجلت الرواح حين زالت الشمس فجلس عمر على المنبر، ولما سكت المؤذنون قام، فأثنى على الله بما هوله أهل ثم قال:

"أما بعد، فإني قائل لكم اليوم مقالة، قد قدر لي أن أقولها، ولا أدري لعلها بين يدي أجلي، فمن عقلها ووعاها فليأخذ بها حيث انتهت به راحلته، ومن خشي أن لا يعيها فلا يحل لأحد أن يكذب عليّ بلغني أن فلاناً - وهو الزبير كما ذكر البلاذري - قال: والله لو قد مات عمر بن الخطاب لقد بايعت فلاناً - علي بن أبي طالب - فلا يغرنّ أمراً أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت، وإنما قد كانت كذلك إلا أن الله قد وفى شرها، وليس فيكم من تنقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، فمن بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين، فإن لا بيعة له هو، ولا الذي بايعه تغرة (من التغير والكلام على حذف مضاف تقديره: خوف تغره أن يُقتل) أن يُقتل. إنه كان من خبرنا حين توفى الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن الأنصار خالفونا فاجتمعوا بأشرافهم في سقيفة بني ساعدة، وتحلف عنا علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر."

يتضح من كلام عمر بأن ثمة معارضة جدية واجهت ترشيح أبي بكر، لا من الأنصار فقط وإنما من علي ومؤيديه. وبالتالي، فحالما وصلت أخبار وفاة محمد الأنصار في المدينة، تجمع الأنصار سريعاً لاختيار أمير منهم خائفين بالتأكيد من سيطرة المكيين، وربما كانوا على علم بخطط المكيين. أما عمر بن الخطاب فاعترض بمدة على من يقول إن النبي مات. وزعم ببساطة أن محمداً قد غاب ولبعث الوقت، وهدد بقتل كل من يقول أن محمداً قد مات. وكان أبو بكر في ضاحية سنح فقدم إلى المدينة. وذهب إلى بيت النبي. وحين تأكد من وفاة محمد عاد وأكد للناس وعمر أن النبي مات.

وعن هذا الموقف لدينا ثلاث روايات مختلفة. الأولى تقول أنه عندما كان أبو بكر يناطِب الناس جاء رجل وأخبره هو وعمر باجتماع الأنصار في السقيفة. فهرع أبو بكر وعمر ومعهما جماعة إلى السقيفة. وهذه الرواية مرفوضة على أسس بسيطة وهي أن أبا عبيدة بن الجراح لم يذكر فيها، مناقضة بذلك كل الروايات الأخرى، حيث يبدو أبو عبيدة أحد الأشخاص الثلاثة في هذا الموقف الشديد التأثير. وتقول الرواية الثانية أنه بعد أن أكد أبو بكر للناس وفاة النبي، ذهب برفقة عمر إلى بيت النبي وانضموا إلى قرابته المشغولين بتحضيرات الدفن. عندها جاء رجلان وأخبراهما عن السقيفة، فهرع الثلاثة أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح إلى السقيفة. ويبدو أن هذه الرواية أيضاً غير صحيحة للأسباب التالية: ١- إنها تفترض أن هؤلاء الثلاثة وهم من أهم الصحابة ما كانوا مدركين للتوتر الخطير، وغالباً صراع، بين المهاجرين والأنصار تطور في

السنوات الأخيرة، وخطورة الموقف في تلك الظروف. ٢- إنها تناقض الرواية التي تقول أن علياً ومؤيديه اعتزلوا وأغلقوا عليهم الباب. ٣- لم يرو هذه الرواية سوى البلاذري وبإسناد ضعيف. الرواية الثالثة التي ذكرتها جميع مصادرنا ما عدا ابن سعد تقول أنه بعد أن أخبر أبو بكر الناس ب وفاة النبي اصطحب عمرو أبا عبيدة على الأغلب إلى بيت أبي عبيدة. واجتمع الثلاثة هناك لمناقشة موضوع القيادة الحساس الذي أدت إليه وفاة النبي، آخذين في اعتبارهم موقف الأنصار المتذمرين، والذي كان يتطور منذ بعض الوقت.<sup>٦</sup> وهناك فقط اجتمعت قيادة المهاجرين حين اندفع أحد المخبرين إليهم ليخبرهم بما كان الأنصار يعملون. عندها هرع الثلاثة أبو بكر وعمر وأبو عبيدة إلى السقيفة ليمنعوا أي تطور غير مقبول لهم.

نعود الآن إلى خطبة عمر والتي تخبرنا: "فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار. فانطلقنا نؤمهم، حتى لقينا منهم رجلاً صالحاً (هما عويم بن ساعدة<sup>٧</sup> وسعد بن عدي<sup>٨</sup>)، فذكروا لنا ما قالا عليه القوم، وقالوا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ قلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. وقالوا: فلا عليكم أن لا تقرّبوهم يا معشر المهاجرين، اقضوا أمركم. قال: قلت: والله لأأتينهم. فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا بين ظهرانيهم رجل مرّقل (ملتف بكساء)، فقلت: من هذا؟ فقالوا: سعد بن عبادة، فقلت: ماله؟ فقالوا: وجع (به وجع). فلما جلسنا نشهد خطيهم، فأتني على الله بما هوله أهل، ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منّا، وقد

دئت (الدانة القوم يسرون جماعة سراً ليس بالشديد) دانة من قومكم، قال: وإذا هم يريدون أن يجتازونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر، فلما سكت أردت أن أتكلم، وقد زوّرت في نفسي مقالة قد أعجبتني، أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحدة (أي أنه كان في خلق عمر حدة، كان يسترها عن أبي بكر). فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر، فكرهت أن أغضبه، فتكلم، وهو كان أعلم مني وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلّا قالها في بديهة، أو مثلها، أو أفضل، حتى سكت؛ قال: أما ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلّا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً. هناك إضافة في البلاذري إلى ما قاله أبو بكر تظهر كيف جادل أبو بكر الأنصار وهي كما يلي: "نحن أول الناس إسلاماً، وأوسطهم داراً، وأكرمهم أنساباً، وأمسّهم برسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً. وأنتم إخواننا في الإسلام، وشركاؤنا في الدين. نصرتم، وآويتم، وآسيتم، فجزاكم الله خيراً. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. ولن تدين العرب إلّا لهذا الحي من قريش. فقد يعلم ملاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الأئمة من قريش" فأنتم أحقاء أن لا تنفسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم." نعود الآن إلى رواية ابن إسحاق من خطبة عمر. قال أبو بكر: "وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيدي وييد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا، ولم أكره شيئاً مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي، لا يقرّني ذلك إلى ثم، أحبّ إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر."

وفي اليعقوبي (ج ٢ ص ١٢٣) قال أبو بكر: "قريش أولى بمحمد منكم. وهذا عمر بن الخطاب الذي قال رسول الله: "اللهم أعز الدين به" وهذا أبو عبيدة بن الجراح الذي قال رسول الله: "أمن هذه الأمة". فبايعوا أيهما شئتم." فأبيا عليه وقالوا: "الله ما كنا لتتقدمك، وأنت صاحب رسول الله وثاني اثنين." وفي رواية البلاذري أنه عندما رشح أبو بكر عمر بن الخطاب، قال عمر: "وأنت حي؟ ما كان لأحد أن يؤخرك عن مقامك الذي أقامك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم" ويصف اليعقوبي أبا عبيدة قائلاً: "نادى أبو عبيدة: يا معشر الأنصار! إنكم كنتم أول من نصر، فلا تكونوا أول من غير وبدل." يتابع اليعقوبي: "وقام عبد الرحمن بن عوف فتكلم فقال: "يا معشر الأنصار، إنكم وإن كنتم على فضل، فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعلي. عندئذ قام أحد الأنصار المنذر بن أرقم" وأجاب بحدة: "ما ندفع فضل من ذكرت، وإن فيهم لرجلاً لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد، يعني علي بن أبي طالب."

وعند هذا الموقف من الاقتراح والاقتراحات المضادة من طرف أبي بكر وعمر وأبي عبيدة لمصلحة كل منهم، تقدم أحد الأنصار هو الحُباب بن المنذر وقدم حلاً وسطاً: "أنا جُذيلها الخكك (هو الذي يستشفى برأيه وتوجد الراحة عنده) وعَذِيقُها المرجب (الرجل الشريف يعظمه قومه) منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش. قال: فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى تحوّلت الاختلاف. فقلت: أبسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار. وتزونا (وثبنا) على سعد بن



عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة. قال: فقلت: قتل الله سعد بن عبادة."

هنا ينتهي خطاب عمر التاريخي، وقبله كل من كتب عن حدث السقيفة تقريباً. وقبل متابعة الموضوع، ربما كان من المفيد أن نلاحظ أن جواب عمر على اقتراح الحُباب كما رواه الطبري ج ١ ص ١٨٤١ في حديث منفرد نقلاً عن أبي مخنف قال عمر: ما أوقحك إنا إن سيفين لا يجمعان في غمد واحد. والله إن العرب لن تقبل إمارتك، في حين أن نبيها من آخرين (يقصد من المهاجرين).

والطبري أيضاً يخبرنا نقلاً عن أكثر من وثق به من رواته، ويروي عنه تكراراً وهو أبو معشر أنه بعد أن بايع عمر أبا بكر قام بعض الأنصار واحتجوا على القرار وصاحوا: "لن نبايع أحداً إلا علياً". ولكن هذه وأصوات أخرى ضاعت في الضوضاء، وبعد أن بايع عمر أبا بكر تبعه في ذلك المهاجرون الحاضرون ثم بايعه الأنصار لسبب أو لآخر، كما سئرى.

قبل أن نستعرض الأحداث التي تلت اجتماع السقيفة، سيكون من الأفضل فحص الموقف المعقد باختصار والظروف التي جعلت اختيار أبي بكر ممكناً. أولاً: إن التنافس بين بطون قريش أو بين المهاجرين على الأقل سهل ذلك الاختيار وجعله مقبولاً، لأن أبا بكر رجل من بطن قريشي غير مهم وذلك هو فرع بني تميم بن مرة<sup>٦١</sup> لم يكن لبني مرة دور متميز بين البطون الحاكمة، ولم يشاركوا في الصراع على السلطة أو النزاع السياسي الذي كان شديداً بين البطون المتنافسة من قريش. ثانياً: لقد خشي المهاجرون جميعاً من إمكانية سيطرة المدنيين إذا شغلوا أنفسهم

بصراع لبطون المعتاد ودخلوا في قتال داخلي. لذلك كان أبو بكر هو المرشح كحل وسط. ثالثاً: فيما يخص الأنصار، يجب أن نأخذ بالاعتبار العداوة القديمة المتجذرة بين الأوس والخزرج. وكان سعد بن عباد<sup>٢٢</sup> هو زعيم الخزرج؛ وبالتالي رأى الأوس التسليم لقائد قريشي أقل كلفة وأفضل من فوز زعيم القبيلة المنافسة بحكمهم. وهذا واضح من حقيقة أن أول من بايع أبا بكر من الأنصار كان أسيد بن خضير أحد زعماء الأوس. وبحسب الطبري ج ١ ص ١٨٤٣ "تكلم بعض الأوس ومنهم أسيد بن خضير قائلين: والله إذا صار الخزرج أمراء عليكم مرة فسوف يحافظون على هذا التقدم عليكم، ولن يدعوكم تنالوا حظاً منها أبداً، لذلك انهضوا وبايعوا أبا بكر. عندئذ بايع الأوس أبا بكر." وربما يجب أن نذكر أن أسيد هذا كان الوحيد من الأنصار الذي شارك في تدبير المهاجرين، وبالتأكيد كان على علم يترشح سعد بن عباد، ولذلك تصرف ضده، وحرّم الخزرج من القيادة.

أما الخزرج فقد تيقنوا أن موقفهم كان ضعيفاً جداً لمواجهة جبهة المهاجرين المتحدة بالإضافة إلى الأوس منافسيهم القدماء أو بالأحرى أعدائهم في سياسة المدينة. فالحروب المستمرة والعداوات المستحكمة بين الأوس والخزرج هي حكايات مشهورة في أدب الجاهلية ومعروفة بـ "أيام العرب" وكذلك وجد الخزرج أنه من الحماقة التخلف عن تأييد الراجح ونيل رضى السلطة الحاكمة القادمة التي انتهت إليها المسدولات. وأكثر من ذلك فقد ظهر لسعد بن عباد حسد بعض أقاربه من قبيلته، مما كان معروفاً في بطون العرب، حتى أنه ورد أن أول من بايع أبا بكر كان

ابن عم سعد وهو بشر بن سعد.<sup>٦٩</sup> وهكذا صار من الواضح أنه نتيجة تعصب التجمعات، والمنافسة بين البطون، والحسد الشخصي تمكن أبو بكر أن يحصل على يعة الشعب. وبالإضافة إلى هذه العوامل كلها فيجب إضافة الانطباع العام في المصادر التاريخية بأن أبو بكر تمتع باحترام أكيد وحاز على مقام رفيع بفضل رزاقته وسنّه وصلته الحميمة بالنبي والدعم الذي قدمه له، والخدمات الجليلة التي وفّرها للإسلام منذ بداياته الأولى. ولذلك فإنه لا يجوز تجاهل أثر شخصيته الذي تنامي عبر سنوات تحت قيادة النبي عند تحليل نتائج السقيفة. وتقدم لنا الروايات المتوفرة لدينا حجة كافية للاعتقاد بأن أبو بكر وعمر بن الخطاب شكلاً تحالفاً منذ وقت بعيد قبل السقيفة وعلى الأغلب أن أبو عبيدة بن الجراح كان الشخصية الثالثة في هذا التحالف، وإن هؤلاء الثلاثة تمتعوا بوزن كبير وتأثير عظيم على طبقة النبلاء الإسلامية حديثة الولادة وفي المناورات السياسية ضد الارستقراطية المكية القديمة (بني هاشم وبني أمية إلى حد كبير).<sup>٧٠</sup> أخيراً لا بد من ملاحظة أن خلافة أبي بكر لم تتحقق عبر انتخابات حرة بأي شكل، ولا عبر إرادة الجماعة الحرة، بل كانت ببساطة قراراً اتخذته جماعة من المهاجرين وفرضته بسرعة وبقوة على الآخرين. والفضل في نجاح هذا القرار يعود إلى الصراع المحتدم بين تجمعات البطون الموجودة في المدينة. وهذا واضح من قول عمر السابق: "... وقد كانت فلتة، ولكن الله وقى شرها." والفضائل التي نسبها كل من أبي عبيدة بن الجراح وعمر إلى أبي بكر مثل: كونه قرشياً، وإسلامه المبكر، وصحبته الطويلة للنبي، والخدمات الجليلة التي قدمها للإسلام، واحترام النبي له

كل هذه الفضائل هي في الواقع تليق بعلي أكثر مما تليق بأي بكر. أما الزعم الذي دعم خلافته وهو تقديم النبي له ليوم صلاة الجماعة خلال مرض النبي الأخير فيبدو أنه ذو صبغة كلامية، وروايته غالباً متناقضة.

بعد أن استعرضنا الحجج والحجج المضادة التي تمت في السقيفة، يمكننا القول أن اختيار أبي بكر كان واقعة ناتجة عن الظروف. فالصراع بين مؤيدي أبي بكر ومناوئهم تركز حول اعتبارات ما هو ضروري في ظل الظروف والأحوال، وماذا يجب أن يكون. (بكلام آخر: في ظل الظروف المحيطة انبعث السؤال الهام: ما العمل) المترجم. ونتج عن ذلك السؤال الأول حالاً إقامة خلافة - إمبراطورية قوية كاسحة. ونتج عن السؤال الثاني (ماذا يجب أن يكون) جماعة إسلامية صغيرة طوّرت تفسيرها الخاص للمثل الإسلامية ونظام الحكم الذي يجسدها.

وكان توطيد سلطة أبي بكر باعتباره خليفة النبي، على كل حال، بعيداً عن الكمال بعد اجتماع السقيفة. فعلي بن أبي طالب لم يكن يعرف بالقرار الذي اتخذ في السقيفة وهو المرشح الأكثر أهمية من عائلة النبي، باعتبار أن المصادر السنية والشيعية على السواء أجمعت على ما شهد له به مؤيدوه المقربون إليه، وكذلك عائلة هاشم. ولم يعلم هؤلاء (علي ومؤيدوه وبنو هاشم) بالقرار إلا بعد أن ضمن أبو بكر البيعة في السقيفة، ثم جاء مع مؤيديه إلى المسجد النبوي بصخب غير معهود في تجمع كبير. وبرغم أن تسلسل الأحداث التي تلت مشوش،<sup>٦٦</sup> فقد يكون أنه عند ذلك فقط اجتمع علي ومناصروه من المهاجرين والأنصار في بيت فاطمة وبدؤوا التفكير فيما يجب أن يفعلوه. وإلى جانب عدد من الروايات التي

ذكرت ذلك، فإن خطبة عمر بن الخطاب تدعم ذلك حين قال: "واعترنا علي والزبير ومن معهم." وكان أبو بكر يدرك تماماً مطالب علي والتبجيل الذي يحوزه في نظر جماعة معينة من الصحابة، وكان يخشى أن يواجهوه برد فعل، لذلك دعى علياً ومؤيديه إلى المسجد ليبياعوه هناك. ولكنهم رفضوا القدوم. فنصح عمر بخشونته المعهودة أبا بكر أن يتصرف بسرعة قبل فوات الآوان. فذهب الإثنين (أبو بكر وعمر) مع جماعة مسلحة وطوقوا بيت علي وهددوا بحرقه إذا لم يخرج علي ومؤيدوه ويبيعوا الخليفة المختار. عندها خرج علي وحاول الاحتجاج، وطالب بحقوقه، ورفض الاستجابة لمطالب عمر وأبي بكر. وتطور الموقف حالاً إلى مظاهر العنف فجردت السيوف من أعمادها وحاول عمر مع جماعته الدخول إلى البيت. وفجأة ظهرت فاطمة أمامهم حائقة وقالت معاتبه: "تركتم جثمان رسول الله عندنا، وقررتم لأنفسكم من غير مشورة منا. ولا احترام لحقنا. والله، إما أن تخرجوا من هذا المكان، وإما أن أحل شعري وأدعو الله عليكم."

وهذا ما جعل الموقف خطيراً، واضطر أبو بكر وجماعته إلى مغادرة البيت بدون الحصول على بيعة علي.<sup>٦٧</sup> لم يكن باستطاعة علي أن يقاوم طويلاً، وتوجب عليه التسليم قبل اشتداد الضغط عليه. تختلف الروايات وتتناقض عند تحديد تصالحه مع أبي بكر. فهناك روايتان ضعيفتان ومنعزلتان، وتعكسان أثر الطابع الكلامي (اللاهوتي) تقولان أن علياً بايع أبا بكر فوراً، لكن بعد أن اشتكى أنه لم يشارر، وهناك روايات أخرى تقول أنه بايع في يوم السقيفة نفسه ولكن تحت الإكراه مع قناعته أنه

الأحق بالخلافة. ولكن بحسب أكثر الروايات مصداقية، وأكثرها انتشاراً، وبسبب كونها مقبولة تاريخياً ولأسباب أخرى، فإن علياً تأخر عن بيعه أبي بكر حتى وفاة السيدة فاطمة بعد ستة أشهر من وفاة أبيها.<sup>٦٨</sup>

أما مؤيدو علي من المهاجرين والأنصار فأصرّوا على أنه كان الاختيار الأفضل للخلافة، فتأخروا بقبول أبي بكر لبعض الوقت ثم بايعوه. وتفاوتوا في تاريخ مبايعتهم، ولكنهم بايعوه على كل حال. وتختلف الروايات في أعدادهم وأسمائهم، لكن أشهرهم والذين أجمعت المصادر التاريخية على ذكرهم هم كما يلي.<sup>٦٩</sup>

١ حذيفة بن اليمان<sup>٧٠</sup> مدني حليف الأوس ومن أكثر الصحابة شهرة وتميزاً. اشتهر بطولته وشجاعته في معركة أحد، وكان مستشاراً خاصاً للنبي في غزوة الخندق، ولم تتأثر موالاته لعليّ ولم تتغير حتى بعد أن بايع أبا بكر. وقد أوصى ولديه قبل وفاته بموالاة عليّ، وقد أطاعا الوصية وقاتلا إلى جانب علي في معركة صفين وهناك قتلا.

٢. خزيمه بن ثابت<sup>٧١</sup> من قبيلة الأوس، دعاه النبي "ذو الشهادتين"، أي أن شهادته تعادل شهادة رجلين، قاتل إلى جانب علي في معركتي الجمل وصفين وهناك قتله جيش معاوية.

٣. أبو أيوب الأنصاري<sup>٧٢</sup> والده خالد بن كليب من بني النجار وأمه من الخزرج. وكان أهم الصحابة من الأنصار، واستضاف النبي في بيته عند هجرته حتى تم بناء بيت النبي. وقاتل إلى جانب علي في معارك الجمل وصفين والنهر وان.

٤. سهل بن حنيف<sup>٧٣</sup> من قبيلة الأوس، غزا مع النبي في بدر والغزوات الأخرى. كان صديق علي الحميم، جاء مع علي من المدينة إلى البصرة، وقتل إلى جانبه في صفين، وعينه علي والياً على إيران.

٥. عثمان بن حنيف<sup>٧٤</sup> أخو سهل آثره علي وعينه والياً على البصرة.

٦. البراء بن عازب الأنصاري<sup>٧٥</sup> من الخزرج من ارسطراطي المدينة، مثل الأنصار الموالين لعلي، جاء مع علي إلى الكوفة، وقتل إلى جانبه في معركة الجمل وصفين والنهروان.

٧. أبي بن كعب<sup>٧٦</sup> من فرع من الخزرج وأحد الفقهاء وقراء القرآن من الأنصار.

٨. أبو ذر جندب الغفاري<sup>٧٧</sup> أحد المسلمين الأوائل الزهاد والبالغ التقوى، كان دائم التحدث بفضل علي وضرورة موالاته، وأحد أعمدة الشيعة الأربعة الأوائل. نفاه الخليفة عثمان بن عفان إلى مسقط رأسه في قرية صغيرة تدعى الريزة حيث مات.

٩. عمار بن ياسر<sup>٧٨</sup> من عرب الجنوب وحليف بني مخزوم من قريش وأحد المسلمين الأوائل وأحد أعمدة الشيعة الأربعة الأوائل.

١٠. المقداد بن عمر<sup>٧٩</sup> من عرب الجنوب إما من كندة وإما من هرا، وتبناه الأسود بن عبد يغوث من بني مخزوم. كان أحد السبعة الأوائل الذين أسلموا، وأحد أعمدة الشيعة الأربعة الأوائل.

١١. سلمان الفارسي<sup>٨٠</sup> من أصل فارسي وأحد أتباع النبي المتحمسين وصحابي جليل. حرره النبي من العبودية، وتبناه باعتباره مولى له،

وواحداً من أهل البيت. كان دائماً موالياً مخلصاً لعلي وأظهر ولاءه لعلي عند اختيار أبي بكر وقد ذكر ذلك المؤرخون بما في ذلك البلاذري.

١٢ الزبير بن العوام<sup>٨١</sup> أحد أصحاب النبي المتميزين من قريش. كان أكثر النشاط حيوية وهمة من بين مؤيدي علي وكان صادقاً في موقفه الحماسي. خرج من بيت فاطمة شاهراً سيفه، حينما جاء عمر محاولاً إجبار من في البيت على مبايعة أبي بكر. وقد سجل معظم المؤرخين المواجهة الجذبة بينه وبين عمر. ومَرَّت خمس وعشرون سنة قبل أن يطمح إلى الخلافة وأدى به ذلك إلى مواجهة علي في معركة الجمل.

١٣. خالد بن سعيد<sup>٨٢</sup> من بني أمية، كان الثالث أو الرابع من أسلم بعد أبي بكر والوحيد من بني أمية الذي قاوم بجدية اختيار أبي بكر لمصلحة علي. وكان مبعوثاً للنبي في صنعاء حين توفي محمد. وحين وصل المدينة بعد أيام من اختيار أبي بكر بايع علياً قائلاً: "والله ما من رجل أكثر حقاً منك لتقوم مقام محمد." وبالرغم من أن علياً لم يقبل بيعته فإن خالداً تأخر ثلاثة أشهر حتى بايع أبا بكر.

إن تأكيد جدية معارضة هؤلاء أو استيائهم لاختيار أبي بكر قبل مصالحتهم معه هو من الصعوبة بمكان. ذلك لأن المصادر الشيعية تبالغ في ذلك إلى حد بعيد،<sup>٨٣</sup> في حين أن المصادر السنية تحاول التجاهل أو التقليل من شأن هذه المعارضة بقدر ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.<sup>٨٤</sup> فمن الناحية التاريخية لا يمكن إنكار أن هؤلاء الرجال شكّلوا محور جماعة علي الأولى أو الشيعة. ولا يمكن الزعم بأن جميعهم كانوا على القدر نفسه من



الحماس في تأييدهم؛ فقد كان تأييد بعضهم فاتراً وهم الذين أقرّوا بأفضلية علي للخلافة بسبب جدارته الشخصية، لكنهم مع ذلك بايعوا أبا بكر من غير إظهار كثير من الاستياء. لكن موقف عمّار والمقداد وأبي ذر وسلمان كان مختلفاً عن الآخرين. فهؤلاء الأربعة هم الذين خصّهم الشيعة عامة بصفتهم "الأركان الأربعة"، والذين شكلوا المجموعة الشيعية الأولى. وبعد مصالحة علي وأبي بكر توقفت معارضة مؤيدي علي، وتضاءل دور هؤلاء النخبة من الشيعة الأوائل عملياً. ولكن هل يمكن أن تموت الأفكار بعد طرحها وتداولها؟ إن السنوات التالية في تاريخ تطور الفكر الإسلامي تزودنا بالجواب على هذا السؤال.

## مراجع وملاحظات الفصل الثاني

- ١- ابن هشام ج ٤ ص ٣٠٠
- ٢- عبد العزيز الدوري. مقال بعنوان: الزهري، دراسة في بدء كتابة التاريخ في الإسلام. مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن، العدد ١٩ ص ٨، ١٩٥٧ E
- ٣- ابن هشام ج ٤ ص ٣٠٧-٣١٠
- ٤- تهذيب ج ٥ ص ١٦٤
- ٥- وفيات ج ٤ ص ١٧٧، والتهذيب ج ٩ ص ٤٤٥
- ٦- دراسة في الأدب العربي، بيرى، شيكاغو ١٩٥٧-١٩٧٢، ١، ص ٥-٣١، وج ٢ ص ٥-٦٤
- ٧- تهذيب، ج ١، ص ٩٧
- ٨- وفيات، ج ٣، ص ٢٥٥
- ٩- سابقه، ج ٦، ص ٣٥
- ١٠- تهذيب ج ٧ ص ٢٣ والأغاني ج ٩ ص ١٣٥
- ١١- ابن سعد، ج ٢ ص ٣٧٩
- ١٢- ابن سعد ج ٢ ص ٣٨٢ والأغاني ج ٩ ص ١٣٧
- ١٣- ابن سعد ج ٢ ص ٣٦٥
- ١٤- انظر W. مونتغمري وات "عبد الله بن عباس" مقال في دائرة المعارف الإسلامية طبعة ٢ E
- ١٥- ابن سعد ج ٣ ص ١٦٩-٢١٣
- ١٦- سابقه ص ١٦٩-١٧١
- ١٧- سابقه ص ١٧١-١٧٢
- ١٨- انظر الملاحظة رقم ٥١ من ملاحظات الفصل الأول من هذا الكتاب
- ١٩- ابن سعد ج ٣ ص ١٧٢-١٧٨
- ٢٠- سابقه ص ١٧٨-١٨١

- ٢١- سابقه ص ١٧٩
- ٢٢- سابقه ص ١٨١-١٨٥
- ٢٣- ابن سعد ج ٥ ص ١٨٧ وابن حجر تهذيب ج ٨ ص ٣٣٣.
- وفيات ج ٤ ص ٥٩
- ٢٤- لمعرفة حياة وأعمال البلاذري انظر مقدمة غوتين للجزء الخامس من الأنساب ص ٩-٣٢
- ٢٥- بخصوص هؤلاء الكتاب الأوائل انظر بالتالي فهرست ابن النديم ص ٩٠، ٩١، ٢٧٧، ٩٥، ٩٣.
- ٢٦- أنساب الأشراف تح. محمد حميد الله. القاهرة ١٩٦٠ ج ١ ص ٥٧٩-٥٩١
- ٢٧- غوتين ذكر سابقاً ص ١٨
- ٢٨- انظر الملاحظة رقم ١٢ السابقة
- ٢٩- الذهبي، الميزان ج ٢ ص ٢٩٩
- ٣٠- سابقه ج ٤ ص ١٤٥
- ٣١- سابقه ص ٣٤٦
- ٣٢- تاريخ، بيروت ١٩٦٠ ج ٢ ص ١٢٣-١٢٦
- ٣٣- L.E. بترسن، علي ومعاوية في التقليد العربي المبكر. كوبنهاجن ١٩٦٤ ص ١٦٩
- ٣٤- النجاشي، الرجال ص ٢٤٥
- ٣٥- ابن النديم، الفهرست ص ١٠١
- ٣٦- شرح فحج البلاغة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة ٢ بيروت ١٩٦٥ ج ٢ ص ٢١-٦٠
- ٣٧- سابقه ص ٤٤-٦٠ وبخصوص الجواهري انظر الذريعة ج ١٢ ص ٢٠٦
- ٣٨- الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٢٤ جزء، النجف، باسم
- ٣٩- الذهبي، الميزان ج ٢ ص ٣٦٧

- ٤٠- سابقه ص ٣٦٥
- ٤١- الطبري ج ١ ص ١٨٣٧-١٨٤٥
- ٤٢- مروج الذهب للمسعودي، تح. داغر، بيروت، ١٩٦٥ ج ١٢ ص ٣٠١ و التنبيه والإشارة، بيروت ١٩٦٥، ص ٢٨٤ وفي كلا الكتابين يذكر السقيفة عرضاً، ويحيل القارئ إلى كتابه الشامل عن الموضوع، لكنه لسوء الحظ مفقود.
- ٤٣- الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٢١ لكن روايته للسقيفة هي كرواية الطبري تقريباً
- ٤٤- العقد الفريد ج ٤ ص ٢٥٧
- ٤٥- تاريخ الخلفاء، تح عبد الحميد، القاهرة ١٩٦٤ ص ٦١ - ٧٢
- ٤٦- الاحتجاج، تح. محمد باقر الخراساني، النجف ١٩٦٦ ج ١ ص ٨٩-
- ١١٨
- ٤٧- بحار الأنوار
- ٤٨- A. غليوم، ترجمة السيرة جمع تصريحات وتعليقات ابن هشام ورتبها في نهاية الكتاب تحت عنوان ملاحظات ابن هشام وهناك ٩٢٢ ملاحظة مختلفة الطول، بعضها يغطي صفحة أو أكثر. انظر "حياة محمد"، اكسفورد، ١٩٥٥ ص ٦٩٠-٧٩٨
- ٤٩- هذه قصة معروفة ملفقة على ابن إسحاق. انظر تعليقات نبيه آبوت على هذا الموضوع في دراسات في الأدب العربي ييري شيكاغو ١٩٥٧-١٩٧٢ ج ١ ص ٩٧. حيث شك آبوت بالتهم من خلال فقرة في تاريخ الخلفاء.
- ٥٠- نقلت رواية ابن إسحاق عن ترجمة غليوم للسيرة. أما المترجم فرجع إلى الأصل العربي ج ٤ ص ٣٠٦ وما بعدها لبيروت ١٩٧١ دار إحياء التراث العربي.
- ٥١- الذهبي، الميزان، ج ١ ص ١٣٣
- ٥٢- سابقه ص ٣٣

- ٥٣- ابن هشام ج ٤ ص ٣٠٦
- ٥٤- ابن حديد، شرح النهج ج ٢ ص ٢٥
- ٥٥- شرح فيما بعد لابن عباس أنه أساء فهم الآية ١٤٣ سورة ٢ التي تقول: "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" ابن هشام ج ٤ ص ٣١١
- ٥٦- الطبري ج ١ ص ١٦٨٣
- ٥٧- الاستيعاب ج ٣ ص ١٢٤٨
- ٥٨- سابقه ج ٤ ص ١٤٤١
- ٥٩- سابقه ص ١٤٤٩
- ٦٠- سابقه ج ١ ص ٣١٦
- ٦١- عن هذا التناقص انظر مونتغمري وات "محمد في مكة" ص ٤-٨، ١٦-٢٠، ١٤١-١٤٤ وله أيضاً "محمد في المدينة" اكسفورد، ١٩٥٦
- ص ١٥١-١٩١ E
- ٦٢- الاستيعاب ج ٢ ص ٥٩٤
- ٦٣- سابقه ج ١ ص ٩٢. ووصفه اليعقوبي في تاريخه ج ٢ ص ١٢٤ بأنه خزرجي وهذا خطأ في النسخ
- ٦٤- الاستيعاب ج ١ ص ١٧٢ ومصادرنا مشوشة حول من يابغ أولاً فاليعقوبي يقول أنه بشر ابن سعد أما البلاذري فيقول أنه أسيد بن حضير.
- ٦٥- انظر هنري لامنس "انتصار أبي بكر وعمر وأبي عبيدة" خلاصة دراسات أساتذة كلية الدراسات الشرقية في جامعة القديس لويس.
- بيروت ج ٤ ١٩١٠ ص ١١٣-١٤٤ بالفرنسية
- ٦٦- من الآن فصاعداً تتضارب مصادرنا وتصبح مشوشة حول تعاقب الأحداث، لأن كل رواية سجلت منفردة منعزلة. لذلك فنحن غير متأكدين هل كان طلب البيعة من علي ومؤيديه حالاً بعد خروجهم من السقيفة، ومجيئهم إلى المسجد، أو بعد دفن النبي ومجيئهم إلى المسجد اليوم

التالي حيث تمت البيعة الجماعية لأبي بكر. قراءة المصادر بدقة تشير إلى أن مطالبهم بالبيعة تمت حال خروجهم من السقيفة.

٦٧- توجد روايات متعددة لهذا الحديث في البلاذري ج ١ ص ٥٨٥، وفي

اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٦، وفي الطبري ج ١ ص ١٨١٨، وفي ابن أبي

الحديد، شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٤٧، ٥٠، ٥٦، وفي العقد الفريد ج ٤

ص ٢٥٩، وفي الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٢-١٣ (برغم أنه نسبته

لابن قتيبة خطأ، فهو بالتأكيد كتاب مبكر جداً وغني جداً بالمراجع)، وهذا

الكتاب يقدم عرضاً مفصلاً للمحنة هجوم أبي بكر وعمر وعلى بيت

فاطمة، والقوة التي استخدمت لتأمين بيعة علي لأبي بكر. وكذلك V.

L. فيجليري، دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى مقال بعنوان

"فاطمة" ويعلق على الروايات بقوله: "حتى وإن كانت الروايات توسعت

في التفاصيل (بالغت فيها) فإن هذه الروايات مبنية على حقائق"

٦٨- اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٦، البلاذري ج ١ ص ٥٨٦. الطبري ج ١ ص

١٨٢٥ العقد الفريد ج ٤ ص ٢٦٠ ابن أبي الحديد ج ٢ ص ٢٢

٦٩- التفاصيل أكثر والاختلافات في الأسماء انظر اليعقوبي المرجع السابق،

والبلاذري ج ١ ص ٥٨٨ والعقد الفريد ج ٤ ص ٢٥٩، وابن أبي الحديد

ج ٢ ص ٥٠.

٧٠- ابن سعد ج ٦ ص ١٥ والاستيعاب ج ١ ص ٣٣٤.

٧١- ابن سعد ج ٤ ص ٣٧٨ والاستيعاب ج ٢ ص ٤٤٨

٧٢- ابن سعد ج ٣ ص ٤٨٤ والاستيعاب ج ٢ ص ٤٢٤ وج ٤ ص

١٦٠٦

٧٣- ابن سعد ج ٣ ص ٤٧١ والاستيعاب ج ٢ ص ٦٦٢

٧٤- الاستيعاب ج ٣ ص ١٠٣٣

٧٥- ابن سعد ج ٤ ص ٣٦٤ والاستيعاب ج ١ ص ١٥٥

٧٦- ابن سعد ج ٣ ص ٤٩٨ والاستيعاب ج ١ ص ٦٥

٧٧- ابن سعد ج ٤ ص ٢١٩ والاستيعاب ج ٤ ص ١٦٥٢

- ٧٨- ابن سعد ج ٣ ص ٢٤٦ والاستيعاب ج ٣ ص ١١٣٥
- ٧٩- الاستيعاب ج ٤ ص ١٤٨٠
- ٨٠- ابن سعد ج ٤ ص ٧٥ والاستيعاب ج ٢ ص ٦٣٤
- ٨١- الاستيعاب ج ٢ ص ٥١٠
- ٨٢- ابن سعد ج ٤ ص ٩٧ والاستيعاب ج ٢ ص ٤٢٠ وبخصوص تأييده  
لعلي انظر البلاذري ج ١ ص ٥٨٨ واليعقوبي ج ٢ ص ١٢٦، وابن أبي  
الحديد ج ٢ ص ٥٨
- ٨٣- انظر مثلاً الطبرسي، الاحتجاج ج ١ ص ١١٨-١٨٩
- ٨٤- انظر مثلاً ابن سعد ج ٣ ص ١٨١-١٨٥

## علي والخليفتان الأولان

إن المناقشة في الفصل الثاني تكفي لتوضيح رأينا بأن مصادر المشاعر والميول الشيعية قد تكونت في رحم فكرة القداسة التي عُرف بها بنو هاشم على نطاق واسع، والاعتبارات الخاصة التي أولاهها النبي لعليّ، (النبي كان يدرك تماماً التراث الديني التقليدي لعائلته ومثلها الرفيعة)، وأخيراً واعياً بالأحداث التي جرت في حياته والتي ترفع من شأن عليّ. منذ تجمع هذه القنوات (قداسة بني هاشم وفضائل علي) والتركيز عليها فيما دار من أسئلة وقضايا في حدث السقيفة، حددت هذه الحلقة في سلسلة أحداث تلتها التعبير ومفصل الافتراق الذي تطور فيما بعد وعرف بالفهم الشيعي للإسلام. ولكن، بعد الهزيمة الأولى لمؤيدي علي يوم السقيفة، واعترافه بإدارة أبي بكر بعد ستة أشهر من ذلك، تغيرت الظروف بحيث فقدت الميول الشيعية معظم مظاهرها العملية والعينية. وكانت الفترة ما بين السقيفة والشورى (اختيار عثمان)، أي فترة خلافة أبي بكر وعمر هي فترة كمون نسبي في تاريخ تطور التشيع.

مع ذلك، فإن فحصاً دقيقاً للمصادر المبكرة، وبخاصة مقارنة متأنية للمصادر الشيعية والسنية المبكرة يكشف عن تيارين كامنين خلال هذه المدة؛ الأول هو موقف علي السلمي تجاه السلطات الحاكمة، والثاني محاولة أبي بكر وعمر بإزاحة بني هاشم وبخاصة علياً عن حقوقهم الخاصة بقيادة الأمة بحسب فهمهم للنظام الجديد والمسار الذي شعروا أنه يجب أن



تتخذ هذه القيادة. هذان التياران الظاهران في هذه الفترة شكلاً فصلاً محورياً في تطور الأفكار الشيعية، ولذلك يجب أخذه بالاعتبار

يمكننا توضيح موقف علي السليبي بسهولة من خلال مقارنة الدور النفعالي الذي قام به خلال حياة محمد بالدور غير النفعالي البتة وانسحابه من الحياة العامة خلال الفترة التي تلت وفاة النبي مباشرة. تراجع علي صاحب الدور الأكبر فعالية والمساهم المتحمس في جميع المبادرات في سبيل الإسلام، والمقاتل العظيم في كل المعارك التي جرت تحت قيادة محمد،<sup>١</sup> علي هذا عاد ليعيش حياة هادئة جداً إلى حدٍّ يقارب العزلة في بيته. لم يكن هذا التباين بدون أسباب جدية.<sup>٢</sup> فبعد أن رأينا قناعات علي الثابتة بأنه أفضل المرشحين لخلافة محمد. كما هو واضح في جميع المصادر، فإن المرء يتوقع منه أن يقاتل من أجل حقوقه حتى النهاية المريرة. فهو لم يعد إلى نشاطه رغم إتاحة بعض الفرص. فقد رفض التأييد العسكري القوي الذي عرضه عليه أبو سفيان لاسترداد حقه، لأنه قدّر أن عملاً كهذا يؤدي إلى تدمير الإسلام الوليد.<sup>٣</sup> وفي الوقت عينه، ومن جهة أخرى، لم يعترف بأبي بكر ورفض مبايعته لستة أشهر. فبالإضافة إلى الأسى الذي خلفه موت فاطمة بعد ستة أشهر من وفاة أبيها واستلام أبي بكر للخلافة، فإن الذي قد يكون أجبر علياً على المصالحة مع النظام القائم إنما هو تحرك المارقين وحروب الردة ضد القبائل في الجزيرة العربية. فهذا الحدث جعل المسلمين جميعاً في المدينة يتناسون خلافتهم الشخصية والإيديولوجية ويتوحدون تلقائياً وطبيعياً ضد الخطر الذي أحرق بهم جميعاً. هذا الخطر الخارجي الذي هدد وجود النظام الإسلامي في عقر داره منح أبا بكر

فرصة عظيمة لتقليل المعارضة الداخلية لحكمه. إن شخصية علي كما عرضتها المصادر السنية والشيعية بتناسق تام توضح أن مشاعره الحبيبة وإخلاصه وصدقه في مناصرة قضية الإسلام كانت فوق جميع الاعتبارات الأخرى. فعلي الذي التزم بخدمة دعوة محمد منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره؛ رأى هذا الخطر واتساع ردة القبائل ضد الإسلام، فلم يعد لديه خيار آخر غير مصالحة النظام القائم. وهذا ما فعله. ولكنه لم يباشر أي نشاط عملي في حروب الردة، وإنما استمر في موقفه المنعزل، ولم يطالبه أبو بكر بمساهمته في الحرب خارج المدينة.

ورغم هذا الموقف السلبي تجاه أبي بكر وعمر؛ فإن علياً قدم المساعدة أحياناً للخليفين. هذا التعاون مع الخليفين الحاكمين بدا مطابقاً تماماً لما يتوقع من زعيم معارضة حكيم. لقد أدرك علي أنه في ظروف كهذه، فإن التضامن والأمن والتماسك في جسم الأمة لا يمكن أن تتحقق إلا إذا كانت المجموعات التي تؤلف الأمة راغبة في التعاون والحفاظ على علاقات متناسقة تضم الجميع. ومع ذلك وضمن هذا الإطار حاول، مرة أخرى وكما يتوقع، أن يصحح ما أعتقد أنه أخطاء النظام وانتقد سياساته التي اختلفت مع وجهة نظره.

إن نقاط الخلاف في الأمور الدينية والسياسية ما بين علي من جهة وكل من أبي بكر وعمر من جهة أخرى يصعب على الباحث أن يؤكددها، وذلك لأن الروايات السنية والشيعية متحيزة إلى حد المبالغة. لقد كتبت المصادر السنية مثل أعمال ابن سعد والذين تبعوه في الفترة عندما تم الإقرار نهائياً، بأن الخلفاء الأربعة الأوائل هم الراشدون حسب رأي أهل

السنة والجماعة. وتم بذل كل جهد ممكن لإظهار أكبر قدر من التوافق على الأقل بين علي وكلّ من أبي بكر وعمر. وظهر ميل لاستثناء عثمان من ذلك وبخاصة ممارساته الدينية والسياسية، برغم أن محاولات كبيرة بذلت لتحسين موقف عثمان من خلال إيقاع اللوم في إساءة استخدام سلطاته على مستشاره السيء السمعة مروان. أما فيما يخص الأعمال الشيعية فقد عرضت خلافاً تاماً ومعارضة كاملة ما بين رأي علي وبين عثمان وحتى أبي بكر وعمر في كل المسائل الدينية والسياسية تقريباً. وباختصار كان علي بحسب المصادر السنية هو المستشار المقدر للخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، أما المصادر الشيعية فتراه على أنه الشخص الذي استغرق في حبه الأسطوري للعقيدة واستعداده المخلص للتضحية من أجلها بغض النظر عن مآسيه الشخصية، وهذا ما أنقذ الخلفاء الثلاثة من الوقوع في أخطاء فاحشة كادوا يقعون فيها وبالتالي فقد كان من الممكن أن تودي بالإسلام. فقد نقل عن عمر قوله "لولا علي لهلك عمر" وما يشير الاهتمام أن هذا التصريح نقل في المصادر السنية المبكرة أيضاً.<sup>٤</sup>

والواقع أنه فيما عدا بعض نقاط الخلاف الجدّية بين علي ومنافسيه والتي نقلتها المصادر التاريخية بإجماع - كما سترى فيما بعد - فإن تحديد وتأکید كل ما روي من خلاف يبقى بعيداً عن التحقيق. والحقيقة هي فيما يبدو وكما تقترح فيشيا فاليري "أن علياً كان عضواً في مجلس مستشاري الخلفاء الثلاثة، ولكن بالرغم من احتمال أنه أستر في قضايا فقهية على ضوء معرفته العميقة بالقرآن والسنة فهناك شك كبير في أن آراءه قبلت وعمل بها عمر الذي كان الحاكم الفعلي حتى في خلافة أبي

بكر."° ويبدو غالباً أن آراء علي لم تقبل في المسائل الدينية، وهذا بين من حقيقة أن قراراته قلما تذكر أو يعنى بها في كتب المذاهب الفقهية السنية التي تطورت فيما بعد؛ بينما نجد قرارات عمر هي السائدة. ومن جهة أخرى نجد المصادر الشيعية تذكر قرارات علي الفقهية فقط. أما فيما يخص القضايا السياسية والإدارية فنذكر معارضته لعمر في موضوع توزيع الغنائم، وغيابه عن كل المعارك التي جرت أثناء خلافة عمر. وبدون ذكر تفاصيل أكثر، فإن من الممكن افتراض أن علياً بقي على موقفه السلبي واعتزل إلى حد ما في بيته أيام حكم أبي بكر وعمر بغض النظر عن مشاعره وطموحاته.

قبل علي الحقائق السياسية في عصره، ولكنه مع ذلك بقي مقتنعاً بحقيقة أنه أجدر الجميع بالخلافة، وأنه عومل بظلم حين حرم من حقه في قيادة الأمة. أما مشاعر علي تجاه الذين سبقوه في تولي منصب الخلافة فقد عبّر عنها أفضل تعبير بكلماته في أحد خطبه المشهورة من منبر مسجد الكوفة خلال خلافته. هذا العرض لمشاعره عرف بخطبته الشقشقية وقد أدرجها الشريف الرضي في نهج البلاغة<sup>٧</sup> الذي يضم خطب ورسائل ونصائح علي. وكما هو الحال فيما يخص محتويات هذا العمل (نهج البلاغة) البالغ القيمة، فإن من الصعب الشك بمصادقية هذه الخطبة، لاسيما وقد أوردتها كثير من الكتاب الأوائل قبل زمن طويل من عصر الشريف الرضي. يقول علي: "أما والله لقد تقمّصها فلان (أبو بكر)، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي. ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليّ الطير؛ فسدت دونهما ثوباً، وطويت عنها كشحاً. وطفقت أرثني بين أن أصول

بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقي ربه. قرأت أن أصبر على هاتنا أحجى. فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجاً. أرى تراثي هباً. حتى مضى الأول لسبيله، فادلى بها إلى فلان (عمر) بعده." ثم تمثّل بقول الأعرشى:

شَتَان ما يومي على كورها      ويوم حَيَان أخي جابر<sup>٨</sup>

"فيا عجباً! بينا هو يستقيلها في حياته، إذ عقدها لآخر بعد وفاته - لشدّ ما تشطرا ضرعها - فسيرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها، ويخشن مسّها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة إن أشق لها خرم، وإن أسلس لها تقحم. فمني الناس - لعمر الله - بحبط وشماس، وتلوّن واعتراض، فصبرت على طول المدة وشدّة المحنة؛ حتى إذا مضى لسبيله"<sup>٩</sup>

وهكذا وصف علي مشاعره تجاه حكم سلفية ولخص عصرهما. وكتب ابن أبي الحديد تعليقاً مطولاً على هذه الخطبة، وفسّر مميزات الخليفيتين الأساسيّة وسياساتهما في تدبير شؤون الأمة، وموقفهما من علي وتحفظات علي تدبيرهما.

نتحول الآن إلى الملاحظة الثانية التي ذكرناها سابقاً بخصوص الفترة المؤقّنة في تطور الإسلام الشيعي: وهي فترة المحاولات التي قام بها أبو بكر وعمر لإزاحة بني هاشم عموماً وعلي بشكل خاص عن حقوقهم الخاصة بقيادة "الأمة" وأول تلك المحاولات في هذا الاتجاه في اليوم التالي لوفاة النبي

حين خرجت فاطمة للمطالبة بملكية فذك. فقد أكدت أن هذه الملكية أعطيت لوالدها بلا شرط على أنها حصته من غنائم خيبر.<sup>١١</sup> اقتبس أبو بكر كلمات محمد "نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة" ورفض أبو بكر دعواها واحتفظ بذك على أنها تخص الأمة كلها، ورغم أن لفاطمة حق الميراث من أبيها إلا أنه حرّمها حقوقها في ملكية فذك.

وأصبحت قضية الميراث هذه فوراً إحدى موضوعات الجدل المحتدم بين الشيعة ومناوئهم.<sup>١٢</sup> ويبدو أن أبا بكر قصد برفضه هذا في الحقيقة، عدم قبوله بتأسيس دعوى على خلفيّة عائلية. واعترافه بعدالة مطلب أحد ما بحق ميراث مبني على روابط أسرية سيفتح الباب لمطالب أبعد وأشمل، وشعر أبو بكر أن قبوله بحقوق عائلة علي بميراث فذك قد يساوي الإقرار بحقوقها بخلافة محمد في جميع المجالات الدينية والمادية وأساس هذا الخوف هو أن محمداً بصفته قائد الأمة وبالتالي له حق خمس الغنائم الحربية، وعلى أساس هذا الحق الخاص فقد تملك فذك. وإن وراثة ملكية حقوق المنصب الرفيع والحق الخاص كان بشكل ما مختلفاً عن الميراث العادي. وقد أجمع المؤرخون على أن فاطمة رفضت الكلام مع أي بكر وعمر حتى وفاتها. وأوصت علياً أن يدفنها ليلاً وألاً يسمح لأي بكر وعمر بالمشاركة في جنازتها. واستجاب علي لوصيتها ونفذ ما طلبت، ودفنها بحضور أفراد عائلتها الذين شعروا إلى قبرها.<sup>١٣</sup>

دامت خلافة أبي بكر ما يزيد عن العامين بقليل ثم عين عمر لخلافته وهو الذي كان يحكم بالفعل أيام أبي بكر. والأسلوب الذي رتبّه أبو بكر لخليفته يجعلنا لا نشك أبداً بأن أبا بكر منذ توليه الخلافة قد قرر ذلك.

واتخذ الاحتياطات الكاملة ليحول دون أي احتمال معارضة لترشيحه  
 عمر، وحرص على ألا يواجه أية صعوبة. وكان أبو بكر مدركا لمطالب  
 علي بالخلافة والدعم والاحترام الذي تلقاه من جماعة محددة. وهكذا  
 استدعى أبو بكر أولاً عبد الرحمن بن عوف وأخبره بقراره وبعد بعض  
 الإقناع ضمن رضاه. والشخص الثاني والأخير الذي استدعاه أبو بكر  
 الخليفة على فراش الموت ليعرفه بقراره كان عثمان بن عفان. وعندما  
 أصبح قرار أبي بكر معلوماً عند العامة اضطرب بعض الصحابة الكبار  
 وشعروا بالبالغ الاستياء. وتجمعوا بقيادة طلحة ثم بعثوا بوفد للاحتجاج  
 على القرار، وحاولوا إقناع الخليفة بعدم ترشيح عمر.<sup>١٤</sup> ولم يكن هناك  
 شيء قادر على تغيير رأي أبي بكر، وبالتالي طلب من عثمان أن يدون  
 عهده الأخير لصالح عمر. ولم يكن أمام الأمة خيار بل طلب الخليفة (أبو  
 بكر) من الجميع قبول عهده بطاعة عمر بصفته الخليفة الجديد بعده، لأنه  
 لم يكن قادراً على اختيار أي شخص آخر أكثر جدارة من عمر. وتقول  
 وصية أبي بكر التي قرأها على الناس: " هذا ما عهد أبو بكر خليفة  
 رسول الله إلى المؤمنين والمسلمين... أما بعد فإني قد استخلفت عليكم  
 عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا، وإني لم أجِد خيراً منه."<sup>١٥</sup>

إن أي امرئ يقرأ عهد أبي بكر لعمر سيلاحظ على الفور أن ذلك القرار  
 لم يبن على قاعدة الشورى مع عليّة القوم، ولم يكن رأي الأمة بشكل عام  
 والذي كان يجب استمزاجه قبل الاختيار. بل إنه كان بيساطة قراراً  
 سلطوياً شخصياً أراد أبو بكر أولئك الصحابة الذين اعتبرهم الأكثر أهمية

على أساس أنهم يمثلون إرادة بطون قريش أرادهم أن يؤيدوا قراره، كما سنرى لاحقاً.

إن أهم نقطة في هذا العهد وطريقة الوصول إليه تكشف أن أبا بكر حين كتب عهده لعمر تجاهل علماً واستبعده من المشاورة - إذا كان هناك مشاورة في الواقع - كما استبعده من الذين حاول ضمان تأييدهم لعهده. وفي الحقيقة، تجمع كل مصادرها على أنه من بين كل الصحابة اختار أبو بكر اثنين فقط لمشاورتهم، وبعد ذلك ائتمنها على مسؤولية تأييد عمر بكل قواهما. هذه المسيرة كان قد خططها على الأغلب عمر نفسه لمواجهة أية معارضة محتملة من طرف بني هاشم وذلك من خلال التماس تأييد بطون قريش بعيداً عن بني هاشم. فعبد الرحمن بن عوف ينتمي لبني زهرة، وعثمان بن عفان ينتمي لبني أمية، وكلاهما كانا منافسين لبني هاشم قبل الإسلام. إن انبعاث نجم هذين الصحابين كان متميزاً جداً، وملاحظة ذلك مفيدة خاصة في تطور الخلافة لاحقاً؛ فهما يمثلان الطبقة الأكثر غنى في الجماعة المسلمة.<sup>١٧</sup> وعبد الرحمن كان صهر عثمان وكان من المتوقع أن يؤيد كل منهما الآخر. وكان عبد الرحمن متأكداً من تأييد سعد بن أبي وقاص القوي له بصفته من بني زهرة وابن عمه. وبهذا الأسلوب ضمن أبو بكر تأييد وتأثير أهم مكونات الدائرة السياسية العليا من الصحابة المهاجرين لمواجهة أي نشاط محتمل من طرف بني هاشم ومؤيديهم لمصلحة ترشيح علي.

واختلاف علي مع سياسات عمر في مجالي السياسة والقضايا الدينية ناقشه لاحقاً عندما نتعرض لاختيار عثمان. وتكفي هنا الإشارة إلى أن النشاط



الكثيف والمليء بالأحداث خلال السنوات العشرة من خلافة عمر حيث تم الفتح الهائل في مناطق الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية وشارك فيه كبار صحابة النبي ظل علي في الظل ولم يظهر له أي نشاط. ولم نر علياً يتسلم أية مسؤولية تحت قيادة عمر أو أبي بكر وسيبقى كذلك خلال خلافة عثمان. والاستثناء الوحيد جرى حين تولي علي إدارة المدينة عندما خرج عمر في رحلة إلى فلسطين مصطحباً معه كبار الصحابة والقادة العسكريين لتصويب تنظيمات الفتح والدواوين. وكان علي هو الوحيد الغائب عن حدث استسلام القدس وسورية بشكل عام. وقد عمر تحركات بني هاشم بمنعهم من الخروج خارج المدينة. وهذا واضح من واقع أنه ما من هاشمي بما في ذلك علي شارك في أي نشاط خارج العاصمة (المدينة).

وأفضل ما يوضح موقف عمر من علي هو الحوار الذي دار بين عمر وابن عباس. ففي مناسبة ما سأل عمر ابن عباس "لماذا لا ينضم علي إلينا ويشاركنا؟ ولماذا لا تناصر عائلتك أباك وهو عم النبي أو أنت، وأنت ابن عمه؟" فأجاب ابن عباس: "أنا لا أعرف." فقال عمر: "ولكنني أعرف السبب، إن قريش كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً."<sup>١٩</sup> وفي رواية أخرى، عندما سمع عمر بعض أبيات زهير بن أبي سلمى التي تصف مجد ونبل وفضائل ذرية بني عبد الله بن غطفان قال لابن عباس: "لا أعرف بطناً من قريش أجدر بهذه الأبيات من بني هاشم لقرباتهم بالنبي وعلو مكانتهم، لكن الناس لا ترضى أن تجتمع النبوة والخلافة في عائلتكم لئلا تتعالوا عليهم وتفرحوا بها دوهم. لقد

أرادت قريش أن تختار أميرها بنفسها، واختاروا أحقهم، وقد هداهم الله في ذلك. فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، أما قولك بأن قريش اختارت أميرها واهتدت لأحسن خيار فقد يكون صحيحاً، لو كان هذا الاختيار متوافقاً لمن اختاره الله من قريش. وأما قولك بأن قريش لا تريد أن تجتمع النبوة والخلافة لنا، فليس مدهشاً، لأن الله وصف قوماً بالكراهية الآية: "ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم" سورة محمد آية ٩، وعند هذا الحد غضب عمر وقال: "قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره أن أفرك عنها، فتزيل من رثك مني. أخبرت أنك تقول إنما حسدها عنا حسداً وظلماً." فقال ابن عباس: "أما قولك ظلماً فقد تبين، وأما قولك حسداً؛ فلقد حسد إبليس آدم، ونحن ولده المحسودون." فاستشاط عمر غضباً ورد عليه بحدة قائلاً: "هيهات! أيت قلوبكم يا بني هاشم إلا حسداً ما يحول، وضغناً وغشاً." فقال ابن عباس: "تلطف يا أمير المؤمنين، ولا تصف قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً،<sup>٢١</sup> ولا تنس أن النبي هاشمي." فقال عمر: "دعنا من هذا." <sup>٢٢</sup> هذا الحوار يفسر نفسه بنفسه، ولا حاجة للتعليق عليه. ويكفي القول أنه من أفضل مما يكشف عن موقف عمر تجاه علي من جهة، وموقف بني هاشم من الخلفاء الذين سبقوا علياً من جهة أخرى.

وعلى كل حال، فإن سيطرة وقوة شخصية عمر وفهمه الواقعي لتيار ذلك الزمن كانا كافيين لأن لا يسمحا بظهور سخط خلال حكمه، الذي شغله باستمرار بفتح أراض غنية جديدة ويضمها لدار الإسلام. لقد خدمت حروب الردة أبا بكر، وكذلك الفتح الخارجي خدم عمر وذلك

بأن بقي الوضع الداخلي ضمن الجماعة الإسلامية مستقراً. وتميزت خلافة أبي بكر بأنها جسدت الطموحات الإسلامية في البساطة والعدالة والمساواة والإخلاص لقضية الإسلام، والحماس العقائدي والتوازن الاجتماعي - الاقتصادي حسب فهم المسلمين لها. وبعد عشرة أعوام في الحكم واجه الخليفة القوي نهايته بطعنة عبد فارسي وتوفي في ٢٦ ذي الحجة ٢٣ هـ ٣ تشرين الثاني نوفمبر ٦٤٤ م.

وعلى عكس أبي بكر، فإن عمر طيلة خلافته لم يستطع أن يجد ثقة كاملة بأي فرد يأتمنه لتبرير تسميته كمرشح للخلافة.<sup>٢٣</sup> ومع ذلك، اقتصر في خياراته على ستة أفراد من كبار الصحابة المهاجرين، الذين طلب منهم اختيار أحدهم خليفة جديداً. وأعضاء هذه اللجنة، التي صار الفقهاء والمتكلمون المتأخرون يذكرونهم باسم الشورى، هم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام، وطلحة بن عبد الله بالإضافة إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب نفسه بصفته مستشاراً فقط وليس مرشحاً للخلافة.<sup>٢٤</sup> وهناك عاملان جديران بالانتباه إليهما في صيغة هذه اللجنة: الأولى، لم يكن هناك رأي للجماعة الإسلامية في المدينة لا في تحديد المرشحين ولا في الشورى داخل هذه اللجنة لاختيار الخليفة الجديد، بل إن الأمر بقي في يد الأشخاص الستة الذين سماهم عمر، وبالتالي لا يمكن تسمية تلك العملية لا بالديمقراطية ولا بالشورى الحقيقية. الثاني، وهو الأهم، وذلك هو أن الأنصار استبعدوا من تلك اللجنة وبالتالي حُرموا من حق إسماع صوتهم فيما يخص اختيار القيادة الجديدة. وربما كان هذا بسبب أن الأنصار

كانوا أكثر تعاطفاً - كما ظهر في حدث السقيفة - مع علي، أو أن عمر أراد استبعاد أية إمكانية لأنصاري أن يترشح لمنصب الخلافة. وهذا الاستبعاد شكّل ضربة قاضية لتأثير الأنصار في الحياة السياسية. يومئذٍ وإلى الأبد.

ليس في نيتنا تدوين تفاصيل ما ورد في هذه اللجنة (الشورى)، وإنما أثرها على تطور التشيع. تجمع المصادر كلها على أن عمر وضع بدقة نظام هذه الشورى والذي يجب أن يضبط حركتها. وبنود هذا النظام هي كما يلي:

١- الخليفة الجديد يجب أن يكون أحد أعضاء اللجنة الستة ويختار بأكثرية الأصوات.

٢- في حال وجود مرشحين متساوين في الأصوات يفوز من يختاره عبد الرحمن بن عوف.

٣- أي فرد من أعضاء اللجنة يتأخر عن المشاركة في الاختيار يقتل.

٤- عندما يتم اختيار مرشح ويعارضه عضو أو اثنان ويرفضون قبوله كخليفة، يقتل المعارضون، وإذا جرى انقسام متساو ثلاثة أصوات مقابل ثلاثة يقتل الثلاثة الذين يعارضون الثلاثة الآخرين حيث يكون عبد الرحمن بن عوف.

ولتأكيد ذلك وتقويته استدعى عمر أبا طلحة الأنصاري<sup>٢٥</sup> من الخنزرج وطلب منه اختيار خمسين رجلاً من قبيلته، يقفون جميعاً على باب البيت حيث يجتمع أعضاء اللجنة وسوفهم في أيديهم ومهمتهم إلزام أعضاء

اللجنة باتباع النظام الذي وضعه عمر.<sup>٢٦</sup> وضمن عمر بتعيينه هذا الأنصاري من الخزرج الذين أرادوا القيادة لأنفسهم عقب وفاة النبي، ضمن أن تؤخذ أوامره على محمل الجد.

من الصعب جداً أن يجد المرء ما يوحي له أن يشك بمصداقية رواية أن عمر فرض نظام عمل أعضاء الشورى. فالمصادر المبكرة تشهد وتؤكد تربيات عمر للشورى ونظامها. ويحري المصادر مثل البلاذري واليعقوبي والطبري والمسعودي وما تبعهم مثل الذهبي وابن الأثير ظهر أن جوهر الرواية واحد في جميع هذه المصادر. جميع هؤلاء المؤرخين أخذوا رواية الشورى من مصادر متنوعة تنتمي غالباً لمدارس فكرية متصارعة وميول متباينة.

نشرت نبيه آيوت<sup>٢٨</sup> منذ فترة قريبة ورقة بردي فيها مقتطفات من تاريخ الخلافة لابن إسحاق مع تفسير قيم بخصوص الشورى والمصطلحات التي استخدمها عمر. وقد كتب ابن إسحاق تاريخه قبل المصادر التي ذكرناها أعلاه، ومن الأهمية البالغة ملاحظة أن رواية ابن إسحاق هي الرواية ذاتها في مصادرها. وهذا ما يثبت صحة رواية مؤرخينا. وإلى جانب إجماع مؤرخينا على الرواية ذاتها، فإن الظروف السائدة آنذ وعوامل مؤثرة أخرى تشهد جميعها بصدق هذا الخبر. عندما نقارن ميزات عمر وشدة المسيطرة على شخصيته والسياسات الحاسمة التي صبغت فترة حكمه، مع طبيعة التعليمات التي فرضها على أعضاء مجلس الاختيار في تلك الفترة، فإننا نجد ميزات شخصيته تتوافق مع تعليماته. وبالإضافة إلى ذلك، ضمن الطريقة التي روى فيها المؤرخون الشروط (تعليمات عمر) يتضح أنه من

جهة أولى كان عمر متأكداً بأن واحداً من أولئك الستة يمكن أن يصبح الخليفة التالي، ولكن من جهة أخرى، كان متأكداً أنهم سيعارضون بعضهم بعضاً ويستغل كل منهم الفرصة كي يصل إلى مركز القيادة. وبناءً على ذلك، يمكننا الاستنتاج أن عمر كان خائفاً من الانشقاق الخطير بين المرشحين المحتملين والعواقب المدمرة التي يمكن أن تحلّ بجماعة المسلمين اليافعة. وهذا واضح من الرواية التي تقول: إن عمر استدعى الأعضاء الستة وقال لهم: "نظرت فوجدت أنكم قادة القوم، ولا تصحّ خلافة إلا لأحدكم، ولكن أخاف عليكم الشقاق فيما بينكم فيتفرق الناس أنفسهم".<sup>٢٩</sup> وبسبب إحساسه وضع تلك التعليمات الصارمة. حيث أنه وجدها ضرورية لحماية الأمة من تأثيرات الانشقاق المدمر.

هذه المعايير (التعليمات) على كل حال حققت هدفين يبدو أنهما كانا يستغرقان تفكير الخليفة المأثت، وهما ما فكر أنهما في مصلحة الأمة. الأول أن هذه المعايير حفظت وحدة الأمة اليافعة وإن يكن مؤقتاً. والثاني أنه بهذه المعايير الحاسمة أكمل عمر مهمة إبعاد بني هاشم عن الخلافة، تلك المهمة التي تبناها مباشرة حال وفاة النبي. وبما أن عمر كان مدركاً لمطالب علي، وتذكر أن علياً لم يبايع أبا بكر إلا بعد مضي ستة أشهر، عرف أن علياً لن يوافق أن يجعل مطالبه موضوع مناقشات مجلس الستة ما لم يجبر على ذلك. وبرغم معرفة عمر بطموحات كل من الزبير وطلحة، أدرك عمر أن علياً أو عثمان من بين الآخرين هما الأوفر حظاً، وفي الواقع فإنهما الوحيدان اللذان يجوزان على الدعم الضروري لتقديم نفسيهما كمرشحين جديين، وكل منهما يؤيده أفراد عائلته، الهاشميين والأمويين.

وادرّك عمر أن علياً يحظى بفرصة أفضل بحسب الخلفيات التي ذكرناها في الفصل الأول. ما عاد الخليفة قادراً على تجاهل حقوق علي في القيادة، وربما أن علي لم يفرض نفسه في مجلس الستة (الشورى)، فإن ذلك يعني كأن عمر أفسح المجال أمام ابن عم النبي ومرشح بني هاشم ليكافح من أجل الوصول إلى الخلافة.<sup>٢٠</sup> ولكن عمر بتعيينه عبد الرحمن بن عوف رئيساً للشورى ويجعل كلمته هي العليا، فإن عمر أغلق الباب بإحكام أمام علي، وضمن فعلياً ترشيح عثمان. وكانت هذه حقيقة كاملة الوضوح فقد أوردتها مصادرنا كلها تقريباً بكلمات علي نفسه. فعندما سمع علي بتعليمات عمر وأن عبد الرحمن منح الكلمة الفصل احتج قائلاً لقوم من بني هاشم كانوا معه: "إن أطيع فيكم قومكم لم تؤمروا أبداً. وتلقاه العباس فقال: عدلت عنا فقال: وما علمك؟ قرن بي عثمان، وقال: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلان رجلاً، ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون فيوليها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن، فلو كان الآخران معي لم ينفعاي، بله إني لا أرجو إلا أحدهما".<sup>٢١</sup>

وهذا الأسلوب وجه عمر ضربة نهائية لمطالب بني هاشم السامية، وذلك بإطلاق يد منافسيهم التقليديين بني أمية لانتهاز الفرصة للوصول إلى القيادة. ورأى الأمويون ذلك من جهتهم فرصة ذهبية، ونظر أبو سفيان بشكل خاص إلى أن اختيار عثمان هو عودة بني أمية جميعهم إلى مركز القيادة وعمل علي إحراز الخلافة لعثمان بكل طاقته وموارده.<sup>٢٢</sup>

وقد ورد أن العباس بن عبد المطلب حذر علياً المساهمة في الشورى، وأن عليه أن يحافظ على حريته في العمل،<sup>٢٢</sup> ولكن شروط عمر للشورى منعت علياً من قبول نصيحة عمه. وتجمع مصادرنا على أن علياً استسلم للأمر الواقع تحت ضغط مباشر، وقد هددوه بالسلاح إذا لم يدعن لوصية عمر.<sup>٢٤</sup> وعندما نذكر احتجاج علي قبل اثني عشر عاماً ضد ترشيح أبي بكر يوم وفاة النبي، يصبح تقدير خيبة أمل علي العميقة سهلاً، حيث صار يرى للمرة الثالثة شخصاً آخر يفضل عليه. وهذا ما وصفه في خطبته الشقشقية التي أوردنا جزأها الأول سابقاً: "حتى إذا مضى لسبيله (عمر) جعلها (الخلافة) في جماعة زعم أبي أحدهم، فيا لله وللشورى، متى اعترض الريب في مع الأول منهم، حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر (الذين يشبه بعضهم بعضاً دون علي) لكنني أسفقت إذ أسفوا (استسلم للأمر الواقع ولم يخالفهم) وطرت إذ طاروا؛ فصفى رجل منهم لضغنه (يشير إلى سعد وكان بين علي وسعد ضغينه)، ومال الآخر لصهره (يشير إلى ميل عبد الرحمن إلى عثمان فزوجة عبد الرحمن وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط هي اخت عثمان لأمه) مع هُنْ وهُنْ (يشير إلى أغراض أخرى يكره ذكرها) إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضينه (يقصد عثمان ويصفه بالمتكبر) بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث عليه فتله (قضى عليه تدبيره) وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته."<sup>٢٦</sup>

ليس من السهل معرفة ما جرى من مناقشات وجدل داخل هذه الشورى التي آلت إلى تعيين عثمان. في غمرة ما وصلنا من روايات ثمة رواية مجمع



عليها وهي في الوقت ذاته مهمة جداً وأكثر الروايات كشفاً لما جرى. ونقرأ فيها أنه بعد ثلاثة أيام من الجدل المستمر والتشاجر، وحين تجمع الناس في المسجد لصلاة الفجر تجمهر المسلمون لسماع قرار لجنة اختيار الخليفة عرض عبد الرحمن بن عوف الخلافة على علي بن بشرطين: الأول أن يعمل بالقرآن وسنة النبي، والثاني أن يتبع سيرة الخليفين (الشيخين). وقبل علي الشرط الأول، وأبى أن يلتزم بالثاني، وأعلن أنه حين لا يجد حكماً في القرآن أو في سنة النبي ثم "على جهدي من ذلك وطاقتي" عندئذ استدار عبد الرحمن بن عوف إلى عثمان ووضع أمامه الشرطين عينهما، فأجاب عثمان فوراً بالإيجاب، فأعلنه خليفة.<sup>٢٧</sup> وقد صارت هذه النقطة (الشرط الثاني) أساس الخلاف في الفقه بين السنة والشيعة. حيث رفض فقهاء الشيعة قرارات الخلفاء الثلاثة الأول.

هذه الرواية تحمل صفة إجماع المؤرخين من سنة وشيعة، وبالتالي من الصعب جداً مساءلة مصداقيتها كما فعل بعض الباحثين. وإذا كان المتكلمون السنة المتأخرون حاولوا تجاهلها، فإن ذلك يعود إلى حقيقة جديدة تصاحية وجدت فيما بعد وتقضي بقبول اجتهادات الخلفاء الأربعة الراشدين، واعتبار قراراتهم سوابق لتأسيس مفهوم "الجماعة" وبعيداً عن البرهان التاريخي، فإن العامل المقنع للبرهان على مصداقية هذه الرواية هو طبيعة علي الاستقلالية المشهورة.

وعندما نحاول توضيح الخصال المميزة لعلي منذ إسلامه وحتى وفاته نجد الخصال التالية. كان لا يساوم على المبادئ، ومستقيماً وفوق كل شيء صارماً في مواقفه الدينية؛ وتلك هي العوامل التي ربما ساهمت في الفشل

الأخير أيام خلافته. كانت هذه الخصال مسيطرة على عمله أبداً. وليس من الضروري هنا العودة إلى تفاصيل ترجمة حياته، لكن أفضل تعبير عن استقلالية موقفه يمكن أن نجده في أمثلة عديدة مثل إصراره على إقامة الحد (معاوية) على عبد الله بن عمر على قتله الهرمزان. وفي مناسبة أخرى حين رفض الجميع إقامة الحد على الوليد بن عقبة لتعاطيه الخمر وجلده علي بنفسه. ولعل أفضل مثل هو تمسكه بقراره حين عزل معاوية وجميع الولاة الأمويين الذين استعملهم عثمان وكان المقربون منه قد نصحوه بالتريث حتى يضمن قوة خلافته.

وكما شرحنا سابقاً، فحتى خلال فترة نشاط علي العام كانت هناك نقاط خلاف جدية بينه وبين الخليفين أبي بكر وعمر. لقد عارض علي بقوة تدوين عمر الدواوين ونصحه بتوزيع كامل الموارد وبعدم الاحتفاظ بشيء، ولم يقبل عمر ذلك. ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي اختلف فيها مع الخليفين، بل شمل الخلاف نقاطاً إدارية ومالية عديدة أشارت إليها المصادر التاريخية. لقد حفظ لنا نصر بن مزاحم المنقري (توفي ٢١٢ هـ - ٨٢٧ م)، وهو أحد الكتاب الأوائل الهاميين والثققات، المراسلات المتبادلة بين علي ومعاوية التي تكشف الكثير من القضايا. في إحدى رسائل معاوية لعلي لا يكتفي معاوية بتحميل علي مسؤولية اغتيال عثمان فقط، والتي هي مضمون الرسالة الرئيسي لحسب، بل واجههه باتهامات أخرى أيضاً. لقد اتهمه بالثورة على أبي بكر حين تخلف عن مبايعته، وحين لم يتعاون مع الخليفين أبي بكر وعمر بل وخلافه المستمر معهما.<sup>٢٢</sup> وفي جواب علي لمعاوية على تلك الرسالة يجادل بأن تأخره في

مبايعة أبي بكر كان بسبب حقيقة أنه اعتبر نفسه مؤهلاً لقيادة الأمة أكثر من أبي بكر للأسباب والأسس التي واجه بها الأنصار ورأى أبو بكر نفسه مؤهلاً للقيادة ثم رفض الاتهامات الأخرى. وذلك أنه، إذا كانت حجة أبي بكر هي قرابته بالنبي، فإن بني هاشم أقرب منه وحقهم أوضح.

وكان عبد الرحمن بن عوف يعرف هذه الاختلافات بتفاصيلها، ويعرف أيضاً طبيعة شخصية على الاستقلالية. ولكن الآن، وبعد وفاة هؤلاء الثلاثة أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح ذوي الشخصيات القوية المسيطرة لم يكن باستطاعة عبد الرحمن تنحية علي جانباً بدون حجة قوية تجاه منافسيه (أو منافسه الأوفر حظاً عثمان)، الذين كانوا دونه قيمة من نواح كثيرة. واحتاجت عملية إقصائه إلى تعيينه في لجنة الشورى حيث لا يحظى بتأييد غالبية كافية، وعرضت عليه الخلافة ضمن شروط كافية لكي يرفضها.

كان عثمان رجلاً ضعيفاً، وإلى جانب علاقاته بأفراد عائلته (الأمويين) وصداقاته، فإن ضعفه كان على الأغلب هو ما جعل عبد الرحمن يدعم اختياره. كان عبد الرحمن باختياره رجلاً للخلافة وهو يعرف مدى ضعفه أن يجعله يعتمد عليه وبالتالي يخدم مصالح الأرستقراطية القرشية وأغنيائهم. أما علي الذي ينتمي إلى طبقة الفقراء الزهاد، فلا تربطه مصالح حقيقية بطبقة عبد الرحمن وأمثاله، وكثيراً ما نقل عنه إدانات قوية لنعيم الدنيا يقول مثلاً: "يا دنيا غري غري." وعلى نقيض علي كان عبد الرحمن وأعضاء الشورى الآخرون على مستوى عالٍ من الفنى والسعة وبعد فتح أراضي الإمبراطورية الفارسية ومعظم أراضي

الإمبراطورية البيزنطية كان هؤلاء يطمحون لاستغلال الفرص الجديدة الهائلة التي فتحت أمامهم. وقد وُفرت لهم خلافة عثمان الفرصة، فخلال سنوات قليلة جمع هؤلاء ثروات طائلة، وصاروا أكثر المسلمين غنى. فقد خَلَفَ عثمان عند موته ثروة من ١٠٠٠٠٠٠ دينار ومليون درهم وعقارات قدرت بـ ١٠٠٠٠٠٠ دينار بالإضافة إلى قطعان الخيل والإبل. كذلك قدرت ثروات عبد الرحمن وطلحة وسعد بن أبي وقاص بالملايين.<sup>٤٦</sup> وهكذا، في الجانب العلاقات العائلية، والسياسات الحزبية، كان من الطبيعي أن يختار هؤلاء رجلاً يمثل مصالح طبقتهم.

لم يمر اختيار عثمان للخلافة بدون احتجاج علي القوي، ومعارضة من مؤيديه الأشداء. وإلى جانب التراع القديم بين بني هاشم وبني أمية الذي يعود إلى زمن هاشم بن عبد مناف وعمه عبد شمس حول قيادة قريش الدينية والسياسية، فإن المرء يستطيع أن يتصور مشاعر بني هاشم الآن حين آلت القيادة التي أسسها محمد الهاشمي إلى أموي. لقد أظهرت الخطب والأعمال المتبادلة بين مؤيدي علي ومؤيدي عثمان عندما تم اختيار عثمان للخلافة أظهرت الموقف السياسي، بل ومسارات التفكير والاختلافات الأساسية وأساليب معالجة القضايا المختلفة. خاطب ابن أبي سرح الأموي سيء السمعة، وطريد النبي:<sup>٤٧</sup> عبد الرحمن مؤيداً بحماس اختيار عثمان قائلاً: "إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان" فأجابه عمار بن ياسر المؤيد المتحمس لعلي مذكراً إياه بمعاداته للإسلام قائلاً: "متى كنت تنصح المسلمين؟"<sup>٤٨</sup> وتبع ذلك تبادل الخطب بين الهاشميين والأمويين. وفي هذا المقام فإن من المهم إمعان النظر في تصريح عمار

التالي: "أيها الناس لقد أكرمنا الله بنبيّه، وأعزنا بدينه، فأني تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم." فأجابه أحد بني مخزوم مناوئي بني هاشم غاضباً بقول: "لقد عدوت طورك يا ابن سمية - وكان عمار من عرب الجنوب من اليمن - وما أنت وتأمير قريش لأنفسهم." <sup>٨</sup> وكان احتجاج المقداد لصالح علي أقوى وأشد، قال: "ما رأيت مثل ما أوتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم. إني لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلاً ما أقول إن أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل؛ أما والله لو أجد عليه أعواناً." فقال عبد الرحمن بن عوف: "يا مقداد اتق الله، فإني خائف عليك الفتنة." فقال رجل للمقداد: "رحمك الله! من أهل هذا البيت ومن هذا الرجل؟" فقال: أهل البيت بنو عبد المطلب والرجل علي بن طالب. <sup>٩</sup> وربما يجب أخذ هذه الاحتجاجات القليلة المتبقية لنا على أنها وثائق جديّة لا مجرد مخاطبات حماسية: إنها متفرقات تخبرنا عن الاتجاهات الفكرية والسياسية في هذه الفترة الخطيرة من تاريخ الإسلام. وما يجب ملاحظته هنا هو استخدام مصطلح "أهل البيت" وعلاقته بالقيادة (الخلافة). كما يجب تذكّر أهمية العائلات النبيلة ومفهوم النسب الديني عند بعض العرب، كما شرحناه في الفصل الأول وعندها يصبح من السهل فهم كيف اضطرب بعض الناس حين أقصي أهل بيت النبي عن مركز القيادة بعد وفاة النبي.

القضية الهامة جداً التي يمكن النظر بها هي رفض علي اتباع سابقات الخلفين الأولين. شكل هذا الرفض: التطور المبكر والأكثر أهمية في تمييز مدرستين فقهيتين: شيعية بما في ذلك جميع فروعها من الثني عشرية

وإسماعيلية وزيدية وسنية بفروعها الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وغيرها من الفروع المنسبة. إذا كان من الواجب تأريخ الاختلافات الأيديولوجية منذ حدث السقيفة، فإن الاختلافات الفقهية والكلامية يجب تأريخها منذ حدث الشورى حيث رفض علي اتباع سابقات الشيخين. وهذا الرفض يشكل حجر الزاوية في تطور الفكر الفقهي (القانوني) عند الشيعة. إن دراسة تاريخ الأفكار تخبرنا أن فكرة ما تحتاج غالباً إلى زمن طويل لكي تأخذ صيغتها الكاملة والنهائية، والفكرة التي عبر عنها علي في تلك الشورى استغرقت خمسين عاماً على الأقل حتى ظهرت بصيغة مستقلة ومميزة، ولم يكتمل تطورها حتى عهد إمامة الإمام جعفر بن محمد الصادق.

وختاماً لهذا الفصل فإن بمقدورنا أن نقرر أن اختيار عثمان بني بشكل أساسي وواسع على اعتبارات اقتصادية واجتماعية وقبلية، كما شهدت الخطب التي القيت نيابة عنه. ومن جهة أخرى فإن الاحتجاجات ضد تسمية عثمان وتأيداً لعلّي التي عرضها رجال مثل عمّار والمقداد كانت إلى حدّ بعيد مبنية على توق وطموحات دينية. هذه الاحتجاجات والطموحات التي عبر عنها مؤيدو علي من خلال التذكير بقرابته بالنبي والخدمات التي قدمها للإسلام هي في الواقع العملي صدى البيانات التي أعلن عنها تأيداً لعلّي يوم السقيفة قبل أكثر من عقد من الزمن. وبرغم موقف علي السلبي وانزوائه يومئذٍ فإنه بقي يتمتع بتأييد وإخلاص العديد من الرجال المسلمين.

### ملاحظات الفصل الثالث

- ١- لمعرفة مساهمة علي الفعالة والمستمرة في خدمة الإسلام وتقدمه خلال حياة محمد انظر سيرة ابن هشام فهي أكثر المصادر مصداقية وأوسعها.
- ٢- هذا التضاد شرحه فيشيا فيغليري في مقالها في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى بعنوان "علي" E
- ٣- الطبري ج ١ ص ١٨٢٧، والبلاذري ج ١ ص ٥٨٨
- ٤- انظر مثلاً الاستيعاب ج ٣ ص ١١٠٤ ومن المصادر الشيعية المجلسي، بحار الأنوار ج ٨ ص ٥٩ والاحتجاج ج ١ ص ١٠٢
- ٥- فيغليري ملاحظة رقم ٢
- ٦- من المصادر الاثني عشرية انظر أصول الكافي وفروعه، ومن المصادر الإسماعيلية انظر دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد
- ٧- بعض الدارسين يشكون بمصداقية فُج البلاغة، وقالوا أن الشريف الرضي كتبه ونسبه لعلّي. وهذه التهمة لا أساس لها من الصحة كما كشفت عنها بحوثي. فقد مات الشريف الرضي الذي جمع فُج البلاغة عام ٤٠٦ هـ ١١١٥ م ولكن معظم مواد فُج البلاغة - وقد دققها كلمة بكلمة - موجودة في مصادر كتبت منذ فترة طويلة قبل الشريف الرضي، وهذه المصادر تتضمن نصر بن مزاحم المقرئ، وقعة صفين. تاريخ اليعقوبي. الجاحظ في البيان والتبيين. والكمال للمبرد، وأنساب الأشراف للبلاذري ومصادر أخرى من القرون الأول والثاني والثالث والرابع الهجريين. وإني أعد الآن ترجمة لنهج البلاغة وفيها سوف أحلل وأناقش هذه المصادر.
- ٨- كان لحيان إمارة في الإمامة وقد استبقى الشاعر الأعشى من بني قيس تحت رعايته وعنايته. وبعد وفاة حيان فقد الأعشى ما كان يتمتع به، وأصابه الفقر، وصار يتنقل من مكان لآخر. وياقتباس علي لبيت الأعشى أراد أن يقارن وضعه أيام الرسول بوضع الأعشى عند حيان وبوضعه بعد وفاة

النبي بوضع الأعشى بعد وفاة حيان. انظر شرح نهج البلاغة، ابن أبي

الحديد ج ١ ص ١٦٦

٩- نهج البلاغة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة ١٩٦٣ ج ١ ص ٢٩

وفي المصادر ما قبل الشريف الرضي، انظر شرح النهج لابن أبي الحديد

ج ١ ص ٢٠٥، وأبو جعفر أحمد بن محمد (توفي ٢٧٤ هـ - ٨٨٧ م)

كتاب المحاسن، وإبراهيم بن محمد الثقفي (توفي ٢٩٣ هـ - ٨٩٦ م) كتاب

الفارات. وانظر أبا علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي (توفي ٣٠٣ هـ -

٩٠٥ م) وأبو القاسم البلخي (توفي ٥٠٢ هـ - ١١٠٨ م) كتاب

الانصاف حيث اقتبس الجميع هذه الخطبة. وانظر أيضاً الصدوق (توفي

٣٨١ هـ - ٩٩٠ م) علل الشرائع ص ٦٨ ومعاني الأخبار ص ١٣٢،

والفريد (توفي ٤١٣ هـ - ١٠٢٢ م) الإرشاد ص ١٦٦، والطوسي (توفي

٤٦٠ هـ - ١٠٦٧ م) الأمالي ص ٢٣٧

١٠- ابن سعد ج ٢ ص ٣١٤، ابن هشام ج ٣ ص ٣٢٥، اليعقوبي ج ٢ ص

١٢٧، الاستيعاب ج ٢ ص ٥٧١ وفيليري مثال "فدك" دائرة المعارف

الإسلامية الطبعة الثانية.

١١- روايات متعددة في طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٣١٤ وصحيح البخاري

ج ٢ ص ٤٣٥ وتجد موقف الشيعة في اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٧ والأميني

أعيان الشيعة ج ٢ ص ٤٦١

١٢- رسائل الجاحظ تح. ساندوبي من كتابه في العباسية ص ٣٠٠

١٣- الطبري ج ١ ص ١٨٢٥ البخاري ج ٥ ص ٢٨٨ وابن سعد ج ٨

ص ٢٩ والمسعودي التنبيه ص ٢٨٨ ابن حجر الصواعق المحرقة ص ١٢

١٤- انظر رواية الطبري كاملة ج ١ ص ٢١٣٧ واليعقوبي ج ٢ ص ١٣٦

وشرح النهج ج ١ ص ١٦٣

١٥- اليعقوبي، والطبري ج ١ ص ٢١٣٨ والعقد الفريد ج ٤ ص ٢٦٧

باختلاف طنيف



١٦- الطبري ج ١ ص ٢١٣٧ واليعقوبي، وشرح النهج ج ١ ص ١٦٤ وانظر أيضاً الكامل للمبرد

١٧- المسعودي، مروج ج ٢ ص ٣٣٢

١٨- فيلغيري. المقال بعنوان "علي" دائرة المعارف الإسلامية طبعة ١ E

١٩- الطبري ج ١ ص ٢٧٦٩

٢٠- القرآن سورة محمد آية ٩

٢١- القرآن سورة الأحزاب آية ٣٣

٢٢- الطبري ج ١ ص ٢٧٧٠

٢٣- أبو عبيدة بن الجراح الذي حظي بثقة مطلقة من عمر بن الخطاب توفي بالطاعون سنة ٦٣٩ م

٢٤- ابن سعد ج ٣ ص ٦١ وص ٣٣١ والبلاذري ج ٤ ص ١٦ واليعقوبي ج ١

ص ١٦٠ والطبري ج ٢ ص ٢٧٧٨ والمسعودي التنبيه ص ١٦٣

وص ١٨٥ والعقد الفريد ج ٤ ص ٢٧٥

٢٥- الاستيعاب ج ٤ ص ١٦٩٧ - ١٦٩٩ والتهذيب ج ٣ ص ٤١٤

٢٦- ابن سعد ج ٣ ص ٣٤١ والبلاذري ج ٥ ص ١٨ واليعقوبي ج ٢ ص ١٦٠

والطبري ج ١ ص ٢٧٧٩ والمسعودي تنبيه ص ٢٩١ والعقد الفريد ج ٤

ص ٢٧٥ وشرح النهج ج ١ ص ١٨٧

٢٧- انظر الرواية بأسانيد مختلفة في الطبري والبلاذري بينما ينقل ابن سعد

عن الواقدي الذي كان عثمانياً ويطابق رواية أبو مخنف الشيعي وكذلك

روايات عبد الله بن عمر وابن عباس.

٢٨- دراسات studies عدد ١ ص ٨٠-٩٩ مجلة

٢٩- ابن سعد ج ٣ ص ٣٤٤ والبلاذري ج ٥ ص ١٦-١٨ والطبري ج ١

ص ٢٧٧٨ والعقد الفريد ج ٤ ص ٢٧٥

٣٠- انظر مباحثات عمر مع أعضاء الشورى وبخاصة مع علي وعثمان

الطبري ج ١ ص ٢٧٧٩ والبلاذري ج ٤ ص ١٦ وأقدم المصادر في هذا

الموضوع هو تاريخ الخلفاء يروي الرواية ذاتها عن عمر وأعضاء اللجنة

- ويشير إلى إدراك حقوق علي وليس قبولها وانظر آبوت. دراسات  
عدد ١ ص ٨١ وابن سعد ج ٣ ص ٦٢ و ٣٣٩ حيث هناك رواية  
متأخرة تنطوي على تغيرات هامة على حساب علي.
- ٣١- البلاذري ج ٤ ص ١٩، الطبري ج ١ ص ٢٧٨٠،  
والعقد الفريد ج ٤ ص ٢٧٦ وشرح النهج ج ١ ص ١٩١
- ٣٢- الأغاني ج ٦ ص ٣٣٤
- ٣٣- البلاذري ج ٥ ص ١٩ والطبري ج ١ ص ٢٧٨٠  
والعقد الفريد ج ٤ ص ٢٧٥
- ٣٤- البلاذري ج ٤ ص ٢١ والطبري ج ١ ص ٢٧٧٩
- ٣٥- مثلاً "حين لا تصح مقارنتي بأبي بكر وعمر فكيف تصح مع  
سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعثمان"
- ٣٦- انظر ملاحظة رقم ٨
- ٣٧- البلاذري ج ٥ ص ٢٢ واليعقوبي ج ١ ص ١٦٢ والطبري ج ١  
ص ٢٧٩٣ والعقد الفريد ج ٤ ص ٢٧٩ وشرح النهج ج ١ ص ١٨٨  
و ١٩٤
- ٣٨- البلاذري ج ٥ ص ٢٤ والطبري ج ١ ص ٢٧٩٦
- ٣٩- البلاذري ج ٥ ص ٣٣ والمسهودي مروج ج ٣ ص ٢٢٥
- ٤٠- الطبري ج ١ ص ٣٠٨٢ و ٣٠٨٥ الدينوري أخبار ص ١٤٢ والمسهودي  
مروج ص ٣٥٣ واليعقوبي ج ٢ ص ١٨٠
- ٤١- فيفليري مقال "علي" دائرة المعارف الإسلامية طبعة ٢
- ٤٢- المنقري وقعة صفيين ص ٨٧
- ٤٣- سابقه ص ٨٩
- ٤٤- ابن خلدون، المقدمة ص ٤٥٢ والعقد الفريد ج ٤ ص ٣١٣ والمسهودي  
مروج ج ٢ ص ٣٣٢
- ٤٥- لمعرفة ثروة كل منهم انظر مقدمة ابن خلدون والمسهودي مروج ج ٢  
ص ٣٣٢

٤٦- البلاذري ج ٥ ص ٤٩ والطبري ج ١ ص ٢٨٧١

٤٧- الطبري ج ١ ص ٢٧٨٥

٤٨- سابقه

٤٩- الطبري ج ١ ص ٢٧٨٦ والعقد الفريد ج ٤ ص ٣١٣

## الفصل الرابع

### انبعاث حزب علي من جديد

تعتبر الستة عشر عاماً، منذ بداية خلافة عثمان ٢٤هـ - ٦٤٤م وحتى اغتيال علي ٤١هـ - ٦٦١م فترة خلاف ظاهر ومتواصل منذ خلافة أبي بكر وعمر على صعيد تطور الإسلام الشيعي. لقد كانت فترة تحوّل من عدة جهات:

١- أوجدت هذه الفترة مناخاً شجع الميول الشيعية لتصبح أكثر وضوحاً وتميزاً.

٢- سمحت الأحداث التي حصلت خلال هذه الفترة للشيعية بالقيام بدور فعال وأحياناً عنيف، وقد كان قبلها خامداً.

٣- وأخيراً أتاحت الظروف السائدة خلال هذه الفترة لوجهة النظر الشيعية ولأول مرة أن تعبّر عن موقفها في العديد من الاعتبارات السياسية والجغرافية والاقتصادية. وبالتالي، كانت هذه الفترة فرصة مناسبة للشيعية الأوائل كي يعبروا عن أفكارهم فيما يخص خلافة علي، وحساس الصحابة الديني، والأحقاد الشخصية والاهتمامات الاقتصادية ومصالح الولايات، والمؤامرات السياسية، وعدم رضى الفقراء عن الأغنياء، وكل ذلك حدث في وقت واحد. لم يتح اندفاع هذه الأحداث جميعها مناخاً جديداً لنشاط الحركة الشيعية فحسب، ولكنه وسّع دائرة تأثيرها إلى أولئك المحتاجين إلى متنفس للتعبير عن آلامهم ومعاناتهم السياسية، وبخاصة خصوم معاوية الذي مثّل الأَرستقراطية الأموية والسيطرة السورية.

فقد رأى هؤلاء في علي بطل الاستقلال السياسي للعراق باعتباره معارضاً لسيطرة سورية، وأيد هؤلاء علياً، وكانوا لبعض الوقت على المستوى من الحماس الذي اتصف به مؤيدوه الدينيون الذين آمنوا بحقوقه في الخلافة المبنية على أساس قناعة دينية. وتغيز انبعاث الشيعة السياسية من خلال ازدياد نفوذها وعددها والسرعة المفاجئة في نموها. ودراسة فترة هذا الانبعاث ستقدم لنا فهماً عميقاً وواضحاً للانقسام الذي تطور في جسم الأمة الإسلامية.

لم يمنح أبو بكر وعمر أقاربهم أي نصيب خاص في حكم الجماعة الإسلامية (لم يحاييهم)، ولم يترتب على خلافتها أية عواقب سياسية لمصلحة أقاربهم. ولكن لم تكن حالة عثمان كحالتهم. فلقد أراد أقارب عثمان الأمويون استعادة دورهم السياسي بعد أن وضعهم انتصار محمد في الصف الثاني من الأهمية بعد الهاشميين. وعندما تم اختيار عثمان للخلافة اعتبر الأمويون ذلك نصراً لهم جميعاً وليس نجاحاً لعثمان وحده. واعتبروا أن من الطبيعي أن يمنحهم الخليفة الجديد نصيباً من المنافع، وألاً يرفض مطالبهم، واعتبر عثمان أن قوته تعتمد على تأييد أقاربه ونصائحهم. لذلك فعل كل ما يرضي مطالبهم، وخاب أمل المسلمين وتألوا حين وجدوا الخليفة الجديد ملتزماً بتحسين أحوال عائلته ومن يلوذ بها وليس الأمة الإسلامية بكاملها. ولم يُخف عثمان تفضيله لأقاربه، وبرّر ذلك بقوله: "إن رسول الله كان يعطي قرابته، وأنا في رهط أهل عيلة، وقلة معاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك المال، لكان ما أقوم به فيه، ورأيت أن ذلك لي".<sup>٢</sup>

ومن الحقائق التاريخية المعروفة أنه بعد وصول عثمان إلى الخلافة صار الأمويون ولاية كل من الكوفة، والبصرة (وهي عاصمة منطقة واسعة جداً تتضمن إيران وآسيا الوسطى حتى السند)، وسورية، ومصر وهي الولايات الأكثر أهمية في الإمبراطورية. وهؤلاء الولاة اعتمدوا على أقاربهم في إدارة ولاياتهم، كما هي الحال في المقربين إلى الخليفة عثمان.<sup>٣</sup>

ولم تكن المشكلة في تولية هؤلاء الولاة، بل في السماح لهم في استخدام صلاحياتهم بتسلط وظلم لتحقيق أغراضهم الشخصية وكذلك مصالح ذوي قرباهم، مما أوجع امتعاض وكرهية كثير من المسلمين. فقد كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخو عثمان بالرضاع والياً على مصر، وكان هناك مكروهاً جداً، وهو الذي أمر الرسول بقتله يوم فتح مكة.<sup>٤</sup>

أما الوليد بن عقبة أخو عثمان فكان أيضاً مكروهاً في ولايته الكوفة لمعاملته الكوفيين بقسوة ووحشية. فقد وزع الأراضي على أتباعه، وأدمن الخمر.<sup>٥</sup> فاستدعاه عثمان مكروهاً وعين مكانه أحد أقاربه المقربين سعيد بن العاص الذي أغضب وجهاء الكوفة وهددهم بأن سواد الكوفة سيصبح "بستان قريش" فاحتج على هذا التعسف قراء القرآن ومنهم مالك بن الحارث النخعي وسليمان بن صرد الخزاعي، وحجر بن عدي الكندي وشريح بن عوف العبسي وآخرون، ولكن احتجاجهم ذهب دون جدوى. وبدلاً من تقصي المشكلة أمر عثمان بإرسال المحتجين إلى معاوية في دمشق كي يتعامل معهم.<sup>٦</sup>

ويجب الاهتمام بأسماء هؤلاء القراء المشهورين حيث أنهم سيصرون فيما بعد من قادة الشيعة في الكوفة. وكانوا في مقدمة جيش علي في معركة

الجميل وصفين، وحتى بعد اغتيال علي لم يصالحوا معاوية. وعلى المستوى ذاته فإن قراء مصر والبصرة لم يكونوا أقل عنفاً وشكوى من تسلط ولاقم وإطلاق عثمان أيديهم في معاملة الناس. كان الصدام بين القراء وولاقم هو الذي أوقد حماس المتدينين ضد عثمان في هذه الولايات. ويجب التنويه هنا إلى أن مصطلح القواء الذي ورد في المصادر التاريخية يعني أولئك الذين اشتهروا بتعليم قراءة القرآن وأهم العلماء في الأمور الدينية. وبالتالي، فقد نالوا قدراً عظيماً من التبجيل بين عامة الناس وصاروا بمثابة الانتلجنسيا (جمهور العلماء القادة).<sup>٧</sup>

بالإضافة إلى تعيين أقارب عثمان في حكم الولايات ذات الموارد الوفيرة، فإن عثمان أعطى مالاً كثيراً لآخرين من بيت مال المسلمين. وعامل صحابة النبي معاملة قاسية. فقد استدعى عبد الله بن مسعود وكان خازن بيت المال في الكوفة بعد مشاجرة مع الوليد بن عقبة (الوالي) إلى المدينة وسمح بضربه في مجلسه.<sup>٨</sup> وأكثر من ذلك كانت معاملته لعمار بن ياسر فقد شتمه وأمر بضربه حتى أغمى عليه حين وصل المدينة قادماً من مصر حاملاً رسالة شكوى ضد ابن أبي سرح.<sup>٩</sup>

خلال السنوات القليلة الأخيرة من حكم عثمان كان معظم السكان يشتعلون غضباً حين رأوا علياً بن أمية يشغلون المناصب العليا يستمتعون بالثروة والترف، وينغمسون في المجون، ويبدرون الثروات الطائلة التي استولوا عليها بأساليب غير شرعية. وهذا ما أدى إلى التفاوت في البنية السكانية من النواحي الاجتماعية والاقتصادية، مما حرك حسد مختلف فرقاء السكان وزودهم بأسباب الانفجار وكان أحد قادة النقد الموجه إلى

نظام عثمان هو أبو ذر الغفاري مؤيد الحياة البسيطة، والجسور والتقي الزاهد، الذي احتج بعنف على تكديس الثروة في أيدي قلة من الأمويين وطالب بتوزيع عادل للثروة والأرض بين جميع المسلمين. فقابله عثمان الذي كره أفكار أبي ذر الذي هدد وأوعد المترفين في مسجد المدينة، بأن أرسله إلى سورية. ولم تمض مدة طويلة حتى تلقى عثمان رسالة من معاوية يتذمر فيها من نشاطات أبي ذر الخطيرة قائلاً: "إنك قد أفسدت الشام على نفسك بأبي ذر." فكتب إليه عثمان أن أحمله على قتب بغير غطاء، فقدم إلى المدينة، وقد ذهب لحم فخذه ينزع الموت، ثم نفاه عثمان إلى الربذة مسقط رأسه حيث توفي هناك.<sup>١٠</sup> وانتشرت حكاية معاملة عثمان لأبي ذر في مختلف الولايات، مما أوجع مرارة مشاعر الناس على عثمان وطبقة الأغنياء، واتسعت الدعوة إلى حقوق علي في الخلافة.

إن خطب أبي ذر المتكررة في مسجد المدينة تثير الاهتمام، فقد تعود أبو ذر جمع الناس حوله ويخطب بهم قائلاً: "وعلي بن أبي طالب وصي محمد ووارث علمه، أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها، أما لو قدّمتم من قدّم الله، وأخّرتم من أخّر الله، وأقرّتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولما عال ولي الله، ولا طاش سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله، إلا وجدتم علم ذلك عندهم من كتاب الله وستة نبيه، فأما إذ فعلتم ما فعلتم، فذوقوا وبال أمركم، وسيعلم الذين ظلموا أي متقلب ينقلبون."<sup>١١</sup>

وعلياً هنا أن نخالف رأي الكتاب الذين صوروا الثورة على عثمان بأنها مكائد شيطانية ربّها الموالي، وتظلمات مزيفة نشروها. لقد تجاهل هؤلاء



الكتاب حقيقة أن هذه الشكاوى والمكائد -إذا كانت كما وصفوها- تتضمن معاناة كافية للاحتجاج وتأييداً من طرف الصحابة لاتخاذ قرارات ضرورية حاسمة من طرف عثمان. فلكي يتطور احتجاج ما إلى عصيان يحتاج إلى شيئين ضروريين: قيادة تتمتع باحترام في المجتمع ورقّت كاف لتنظيم واستغلال الفرصة المناسبة للقيام بعمل متفق عليه. وقد توفر هذان العاملان في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان.<sup>١٢</sup> فقد أصبح موقف كبار الصحابة مثل علي وطلحة والزبير واضحاً جداً. فهناك روايات وفيرة تؤكد أن الصحابة وبخاصة الثلاثة المذكورين رفعوا أصواتهم معارضين أساليب عثمان. وعلاوة على ذلك فإن عبد الرحمن بن عوف (توفي ٣٢هـ - ٦٥٢م) الذي قام بالدور الأهم في اختيار عثمان للخلافة أقر بأن عثمان خالف ما تعهد به أثناء عملية الاختيار، وذلك قبل انفجار الموقف ضد عثمان بوقت طويل.<sup>١٣</sup> حتى وإن كنا لا نتفق مع الروايات التي تذكر أن هؤلاء الصحابة بعثوا برسائل إلى الولايات أو أنهم حرضوا على عثمان بطريقة منظمة، فإن الحقيقة تبقى قائمة وهي أنهم لم يخفوا وجهات نظرهم وتأييدهم للثائرين.

كان موقف علي في غاية الوضوح في هذه الفترة تجسده ردة فعله على العقوبة التي فرضها عثمان على أبي ذر. فعندما أمر عثمان بنفي أبي ذر، أصدر أمراً حاسماً بالآ يودعه أحد سوى مروان بن الحكم الذي تكلف بضمان إخراجه من المدينة. وبرغم أوامر عثمان فقد خرج علي والحسن والحسين ومؤيديهم عمار بن ياسر ورافقوا أبا ذر لمسافة ليست قصيرة. وعندما قال مروان لعلي: "إن أمير المؤمنين قد فهم أن يكلمه أحد، رفع

علي السوط فضرب وجه ناقة مروان، وقال: تنح، نحك الله إلى النار.<sup>١٤</sup> وعندما حانت لحظة الوداع بين أبي ذر وعلي ومراقبيه نظر أبو ذر إلى علي ثم قام إليه فقبل يده ثم بكى فذهب علي يقول له: يا أبا ذر إنك غضبت لله فأرج من غضبت له. إن القوم خافوك على دنياهم، وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه. فما أحوجهم إلى ما منعهم. وما أغناك عما منعوك... فلو قبلت دنياهم لأجبروك، ولو قرضت منها لأمتوك.<sup>١٥</sup>

ونقل مروان الواقعة كاملة لعثمان الذي استشاط غضباً لمخالفة أوامره. وعندما سأل علياً عن الواقعة أجاب علي بأنه غير ملزم بطاعة أوامر لا تناسب مع الأدب والعدل. "أوكلما أمرت بأمر معصية أطعناك فيه... قال عثمان: لما لا يشتمك؟ (أي مروان بن الحكم) كأنك خير منه! قال علي: أي والله ومنك. حقي وفضائلي أبعد وأعظم منك، وأنا خير منك."<sup>١٦</sup> وقد استخدم مؤيدو علي هذه الحقوق والفضائل كثيراً في مجادلاتهم. وقد عبّر الشاعر سيد الحميري عن عمق تشييعه من خلال تكراره ذكر هذه الخصال في علي.

بعد أن بايع علي أبا بكر وخليفته، وبالتالي ضعف حزب مؤيديه الأوائل، بقي علي بعيداً عن نشاطات الحكم حتى نهاية خلافة عمر كما ذكرنا سابقاً. وقد أوضح الاحتجاج الذي أعقب اختيار عثمان للخلافة أن ترشيح علي للخلافة كان يحظى بتأييد العديد من الرجال، لكن هؤلاء المؤيدين تصرفوا بطريقة فردية ولم يشكلوا جماعة خاصة متحدة. وحينما قبل معظم المسلمين خلافة عثمان، توقفت احتجاجات المقداد وعمار

برغم أن سخطهم استمر. وحالما بدأ عثمان يفقد بالتدريج تأييد غالبية المسلمين، انطلق مؤيدو علي فوراً يشرحون معاناتهم، ويدعون الناس لإطلاق رغباتهم في تأييد مبايعة علي. وبدأ تأييد مرشح الهاشمين من جديد حين بدأت المجموعة الساخطة على سياسة عثمان تتجمع في مراكز بعيدة احتاجت إلى قائد مؤثر ومقبول. وبرغم أن طلحة نال تأييد الكوفيين، والزبير حظي بتأييد البصريين فإنهما بقيا متخلفين عن علي، ويبدو أن التأييد الذي ناله كان محدوداً في طبيعته. ووجد علي نفسه محاطاً بمجموعات المحتجين القادمين من مختلف الولايات حيث دعاه هؤلاء لتأييد مطالبهم، وفي الوقت عينه دُعا عثمان علماً وناشده أن يتوسط بينه وبين المحتجين. وربما وجد علي نفسه مضطراً بدعوى العدل، فلم يجد أمامه أي خيار سوى أن يهب للدفاع عن الصحابة الذين ازدراهم عثمان، ويطالب بمعاقبة الملووم. وقد كان هو نفسه استنكر الهبات المبالغ بها التي منحها عثمان لأقاربه. وأثناء هذه الثورة حثَّ القراء على التحدث باسمهم، وقد فعل لتحقيق مطالب الناس العادلة من جهة، ولإنقاذ الخليفة من مصاعبه من جهة أخرى.<sup>١٧</sup>

وعملت مجموعات مختلفتان في الظاهر، وخدمت كل منهما أهداف الأخرى تلقائياً وإن يكن من غير وعي. وتمثلت الأولى في المجموعات الساخطة على إدارة عثمان في الولايات، وقد تولد سخطها من غياب العدل والمساواة في المعاملة من حيث بنية الإمبراطورية الاقتصادية؛ أما الأخرى فهي المجموعة الموالية لعلي. وكانت قيادة هذه المجموعة مؤلفة من أبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر والمقداد بن الأسود الكندي وحذيفة بن

اليمان والعديد من الأنصار، وضمت عدداً من الناشطين الجدد أمثال كعب بن عبدى النهدي ومالك بن حبيب التعلبي ويزيد بن قيس الأرحبي.<sup>١٨</sup> وضمت أيضاً الهاشميين وأصحاب علي وخدمه، ومنهم قنبر بن كدام<sup>١٩</sup> وميثم بن يحيى التمار ورشيد الحجري. ونظراً لحماسهم الديني وإخلاصهم لشخص علي بصفته حافظ رسالة محمد، والمبشر الحقيقي بالإسلام، صار هؤلاء الرجال رموز هذه المرحلة في غو التشيع. وقد صُلب كل من ميثم التمار<sup>٢٠</sup> ورشيد الحجري<sup>٢١</sup> في الكوفة عام ٦١هـ - ٦٨٠م على يد عبيد الله بن زياد لأتهما رفضاً سب علي واستمرا في حماسهم الديني وإخلاصهم لعلي وذريته حتى بعد وفاته. وكعادة ابن زياد فقد أمر بقطع أيديهما وأرجلهما ولساقهما ومن ثم شنقا. وإلى جانب هؤلاء ذكر المؤرخون المتأخرون اسم عبد الله بن سبأ المعروف بابن الأسود كمؤيد متحمس لعلي وأنه صار يرحل من مكان لآخر يدعو للاحتجاج على حكم عثمان.<sup>٢٢</sup> وقد وصف بأنه كان رجل دين يهودي وأسلم. وعلى كل حال، فإن الباحثين المعاصرين مثل علي الوردي وغيره أشاروا إلى عدم وجود حقيقي لهذه الشخصية وأما النشاطات التي نسبت إليه إنما قام بها عمار بن ياسر الذي كان لقبه ابن السوداء أيضاً.<sup>٢٣</sup> وكذلك فإن الباحثين الأوروبيين المعاصرين عبّروا عن شكهم بشخصية ابن السوداء من الناحية التاريخية، ومالوا إلى أنه شخصية خرافية.<sup>٢٤</sup>

إنها ظاهرة تستحق الاهتمام وهي أن الحاقدين على عثمان ومؤيدي علي زاد عددهم جنباً إلى جنب. واشتركت في تأييد علي المعارضة التقية لأرسقراطية بني أمية.<sup>٢٥</sup> وإلى جانب كل ذلك قاد كل من طلحة والزبير

دعاية مناهضة لحكم عثمان. فعندما سافر محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة إلى مصر لاستنهاض الناس ضد عثمان التقيا هناك بمحمد بن طلحة الذي أرسله والده للغرض نفسه.<sup>٢٦</sup> واشتركت زوجات النبي الأرامل في معارضة الخليفة، وبخاصة عائشة التي رفعت صوتها استنكاراً لنعث (الدب الكبير الكثيف الشعر) كما لقبته.<sup>٢٧</sup>

انفجر السخط الذي تطور مهدوء على شكل ثورة عام ٣٥هـ - ٦٥٦م حين تحركت كتائب المتمردة من الكوفة والبصرة ومصر نحو المدينة تحت قيادة القراء. ومن الجدير بالملاحظة أن معظم هؤلاء القادة الناشطين كانوا من أصول يمنية. وانضم إليهم المؤيدون لعلي في المدينة من المهاجرين والأنصار مثل عمار وآخرين. وعمت الفوضى حالاً. أما الأحداث التي أدت إلى اغتيال عثمان فهي خارج موضوع هذه البحث، لكن يبدو من المؤكد أن قتل عثمان تجاوز رغبة الصحابة الذين عارضوا عثمان علناً. فقد كان هدفهم عزل عثمان فقط وليس قتله. ومن الواضح أيضاً أنه حتى خلال هذه الأيام العاصفة استمر علي بالقيام بدور الوسيط الراغب بالمصالحة مع عثمان. ونجح في مرات عديدة في تفريق الغوغاء الذين أرادوا إيذاء الخليفة، وعندما حاصرت الغوغاء بيت عثمان أرسل علي ولديه الحسن والحسين للوقوف أمام بيت عثمان ولحاميته من غضب الحشود. وعلى كل حال، فقد دُفعا جانباً وقتل الجمهور عثمان. وحالما وصلت الأخبار لعلي هرع إلى المكان وكان في ذروة الغضب لما حصل وضرب وجه الحسن ولطم الحسين لأنهما فشلا في إنقاذ حياة الخليفة.<sup>٢٨</sup>

في مناخ الفوضى والغموض اللذين أعقبا قتل الخليفة لم يكن هناك من مرشح مقبول للخلافة عند المهاجرين والأنصار والقراء أيضاً سوى علي.<sup>٢٩</sup> بعد ثلاث محاولات فاشلة لتحقيق طموحات علي في الخلافة، أصبح الآن غير مستعد لقبول مسؤولية قيادة الأمة التي ارتبكت كثيراً بعد جريمة قتل الخليفة، وبالتالي يعزي إلى نفسه قسمة الاشتراك في عملية القتل. يروي ابن عبد ربه تصريحاً خاصاً لعلي حول الموقف على شكل خطبة ألقاها في معركة الجمل حيث قال: "أتيتموه فقتلتموه (عثمان)، ثم أتيتموني فقتلتم: لو بايعتكم؟ فقلت لا أفعل، وقبضت يدي فبسطتموها، ونازعتكم كفي فجذبتموها، وقلت: لا ترضى إلا بك ولا تجتمع إلا عليك، وتراكمتم علي تراكم الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها، حتى ظننت أنكم قاتلي، وإن بعضكم قاتل بعضاً، فبايعتموني، وبايعني طلحة والزبير".<sup>٣٠</sup>

وأخيراً قبل علي الخلافة تحت ضغط ومطالبة جميع الفرقاء تقريباً، لكنه اشترط على من طالبه بقبول بيعتهم أنه سيحكم بما جاء في القرآن والسنة النبوية فقط وبشدة وسيقيم العدل والشرع بغض النظر عن أي نقد أو اصطدام مع مصالح أية مجموعة. وأدرك طلحة والزبير أن لا حظ لهما بالخلافة، إن هما نافسا علياً، برغم أن كلا منهما يحوز على تأييد أتباع من الكوفيين والبصريين، لذلك كانا أول من بايع علياً. وبايع أهل المدينة وجنود القادمين من الولايات وأعلنوا علياً خليفة.<sup>٣١</sup> وبدأ من خلال هذا الاختيار أن صار علي الخليفة الأول والوحيد الذي شارك في اختياره أغلب أفراد الأمة. وكان الخليفة الأول بين الأربعة الراشدين الذي جرى

اختياره بفضل الظروف الخاصة إلى جانب محنده (سليل النسب الرفيع) فقد جمع في شخصه النسب والمبادئ النظرية الدينية التي تحكم طريقة اختيار القيادة.

ورث علي منذ بداية خلافته مشاكل هائلة لم يواجه مثيلها أي من الخلفاء الثلاثة الذين سلفوه. وتدبر مروان بن الحكم سكرتير (أمين سر) عثمان أمر هروبه من المدينة مع بعض الأعضاء البارزين من الأمويين وانضموا إلى معاوية في سورية حاملين معهم قميص عثمان الملطخ بدمه وأصابع نازلة أرملة عثمان المقطوعة لاستخدامها في حملتهم ضد علي. وبدأ الأمويون بقيادة معاوية بن أبي سفيان من دمشق دعواهم ودعايتهم المطالبة بالتأثر لدم عثمان وضد علي.<sup>٣٢</sup>

لم يكن اغتيال عثمان جريمة قتل بسيطة قام بها شخص ما لمعانة شخصية كما حصل في اغتيال عمر بن الخطاب. كان اغتيال عثمان نتيجة لثورة شعبية قام بها الفقراء والساخطون والمقهورون والمحرومون حقوقهم الاقتصادية والسياسية، ضد الإقطاع وسيطرة أرستقراطية عائلية قديمة. فقد ثار أتقياء المسلمين لإنقاذ المثل الإسلامية في العدالة الاقتصادية والاجتماعية والمساواة التي علمها القرآن وأكدها النبي وحافظ عليها كل من أبي بكر وعمر. أما الدور الذي قام به علي كوسيط بين الثوار من القراء والخليفة فيظهر أمرين: الأول: إن علياً نفسه كان مقتنعاً بأن حركة المقاومة مبنية على العدل ومطالب حقه، وبالتالي طلب من الخليفة إنصافهم، والثاني: حاول بكل ما أوتي من قوة إنقاذ الخليفة من أيدي العامة الغاضبة. كانت الأمزجة هائجة جداً وخارجة عن مقدرة أي كان

للسيطرة عليها، وانتهى الموقف إلى قتل الخليفة بأيدي غلاة فرّوا وسط الاضطراب والفوضى التي تلت قتل الخليفة. ووجد علي نفسه في وضع بئس. فقد هرب القتلة الحقيقيون، وكان من المستحيل العثور عليهم لمعاقبتهم؛ ومع ذلك بقيت الحقيقة قائمة وهي أن كثيراً من القراء حول علي كانوا مسؤولين تقريباً بمستوى مسؤولية القتلة الفعلين عن المأساة. فقد روي تصريح علي تكراراً وبخاصة حين دخل عليه طلحة والزبير في عدة من الصحابة فقالوا: يا عليّ وإن هؤلاء قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلّوا بأنفسهم. فقال لهم: "يا إخواناه إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم! هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت (عادت) إليهم أعرابكم، وهم خلالكم (وسطكم) يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا، قال: فلا والله لا أرى إلّا رأياً ترونه إن شاء الله؛ إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن هؤلاء القوم مادّة (قوة) فاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتاكم، ثم عودوا، ووعد علي بعقاب قتله عثمان حالما يقبض عليهم. وقد وافقه على ذلك طلحة والزبير وكانا يقولان: غلب السفهاء الحكماء وقتلوا عثمان.<sup>٣٣</sup> وحاول عليّ عبثاً إيجاد حلّ سلمي للمعضلة. كان موقف علي الإشكالي هو كالأتي استكر قتل عثمان بينما دعم مطالب القراء العادلة، ولعن قتلة عثمان بينما أحاط نفسه برفاقهم؛ إن هذا الموقف الخطير يشكل تحدياً هائلاً لأكثر السياسيين دهاءً وذكاءً، وبالتالي كان أكثر هولاً في حالة علي: فقد منعه تقواه الدينية وتمسكه بالمبادئ مراراً من تبني سياسة عملية براغماتية. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح



موقف علي في إيجاد حل سلمي للأزمة مستحيلاً. وضمت التحديات لسلطته عائشة التي رفضت العودة إلى المدينة بعد أن أدت العمرة، بل عادت إلى مكة، حين عرفت بمبايعة علي. بعد زمن قصير أراد طلحة والزبير البعد عن علي فاستأذناه في العمرة. ورغم معرفته بخططهما أجاب طلبهما. وانضم الاثنان إلى عائشة في مكة وأذاعا أنهما بايعا علياً تحت الإكراه.<sup>٣٤</sup> ورغم أن كلا منهما كان يطمح إلى الخلافة إلا أنهما لم يتمتعا بتأييد شعبي كاف لإيصالهما إلى طموحهما؛ وما كانا ليعرضا خدماهما على أحد غير عائشة، التي غيرت موقفها من ناقد متحمس لعثمان إلى مطالب بثأره. وقصد الناكثون مع عائشة البصرة عام ٣٦هـ ٦٥٦م مهددين بأخذ مشرق العالم الإسلامي من علي، مضيفين مشكلة أخرى مشابها لما يواجه علي في سورية على يد معاوية. وبعد تردد كثير ارتحل علي إلى الكوفة ونجح في جمع قوة كافية لهزيمة الناكثين وعائشة في موقعة الجمل. وقتل طلحة والزبير وأسرت عائشة ثم أعيدت إلى المدينة سالمة.

بعد أن ضمن علي موقفه في العراق مؤقتاً، تحول للتعامل مع المشكلة الأخطر وهي معاوية والي سورية وقريب عثمان والذي تزعم دعوى الأخذ بثار عثمان،<sup>٣٥</sup> ورفض علي دعوى معاوية لأن أولاد عثمان أولى بها من معاوية. وتيقن معاوية أنه إذا استطاع علي تثبيت سلطته، فلن يتأخر عن عزل معاوية من حكم سورية. ولكي يعيق معاوية جهود علي في تثبيت دعائم سلطته رأى أن الطريقة الوحيدة المفيدة لتحقيق غرضه هي التشكيك في صلاحية علي وحقوقه في الخلافة، ولم يكن من الصعب على معاوية استغلال الظروف التي تم في ظلها اختيار علي وبيعته في

المدينة. وعارض أنصار علي وبخاصة القراء أية مصالحة مع معاوية، ونصحه مالك الأشر حتى بعدم مكتابة معاوية والي سورية. ومع ذلك حاول علي التعامل مع المنشقين (أو القاسطين كما سماهم علي نفسه) بطرق سلمية، لكن عندما فشلت محاولاته وتيقن أن معاوية يستعد للقتال عندئذ فقط قاد علي قواته والتقى السوريين ومعاوية في صفين.

قام عدد من الأساتذة بدراسة نقدية دقيقة للصراع في صفين. وما آلت إليه المعركة من تحكيم في دومة الجندل بأذروح - وهذا خارج موضوع بحثنا-، ويكفي أن نعرف أن موقف علي أصبح حرجاً بسرعة بعد خروج الخوارج عليه (سماهم المارقين) ودمر التحكيم في اذروح Adhruh قوته. وبينما كان يحضر للقاء معاوية للمرة الأخيرة ضربة خارجي متعصب هو عبد الرحمن بن ملجم بسيف مسموم في مسجد الكوفة. وتوفي الخليفة الرابع يوم ٢١ رمضان ٤٠هـ الموافق ٢١ كانون الثاني يناير ٦٦١م.

ولقد ناقش علي نفسه هذه الفترة في الجزء الأخير من خطبة الشقشقية وتحليلاته مفيدة جداً لفهم هذه الفترة الغامضة: "إلى أن قام ثالث القوم (عثمان) نافجاً حصنيه (الخصن ما بين الأبط والكشح، ويقال للمتكبر) بين ثبله ومعتلفه (النيل: الروث، والمعتلف من مادة علف أي الطعام أراد أن يقول لا هم له إلا ما ذكر) وقام معه بنو أبيه (الأمويون) يخضمون (يأكلون) مال الله خضم الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث عليه فتله (قضى عليه تدبيره)، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته فما راعني (أخافني) إلا والناس كعرف الضبع (كثافة شعر الضبع وهو تخين يضرب به المثل في الكثرة والازدحام) إليّ يتألون عليّ (يتابعون مزدحمين) من كل جانب

حتى لقد وُطيء الحسان، وشق عطفاي، مجتمعين حولي كبريضة الغنم. فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة (طلحة والزبير...) ومركت أخرى (الخوارج) وقسط آخرون (معاوية ومن معه قسط بمعنى جار وظلم) كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول: "تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين." بلى! والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها (زينتها) أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارؤ (لا يوافقوا) على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم (سغب: جوع فاقة) لألقيت حبلاً على غاربها (تخلت عن المسؤولية أو الخلافة) ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهى عندي من عطفة عز<sup>٣٧</sup>

بهذه الخلاصة الموجزة، وباعتبارها أساساً، سنحاول تحليل أسباب ونتائج الأحداث الرئيسية في خلافة علي القصيرة. علينا أن نتذكر أن خلافة علي قبلت بمعارضة قوية من جانب بعض صحابة النبي وانتهت بأول حرب أهلية في الإسلام؛ ولكن في الوقت عينه فإن ما دعي "إخفاقات" ثبت أنها مثلت توليفة هامة في تاريخ تطور التشيع. فإخفاقات علي في تحقيق طموحاته أوجدت مرارة في نفوس مؤيديه زودتهم بخلفية تاريخية لتطويع ميولهم الاستقلالية، وكذلك زودهم التخريب المدبر ضد مشاريعه بالمواد الأولية الكافية لتشكيل وصياغة مبادئهم الخاصة ضمن كتلة الإسلام.

في محاولة لفهم الوضع باعتباره كلاً متماسكاً تكشف حقيقة أن اختيار علي للخلافة كان انتصاراً سريعاً لرؤية خاصة في التعاقب على القيادة،

كانت تلك الرؤية يائسة حتى تلك اللحظة، وكان ذلك الاختيار صدمة عنيفة لجميع أولئك الذين تبّنوا بنجاح مبدأ قيادة خالياً من أي اعتبار للأسبقية المبنية على قداسة متوارثة بعد وفاة النبي. حالما تم اختيار علي فإن هاتين الرؤيتين المتنافستين وصلتا إلى نقطة الصراع لأول مرة وتبنورتا في صيغ محددة. وسرعان ما هزمت الرؤية الأولى "الشيعية" مرة أخرى ولكن لتوجد تعبيراً عن نفسها في ميل للاستقلال، والاتجاه نحو ما يمكن تسميته "منظمة مذهبية"؛ وظهرت الرؤية الثانية منتصرة وأكثر إصراراً واتخذت لنفسها بطريقة ما شكلاً صار مركز "الأمة الإسلامية" أو "الجماعة"

سجل لنا اليعقوبي تلك الأحاديث التي أدلى بها مؤيدو علي المتحمسون ومعظمهم من الأنصار تحية له عند اختياره للخلافة، وهذه الخطابات توضح ميولهم ومشاعرهم كما رأوا فيه. فقد بايع مالك بن الحارث الأشتر قائلاً: "أيها الناس، هذا وصي الأوصياء، ووارث علم الأنبياء." <sup>٣٨</sup> ويشك هودسن فيما إذا كانت هذه المصطلحات قد استخدمت لتصف علي في ذلك الوقت المبكر. <sup>٣٩</sup> وهنا يجب أن نتذكر أن مالك الأشتر كان من أصل يمني. وكانت منطقة الجنوب العربي هي بلاد حضارة قديمة حيث تعاقب الملوك استناداً لبدأ السلالة لألف سنة مضت، ونظر إلى هؤلاء الملوك بصفتهم يحملون ميزات غير عادية. وحتى إن يكن عرب الحجاز في القرن السابع الميلادي لم يختبروا الملكية، فلا بد أنهم تأثروا ولو من غير وعي بذلك التقليد العريق. <sup>٤٠</sup> وفي هذه الحالة فإن استخدام مصطلح مثل وصي ووارث من طرف شخص يعني الأصل يحدث بشكل

طبيعي بصفته لازمة (نتيجة حتمية) لتقليد عميق الجذور. ومن جهة ثانية،  
ثمة إشارات متعددة في كتابات معاصري علي التي تعكس تلك الروح  
عندها. قال أبو الأسود الدؤلي مادحاً علياً:

لقد علمت قریش حيث كانت      بأنك خيرهم حسياً وديناً  
إذا استقبلت وجه أبي حسين      رأيت النور فوق الناظرين<sup>٢١</sup>  
والحقيقة أن هناك مصدراً غنياً هو القرآن الكريم حيث ورد مصطلح  
"وراث" كثيراً، وبخاصة في ذكر عائلة عمران وإسماعيل، وقد استخدمه  
محمد حجة في جهوده لجذب "أهل الكتاب" (اليهود والنصارى).<sup>٢٢</sup>  
وبالتالي، فإن من المحتمل جداً أن يكون مؤيدو علي قد استخدموا  
المفردات نفسها للتعبير عن آرائهم.

وأكثر من ذلك، إننا عندما نقرأ الروايات التي تصف مجريات معركتي  
الجمال وصفين يواجهنا كمٌ هائل من شعر الحرب المتبادل بين المقاتلين من  
كلا الطرفين حيث نجد مصطلح "وصي" وقد استخدمه مؤيدو علي  
تكراراً. وبكفينا أن نحيل القارئ إلى شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد  
الذي جمع الأبيات الشعرية التي تصف علي بـ "وصي"<sup>٢٣</sup> ونجد ذلك أيضاً  
في كتاب الجمل لأبي مخنف<sup>٢٤</sup> (توفي ١٥٧هـ - ٧٤٤م). وثمة مصدر  
مبكر جداً آخر يجد فيه القارئ هذه الأشعار بوفرة هو كتاب وقعة صفين  
لنصر بن مزاحم (توفي ٢١٢هـ - ٨٢٧م) الذي يقتبس أبا مخنف كثيراً  
بالإضافة إلى مصادر مبكرة أخرى.<sup>٢٥</sup>

إلى جانب هذه الآراء رأينا سابقاً أن ثمة مجموعة مخصصة عبرت منذ بداياتها  
عن تحمسها لعلّي وقد بنت فكرها أساساً وبشكل واسع على مفاهيم

دينية. وأن هذه المجموعة تعبر عن ولائها بمفردات دينية مناسبة كما يصح أن يتوقع المرء. وقد استخدم الجيل التالي من الشيعة مصطلح "الوصي" تكراراً في شعرهم وخبر من يمثل هذا الجيل هم الكميت وسيد الحميري والفرزدق وبخاصة حين وصفوا علياً في مجريات معركتي الجمل وصفين.

كل هذه المناقشة السابقة كانت لتوضيح أن هناك مجموعة من المسلمين رأت صعود علي للخلافة من زاوية مختلفة جداً عما رآه المسلمون الآخرون. لقد رأت في هذا الصعود نصراً لها لأنها تمتلك تصوراً خاصاً لما يخص القيادة الإسلامية، ولذلك طرحت قضايا لم تطرحها خلال فترة حكم الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، وبذلك جعلت علياً يواجه معارضة خطيرة من أطراف متعددة منذ وفاة النبي تقريباً. وجاءت المقاومة الأولية من طرف عائشة وطلحة والزبير الذين نادوا بالثأر، وقدموا أنفسهم على أنهم القوى الفاعلة في معالجة قضية قتل عثمان. ولكن السؤال الذي يطرح هنا هو ما إذا كان هذا هو السبب في خروجهم على علي. كيف يمكن اتهام علي وحده بقتل عثمان في حين كان طلحة والزبير ناشطين مثل علي في تأييد مطالب الناس؟ ألم تكن عائشة نفسها عاملاً هاماً في استنهاض الناس ضد عثمان؟<sup>٦٤</sup> إننا لا نستطيع إلا أن نحمل مسؤولية خلق مناخ العنف في المدينة لهذه المجموعات (مؤيدي عائشة وطلحة والزبير) الخارجة على الخليفة (علي) بالتساوي معه. يسائل علي هؤلاء المدعين في إحدى خطبه قائلاً: "والله ما أنكروا علي منكرأ، ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً (أي وسيط عادل)، وإنهم ليطالبون حقاً هم تركوه (تركوا مطالبهم بالخلافة لأنفسهم)، ودماً هم سقوه (دم عثمان)، فإن كنت شريكهم

فيه، فإن لهم نصيبهم منه، وإن كانوا ولّوه ذويي فما الطلّبة إلا قبلهم، وإن  
أول عدلهم للحكم على أنفسهم. وإن معي لبصيرتي ما لبست ولا لبس  
علي. وإنما للفتنة الباغية فيها الحمأ والحمأة (الحمأ والحمأة يقصد الزبير  
وعائشة)، والشبهة المكدفة (الشبهة المكدفة: أي أن اغتيال عثمان عمل  
اكتفتته شبهات كثيرة سائرة للحق).<sup>٤٧</sup>

وفي التحليل الأخير يظهر أن دعوى الثأر لعثمان صارت سابقة سهلة من  
طرف الثلاثة (عائشة وطلحة والزبير) ومؤخراً من طرف معاوية لرغبة  
الخطر الواضح وهو حكم مجموعة من زهاد المسلمين، تؤيدهم طبقة  
الفقراء في المجتمع، وبعض من أنصار المدينة وكل هؤلاء كان علي يمثلهم.  
كان انبعاث هذه المجموعات تهديداً حقيقياً للأرستقراطية المكية التي كتم  
أنفاسها انتصار محمد ومفهومه الاجتماعي والتي ضبطها بإحكام أبو بكر  
وعمر. وعندما صار عثمان خليفة وهو من أغنياء بني أمية وجدت  
طموحات هذا البطن من قريشي (بني أمية) وعائلات أخرى من مكة (   
طلحة والزبير ..) فرصتها لاستعادة السلطة. ومن السخرية أن الدافع إلى  
الوحدة والتنظيم الذي أوجده الإسلام استخدمته هذه الفئة للإنعاش  
واستلام السلطة من جديد. لقد ثار طلحة والزبير لحماية مصالحهما.  
وجعلاً عائشة رمزاً لتوحيد قواهما، ولم يكن من الصعب قيادتها لمهاجمة  
علي. فقد قيل أن كراهيتها لعلي مبنية على عدة عوامل منها نصيحة  
علي لمحمد أن يسائل خادمة عائشة عن سبب تخلف عائشة في إحدى  
الرحلات، ذلك التأخر الذي دعا الناس للحديث عما عرف  
بحديث "الإفك"<sup>٤٨</sup> ومنها أيضاً تمساجها مع فاطمة وعلي عند بيعه

والدها أبي بكر. <sup>٢٩</sup> وهذا يوضح أن قتال الناكثين الثلاثة (عائشة وطلحة والزبير) كان لأسباب شخصية وليس ثأراً لعثمان الذي ما كان سوى ذريعة ملائمة لهم. ورغم فشلهم في تحقيق أهدافهم فإن قتالهم ودعواهم جعلوا مهمة معاوية الذي عزله علي من ولاية دمشق أسيراً، وتأكيد الطموحات التي هددها وصول علي للخلافة أسهل. وكانت مطالبة معاوية بالثأر لعثمان مجرد ذريعة ساعدته على إزاحة علي من مركز القيادة، يوضح ذلك محادثة عمرو بن العاص مع عائشة عقب وقعة الجمل عندما قال لها عمرو: "لوددت لو أنك قتلت يوم الجمل ودخلت الجنة، إذن لاستعملنا موتك سبباً قوياً لسبّ علي والنيل منه".<sup>٣٠</sup>

أدى الصراع في وقعة الجمل إلى حدوث صدع خطير في الأمة الإسلامية. فقد أوردت جميع المصادر أن كل فريق عين متحدثين باسمه للتعبير عن موقفه. وهذه الأحاديث مهمة لأنها تبيّن كيف أن المظهر الديني والولاءات الشخصية ومصالح الولايات والاعتبارات الاقتصادية-السياسية أصبحت متشابكة. فقد دعي الذين أيدوا علياً في معركة الجمل وبعد صفين أولاً أهل العراق، وشيعة علي أو العلوية. أما مناورتهم فدعوا شيعة عثمان، وعلى الأغلب العثمانية. تتضمن هذه الفئة أيضاً، عائشة وطلحة والزبير المعروفين بأصحاب الجمل، وسمي أنصار معاوية أهل الشام، كما عرفوا أيضاً بشيعة معاوية. كما وصف موقف الفرقاء بحسب ميول ذلك العهد الماليء بالمفردات الدينية باستخدام كلمة "دين"، مثلاً وصف موقف علي بدين علي، كما وصف موقف مناهضيه بدين عثمان. كما استخدم مصطلح آخر لتأكيد ولاء الأطراف قليل مثلاً "رأي العلوية



ورأي العثمانية" <sup>٥١</sup> وعلى كل حال، فيلى جانب هذه المفردات المصطلحات العامة المستخدمة لوصف كل فريق، فإن اللقب الأكثر شيوعاً كان شيعة أهل البيت وشيعة آل محمد، وقد غلب استخدام هذين المصطلحين من طرف مؤيدي علي المتحمسين منذ ذلك التاريخ. كما استخدم أحياناً اسم "الترابية" وهو لقب اشتق من لقب علي أبي تراب، الذي دعاه به محمد. <sup>٥٢</sup> وما يوضح ذلك أن علياً دعا خصومه بمصطلح ديني يتضمن أنهم خارجون عن الصراط الديني الحقيقي، فالذين حاربوه يوم الجمل سَمَّاهم الناكثين، وهو مستمد من قوله تعالى: "فمن نكث فإنما ينكث على نفسه." <sup>٥٣</sup> وقصد علي به الذين نقضوا بيعتهم له. وسَمَّى علي خصومه في صفين القاسطين أي الظالمين، وهي مفردة مأخوذة من الآية الكرمة: "وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطاً." <sup>٥٤</sup> أما الخوارج فسمَّاهم علي المارقين مشيراً إلى حديث نبوي، أي الذين يضلون عن الدين الصحيح. <sup>٥٥</sup> وأصبحت هذه المصطلحات شائعة بين أتباع علي لوصف خصومهم.

نشط مؤيدو علي خلال هذه الفترة باستمرار لتوسيع قاعدة تأييدهم بين المسلمين. فحتى معركتي الجمل وصفين كان عدد المؤيدين المخلصين لعلي قليلاً نسبياً وهم أولئك الذين اعتقدوا منذ وفاة النبي أنه الأجدر والأكفأ للخلافة وقيادة الأمة بعد محمد. فبعد معركة الجمل أصبح مصطلح شيعة علي يتضمن كل الذين أيدوا علياً ضد عائشة، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مفردة "شيعة" تشمل كل الجماعات والأفراد الذين أيدوا علياً

لأسباب متعددة، أو ليست بالضرورة أسباباً دينية عقائدية. وبهذا المعنى  
الواسع ورد مصطلح شيعة في وثائق التحكيم في صفين.<sup>٥٦</sup>  
وبعد التحكيم بعقود، وعندما بدأت الشيعة تنظّم وتصوغ موقفها الرسمي  
جرت محاولات لتحديد نوعية الجماعات التي أيدت علياً، وكانت شيعة  
علي هذه في بداياتها الأولى غير محددة أو منسجمة، بل مختلطة الأهواء  
والأهداف والأسباب. وقد تم تصنيف الشيعة إلى أربعة أصناف:  
الأصفياء والأولياء والصحاب والمليكة.<sup>٥٧</sup> والمفردات الثلاث الأولى  
ليست واضحة بدقة برغم أن بعض المصادر الشيعة أشارت إلى الأولياء  
المؤسسين أمثال المقداد وسلمان وعمّار وحذيفة وأبي حمزة وأبي ساسان  
وشطير على أنهم الأصفياء.

من المؤكد أن هذا التصنيف تم في عهد متأخرة. ومع ذلك علينا أن نفرّق  
بين أولئك الذين أيدوا علياً لأسباب دينية محضة وأرادوه خليفة بصفته  
وصياً وأولئك الذين أيدوه أساساً لأسباب سياسية وبخاصة بعد أن نقل  
عاصمته إلى الكوفة. فبالإضافة لاتباع علي السياسيين، خلف وراءه جماعة  
دينية مخلصه بايعوه على أن يوالوا من يواليه، ويعادوا من يعاديه.<sup>٥٨</sup>  
وأصرت هذه المجموعة على أن علياً " على الحق والهدى " وأن خصومه  
على العكس من ذلك، وحافظت على عقيدتها وهي أن علياً وبفضل  
حسبه ونسبه كان مؤهلاً خصيصاً لشغل المنصب الأسمي في الأمة  
الإسلامية. ويفسر وجود هذه المجموعة الدينية المخلصة إلى حد بعيد كيف  
تدبر التشيع أمر نفسه كي يعايش الالتكاسات السياسية الحادة التي  
تعرض لها عبر السنين.

#### ملاحظات الفصل الرابع:

- ١- الأغاني ج ٦ ص ٣٣٤، المسعودي. مروج ج ٢ ص ٣٤٢
- ٢- الطبري ج ١ ص ٢٩٤٨ ولروايات أخرى انظر ابن سعد ج ٣ ص ٦٤، والبلاذري ج ٥ ص ٢٥، واليعقوبي ج ٢ ص ١٦٤، والدينوري. أخبار ص ١٣٩ والمسعودي، مروج ج ٢ ص ٣٣٤، والعقد الفريد ج ٤ ص ٢٨٠
- ٣- انظر الطبري ج ١ ص ٢٩٢٣، والمسعودي. مروج ج ٢ ص ٣٣٧
- ٤- الطبري ج ١ ص ٢٨٧١، والبلاذري ج ٥ ص ٤٩
- ٥- البلاذري ج ٥ ص ٣١، والطبري ج ١ ص ٢٨٤٥، والمسعودي مروج ج ٢ ص ٣٣٥ والعقد الفريد ج ٤ ص ٣٠٧
- ٦- البلاذري ج ٥ ص ٤٠ والمسعودي مروج ج ٢ ص ٣٣٧ والطبري ج ١ ص ٢٩١٦
- ٧- البلاذري ج ٥ ص ٢٧ الطبري ج ١ ص ٢٩٣٥ والأشعري، التمهيد ص ٩٩
- ٨- البلاذري ج ٥ ص ٣٦ واليعقوبي ج ٢ ص ١٧٠
- ٩- البلاذري ج ٥ ص ٤٨ والعقد ج ٤ ص ٣٠٧، والمودودي أبو الأعلى الخلافة والملوكية ص ١٠٥ الذي يعرض ضعف عثمان أمام أقاربه وسوء أعمالهم.
- ١٠- البلاذري ج ٥ ص ٥٢ والطبري ج ١ ص ٢٨٥٨ والمسعودي مروج ج ٢ ص ٣٣٩ واليعقوبي ج ٢ ص ١٧١
- ١١- اليعقوبي سابقه
- ١٢- لمعرفة هذه التعليقات انظر M.S يوسف الثوري على عثمان، الثقافة، الثقافة الإسلامية مجلة عدد ٢٧ السنة ١٩٣٥ ص ٤، E
- ١٣- البلاذري ج ٥ ص ٢٦ و ٥٧ والطبري ج ١ ص ٢٩٥٥ و ٢٩٨٠ والعقد ج ٤ ص ٢٨٠

- ١٤- البلاذري ج ٥ ص ٣٣ والمسعودي مروج ج ٢ ص ٣٤١ واليعقوبي ج ٢ ص ١٧٢ وشرح النهج ج ٨ ص ٢٥٢
- ١٥- شرح النهج ج ١ ص ٣٠٣
- ١٦- انظر المصادر المذكورة في الملاحظة ١٤
- ١٧- البلاذري ج ٥ ص ٢٦ و ٦٠-٦١، والطبري ج ١ ص ٢٩٤٨ و ٢٩٥٥، والمسعودي. مروج ج ٢ ص ٣٤٤ والأشعري. التمهيد ص ٥٤
- ١٨- البلاذري ج ٥ ص ٤٠
- ١٩- الكشي. رجال ص ٧٢
- ٢٠- سابقه
- ٢١- سابقه
- ٢٢- الطبري ج ١ ص ٢٩٤٢ والأشعري التمهيد ص ٥٥
- ٢٣- واعظ السلطان. بغداد ١٩٥٤ ص ١٤٨
- ٢٤- برنارد لويس. أصول الإسماعيلية كميردج ١٩٤٠ ص ٢٥ E  
ومارشل هودسن مقال: كيف صار الشيعة الأوائل طائفيين مجلة Jops  
العدد ٧٥٥، ١٩٥٥ ص ٢ وانظر دائرة المعارف الإسلامية مقال "عبد  
الله بن سعد" الطبعة ٢ E
- ٢٥- هودسن. الشيعة المبكرة ص ٣ E
- ٢٦- البلاذري ج ٥ ص ٤٩ محمد بن أبي بكر كان موالياً مخلصاً لعلي وناقد  
عثمان بشدة. هودسن سابقه ص ٢
- ٢٧- البلاذري ج ٥ ص ٤٨، ٤٩ والطبري ج ١ ص ٣١١٢ واليعقوبي ج ١  
ص ١٧٥؛ الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٠
- ٢٨- البلاذري ج ٥ ص ٦٢ و ٦٩ والطبري ج ١ ص ٢٩٨٨ والمسعودي  
مروج ج ٢ ص ٢٣٢ والعقد ج ٤ ص ٢٩٠
- ٢٩- البلاذري ج ٥ ص ٧٠ والطبري ج ١ ص ٣٠٦٦ والعقد ج ٤ ص ٢٩١  
و ٣١٠.
- ٣٠- العقد ج ٤ ص ٣١٨

- ٣١- البلاذري ج ٥ ص ٧٠ والطبري ج ١ ص ٣٠٦٨ واليعقوبي ج ٢ ص ١٧٨ والأشعري. التمهيد ص ١٠٧ والدينوري أخبار ص ١٤٠
- ٣٢- الطبري ج ١ ص ٣٠٨٠
- ٣٣- الطبري ج ١ ص ٣١٢٧
- ٣٤- الطبري ج ١ ص ٣٠٩١ و ٣١١٢ واليعقوبي ج ٢ ص ١٨٠ وشرح النهج ج ١ ص ٢٣٢
- ٣٥- الطبري ج ١ ص ٣٢٥٥
- ٣٦- العقد ج ٤ ص ٣٣٤ وانظر البلاذري ج ٤ ص ١٠٨ حيث رفض بعض الصحابة دعوى معاوية بدم عثمان
- ٣٧- انظر الفصل الثالث ملاحظة رقم ٨
- ٣٨- اليعقوبي ج ٢ ص ١٧٩
- ٣٩- هودسن "كيف صار الشيعة الأوائل طائفيين" مجلة Jaos ص ٢ E
- ٤٠- مونتغمري وات "الشيعة تحت حكم الأمويين" مجلة Jaos ١٩٦٠ ص ١٦١ E و J ريكان المؤسسات الملكية في الجزيرة العربية قبل الإسلام. لوفيان ١٩٥١ ص ٢٢٩ بالفرنسية
- ٤١- الكامل للمبرد ج ٣ ص ٢٠٥ والمسعودي مروج ج ٢ ص ٤١٦ والأغاني ج ١٢ ص ٣٢٦ ويوافق شتروطمان بأن في شعر أبي الأسود الدولي فضائل علي الدينية المميزة مقال في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى بعنوان "الشيعة" وانظر أبيات مماثلة في شعر الكميت وكثير في الكامل ج ٣ ص ٢٠٤
- ٤٢- القرآن الكريم سورة ١٩ آية ٦
- ٤٣- شرح النهج ج ١ ص ١٤٤ - ١٤٩
- ٤٤- الفهرست لابن النديم ص ٩٣
- ٤٥- ص ١٨ و ٢٣ و ٤٣ و ٤٩ و ٣٦٥ و ٣٨٢ و ٣٨٥ وانظر الإسكافي نقد العثمانية ص ٨٤

٤٦- البلاذري ج ٥ ص ٣٤ وحتى أبيات ابن أم كلب تنسب لعائلته،  
المسؤولية عن قتل عثمان

٤٧- الشيخ المفيد كتاب الإرشاد ص ١٤٦ وشرح النهج ج ١ ص ٦٣

٤٨- هذه الواقعة معروفة باسم حديث الإفك والبخاري يرويه بكامله وانظر  
شرح النهج ج ٣ ص ٢٥ وكتب الحديث الأخرى تحت عنوان حديث  
الإفك.

٤٩- عمر أبو النصر علي وعائشة. بغداد دت ص ٢٥

٥٠- الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٦٧ ولم أستطع العثور على نص الحديث في  
الطبعة المتوفرة للمترجم لذلك ترجمت النص الإنكليزي

٥١- تستعمل هذه المصطلحات في المصادر العربية تكراراً. مثلاً الطبري ج ١  
ص ٣١٩٦ و ٣١٩٩ واليعقوبي ج ٢ ص ١٨٣ و ١٨٤ و ١٩٩ والأغاني  
ج ٧ ص ٣٣٤ وج ١٤ ص ٢١٩

٥٢- الطبري ج ١ ص ١٢٧٢

٥٣- شرح النهج ج ١ ص ٢٠١

٥٤- ما قبله

٥٥- ما قبله واليعقوبي ج ٢ ص ١٩٣

٥٦- المنقري وقعة صفين ص ٥٠٤ والطبري ج ١ ص ٣٣٣٦

٥٧- الفهرست ص ١٧٥ والطبري ج ٢ ص ١ ورجال الكشي ص ٤

٥٨- الطبري ج ١ ص ٣٣٥٠ ومونتغمري وات "الشيعية تحت حكم الأمويين"

مجلة Jaos ١٩٦٠ ص ١٦٠ - ١٦١ E

## الكوفة: مركز للنشاطات الشيعية

منذ أن انتقل علي إلى الكوفة عام ٣٦هـ - ٦٥٦م أو حتى قبل ذلك، صارت الكوفة مركزاً رئيساً للحركات والطموحات والآمال وأحياناً للجهود الجماعية الشيعية. أجل لقد صارت الكوفة وما حولها مكاناً لمعظم الأحداث العاصفة التي صاغت التاريخ المبكر للإسلام الشيعي: ففي الكوفة مثلاً جمع علي قواته وقادها إلى معركتي الجمل وصفين، وفي الكوفة تم اختيار الحسن للخلافة، وفيها تخلى عنها، وفيها فُض حجر بن عدي الكندي، وفيها ذبح الحسين وأصحابه، وفيها ثار التوابون<sup>١</sup> والمختار. وإلى جانب ذلك أثبتت الكوفة أنها مصدر التراجعات، والإحباط، واليأس، وحتى الخيانة وفشل الرغبة الشيعية في رؤية ذرية علي في مركز قيادة الجماعة الإسلامية. وفي هذا الفصل نسعى لفحص طبيعة وتركيب مدينة الكوفة وميزات ميول سكانها باختصار.

أنشئت مدينة الكوفة عام ١٧هـ - ٦٣٨م بعد وصول عمر بن الخطاب إلى الخلافة بنحو ثلاث سنوات<sup>٢</sup> فبعد انتصار المسلمين في معركتي القادسية سنة ١٥هـ - ٦٣٨م وبعدها بسنة واحدة في معركة جولاء أمر الخليفة عمر سعد بن أبي وقاص قائد الجيوش الإسلامية في العراق بالتوقف هناك- وبالتأكيد من أجل تدعيم سيطرة المسلمين على العراق، وبعدئذ التقدم شرقاً نحو إيران عندما تصبح الفرصة مناسبة. وبناءً على ذلك الأمر توقف سعد بن أبي وقاص والجيوش الإسلامية في المدائن عاصمة الساسانيين المفتوحة حديثاً حيث ثبت إنها مكان غير مرضٍ للعرب بسبب

مناخها الرطب وازدحام المكان وبعدها عن البيئة الصحراوية حيث الهواء النقي والمراعي المناسبة لدواب الجيوش العربية. وعندما أعلم الخليفة بالصعوبات التي تواجه تلك القوات أمر سعد بإخراجها من المدائن والبحث عن مكان يناسب شروط حياة العرب ومتطلباتهم. وبعد البحث واختيار ثلاثة أماكن وقع الاختيار الأخير على سهل على الضفة الغربية للفرات قرب مدينة الحيرة الفارسية القديمة بناءً على نصيحة سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان. وأمر سعد جيوشه بإقامة مخيمات هناك. وهكذا بدأ بناء الكوفة. لم يكن اختيار ذلك المكان لتشييد المدينة المحتملة اعتباطياً، وإنما تم بعد تفكير حذر وبحث دقيق دام حوالي عامين.

تؤكد المصادر التاريخية التي وصفت تشييد الكوفة وبدون أدنى شك أن إقامة هذه المدينة لم يكن يهدف ومنذ البداية إلى إيجاد مقر دائم في المدينة لقوات الفتح، بل إلى تشييد مقر استراتيجي لحشد القوات في العراق البلد الذي تم فتحه مجدداً. وهذا واضح من أمر عمر الذي بعثه لسعد وفيه يقول: "اخترنا مكاناً للمسلمين يكون "دار هجرة" ومزل جهاد." لقد عني عمر بقوله "دار هجرة" وفي ذلك الوقت تحديداً، موطناً للمقاتلين الذين قدموا لفتح العراق من مناطق بعيدة جداً وانتصروا في القادسية والذين طلب منهم تدعيم سيطرة المسلمين على المناطق الحرة، ويقول له "مزل جهاد" عني الاستعداد لعمليات عسكرية قادمة باتجاه إيران. وأضاف البلاذري في روايته قول عمر: "مكان يمكن أن يتجمع فيه المسلمون: قيروان"<sup>٥</sup> وهذا يؤكد أن عمر كان يفكر بمدينة عسكرية حيث يمكن إسكان قوات قادمة لرفد المقيمين هناك من مناطق بعيدة تكون



جاهزة عند الطلب. وكان المستوطنون الأوائل في الكوفة أولئك المحاربين الذين ثم حشدهم بسرعة لمعركة القادسية وقد عرفوا بـ "أهل الأيام والقادسية"

كانت مهمة تخطيط و تنظيم أحياء المدينة لإقامة سكانها الأوائل الذين جازوا من قبائل متنوعة جداً - كما سنرى - مهمة صعبة جداً أمام سعد بن أبي وقاص فعلى عكس البصرة التي جرى تشييدها قبل الكوفة بعام واحد وكانت ما تزال في مرحلة البناء، فإن عرب شمال ووسط الجزيرة العربية لم يكن لديهم الخبرة الكافية لتأسيس المدن. لقد كان مفهوم المدينة كمكان لوحدة سياسية واجتماعية أمراً غريباً على شعور العرب بالانتماء. فلم يكن تصور العرب للمدن المقامة في تلك المناطق مثل الطائف ومكة ويشرب كمكان لوحدة سياسية - اجتماعية، بل موطن لقبائل: أي إن مفهوم القبيلة كان هو الطاغى على المفاهيم الأخرى.

مع بداية خلافة عمر وانطلاق عملية الفتوحات خارج الجزيرة العربية، استفاد العرب من الفرصة للقتال وبالتالي هاجروا إلى سورية وشكلوا جماعات منظمة نسبياً لأنهم ينتمون إلى قبائل كبيرة ومتجانسة. وحصل في البصرة ما يشبه ما حصل في سورية حيث استقرت هناك قبيلتان مسيطرتان هما تميم وبكر إلى جانب ٣٠٠ نسمة من المهشمين الذين قدموا من أماكن بعيدة<sup>٦</sup>

أما في الكوفة فإن عدد الذين قدموا من أماكن للعيش هناك فيتراوح ما بين ١٥-٢٠ ألفاً مؤلفين من قبائل غير متجانسة إلى حد بعيد جداً. وقد سجل غياب أي فتخذ من قبيلة مسيطر على الموقف، وقد أوجد سعد بن

وقاص الحل بتوزيع معسكر الكوفة لا بحسب القبائل، وإنما بتقسيمه إلى نزاريين (عرب الشمال) ويمنيين (عرب الجنوب). وأسكن الزاريين الشماليين في الجانب الغربي من سهل الكوفة، وأسكن اليمنيين الجنوبيين في الجانب الشرقي، وتم ذلك بموجب التقاسم بالأزلام (إطلاق الأسهم بطريقة معينة لتحديد نصيب كل فريق) كما هي العادة العربية القيمة<sup>٧</sup> وخصص سعد مكاناً واسعاً في منتصف المدينة لبناء المسجد الجامع. وبني دار الإمارة وبيت المال إلى جانب المسجد. كانت هذه أول عملية توزيع وترتيب لسكان الكوفة، ولكن أعيد النظر فيها ثلاث مرات خلال ٣٣ سنة تلت تشييدها الأول.

أثبتت طريقة سعد في تنظيم سكن القبائل في الكوفة أنها لم تكن مقنعة. أولاً: لم تجد القبائل المتنوعة من الزاريين ولا اليمنيين المختلفين أنه من المناسب تجميع بعضهم مع البعض الآخر، وسريعاً ما واجهوا مشاكل خطيرة. ثانياً: أظهرت تنظيمات سعد صعوبات جدية في تشكيل فصائل عسكرية مقاتلة. لقد تم تشييد الكوفة كي تكون مدينة عسكرية (مزل جهاد) يجري فيها إعداد فصائل مقاتلة جاهزة للانطلاق. وكان هذا صعباً حين توزع السكان إلى قسمين كبيرين واسعين. وأخيراً: غياب تنظيم المعسكر في مجموعات صغيرة متماسكة حسب أفخاذ قبلية أو أفخاذ متحالفة جعل تنظيم عملية توزيع المخصصات المالية (رواتب أو معاشات) وهي الموارد الوحيدة المتاحة لسكان الكوفة يومئذ صعباً جداً. وحين واجه سعد تلك الصعوبات وبعد أن استشار عمر فيما يجب فعله لتجاوز تلك الصعوبات، أعاد تنظيم السكان وقسمهم إلى سبع جماعات. وقد تم

هذا التعديل على أساس السلالات أو تحالف السلالات بمساعدة اثنين من الخبراء المشهود لهم بمعرفة الأنساب<sup>٨</sup> كان هذا المبدأ الذي استخدم لإعادة التنظيم مبدأ قديماً مما قبل ظهور الإسلام، بل إنه تقليد عربي قديم في تنظيم القبائل حيث يتم تجميع الأفخاذ أو القبائل التي أقامت فيما بينها تحالفاً سياسياً غالباً ما يكون غير متماسك.

وعلى كل حال، فقد تمت إعادة التوزيع إلى سبع مجموعات عرفت بالأسباع وعلى النحو التالي<sup>٩</sup>

١ كنانة ومعها أحلافها من الأحباش وآخرون إلى جانب فنخذ من جديلة. وكانت كنانة قبيلة مكية وقريش فرع منها، أما جديلة فمن عرب قيس عيلان وكانت تسكن الحجاز وتقيم علاقات من نوع ما مع كنانة، ونظر إليهما (كنانة وجديلة) على أنهما أهل العلية، وحصل أن كنانة وقريشاً إلى جانب قبائل أخرى شكلت في الماضي تجمعاً عرف بـ خندف. لذلك كان من الطبيعي أن تتمتع القبيلتان في الكوفة بعلاقات جيدة وتعاوننا مع أميرها القريشي، ورغم أن عدد أفرادها كان قليلاً، فقد حافظتا على مكانة ذات حقوق خاصة.

٢ المجموعة الثانية وتضم قضاة وغسان وبجيلة وخثعم وكندة وحضرموت والأزد، ويجمع هذه القبائل معاً تشكلت مجموعة يمنية عسكرية قوية، وكانت الشخصيتان القويتان: جرير بن عبد الله<sup>١٠</sup> من بجيلة وكان صديقاً شخصياً لعمر بن الخطاب، والأشعث بن قيس<sup>١١</sup> من كندة هما القائدان المسيطران على هذه المجموعة.

٣ المجموعة الثالثة وتضم مذحج<sup>١٤</sup> وحمر<sup>١٥</sup> وهمدان<sup>١٦</sup> ومحالفهم. وكانت هذه مجموعة يمنية قوية أيضاً قامت همدان بينها بدور هام واحتفظت بموقع خاص في الكوفة، وأبرزت مؤيدين متحمسين لقضية الشيعة.<sup>١٧</sup>

٤ وتضم هذه المجموعة تميم ووهب وهوازن وهذه القبائل تنتمي إلى مضر<sup>١٨</sup>

٥. وتضم أسد وغطفان ومخارب وغمر وضيعة وتغلب ومعظم هذه المجموعة تنتمي إلى المجموعة الزارية من ربيعة وبكر.

٦ وتضم هذه المجموعة إباد وعك وعبد القيس وأهل الحجر والحمراء. إباد<sup>٢٠</sup> وعك<sup>٢١</sup> فخذان من الزاريين العدنانيين، وكانتا تسكنان العراق من أمد بعيد وعند قدوم جيوش الفتح الإسلامي انضمت هاتان القبيلتان إليه ضد الساسانيين. وعبد القيس<sup>٢٢</sup> هي الأخرى من العدنانيين، هاجرت إلى البحرين وهناك عرفت بأهل الحجر. وفي العام التاسع للهجرة ٦٣٠م أرسلت وفداً كبيراً إلى المدينة ودخلت في الإسلام، لذلك كان كثير من رجالها يميزون أنفسهم بأنهم من صحابة النبي<sup>٢٣</sup> ورغم أن هذه المجموعة مؤلفة من خليط من القبائل العربية، فإن من الصعب تجاهل أو تقليل أهميتها، فقد انضمت عبد القيس إلى معركة القادسية تحت قيادة رئيس من تميم هو زهره بن حويس وهو أحد صانعي نصر المسلمين في القادسية، حيث جمع ثلاث قبائل عربية تحت إمرته وكبد الفرس خسائر فادحة. وزادت أهمية هذه المجموعة بعد معركة القادسية مباشرة حين دخل الإسلام مجموعة من الفرس

تقدر بجوالي ٤٠٠٠ بقيادة رئيسهم ديلمان (وبالتالي اكتسبوا اسم الديالمة) وبشروط خاصة تعهد بها سعد بن أبي وقاص، وانضموا إلى هذا القائد التميمي، الذي أصبح حامياً لهم. ثم اتخذوا مع إباد وعك وعبد القيس. وأسم الحمراء يدل على هؤلاء الفرس المسلمين مجدداً.<sup>٢٤</sup> هذه المجموعة شكلت على الأقل من ناحية العدد أحد أقوى الفصائل العسكرية في الكوفة، ولكن قوتهم العددية التي منحهم وضعاً متقدماً advantageous أدت بهم إلى الدخول سريعاً في صراع مباشر مع مصالح القبائل البارزة التي تدعي حقوقاً خاصة بها في معسكر الكوفة المعقد من الناحية الاجتماعية- السياسية. ويلاحظ أن بعض عناصر هذه المجموعة وبخاصة عبد القيس قد أظهرت تأييداً لعلي في معركتي الجمل وصفين، كما ذكرت المصادر.

٧. وضمت هذه المجموعة سبأ كما سماها الطبري وهي بالتأكيد طيء القبيلة العربية اليمنية القوية. وفي الحقيقة إنما طيء وهذا واضح من خلال الإشارات الكثيرة الموزعة على مئات الصفحات التي تحدث فيها عن أحداث الكوفة حتى أيام معاوية. دخلت طيء الإسلام عام ٦٣٠هـ-٦٣٢م وعندما ارتدت قبائل أخرى عام ١١هـ-٦٣٢م بقيت طيء متمسكة بإسلامها. وانضمت إلى المنى بن حارثة في حروب فتوح العراق عند فتح الحيرة، ثم ساهمت في معركة القادسية. وبعد ذلك انضمت طيء إلى علي وساهمت في معركتي الجمل وصفين كأقوى مؤيديه.<sup>٢٥</sup> بعد علي نقرأ عن تأييد حجر بن حاتم للحسن وهو يبحث الكوفيين لتأييد إمامهم ابن بنت رسول الله.<sup>٢٦</sup> ويبدو أن قوة

طيء تناقصت في الكوفة، فقد ترك الكوفة بعض رجالها وانضموا إلى أقاربهم في معقلهم الجبلي بين البصرة والكوفة.<sup>٢٨</sup> وسنقرأ لاحقاً عن الطرماح بن عدي الطائي الذي قابل الحسين في طريقه من الحجاز إلى الكوفة ودعاه لتغيير خطته والذهاب معه إلى أرض طيء الجبلية.<sup>٢٩</sup>

هكذا إذن تم تنظيم سكان الكوفة إلى سبع فصائل مقاتلة قبلية وأسكنت كل منها في حي، مما ساعد في حشدتهم وتحريكهم عند الحاجة وساعد في عملية توزيع المعاشات والغنائم. كذلك جرى توزيع الأراضي المحيطة بالكوفة وأعطيت كل مجموعة جبانة (المرعى) ومدفن الأموات. وكان لهذه الجبانات أهميتها العظمى في التطورات اللاحقة عندما توسعت المدينة، لأن هذه الجبانات اتسعت للقادمين الجدد إلى الكوفة حيث انضموا كل إلى أبناء قبيلته.

استمر وضع الكوفة على ما هو عليه خلال الثلاثين سنة التالية حتى أجري تعديل عليه عام ٣٦هـ/٦٥٦م عندما قدم علي إليها. وكما سنرى لاحقاً، فخلال العشرين سنة الأخيرة تغيرت قوى ضمن المجموعات السبع بشكل كبير. فضمن كل قبيلة استولى فخذ منها على مركز القوة (القيادة) فيها، وسيطرت بعض الأفخاذ على كامل أفراد المجموعة. كما أن هناك قبائل استقبلت قادمين جدداً إليها مما غير موازين القوى العددية إلى حدٍ مفرط. لذلك وعندما قدم علي إلى الكوفة أبقي التقسيم السباعي لكنه أجرى تعديلات هامة من حيث تركيب كل مجموعة، والتركيب العام للمجموعات وذلك بنقل بعض القبائل من مجموعة إلى أخرى. وبحسب ما ورد عند ماسينيون كان ترتيب علي على النحو التالي:

- ١ همدان وحمير اليمانيان.
  - ٢ مذحج وأشعر (الأشاعر) وطيء من اليمن أيضاً.
  - ٣ كندة وحضرموت وقضاعة ومهر من اليمن أيضاً.
  - ٤ الأزد وبجيلة وخثعم وانصار من اليمن أيضاً.
  - ٥ القبائل النزارية من قيس وعيس وذبيان وعبد القيس من البحرين.
  - ٦ بكر وتغلب وجميع فروع ربعة النزارية.
  ٧. قريش وكندة وأسد وتميم وضبة والرباب الزارين.<sup>٣٠</sup>
- هناك ثلاث نقاط هامة في هذا الترتيب يجب ملاحظتها. أولاً: هناك أسماء أفخاذ مثل أشعر ومهر وضبة لم تظهر في تقسيم وتنظيم سعد. فعلى الأغلب إن هذه الأفخاذ كانت مهمشة فلم تجلب انتباه سعد لذكرها عام ١٧هـ/ ٦٣٨م ولكن في أيام علي عام ٣٦هـ/ ٦٥٨م زاد عدد افرادها مما جلب الانتباه إليها واستدعى منحها شخصية خاصة. ثانياً: في ترتيب سعد كان هناك ثلاث مجموعات يمنية وأربعة نزارية. أما في أيام علي فقد انقلب الوضع رأساً على عقب فصارت أربع مجموعات يمنية وثلاث نزارية. وسنذكر لاحقاً أنه منذ البداية كان عدد اليميين أكبر من عدد الزاريين ١٢-٨ آلاف. ويبدو أن علياً أخذ العدد بعين الاعتبار وأعاد التنظيم بحسب ذلك العدد، وبالتالي حصل اليمينيون على ما يستحقون في الكوفة. أخيراً ترك علي أساس سلالات القبائل على ما كان عليه أيام سعد.

أما إعادة الترتيب الأخير الذي جرى في الكوفة فقد حصل حين تولاهما زياد بن أبي سفيان عام ٥٠هـ - ٦٧م. فقد ألغى التنظيم القبلي السباعي، ورتبها في أربع مجموعات كما يلي:

١- أهل العلية. ٢- تميم وحمدان. ٣- ربيعة (بكر) وكندة.

٤- مذحج وأسد.<sup>٣١</sup>

ثمة نقاط عديدة هامة تجب ملاحظتها في إعادة التنظيم التي أجراها زياد.

أولاً: لم يكن زياد والياً على الكوفة وحدها بل والبصرة كذلك، حيث تم تقسيم السكان منذ البداية إلى أربع مجموعات). وأثبت هذا التنظيم الإداري أنه مناسب جداً للسيطرة على سكان البصرة لذلك قرر زياد تطبيقه في الكوفة أيضاً.

ثانياً: تجاهل زياد كلية مبدأ العرب التقليدي الذي يقر السلالات القبلية والتحالفات عند تشكيل المجموعات. وبدلاً من ذلك خلط اليميني مع الزاريين باستثناء أهل العلية.

ثالثاً: اختار زياد القبائل الست الأكثر قوة - ما عدا أهل العلية - ومزج معها كل البطون الصغيرة أو القبائل المهمشة.

لم يزعج زياد أهل العلية المؤلفة من البطون المكية (نسبة إلى مكة) والقريشيين بأي إجراء، وذلك لأنهم الحلفاء الطبيعيون للوالي (الحاكم) القريشي منذ أيام سعد. وأكثر من ذلك ان هذه المجموعات كانت الأقل عدداً لما كان زياد يخالفهم في شيء.



في المجموعة (الربع) الثانية خلط تميم الترابية مع كندة اليمينية. وفي المجموعة (الربع) الثالثة خلط بكر الترابية مع كندة اليمينية، وفي المجموعة (الربع) الرابعة خلط أسد الترابية مع مذحج اليمينية. وعين على رأس كل مجموعة رئيساً اختاره بنفسه،<sup>٣٢</sup> وحدد له مهمته الأساسية بضبط أفراد مجموعته. وأخيراً لابد أن يلاحظ الدارس أن غاية زياد من التخلي عن مبدأ التنظيم بحسب السلالات أو التحالفات هي إضعاف نفوذ القادة بالتوارث لصالح تدعيم سيطرة القائد الذي عينه هو بنفسه وذلك بقصد تقوية سيطرة الأمويين على المدينة.

إن من الصعوبة بمكان أن يحدد المرء عدد سكان الكوفة بدقة، ومع ذلك فمن الروايات المختلفة التي أوردتها المصادر يمكن تقدير هذا العدد. يقدم لنا الطبري تقريراً مفصلاً عن القوات العربية التي حاربت في موقعه القادسية ويقدر عددهم بثلاثين ألفاً.<sup>٣٣</sup> ربما كان هذا الرقم مبالغاً به، ولكن في جميع الأحوال فإن هؤلاء المقاتلة لم يسكنوا كلهم في الكوفة. أما ياقوت الحموي فيروي أن عمر بن الخطاب أمر سعد أن يخطط مسجد الكوفة بحيث يتسع لأربعين ألفاً من المقاتلة الذين سيقمون هناك.<sup>٣٤</sup> أما الرواية الأكثر اعتدالاً وربما الأكثر قبولاً فهي رواية البلاذري الذي ينقل عن الشعبي، والتي تحدد عدد المستوطنين العرب الأوائل في الكوفة بعشرين ألفاً مؤلفة من اثني عشر ألفاً من اليمانية وثمانية آلاف من الترابية. وأضاف البلاذري إلى هؤلاء ٤٠٠٠ من الديلمة الفرس (الحمراء)، الذين كانوا من أوائل من استوطن الكوفة إلى جانب الغرب.<sup>٣٥</sup> ويبدو أن هذا الرقم (٢٤ ألفاً) هو الأكثر قبولاً بالمقارنة مع

الروايات المغالية الأخرى، وهؤلاء بدأت الكوفة وجودها التاريخي. ومن بين هؤلاء المستوطنين أو القادمين كما تصفهم المصادر التاريخية، ثمة عدد كبير نوعاً ما يقدر بـ ٣٧٠ من صحابة النبي من المهاجرين والأنصار سكنوا مباشرة بعد بنائها.<sup>٣٦</sup> وكان بينهم من الشخصيات الهامة مثل عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان والبراء بن عازب وسلمان الفارسي. وزيد بن الأرقم وأبو موسى الأشعري. وعدّ ابن سعد سبعين منهم بدرين (الذين حاربوا إلى جانب النبي في معركة بدر) قاتلوا المكين عام ٢هـ/٦٢٣م، و ٣٠٠ منهم بايعوا النبي مرة ثانية يوم صلح الحديبية سنة ٧هـ/٦٢٨م.<sup>٣٧</sup> وهذه البيعة معروفة ببيعة الرضوان واعتبر المسلمون أن الذين بايعوا فيها يتمتعون بإجلال خاص لأنهم أثبتوا ولاءهم للنبي وأيدوه في وقت الحنة.

إن طبيعة سكان الكوفة غير المتجانسين وغياب أي قبيلة أو جماعة مسيطرة حتّى عمر على الاهتمام بشكل خاص بالمدينة الجديدة. اعتقد عمر أن حشد قبائل وأفخاذ عديدة ممن لم يعتادوا على نظام المدينة الاجتماعي من قبل وإسكان عدد كبير من الصحابة المتميزين سينشر روح الإسلام بينهم، ويجعل من الكوفة مدينة إسلامية أصيلة متحررة من العصبية القبلية. لقد كان اهتمام عمر بالكوفة عظيماً جداً حتى أنه وصفها بأنها "قبة الإسلام" و"رأس أهل الإسلام" وعندما وصف سكان الكوفة قال: "إنهم رمح الله، وكثر الإيمان، وهجمة العرب الذين يحمسون ثغورهم ويقوون العرب الآخرين"<sup>٣٨</sup> ومن المهم أن نلاحظ أن هذا المديح لم يقل لآية مدينة أخرى كالبصرة أو دمشق. لقد كان عمر معارضاً للشعور

بسمو القبيلة النواسع الانتشار في النظام الاجتماعي- السياسي العربي. لقد زوده وضع سكان الكوفة غير المتجانس بخلفية مناسبة لإقامة نظام اجتماعي- سياسي إسلامي حيث تختفي العصبية القبلية تحت العصبية الدينية الإسلامية. وهذا يعني أن القيادة المسيطرة يجب أن تكون لأصحاب السابقة الإسلامية، وأن السلطة القبلية يجب أن تختفي تحت السلطة الإسلامية. إن اختيار عمار بن ياسر، وهو من غير جذور قبلية ومن أوائل الذين أسلموا وجاهدوا في سبيل الإسلام والياً على الكوفة، واختيار عبد بن مسعود نائباً له كان مظهرًا واضحاً لسياسة عمر هذه. وعندما عينهما عمر لمنصبيهما كتب إلى أهل الكوفة: "أرسلت إليكم عماراً والياً وعبد الله يعلمكم الإسلام ونائباً له، وهما من بين أفضل صحابة النبي ونجبائهم، فاسمعوا لهما واتبعوهما، ولقد آثرتكم على نفسي، وكنتم أود استبقاءهما لهما." ٤٠

يكشف التأكيد على جدارة عمار وعبد الله وتميزهما بصفتهما الأكثر تبجيلاً من بين الصحابة واختيارهما لقيادة الكوفة ويظهر نية عمر بتأكيد الحقوق الإسلامية بدلاً من الحقوق القبلية، وهذه الطريقة يمكن المحافظة على تناغم المدينة السياسي.

عندما نظم عمر بن الخطاب الديوان سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م لتوزيع الأرزاق كان معياره الوحيد هو السابقة في الإسلام. قسّم مواطني الكوفة إلى ثلاث جماعات:

١ الجماعات المتنوعة من المهاجرين والأنصار.

٢ والذين خاضوا الحرب ضد المرتدين أو الذين جاهدوا قبل وفي معركتي اليرموك والقادسية وعرفوا باسم أهل الأيام والقادسية.

٣ الروادف وهم قدموا الكوفة بعد معركة اليرموك والقادسية أو الموجة الثانية والثالثة من المهاجرين الجدد ثم ساءهموا في الفتوحات. <sup>٤١</sup>  
وكانت المخططات حسب ترتيب هذه المجموعات كما يلي:

المجموعة الأولى: ما بين ٥٠٠٠-٣٠٠٠ درهم سنوياً.

المجموعة الثانية: ما بين ٣٠٠٠-٢٠٠٠ درهم سنوياً.

المجموعة الثالثة: ما بين ١٥٠٠-٢٠٠ درهم سنوياً.

والنقطة الأكثر أهمية لغرضنا هنا، هي أنه لتوزيع الأرزاق قسّم عمر كل مجموعة إلى مجموعات أصغر، وعين عريقاً لمراقبة التوزيع، وعرفت هذه المجموعات الصغيرة بالعرفاء. وكانت كل مجموعة من العرفاء مؤلفة من أفراد من فخذ من قبيلة، أو بالأحرى من أفراد متماثلين في مواقفهم من الإسلام، <sup>٤٢</sup> وهذا لأن أفراد القبيلة أو الفخذ منها كانوا يسلمون جماعة لا أفراداً. وكان هؤلاء العرفاء في الكوفة موقع مسيطر في الشؤون السياسية للمدينة. أما مصطلح "أشراف القبائل" الذي استخدم لوصف سكان الكوفة فيفهم منه أن أطلق على قادة القبائل فقط، ولم يكن عدد هؤلاء الأشراف القادة كما يظن قارئ المصادر التاريخية كبيراً. وبالتالي فإن هؤلاء العرفاء كثيراً ما شغلوا مراكز قيادة أعرفهم في أيام الشدة في خلافة عثمان وعلي وما بعد ذلك بدلاً من الأشراف. ولم يكن عدد الأشراف كبيراً كما تصوره المصادر ما لم يضاف إليه عدد العرفاء.

توسعت الإمبراطورية الإسلامية بشكل كبير مثير للدهشة خلال خلافة عمر، وكذلك تزايد عدد سكان الكوفة. ونلاحظ تدفق هجرتين إلى الكوفة حصلاً مباشرة. الأولى: الروافد وهم موجات العرب القادمين مجدداً بعد إكمال فتح سورية ومصر والجزيرة عام ٢٠هـ / ٦٤١م، فعندما أيقن هؤلاء أنه لم يعد هناك حظ لتوسع الفتوحات غرباً، وبالتالي تحقيق المزيد من الغنائم، وتوقعوا متابعة الفتح في الأراضي الفارسية وبالتالي تؤدي مساهمتهم في هذا الفتح إلى مزيد من الغنائم، هاجر هؤلاء على دفعات متوالية إلى الكوفة. وعندما تحركت القوات المتمركزة في الكوفة إلى معركة فموند عام ٢١هـ / ٦٤٢م، كان هؤلاء الروافد الأكثر حماساً للمعركة، وعندما جرت المعركة أظهر هؤلاء شجاعة غير عادية. وأعجب عمر بهم كثيراً لدرجة أنه أجرى تعديلاً على نظام ديوان الجند، وزاد في حصة هؤلاء الروافد ليصل إلى ما يماثل حصة المجموعة الثانية وهم أهل الأيام والقادسية.<sup>٣</sup> وهذا ما حفز الآخرين على الهجرة إلى الكوفة، مما زاد من عدد سكانها من العرب وزاد من عدد أفراد القبائل والبطون. أما سيل الهجرة الثانية إلى الكوفة فيعود إلى موجات قدمت من الفرس. وثمة أسباب عديدة لهذه الهجرة إلى الكوفة أكثر من أية مدينة أخرى. وسنناقش هذه الأسباب بعد قليل.

ونتيجة لهاتين الهجرتين الكبيرتين، فإن عدد سكان الكوفة قد ازداد بشكل ملحوظ خلال سنوات قليلة، وحتى قبل نهاية خلافة عمر. تخبرنا المصادر أنه عقب وفاة عمر واستلام عثمان الخلافة، عين عثمان الوليد بن عقبة والياً على الكوفة عام ٢٤ أو ٢٥هـ / ٦٤٥ أو ٦٤٦م، وإن عدد المقاتلة

في الكوفة وحدها زاد إلى ٤٠٠٠٠ مقاتل.<sup>٤٤</sup> فإذا أخذنا في الاعتبار عدد سكان الكوفة الأوائل من مقاتلة القادسية، وهم الذين تقدموا في السن ولم يعودوا قادرين على القتال، ولكنهم اتخذوا من الكوفة موطناً دائماً، وعدد عبيدهم وعائلاتهم، فإن عدد سكان الكوفة يصل إلى حوالي ١٠٠٠٠٠ نسمة. ويجب أن نضيف إليهم أولئك الذين استوطنوا في سواد (ريف) الكوفة - الأراضي الخصبة في العراق - التي أمر عمر بعدم توزيعها على مقاتلة القادسية بل تركها وسمح لزراعتها باستغلالها لقاء دفعهم ضريبة "الذمة" (ضريبة تؤخذ من دافعيها لقاء حمايتهم)، وهذه الضريبة كانت توزع على الكوفيين.<sup>٤٥</sup> أما ممتلكات الملوك الساسانيين والأفراد عائلاتهم المعروفة "بالصوافي" فقد أمر عمر بوضعها تحت تصرف مقاتلة القادسية. وسمح لهم باقتسامها والاستقرار فيها إن رغبوا بذلك، أو إدارتها من خلال وكلاء يختارونهم. ونتيجة لذلك صارت الكوفة محاطة بالعديد من القرى التي سكنها، بالإضافة إلى مقاتلة القادسية، العمال الذين قدموا للعمل فيها. وكان هذا ممكناً بسبب العدد الكبير من العبيد والعمال الذين تجمعوا في الكوفة وما حولها. ومع توسع الحياة الاقتصادية في الكوفة - كما في المدن الأخرى التي شيدت مجدداً - ازداد عدد التجار والحرفيين وعمال الخدمات الأخرى واستقروا هناك.

بهذا الاستكشاف الموجز لتأسيس مدينة الكوفة وتطورها المبكر نكون قد وصلنا إلى هدفنا الرئيسي وهو بيان البنية العامة ومميزات ومظاهر سكانها التي أثرت في الميول والطموحات الدينية - السياسية. إن تحقيق هذا الهدف ليس مهمة سهلة، لوجود عوامل عديدة معقدة مثل العوامل

الجغرافية والتاريخية والأخلاقية والعرقية والاقتصادية الممتزجة بعضها ببعض. إن تحليل تأثير هذه العوامل في حياة سكان الكوفة عمل صعب جداً. يجب علينا أن نأخذ في الحسبان قبل كل شيء أن سكان المدينة تشكلوا منذ البداية تقريباً من مجموعتين متميزتين: هما العرب والفرس. ونرى أن ندعو العرب "بالمؤسسين الأوائل والفرس "بالمؤسسين التاليين"

كان العنصر العربي مؤلفاً من تركيب معقد جداً - أكثر مما هو الوضع في أي مدينة أخرى - وبالعودة إلى المجموعات العربية القبلية السبعة التي ذكرناها سابقاً وموجات هجرة العرب إلى الكوفة اللاحقة نلاحظ سريعاً كم كان العنصر العربي في الكوفة غير متجانس في الأصول والخلفيات. فهذا العنصر كان أساساً مؤلفاً من فريقيين: الزراريين واليمانيين، وسنحاول بيان التمايز بينهم.

١- مجموعة صغيرة من القرشيين القادمين من الحجاز بسمعتهم المعروفة بالعيش المريح والنبل والشرف.

٢- عناصر من البدو المضربين ونجاجة تميم وبعض مجاورهم من اليمنيين ومنهم طيء.

٣- مجموعة نصف بدوية مثل قبائل ربيعة وأسد وبكر القادمين من الشمال والشمال الغربي ومن الشرق والجنوب الشرقي من الجزيرة العربية وعبد القيس من الحجر.

٤- مجموعة من اليمنيين أصولاً القادمين من مناطق بعيدة جداً، من حضرموت واليمن، وبعضهم اعتاد حياة شبه مريحة مثل كندة

وبجبله، وآخرون اعتادوا العيش في مستوطنات قديمة جداً مثل  
مذحج وحمير وهدان.<sup>٤٦</sup>

٥- مجموعة من العرب استقرت في الكوفة منذ تأسيسها وكانوا من  
قبائل عربية مسيحية مثل تغلب ونمر وإياد، وبعض المسيحيين  
من نجران.<sup>٤٧</sup> وهؤلاء المسيحيون حصلوا على شروط وحقوق  
خاصة من النبي نفسه، وحافظ عليها أبو بكر وعمر.

٦- مجموعة أخرى من العرب لا بد من أخذها في الحسبان وهي  
مؤلفة من عائلات نبيلة مشهورة معروفة باسم "بيوتات  
العرب" ويقر ابن سعد هؤلاء ويميزهم بقوله أن كل هذه  
البيوتات العربية النبيلة كانت حاضرة في الكوفة، ولم تكن هذه  
هي الحال في البصرة.<sup>٤٨</sup>

المجموعة الثانية من سكان الكوفة التي شكلت شخصية المدينة كانت  
الفرس. هناك عوامل عديدة سببت هجرتهم إلى الكوفة بخاصة وليس  
لأية مدينة أخرى. وثلاثة من هذه الأسباب هي الأكثر أهمية. الأول:  
نتج عن الفتوحات العربية للمدائن يوم القادسية، وبعدها النصر العظيم  
في معركة فوند أن عدداً كبيراً وقع في أسر القوات العربية الفاتحة  
وجلبوا إلى الكوفة بصفاتهم سيئاً. ثم دخل معظمهم في الإسلام بعد وقت  
قصير. وحازوا على حريتهم من سادتهم العرب، لكن بقوا مواليين لهم  
"الموالي". الثاني: إن قرب موقع مدينة الكوفة الجغرافي على حدود  
الإمبراطورية الساسانية في العراق جعل هذه المدينة المكان الملائم لوجهة  
الفرس، الذين فقدوا وسائل عيشهم بعد سقوط الدولة الساسانية بأيدي



العرب. وقد رأوا في الكوفة مكاناً واعداً لتأمين عيشتهم. وبالمقابل فإن أعداداً من الفلاحين تحولوا إلى العيش في المدن بعد انهيار النظام الإقطاعي الفارسي، وتوفر الحرية التي أتاحتها المسلمون للبحث عن طرق أخرى لحياقتهم وكانت الكوفة أكثر الأماكن جذباً لهم. ثالثاً: إن وجود ٤٠٠٠ فارسي معروفين باسم الديلمة والذين استقروا في الكوفة منذ تشيدها، بالإضافة إلى أسرى معركة نهاوند أوجد مناخاً اجتماعياً ملائماً لاستقبال الفرس المهرومين في بلادهم كي ينضموا إلى أبناء وطنهم في الكوفة. وكان بين الأسرى الذين جلبهم العرب من بلاد الفرس عدد من النساء. وأصبحت النساء الأسيرات زوجات شرعيات لآسرنهم أنجن لهم أطفالاً وبعد عشرين عاماً يوم قدم علي إلى الكوفة وجد هناك عرباً من أمهات فارسيات. فمثلاً أم العالم المعروف في الكوفة الشعبي كانت من أسيرات معركة جلولاء.<sup>٩</sup> ومن المهم أن نلاحظ أن أفراد الجالية الفارسية في الكوفة لم يمنحوا حقوقاً موازية لحقوق العرب الكوفيين في النظام الاجتماعي السائد. لقد دعوا الموالي بمعنى زبائن وحلفاء، ولكنه مصطلح عني موقعاً اجتماعياً أقل من موقع العرب. وبما أن الموالي قاموا بدور هام في تاريخ الكوفة الديني-السياسي وبخاصة في الحركة الشيعية، فإن من المهم والمساعد أن نعرفهم بعمق أكثر. بالرغم من أن مصطلح موالي عني العبيد المحررين أصلاً، إلا أن هذا المعنى توسع بعد الفتح ليشمل العديد من الناس غير العرب. ويمكننا تقسيم الموالي في الكوفة إلى خمس فئات:

١- المقاتلون غير العرب الذين أسلموا وانضموا إلى القوات العربية. ومعظم هؤلاء من الفرس مثل الحمراء أو الديلمية. وقد استخدمهم ولاة الكوفة قوات شرطة، وتلقوا معاملة طيبة من العرب. وفي معظم الحالات كان هؤلاء ينضمون إلى فخذ أو قبيلة عربية، أو يضعون أنفسهم بتصرف رئيس (أمير، شريف) عربي فيصبح حامياً وراعياً لهم، كما فعل الديلمية حين قبلوا قيادة زعيم قبيلة تميم كراع لهم.

٢- الفلاحون (معظمهم من الفرس) الذين دمرت مدنها وقراهم خلال حروب الفتح الإسلامي، فتركوا الأراضي الزراعية بحثاً عن حرف وأعمال أخرى في الكوفة. إن انهيار النظام الإقطاعي الساساني وجو الحرية الذي نشره العرب سمح لهؤلاء الفلاحين بالتخلي عن أعمال الزراعة التي لم تعد مجدية. ونتيجة لذلك قلت موارد الضريبة المفروضة على الأراضي الزراعية (الخراج)، مما أدى إلى أن زادت الإدارة في الخراج المفروض على الذين استمروا في فلاحه الأرض. وهذا ما أدى إلى أن هجر الفلاحون الأرض هرباً من المبالغة في الخراج المفروض على الأرض وقدموا الكوفة بحثاً عن أعمال أكثر جدوى. وهذا النوع من المهاجرين لم يتحالف مع أية قبيلة، بل كانوا تحت تصرف الوالي المباشر، والذي كان له السلطة المطلقة عليهم، وبالمقابل كان المسؤول عن حمايتهم. وفي حال اقترف أحدهم جريمة قتل فإن بيت المال تعهد بدفع دية لأهله.<sup>٥٠</sup>

٣- إن معظم الجماعات الفارسية وآخرون ممن دخلوا في الإسلام جاؤوا إلى الكوفة ليعملوا تجاراً وحرثيين. لقد فتح المسلمون بلادهم ولكنهم لم يستبدوا. ودخلوا في الإسلام طواعية، ولكي يحسنوا أوضاعهم الاقتصادية جاؤوا إلى الكوفة وعملوا في التجارة والحرف المختلفة. ولعلمهم كانوا أكبر مجموعة بين الموالي في الكوفة، ومع تطور اقتصاد المدينة زاد عددهم باستمرار وكانوا شبه مستقلين إلا أنهم تحالفوا مع القبائل القاطنة هناك لأغراض إدارية.

٤- العبيد المحررون. وهم الذين أسره العرب الفاتحون في المعارك وعندما دخلوا في الإسلام استعادوا حريتهم، ولكنهم ألزموا بالانتساب إلى العائلات التي حررتهم من العبودية. وبالمعنى الاصطلاحي والحقيقي فإن هؤلاء هم الموالي في الواقع، وكان عددهم الثاني بعد المجموعة الثالثة المذكورة أعلاه.

٥- الفرس وغيرهم ممن دخلوا الإسلام وهم أصلاً من عائلات نبيلة. وهؤلاء أعفوا من دفع الجزية التي اعتبروها شكلاً من الإهانة، لكنهم دفعوا ضريبة الأرض الزراعية (الخراج). ويبدو أن العرب عاملوهم بطريقة خاصة مغايرة لمعاملة الموالي، ذلك لأنهم نبلاء أقوامهم رغم أنهم خسروا الحرب. كانوا أحراراً في تغيير ولائهم من قبيلة لأخرى عندما يشاؤون. ومع ذلك ظلوا أقل من مواقع العرب. وفي كثير من الحالات

تشابكت مصالحهم مع مصالح قادة القبائل العربية في الكوفة.

ازداد عدد الموالي من مختلف الطبقات (المجموعات التي ذكرناها للتو)، إلى درجة أنهم في عقود قليلة، زاد عددهم على العرب في الكوفة. تخبرنا المصادر أن عدد الموالي الذين قاتلوا إلى جانب ابن الأشعث في معركة الجماجم وصل إلى ١٠٠.٠٠٠<sup>٥٢</sup> لقد توجه العرب إليهم كفاتحين أولاً وكطبقة سامية من حيث العرق ثانياً. وهذا أدى بشكل طبيعي إلى تنامي الشعور بالسخط في الكوفة. يجب أن نضيف ثلاث ملاحظات إلى هذه البنية السكانية. الأولى: لم تكن الكوفة ومنذ بدايتها مدينة عربية صرفة مثل مكة والمدينة وحتى دمشق. الثانية: إن معظم المستوطنين الأوائل في الكوفة، سواء أكانوا عرباً أم فرساً، كانوا كتائب عسكرية جاؤوا من دون عائلاتهم، ومكثوا هناك لبعض الوقت يعيشون حالة استعداد لأية عملية حربية. وبدون أن من الطبيعي أن تسيطر عليهم ميزاتكم كمقاتلين برغم أنهم استقروا أخيراً بصفتهم مواطنين مدنيين، إلى جانب عوامل أخرى تفسر قلقهم واشتمازهم وغالباً عصيانهم. ثالثاً وأخيراً: ولعله الأهم، وهو أنه ليس للكوفة تقليد خاص بها كان من المحتمل أن يقيدهم سكاها ويؤثر بالناس فيها. فبعد دفعات الهجرة الخارجة من الجزيرة العربية إلى مدن في سورية وفارس واستقرارهم هناك، وقع هؤلاء المهاجرون تحت تأثير التقاليد القائمة في المدن التي استوطنوها. أما الكوفة، فعلى العكس من تلك المدن، شيدت بصفتهها معسكراً في سهل بكر واقع بين الصحراء العربية والحيرة المدينة اللخمية القديمة التي كانت تحت السيادة والتأثير

الثقافي الفارسي. وكان على الكوفة المدينة الحديثة أن تنشئ شخصيتها الخاصة، وهذا لم يكن سهلاً في مثل هذه اللمة السكانية، حيث عرب الشمال الترابيون وعرب الجنوب اليمانيون وفيهم البذر والحضر، وفيهم الإستقراطيون القدماء أصحاب "بيوت العرب" النيلية المشهورة، والمهاجرون الجدد ثم القروس من طبقاتهم المختلفة. ثمة عامل آخر يصعب أكثرية السكان. فبين السكان العرب أكثرية بحية تقدر بحوالي ١٢٠٠٠ إلى جانب حوالي ٨٠٠٠ من العرب الترابيين الشماليين. وكما بينا في الفصل الأول، فإن العرب الجنوبيين كانوا أكثر ميلاً وحماساً لقبول المثال الشيعي لقيادة الأمة الإسلامية، وذلك لاعتقادهم البعيد في التاريخ، والعميق في تفكيرهم وهو الاعتقاد بالملك/ الكاهن والقداسة الموروثة والتعاقب على القيادة بالوراثة. وأنضم إليهم سكان الكوفة من أصل فارسي وهؤلاء أيضاً كانوا يحملون في أعماقهم تقليداً مشابهاً للقيادة الدينية - السياسية. وهكذا بتناظر جهود وتفكير العرب الجنوبيين والفراسين الذين صاروا يشكلون ثلثي سكان الكوفة، توجه تفكير الكوفيين باتجاه قبول الميول الشيعية. وهذا لا يعني أنه ما من أحد من العرب الترابيين كان يؤيد الميول الشيعية كما أنه ليس كل العرب الجنوبيين أيدوا الأفكار الشيعية. وإن أي تصنيف لميول سكان من قبل سكان الكوفة لن يكون دقيقاً. إن ما قلناه لا يتعدى أن يكون انعكاساً لميول عامة لغالبية السكان مبنياً على خلفيات معينة يمكن كتمها في ظل اعتبارات سياسية - اقتصادية.

ظهر أول توتر في الكوفة على السطح حين اصطدمت المصالح بين مجموعتين قويتين، نفضل أن ندعوها المتدينون أو التنظيم الإسلامي" الذي ظهر مجدداً والأرستقراطية القبلية التقليدية. وتألفت المجموعة الأولى المتدينون" من صحابة النبي الذين ادعوا الحق بالقيادة في الكوفة استناداً إلى إسلامهم المبكر، والخدمات التي قدموها للإسلام، وفوق ذلك احترام النبي لهم. لقد أراد عمر بن الخطاب أن يحكم الكوفة من خلال أصحاب السابقة في الإسلام، وبذلك أراد أن يضعف ويخمد السلطة القبلية. ولذلك لم يسمح لأي فرد ممن ارتدوا عن الإسلام أن يشغل أي مركز قيادي بغض النظر عن القوة التي تمتعوا بها بين قبائلهم. أما المجموعة الثانية (القبليين) القوية المؤلفة من القادة القبليين فكانت دعواهم في الحق بالقيادة مبنية على التقليد العربي القديم القائم على أساس الثروة والمكانة الاجتماعية والقوة واحترام القبائل التي يقودونها. وكان من الطبيعي أنهم لم يستطيعوا التسامح لفترة طويلة مع المكانة الرفيعة وقيادة أولئك الذين لا سلطة قبلية لهم، أو الذين لا ينتمون لعائلات حاكمة.

ما دام عمر حياً لم يستطع قادة القبائل أن يفعلوا الكثير لممارسة قوتهم. وحين توفي عمر واستلم عثمان الضعيف الخلافة سنة ٢٣هـ — ٦٤٣م بدأت الأمور تتغير بشكل عنيف، وظهر الصراع على القيادة وقد كان حامداً حتى ذلك الوقت. وساعد تعيين الوليد بن عقبة الأخ غير الشقيق لعثمان وذي الأصل الأرستقراطي حاكماً على الكوفة، ساعد القادة القبليين على استرداد قوتهم وسلطتهم. وبالتالي لا نرى انقادة القبليين الأقوياء وحدهم، بل وحتى قادة الردة يعودون بقوة إلى الساحة وبسرعة

يتسلمون زمام الأمور في الولاية.<sup>٥٣</sup> فقد تسلم الأشعث بن قيس الكندي وهو من مشاهير قادة الردة حكم أربيل، وأخذ معه عدداً كبيراً من الناس لإقامة معسكر دائم هناك تحت إمرته.<sup>٥٤</sup> وتم ذلك رغماً عن قادة كنسدة مثل حجر بن عدي الكندي الذي كان يتمتع باحترام ديني أكثر منه قبلي. وهناك مثل آخر وذلك هو تعيين سعيد بن قيس الهمداني حاكماً على الري.<sup>٥٥</sup> حيث كان يزيد بن قيس الأرحبي منذ عام ٢٢هـ — ٦٤٣هـ <sup>٥٦</sup> كان سعيد ينتمي إلى أكثر العائلات تأثيراً في همدان لكن ليس له أي سابقة في الإسلام، في حين كان يزيد حقق موقعاً متميزاً بصفته قائداً إسلامياً، برغم أنه لم يكن له أي موقع متميز في قيادة قبيلة همدان. إن تعيين قائد مثل الأشعث بخلفيته كقائد في حروب الردة ضد المسلمين، وسعيد بن قيس الذي لم تكن له سابقة في الإسلام في المناصب العالية، يعني بغير شك التخلي عن النظام السائد. وغيّر هذا الوضع فجأة تركيبة القوى وأدى إلى عزل القادة السابقين الذين أسسوا وضعهم الاجتماعي وقومهم على خلفية دينية وليست قبلية. ومن شملهم العزل قادة ذور اهتمامات خاصة مثل مالك بن الأشتر النخعي والمسيب بن نجبة الفزاري ويزيد بن قيس الأرحبي وعدي بن حاتم الطائي وصعصعة بن صوحان العبدي. ومن عزلوا من مواقعهم بلاء الكوفة الذين تصفهم المصادر بأنهم من قادة القراء،<sup>٥٧</sup> فقد كانوا من أشد خصوم الوليد بن عقبة وخليفته سعيد بن العاص وهو أيضاً من الأرستقراطيين المكيين الأمويين وبالتالي من رجال عثمان الذي سمح لتلك الأرستقراطية القديمة بالسيطرة عليه. ولم يطل الوقت حتى نمت المعارضة وتطورت قوتها وتوسعت أبعادها، وانضم إليها

عدد كبير من الناس ثم قدموا إلى المدينة عاصمة الخلافة. وأصبح سكان الكوفة موزعي المشاعر بين جماعتين:

١- قادة القبائل والبطون الأقوياء بنفوذهم مع من يواليهم من أفراد قبائل قدموا مبكراً. وقد وصف هؤلاء بأنهم "أشراف القبائل"

٢- الناس من ذوي التأثير الضعيف من حيث وضعهم القبلي أو صلتهم ببطون معينة ومع ذلك حازوا مواقع خاصة جداً خلال خلافة عمر بفضل سابقتهم في الإسلام، وقد حرموا من قوتهم الآن. وتضم هذه المجموعة معظم الذين قدموا إلى الكوفة في الهجرات اللاحقة، ومنهم عدد كبير من القراء أو المعلمون الدينيون وهم من ميول وخلفيات متنوعة، أو من منشقين عن قبائلهم، ومعظمهم رجال لا قبائل معروفة لهم ومن مختلف الهجرات التي تعاقبت على الكوفة. وكان من الطبيعي أن ينضم الموالي الفرس إلى هذه المجموعة.

هذه الخلفية السياسية والسكانية والاجتماعية والاقتصادية بدأ الفصل الثالث من تاريخ الكوفة، وهو الأكثر خطورة ودقة. فالفصل الأول شهد إنشاء المدينة عام ١٧هـ - ٦٣٨م وتوسيعها حتى وفاة عمر عام ٢٢هـ - ٦٤٤م، والفصل الثاني انتهى بوفاة عثمان سنة ٣٥هـ - ٦٥٥م، وحدد بداية الفصل الثالث الذي طغت عليه أحداث وصول علي إلى الخلافة في العام نفسه. وكما ذكرنا في الفصل الرابع من هذا الكتاب، فإن علي وصل إلى الخلافة بفضل صوت الأنصار في المدينة المنورة وكتائب الثوار على عثمان القادمين من الولايات. وكانت القوات التي قدمت المدينة من الكوفة بقيادة مالك بن الأشتر أول من بايع علياً. وكان من الطبيعي أن



ينظر إلى تأييد هؤلاء الكاسح لاختيار علي على أنه تهديد خطير لا للأستقراطية الأموية وحدها التي استولت خلال اثني عشر من خلافة عثمان على مصادر القوة جميعها، واختصت نفسها بما أرادت من الموارد فحسب، بل وعلى قریش بشكل عام. فبالإضافة إلى معارضة بني أمية لعللي من سورية (معاوية والي دمشق)، فقد ظهر في مكة كتلة من القرشيين معظمهم من الصحابة المهاجرين الذين رغم معارضتهم لبني أمية تحت غطاء أنهم مهاجرون، فإنهم كانوا يفضلون سيطرة قریش على الخلافة.<sup>٥٩</sup> وتوزعت القوة العسكرية بين معسكرين متنافسين، الكوفة والبصرة بحدود جغرافية واسعة تابعة لكل منهما، أما معسكر سورية فكان بكامله تحت سيطرة الأمويين المحكمة.

استغل المكيون (طلحة والزبير وعائشة وهم الذين مثلوا المعارضة لعثمان، ولم يرضوا باختيار علي مكانه) التنافس بين معسكري البصرة والكوفة، وتحركوا نحو البصرة لاستنهاض تأييد القبائل لهم. وبالتالي لم يبق أمام علي خيار غير الانتقال إلى الكوفة معتمداً على تأييدها الذي أبدته له. وصل علي ومعه حوالي ١٠٠٠ من أتباعه جاءوا معه من المدينة، فانضم إليه فوراً ١٢٠٠٠ كوفي.<sup>٦٠</sup> وشكلوا الجزء الرئيسي من قواته في معركة الجمل. استطاع علي أن يهزم تحالف البصرة ومكة ويسيطر على الوضع في البصرة ويعين عبد الله بن عباس والياً عليها. عاد علي بعدها إلى الكوفة لا ليتخذها عاصمة وإنما لجمع مؤيديه وتنظيم الكوفة من أجل المواجهة الأكثر خطورة مع معاوية.

إن ما يجب ملاحظته هنا هو أنه بينما انضم إلى علي قسم كبير من الكوفيين في معركة الجمل، فإن بعض قادة القبائل الذين توسع نفوذهم خلال خلافة عثمان إما أنهم كرهوا الانضمام إلى علي، وإما لم يقوموا بواجب التزامهم تجاه علي كما يتوقع المرء. وهؤلاء القادة القبليون أمثال الأشعث بن قيس وجريز بن عبد الله وسعيد بن قيس فقد شعروا بالخوف الأكيد من علي كما شعر بذلك المكيون والأمويون. ولكي يقوي علي سلطته في الكوفة توجب عليه أن يقيم نظاماً اجتماعياً- سياسياً إسلامياً نقياً، وهذا اقتضى إعادة القيادة الإسلامية القديمة مكان الأرستقراطية القبلية التقليدية التي انتعشت خلال خلافة عثمان. وكما أوضحنا سابقاً، فقد كان سكان الكوفة مقسمين إلى سبعة أقسام قبلية بحسب السلاسل أو التحالفات. ومن خلال هذا التقسيم القبلي استطاعت القيادة الجديدة أيام عثمان أن تتجذر. وكان الإجراء الأول الذي اتخذته علي لإضعاف هذه القيادة هو إجراء تغيير سريع في التركيب الخارجي لهذه المجموعات السبع عن طريق إعادة توزيع القبائل وتحويلها من مجموعة لأخرى. وبهذه الطريقة حاول إعادة السلطة لأولئك القادة الذين يستحقونها على أساس "السابقة في الإسلام" ومن ثم نرى رجالاً مثل مالك بن حارث الأشتر وحجر بن عدي الكندي وعدي بن حاتم الطائي الذين طمسهم القيادة القبلية عادوا إلى الظهور مجدداً. فقصد تم عزل الأشعث بن قيس واستلم مكانه حجر بن عدي ومنح قيادة كنده في معركة صفين.<sup>١١</sup> وصار الأشعث قائداً لبطن جديد مؤلف من مدحج ونخاعة وبعض الفروع الأقل شأنًا. ثم قوي مركزه إلى حد بعيد حين

عينه علي والياً على الجزيرة. <sup>٦٢</sup> وأيد علي عدياً بن حاتم ليصح قائداً  
أوحد لقبيلة طيء رغم معارضة بعض بطون طيء لهذا الاختيار. <sup>٦٣</sup>

شكل قادة مثل الأشتر وحجر وعدي مع أتباعهم وبخاصة المهاجرين الجدد  
إلى الكوفة من أبناء قبائلهم العمود الفقري لمؤيدي علي وكانوا نواة شيعة  
الكوفة. ومن جهة أخرى، فإن قادة البطون الأقوياء الذين استندوا في  
بناء سلطنتهم على قوة قبائلهم فلم يظهروا اهتماماً كبيراً بعلي. وقد  
وضح هذا التباين الحاد بين المجموعتين (القادة الذين عينهم علي والقادة  
الذين وصلوا للقيادة أيام عثمان) من خلال حقيقة أنه منذ وصول علي  
إلى الكوفة حثه الأشتر وحجر وعدي باستمرار على مهاجمة معاوية دون  
تأخير، وبدون الدخول في مراسلات معه، بينما نصحه قادة القبائل  
الأقوياء في الكوفة بعدم الاستعجال بالتحرك ضد معاوية. <sup>٦٤</sup> وعندما  
تواجه جيشا علي ومعاوية في صفين وجد هؤلاء القادة أنفسهم في وضع  
مزعزع. فلم يستطيعوا الابتعاد عن علي وتوجب عليهم الظهور إلى  
جانبه في المعركة، ومع ذلك بقوا فاتري المهمة. وفي ائواق رأوا أن  
مصالحهم تتحقق بإفشال المفاوضات بين علي ومعاوية. فقد وقعوا في  
حيرة، فانتصار علي يعني فقدان سلطنتهم القبلية، ومن جهة أخرى فإن  
انتصار معاوية يعني فقدان استقلال العراق حيث يمارسون فيه سلطنتهم.  
وباختصار، فإن موقف هؤلاء القادة ومنذ وصول علي إلى الكوفة وطوال  
حياته وخلال الصراع في صفين والتطورات التي تلت صفين ظل كما هو  
أي أن يبقى الصراع بين علي ومعاوية دون حسم. أما قادة الشيعة فقد  
حضوا علماً على قتال معاوية وعارضوا التحكيم المقترح وندروا أنفسهم

لعلني دون أية شروط. أظهر معظم قادة البطون العثمانيون عدم الرغبة في محاربة معاوية، وذهبوا إلى صفين بروح اللامبالاة، وقبلوا فوراً بعرض السلام الذي اقترحه الحكمان.<sup>٦٥</sup>

من المعروف بشكل عام أن القراء هم الذين أجبروا علياً على قبول التحكيم، ولكن يبدو أن قادة القبائل العثمانيين وأتباعهم هم المسؤولون عن ذلك، لأنهم رأوا أنهم لن يربحوا شيئاً من القتال، بل على العكس يربحون كثيراً من جود الموقف. وكذلك فمن المعروف أن القراء أجبروا علياً على تعيين أبي موسى الأشعري حكماً من جانبه رغم أن سيرة أبي موسى تشير إلى أنه يفضل جانب المكين وسيطرة قريش.

إن مصطلح "القراء" الذي ورد كثيراً في روايات صفين يجب أن يعالج بكثير من الحذر. إن قراء الكوفة الأوائل الذين ثاروا على عثمان اتخذوا من مالك وحجر وعدي قادة لهم وكانوا مؤيدين لمخلصين لعلسي. وإلى جانب هؤلاء القراء الكوفيين نجد في الروايات التي تحدثت عن مجربات صفين عدداً كبيراً من الناس الذين وصفوا بـ "القراء" بصورة غير أكيدة. وقدم بعض هؤلاء الموصوفين بالقراء من البصرة، وآخرون قدموا من أماكن بعيدة جداً عن حدود ولايتي الكوفة والبصرة. ويبدو أنهم كانوا قبلين حاولوا تحقيق مصالحهم عبر ادعائهم "السابقة في الإسلام" وهؤلاء هم الذين ضلّهم قادة القبائل العثمانيون فقبلوا التحكيم ثم ثاروا عليه. وهم الذين صاروا فيما بعد الخوارج، وعقب معركة صفين أضعفوا موقف علي داخلياً في مواجهة معاوية.

إن السبب الرئيسي لموقف "أشراف القبائل في الكوفة" المستاء هو سياسة المساواة التي فرضها علي. فقد أعاد علي نظام توزيع الأرزاق فسألغى التمايز بين المهاجرين الأوائل إلى الكوفة والقادمين الجدد، وأقر معيار لا السابقة في الإسلام فقط وإنما الالتزام بقيم الإسلام أيضاً. وهذا واضح من خلال الخطاب التي ألقاها خلال إقامته في الكوفة، وكما هي معروفة في نهج البلاغة.<sup>٦٦</sup> فعندما قدم علي إلى الكوفة رافقه دفقة من المهاجرين الجدد عاملهم علي قدم المساواة بغض النظر عن أماكن سكنهم قبل مجيئهم إلى الكوفة. وكان هذا الإجراء خطراً محدقاً بقيادة القبائل العثمانيين الذين اختصوا أنفسهم بنصيب كبير من بيت مال الكوفة، الذي كانت موارده في تناؤل نظراً لتوقف الفتوحات. وتبع ذلك إقرار علي المساواة بين العرب وغير العرب. وهذا ما أهاج "أشراف القبائل لاعتبارهم أن الموالي بصفتهم الناس المغلوبين، لا تجوز معاملتهم علي قدم المساواة مع الفاتحين العرب".<sup>٦٧</sup>

كان من المؤكد والواضح لقادة القبائل وأفراد قبائلهم أنهم تحت حكم علي سيفقدون كل ما استحوذوا عليه بطريقة غير شرعية وبسبب قوة القبائل تحت حكم عثمان. وعلى كل حال، لم يكن بمقدورهم أو من مصلحتهم أن يثوروا على علي ضمن الظروف التي كانت تعيشها الكوفة. ومع ذلك فبعد نتائج معركة صفين غير الحاسمة وبعد ما نتج عن التحكيم غير المرضي وما تبعه، كان قادة القبائل يتقلبون بين اللإكتراث، وبين الخيانة وآرائهم المناوئة لموقف علي. ومع أن علياً أبقاهم في مراتبهم وأماكنهم ضمن جيشه الذي كان يجهزه لملاقاة معاوية الأخير والحاسم،

فإنهم تجاهلوا دعوته للخروج لقتال السوريين. وبدلاً من ذلك أصرّوا على قتال الخوارج الذين تجمعوا في النهروان.<sup>٦٨</sup> وما كان يعينهم هو المحافظة على مكانتهم بين قبائلهم، في الوقت الذي هددهم فيه الخوارج بالخطر ولم يكن معاوية كذلك. وبعد هزيمة الخوارج في النهروان، دعاهم علي للتحرك ضد معاوية، ولكن الأشعث والقادة الآخرين الأقوياء رفضوا لأسباب غير حقيقية ولا معقولة، وهكذا اضطر علي للعودة إلى الكوفة.<sup>٦٩</sup> وازداد موقف علي ضعفاً منذ معركة النهروان حيث اكتسب المزيد من الخصوم ضمن أقارب الخوارج الذين قتلوا في النهروان، بالإضافة إلى أن قادة القبائل تقووا بسبب تناقص شعبية علي بين أفراد القبائل. وأكثر من ذلك، فمع التحكيم وبعده واصل معاوية اتصالاته المستمرة مع هؤلاء القادة، محاولاً كسب تأييدهم من خلال عروض تعينهم في مناصب عالية وإغرائهم بالثروة. وهكذا كانوا يفكرون ملياً فيما يجدم مصالحهم أكثر.

إن أفضل ما يوضح موقف الكوفيين هذا هو عدد من الخطب التي ألقاها علي خلال هذه الفترة. ومن هذه الخطب التي ألقاها قبل اغتياله بوقت قصير مخاطب الناس قائلاً:

"ألا واني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً، وقلت لكم، اغزوه قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا. فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات، وملكتم عليكم الأوطان... فيا عجباً! عجباً-والله- يمت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم! فقبحاً لكم وترحاً

(الترج: الهم والحزن والفقر) حين صرتم غرضاً يرمى: يغار عليكم ولا تغرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون! فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحرّ قلتم. هذه حجارة القيظ (شدة الحر)، أمهلنا حتى يسبح (يخفف) عنا الحرّ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم. هذه صبرة القرّ، أمهلنا ينسليخ عنا البرد، كلّ هذا فراراً من الحرّ والقرّ، فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفرّون، فأنتم والله من السيف أقرّ يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال (النساء)، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة - والله - جرّت ندماً، وأعقبست سدماً (الهم والأسف والغبط).

قاتلكم الله! لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرّعتموني نعب التّهام (نعب التّهام: كؤوس الهم) أنفاساً (أي مرة بعد أخرى) وأفسدتم علي رأيي بالعصي والحذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب.

لله أبوهم! وهل أحد منهم أشد لها مراساً، وأقدم فيها مقاماً مني! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وهأنذا قد ذرفت (نيفت) على الستين! ولكن لا رأي لمن لا يطاع" ٧٠

ترك علي سكان الكوفة خلفه منقسمين إلى مجموعتين محددين ومصالحهما متضاربة، ويمكن تصنيفهما بسهولة أكثر مما كانوا عليه يوم قدم إلى الكوفة قبل خمس سنوات. فأولاً: كان هناك مجموعة من المخلصين له مؤلفة من المسلمين الذين وصلوا الكوفة يوم تأسيسها، ومن الذين هاجروا إليها فيما بعد، وجميع أعضاء هذه المجموعة التزموا مع علي طيلة حياته،

وآمنوا أيضاً بأن القيادة يجب أن تبقى وتستمر في أهل بيت النبي. وفي هذه المجموعة ظهرت اعتبارات ذات طبيعة اجتماعية-اقتصادية، ولكن هذه الاعتبارات برزت بالتوافق مع فكرة قيم العدالة والمساواة وكما اعتقد أفراد هذه المجموعة أنه يمكن تجسيد هذه القيم من خلال قائد ملهم من الله فقط. وكان بين أعضاء هذه المجموعة عدد قليل آمنوا بأن الاعتبارات الدينية والروحية هي القوة الدافعة الوحيدة (الأتقياء)، أما العوامل الاقتصادية برغم تسببها ببعض الأحداث المحددة، فلا علاقة لها بالولاء لعلي، أما الآخرون من أفراد هذه المجموعة فأعطوا للعوامل الاقتصادية دوراً ولكنهم قالوا أن تجسيد هذه العوامل جميعها: "الاقتصادية والدينية الروحية، وقيم العدالة والمساواة" فيمكن تجسيدها من خلال قيادة علي فقط. وبرغم التباين في الآراء بالتركيز على هذا العامل أو ذاك، فإن الجميع اتفقوا على أن القيادة العليا للمسلمين يجب أن تبقى في عائلة النبي.

وثانياً كان هناك مجموعة مؤلفة من بطون متعددة وقادة القبائل (أشراف القبائل) وإلى جانبهم أولئك الذين وجدوا أن تحقيق مصالحهم يعتمد على ولائهم لقيادة القبائل. كان هؤلاء جميعاً مهتمين بالحفاظ على مواقفهم السياسية، واحتكاراتهم الاقتصادية التي كانت مهددة بقوة لو استطاع علي تأكيد سلطته في الكوفة. فما كانوا يبالون بمصير علي، وفي الواقع مالوا إلى معاوية الذي رأوا فيه الضمان لمواقعهم ومنافعهم الخاصة. ولكنهم في الوقت عينه ترددوا في التسليم لمعاوية وبالتالي يفقدون فرص المساومة. ولهذا السبب بقوا ظاهرياً ضمن صفوف قوات علي، وباشروا



الضغط على معاوية لضمان تحقيق رغباتهم. وتصنعوا أنهم مؤيدون لقضية الشيعة. وهؤلاء هم الذين ناقشنا حالهم في الفصل الرابع، وهم السذج شكّلوا أغلبية المؤيدين السياسيين لعلي.

وبالإضافة لهاتين المجموعتين من ذوي المصالح المتناقضة يجب أن نذكر مجموعة ثالثة مؤلفة من جماهير الكوفة الغفيرة، ومعظمهم من اليمنيين والموالي الذين مالوا بأفكارهم إلى النظرية الشيعية في القيادة، ولكن لم تتوفر لديهم العزيمة لمواجهة أي خطر قد يحل بهم. فحينما يرون أي أمل في نجاح أحد من أهل البيت يتجهرون حوله، وعملياً يتخلون عنه لحظة يجدون أن الأمل ذوى بعيداً. وفي الحقيقة كانت تنقصهم الشجاعة وثبات الموقف لمواجهة لحظة الامتحان.

والأحداث التي سنصفها في الفصلين التاليين ستشرح تصرفات ومواقف هذه المجموعات الثلاث.

بقي لنا الآن أن نلاحظ أنه بعد وفاة علي وتنازل الحسن عن الخلافة وسيطرة معاوية على الكوفة، قام قادة القبائل الأقوياء بدور الوسيط بين السلطة المركزية في دمشق وشعب العراق (ولاة محليون). واهتمت السلطة الأموية بفرض سيطرتها من خلالهم. وعاد النظام القبلي التقليدي إلى الانتعاش والقوة، وهكذا صارت طريقة الحكم تعتمد على هذا النظام القبلي وعادت السلطة المركزية تدعم قادة القبائل وهم بدورهم يدعمونها. ولحظة توفي علي ظهر الانقسام الحاد في معسكر الكوفة بين مؤيديه الحقيقيين وقادة القبائل ومواليهم، أما الجماهير فكانت تراوح بين

هؤلاء وهؤلاء وكانت السنوات القليلة التالية كافية لتوضيح وتأكيد هذا  
التعارض في مصالح الطرفين

## ملاحظات الفصل الخامس

- ١- البلاذري فتوح البلدان. ترجمة إلى الإنكليزية فيليب حتي بعنوان: "أصول الدولة الإسلامية" بيروت ١٩٦٦ ص ٤٣٤. ياقوت الحموي معجم البلدان، طهران ١٩٦٥ ج ٤ ص ٣٢٣ الطبري ج ١ ص ٢٤٨٥، خليفة بن خياط، تاريخ، تح. زكّار القاهرة ١٩٦٧ ج ١ ص ١٢٩.
- ٢- انظر مصادر الملاحظة السابقة.
- ٣- محمد حسين الزبيدي الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة، القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٥ ويوسف خليف حياة الشيعة في الكوفة، القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٣.
- ٤- الطبري ج ١ ص ٢٣٦٠ وياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ٣٢٢.
- ٥- البلاذري، أصول ص ٤٣٤.
- ٦- م. هند الأنساق السياسية في الكوفة في القرن السابع، مقال في مجلة الدراسات الإسلامية الدولية في الشرق الأوسط أكتوبر ١٩٧١ ص ٣٥١ E.
- ٧- البلاذري أصول ٤٣٥ وياقوت ج ٤ ص ٣٢٣.
- ٨- الطبري ج ١ ص ٢٤٩٥.
- ٩- سابقه.
- ١٠- عن كنانة. انظر عمر رضا كحالة معجم قبائل العرب، دمشق ١٩٤٩ ص ٩٩٦ والعقد الفريد ج ٣ ص ٣٣٩ وعن جديلة من قيس عيلان نفسه ص ١٧٣ والعقد ج ٣ ص ٣٥٠.
- ١١- من أجل معرفة تفاصيل القبائل اليمنية انظر كحالة ص ٩٥٧، ٨٤٤ والعقد ج ٣ ص ٣٧١، ٣٨٢، ٣٨٥، ٣٧٥، ٤٠٣، ٣٩١، ٣٨٨.
- ١٢- كحالة ص ٦٤ العقد ج ٣ ص ٣٨٨.
- ١٣- قاد وفد الكوفة إلى المدينة عام ٩ هـ ٦٣٠ م لقبول الإسلام. كحالة ص ٩٩٩.

- ١٤- من مذبح خرجت بطون مهمة مثل نخاعة طليء. انظر كحالة  
ص ١٠٦٢ والعقد جـ ٣ ص ٣٩٣
- ١٥- كحالة ص ٣٠٥ وما يليها والعقد جـ ٣ ص ٣٦٩
- ١٦- كحالة ص ١٢٢٥ والعقد جـ ٣ ص ٣٨٩ وما يليها
- ١٧- كحالة ص ١٢٢٥ والعقد جـ ٣ ص ٣٨٩
- ١٨- كحالة ص ١٢٦ و ٣١٥ و ١٢٣١ والعقد جـ ٣ ص ٣٤٤ و ٣٤٣ و ٣٥٣
- ١٩- كحالة ص ٢١ و ٨٨٨ و ١٤٢ و ١٢٠ و ٦٦٤، ١١٩٢ والعقد جـ ٣  
ص ٣٩٥، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣١٩، ٣٥١، ٣٤٠
- ٢٠- كحالة ص ٢٠ وما يليها
- ٢١- غير محدد الأصل بعضهم قال أنهم قحطانيون وآخرون قالوا عدنا نيون  
من اللبث بن عدنان. انظر كحالة ص ٨٠٢ وما يليها
- ٢٢- كحالة ص ٧٢٦ والعقد جـ ٣ ص ٣٥٧
- ٢٣- كحالة ص ٧٢٦
- ٢٤- البلاذري أصول ص ٤٤٠ ودائرة المعارف الإسلامية "ديلم" E
- ٢٥- كحالة ص ٧٢٦
- ٢٦- كحالة ص ٦٩١
- ٢٧- مقاتل ص ٦١ وشرح النهج جـ ١٦ ص ٣٨ وهامش ص ١٤٢
- ٢٨- كحالة ص ٦٨٩
- ٢٩- الطبري جـ ٢ ص ٣٠٤ وص ٢٠٠
- ٣٠- ماسينيون الخطط ص ١١ والطبري جـ ١ ص ٣١٧٤ وخليف حياة  
الشيعية في الكوفة ص ٢٩
- ٣١- ماسينيون خطط ص ١٥ والطبري جـ ٢ ص ١٣١
- ٣٢- الطبري جـ ٢ ص ١٣١
- ٣٣- الطبري جـ ١ ص ٢٢١
- ٣٤- ياقوت معجم البلدان جـ ٣ ص ٣٢٤
- ٣٥- البلاذري أصول ص ٣٤٦ و ٤٤٠ و ياقوت جـ ٤ ص ٣٢٣

- ٣٦- ابن سعد ج٦ ص٩  
 ٣٧- نفس المصدر السابق ص١٢-٦٦  
 ٣٨- نفس المصدر السابق ص٧ والبلاذري أصول ص٤٤٨  
 ٣٩- ابن سعد ج٦ ص١٣ والطبري ج١ ص٢٦٤٥  
 ٤٠- ابن سعد ج٦ ص٧  
 ٤١- الطبري ج١ ص٢٤١٤  
 ٤٢- الطبري ج١ ص٢٤٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية مثال

#### E

- عرب  
 ٤٣- انطري ج١ ص٢٦٣٣  
 ٤٤- الطبري ج١ ص٢٨٠٥  
 ٤٥- الطبري ج١ ص٢٤١٨  
 ٤٦- ماسنيون خطط ص١٣ و الطبري ج١ ص٢٤١٨  
 ٤٧- الطبري ج١ ص٢٤١٨  
 ٤٨- ابن سعد ج١ ص١١  
 ٤٩- الطبري ج١ ص٢٤٦٤  
 ٥٠- س.ا. علي التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة  
 بيروت طبعة ٢ ١٩٦٩ ص٨٨  
 ٥١- سابقه ص٨٢  
 ٥٢- الطبري ج٢ ص١٠٧٢  
 ٥٣- الطبري ج١ ص٢٦٦٨  
 ٥٤- الطبري ج١ ص٢٩٢٧  
 ٥٥- سابقه  
 ٥٦- الطبري ج١ ص٢٦٥١  
 ٥٧- البلاذري انساب ج٥ ص٤٦  
 ٥٨- الطبري ج١ ص٣٠٧٥ ، والإمامة والسياسة ج١ ص٤٧  
 ٥٩- هند مصدر سابق ص٣٦١ E

- ٦٠- الطبري جـ ١ ص ٣١٧٤
- ٦١- نصر وقعة صفين ص ١٠٥
- ٦٢- ابن الأعمش جـ ٢ ص ٣٥٠ ونصر وقعة صفين ص ١٢
- ٦٣- الطبري جـ ١ ص ٣٢٧٩
- ٦٤- الطبري جـ ١ ص ٣٢٥٦
- ٦٥- هند مصدر سابق ص ٣٦٣ E
- ٦٦- الخطب رقم ٢١ و ٢٤ و ٤٢ واقتصرنا على واحدة
- ٦٧- لمعرفة موقف علي من الشؤون المالية والمساواة انظر الطبري جـ ١ ص ٣٢٢٧
- ٦٨- مسعودي المروج جـ ٢ ص ٤٠٤
- ٦٩- سابقه ص ٤٠٧
- ٧٠- فحج البلاغة جـ ١ ص ٧٦-٧٩ والكمال جـ ١ ص ٢٠  
مع قليل من الخلاف أخذت النص من فحج البلاغة.

## الفصل السادس

### تنازل الحسن

خلال السنة الأخيرة من خلافة علي، استطاع معاوية بن أبي سفيان والي سورية ومنافس علي الرئيسي ضم جزء كبير من الإمبراطورية الإسلامية إلى سلطته. كما استطاع مندوبه إلى التحكيم بعد صفين عمرو بن العاص أن يسيع على سلطته بعض الشرعية رغم أن ذلك تم في ظل ظررف من الغموض والشك. ومع ذلك لم يستطع أن يدعي إمرة المؤمنين ما دام علي على قيد الحياة. فعلي كان هو الخليفة الشرعي الوحيد الذي اختاره المسلمون في المدينة، وهذا ما لم تتصل منه الأمة الإسلامية، ولم يغيره تصريح أبي موسى الأشعري مندوب علي إلى التحكيم في أذرح ولم يطن بصحته تثبيت عمرو بن العاص لمعاوية في السلطة، الأمر الذي لم يقبل به المهاجرون والأنصار. ولذلك وبرغم نجاح معاوية العسكري والسياسي فإن ذلك لم يغير في صفته الرسمية وبقي يدعى "بأمير" <sup>١</sup> مهّد اغتيال علي الطريق أمام معاوية لتحقيق طموحاته. سادت الظروف المواتية جداً لمعاوية والمركبة من الضعف التام في المدينة، وخود نشاط الأتقياء الدينين وطبيعة المؤيدين العراقيين للحسن بن علي المترددة مضافاً إلى كل ذلك دهاء معاوية مما جعل من السهل عليه إكمال مبادرته التي بدأها يوم مقتل عثمان وهي القبض على الخلافة له ولعائلته من بعده.

بايع الحسن بن علي وفاطمة بالخلافة أربعون ألفاً من الكوفيين مباشرة بعد وفاة علي. <sup>٢</sup> تخبرنا المصادر بأن جيش علي في معركة صفين (صفر ٣٣هـ - تموز ٦٥٧م) ضم سبعين صحابياً ممن اشتركوا في معركة بدر الكبرى،

وسبعمائة ممن اشتركوا في بيعة الرضوان يوم الحديبية، وأربعمائة آخرين من المهاجرين والأنصار. وكان معظم هؤلاء يسكنون الكوفة عندما كان علي يستعد لمعركته الحاسمة مع معاوية. ومن المفروض أنهم اشتركوا في مبايعة الحسن بن علي خليفة بعد أبيه وإلا فإن المصادر كانت قد ذكرت معارضتهم لهذه البيعة. وهذا ما لم يذكر على الإطلاق. ويبدو أن أهل المدينة ومكة رضوا بالبيعة حين وصلتهم أخبارها، أو على الأقل اكتفوا بالهدوء. وهذا واضح لأننا لا نعثر في المصادر التاريخية على ذكر أي صوت للمعارضة أو الاحتجاج على بيعة الحسن.

ثمة سببان رئيسيان يمكننا إبرازهما لصالح هذا الموقف. الأول عندما توفي علي كان كل صحابة النبي البارزون من المهاجرين تقريباً قد توفوا. وكان سعد بن أبي وقاص هو الوحيد الحي من بين مجلس الشورى الذي عينه عمر عند وفاته؛ وكذلك بالنسبة للطليعة البارزة بين المسنمين فقد أدركتهم الوفاة. أما فيما يخص الجيل الثاني من المسلمين البارزين أمثال عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة وعبد الله بن عمر فما من أحد من بين هؤلاء كان قادراً على منافسة الحسن أكبر أحفاد النبي. فأهل المدينة كانوا ما يزالون يتذكرون الحب الغامر والعطف الذي أظهره النبي لحفيديه حين قطع خطبته ونزل عن المنبر لالتقاط الحسن الذي تعثر بثوبه الطويل ووقع على الأرض حين دخل المسجد؛<sup>٤</sup> وحين سمح لحفيديه بالتسلق على ظهره أثناء سجوده في الصلاة.<sup>٥</sup> وثمة روايات عديدة تصف الحظوات غير العادية؛ التي أولاهها النبي لحفيديه وهي مسجلة في المصادر الشيعية والسنية أيضاً.<sup>٦</sup> وثمة إجماع بين كتاب السر



على أن الحسن كان عظيم الشبه بجده النبي<sup>٦</sup>. الثاني: لم يكن يتوقع من سكان المدينة ومكة طبعياً أن يسرا لرؤية معاوية بن أبي سفيان الأموي قائدهم. وأبو سفيان هو الذي نظم المعارضة ضد محمد وقواد جميع الحملات ضده. ولم يدخل الأمويون بعامة في الإسلام وبخاصة الفرع السفلي الذي لم يسلم حتى فتح مكة؛ ولذلك اعتبر إسلامهم هشاً وخير مبني على قناعة. أما فيما يخص معاوية بالذات فقد اعتمد على تأييد السوريين الذين جمعهم حوله وكان لصيقاً بهم حيث أمضى ما يقارب العشرين عاماً والياً على دمشق، وكذلك على دعم مواليه وأقاربه وحلفائهم الذين تجمهروا حوله. لذلك كان من الطبيعي ألا يعارض سكان الحرمين نواة الأمة خلافة الحسن بن علي، وبخاصة حين كان بديله ابن أبي سفيان وهند.

أما فيما يخص العراقيين فإن الحسن أكبر أولاد علي كان الخيار الوحيد المنطقي، رغم أن مؤيديه لم يكونوا كلهم من ميول واحدة. فخلافة الحسن كانت تعني لبعضهم استمراراً لأسلوب علي في الإدارة ومواجهة معاوية وسيطرة السوريين على العراق. وهناك من رأى فيبيعة الحسن أنه الشخص الوحيد الجدير بقيادة الأمة على أسس دينية. وكفما كانت الظروف والأسباب فإن العراقيين اختاروا الحسن للخلافة بصفته حفيد النبي من علي وفاطمة. وتشيربيعة الحسن العفوية عقب وفاة علي مباشرة، برغم الشروط المهمة، إلى شرعية وراثة قيادة الأمة في ذرية علي. ويبدو أن العراقيين - وحتى في الفترة المبكرة - كانوا واضحين في تمييز سلالة النبي عبر فاطمة من بقية أعضاء الأسرة الهاشمية، وإلا لكانوا

اختاروا عبد الله بن العباس وهو ابن عم النبي وأكبر من الحسن سناً وخبير  
في إدارة شؤون الحكم بصفته كان والياً على البصرة قرينة الكوفة لعلي<sup>٨</sup>  
وكانت صلة الحسن القريبة بالنبي هي الميزة البارزة التي استند إليها  
العراقيون ورددها المصادر.

ومتابعة للعادة التي أوجدها أبو بكر ألقى الحسن خطبته عقب مبايعته  
بالخلافة. وفي هذه الخطبة- التي أوردتها مصادر عديدة لكن بتفاوت في  
الطول والكلمات- امتدح الحسن خصائص عائلته وحقوقهم الخاصة  
وميزات والده. وأكد قرابته الفريدة وصلاته الحميمة بالنبي، ووصف  
جدارته وحقوقه واقتبس الآية القرآنية التي تعلي مكانة أهل البيت.<sup>٩</sup>  
وكان أول من بايع الحسن هو قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري موالي  
علي المتحمس وقائد جيشه. وقام الأربعون ألفاً الذين بايعوا علياً "على  
الموت" بمبايعة الحسن فوراً خليفة.<sup>١٠</sup> ويبدو أن قيس عبر بكلماته الخاصة  
ونياية عن الجيش العراقي عن البيعة هي على القرآن والسنة النبوية وعلى  
شرط قتال الذين أحلوا الحرام. وتجنب الحسن - على كل حال -  
الشرط الأخير باعتباره متضمناً في الشرطين الآخرين. ولم يكن العراقيون  
ذوو الرعة القتالية الراغبون في الجهاد ضد معاوية يفضلون استبعاد  
الشرط الثالث من بين بنود البيعة للحسن، ولكنهم على كل حال  
بايعوه.<sup>١١</sup> وقد بينت الأحداث اللاحقة أن الحسن كان من البداية  
مشتزراً من طبيعة العراقيين المترددة وعدم ثباتهم عند الامتحان؛ لذلك  
تجنب الالتزام بموقف فعال قد يقود إلى كارثة حقيقية كاملة. وكان هو  
نفسه رجلاً ميالاً للسلم ذا مزاج معتدل يكره أن يرى دماء المسلمين

تراق.<sup>١٢</sup> وعلى كل حال، وبحسب معظم المصادر فإن، نص البيعة الذي أعطاه المبايعون ساعتهها نص علي " أن يقاتل المبايعون من يقاتل الحسن، وبصالحوا من يصالح الحسن"<sup>١٣</sup>

امتداح العراقيين الحسن بصفته خليفة والاستحسان الضمني أو على الأقل غياب أية معارضة أو احتجاج من الحجاز واليمن وبلاد فارس كان سبباً كافياً لإنذار معاوية، الذي كان يعمل بدأب للوصول إلى الخلافة منذ مقتل عثمان وبعد خمس سنوات من الصراع المستمر وجد طريقاً واضحاً لسلطته المطلقة بعد أن توفي علي. فلم يضيع أي وقت بلا عمل. فبادر إلى استنكاربيعة الحسن بتصرّيات شفوية وبرسائل أعلن فيها أنه لن يقبل بالحسن خليفة.<sup>١٤</sup> وأرسل كثيراً من مناصريه وجواسيسه لاستنهاض الناس ضد الحسن. وكان هؤلاء المناصرون يعملون في اليمن وبلاد فارس والحجاز هذه الولايات التي كانت ما تزال تحت سلطة علي حتى وفاته وإن لم يكن يسيطر عليها كلية. وكان هؤلاء الجواسيس ينشطون في قلب العراق والكوفة ذاتها حيث مصدر ثقل مناصري علي. وما من شك البتة حول هذه النشاطات. نشط معاوية هذه الشبكة التجسسية إلى أبعد مدى ممكن. وثمة رسائل عديدة حول أعمال هؤلاء الجواسيس جرى تبادلها بين الحسن ومعاوية وعبد الله بن عباس ومعاوية.<sup>١٥</sup> ولم ينكر معاوية هذه الأعمال التخريبية. ثم بدأ أخيراً التحضير للحرب واستدعى جميع قواده في سورية وفلسطين والأردن للانضمام إليه، ولم يتأخر في تسير جيش مؤلف من ستين ألف مقاتل،<sup>١٦</sup> واتخذوا الطريق المعتاد عبر البادية إلى مسكن على الدجلة على حدود الموصل مع السواد. وعندما

أصبح توجه معاوية نحو الحرب واضحاً أصبح الحسن مضطراً لمواجهة، وكان عليه أن يحتل حقل المعركة قبل أن يستطيع هذا الأخير تقوية مركزه أو الانتباه إلى الخلل في إدارة الحسن بعد وفاة والده.

كان الهدف من حركة معاوية السريعة ذا وجهين الأول: لقد أمل من وراء إظهار سلاحه وقوته أن يجبر الحسن على الاتفاق؛ إذا فشل هذا الوجه فإنه يستطيع مهاجمة القوات العراقية قبل أن تدعم مراكزها. وكان الوجه الأول السابق وراء مسير معاوية البطيء فقد تابع إرسال الرسائل للحسن محذراً إياه ألا يلجأ للمواجهة العسكرية ومحفزاً إياه على قبول الاتفاق. إذا خسر الحسن المعركة، فإن ذلك يمنح معاوية السلطة والسيادة فقط؛ أما إذا تخلى الحسن عن حقه فإن هذا يمنح معاوية الأساس الشرعي ويجعل سلطته قانونية أيضاً. وهذا ما كان معاوية يحاول تحقيقه. حتى إذا خسر الحسن وحتى لو قتل فإن الخطر على معاوية يظل قائماً ما لم يتخل عن الخلافة، لأن أي هاشمي يستطيع ببساطة أن يخلف الحسن. أما إذا تخلى الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية فلا يعود للهاشميين الحق في منافسته وبالتالي يصبح موقف الأمويين آمناً. وثبت أن هذه الاستراتيجية صحيحة، كما سرى فيما بعد. حتى بعد وفاة الحسن بعد تخليه بعشر سنوات، وعندما فاتح العراقيون أخاه الأصغر الحسين نصحبهم الحسين بالترث ما دام معاوية حياً بسبب اتفاق الحسن ومعاوية.

تشكل المراسلات بين الحسن ومعاوية التي استمرت خلال هذه الفترة مادة مفيدة للقراءة وتضيف معلومات مجدية. وقد جادل بعضهما بعضاً حول موضوع الخلافة. في واحدة من الرسائل المطولة التي بعث بها الحسن

إلى معاوية، يوضح الحسن حقه في الخلافة على أساس أن الخلافة تنبعث من نبي الله الذي هو أفضل الرجال على الأرض بامتياز والذي أخرجت هدايته العرب من الظلمات إلى النور وحققت لهم الشرف وانجد حيث كانوا يعانون الخزي والعار، وأن الحسن هو الأقرب إلى النبي بالسدم والفكر. ثم يقتبس رأي والده علي حين جادل أبا بكر عقب وفاة النبي قائلاً: إذا كانت قريش أحق بالخلافة من الأنصار على أساس أن النبي من قريش فالأولى أن أفراد عائلته (الهاشميين) وهم الأقرب إليه من كل الجهات أن يكونوا هم الأحق بقيادة الأمة. وفي الجزء الأخير من الرسالة قال الحسن " وقد تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا، وسلطان نبينا صلى الله عليه وآله وإن كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام، فأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب بذلك مغمراً يظلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب لما أرادوا به من فساد. فاليوم فليعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن الله خبيك، وسترد فتعلم لمن عقبى الدار... فدع التماذي في الباطل، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فإنك تعلم أي أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أواب حفيظ، ومن له قلب منيب، واتفق الله، ودع البغي واحقن دماء المسلمين. فو الله مالك من خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقية به، فادخل في السلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منك." <sup>١٧</sup> (ونقل المترجم النص من مقاتل الطالبين).

وجواب معاوية المفضل للحسن هو أكثر إمتاعاً، وبخاصة لأنه استخدم الجدل الذي استخدمه عمر بن الخطاب ضد علي. يقول معاوية.... بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وآله من الفضل، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله قديسه وحديثه وصغيره وكبره فقد والله بلغ فأدّى، ونصح وهدى، حتى أنقذ الله به من التهلكة، وأنار به من العمى، وهدى به من الضلالة... وذكرت وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتنازع المسلمين من بعده، فرأيتك صرحت بتهمة أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وأبي عبيدة الأُميين وحواري الرسول صلى الله عليه وآله وصلحاء المهاجرين والأنصار، فكرهت ذلك لك فإنك امرؤ عندي وعند الناس غير ظنين ولا المسيء ولا اللئيم، وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل.

إن هذه الأمة لما اختلفت بعد نبيا لم تجهل فضلكم، ولا سابقتكم ولا قرابتكم من النبي، ولا مكانتكم من الإسلام وأهله، فرأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانتها من نبيا، ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعامتهم أن يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلاما وأعلمها بالله وأحبها له وأقواها على أمر الله، واختاروا أبا بكر. فكان ذلك رأي ذوي الحجة والدين والفضيلة والناظرين للأمة، فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة، ولم يكونوا بمتهمين، ولا فيما أتوا بخطئين، ولو رأى المسلمون فيكم من يغني غناه أو يقوم مقامه، أو يذب عن حريم المسلمين ذبه، ما عدلوا بذلك الأمر إلى غيره رغبة عنه.

وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصلح، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد النبي صلى الله عليه وآله، ولو علمت أنك اضبط مني للرعية، وأحوط على هذه الأمة، وأحسن سياسة، وأقوى على جمع الأموال، وأكيد للعدو، لأجبتك إلى ما دعوتني إليه، ورأيتك لذلك أهلاً، ولكني قد علمت أنني أطول منك ولاية، وأقدم منك لهذه الأمة تجربة، وأكثر منك سياسة، وأكبر منك سناً، فأنت أحق أن تجيئني إلى هذه المرة التي سألتني، فادخل في طاعتي ولك الأمر من بعدى.<sup>١٨</sup> (والنص من المقاتل، المترجم)

رسالة معاوية وثيقة هامة لأنها ترسم فكرة واضحة لاتجاه دولة المسلمين الذي اختارت السير عليه. وتظهر حجج معاوية لحقوقه في الولاية الخطوط العريضة والمبادئ التي اتبعت سابقاً لتقرير موضوع الخلافة في حالات الخلفاء الثلاثة الأوائل (أبو بكر وعمر وعثمان)، وادعى معاوية أن الاعتبارات ذاتها يجب أن تبقى هي العوامل المقررة في تلك الفترة وما يليها مستقبلاً. فقد كانت مصلحة الدولة ومفاهيم الأمة العلمانية هي التي يجب أن تقرر مصير القيادة (الخلافة).

لم ينف معاوية موقع الحسن السامي فيما يخص قرابته بالنبي، وموقعه المتميز في الإسلام، ولكنه ادعى أن هذا ليس معياراً لقيادة الأمة الإسلامية. وبدلاً من ذلك رأى أن المؤهلات المطلوبة للقائد هي القوة الشخصية والسلطة والقدرة على تسيير الشؤون السياسية والإدارية، وتوسيع حدود الدولة، والقدرة للدفاع عن المسلمين وحكم الشعب. وبذلك أوضح معاوية ما كان حتى تلك اللحظة مضموناً: لقد تم الفصل بين مبادئ الدين

والدولة منذ تلك اللحظة. وبالتالي، وبمرور الزمن، فإن الغالبية العظمى من المسلمين ألفت مسؤولية القيادة الدينية على "الجماعة" ممثلة بالعلماء بصفاقم رعاية الدين ومفسري القرآن والسنة وفي الوقت ذاته يقبلون بسلطة الحكومة بصفتها سلطة موحدة. وهؤلاء صاروا يعرفون بالسنة ومن جهة أخرى فإن أقلية من المسلمين لم تجد أن هذا الترتيب يحقق طموحاتهم الدينية، وأن تحقيق ذلك يتطلب وجود قائد محبوب ومجلد charismatic leader من آل النبي باعتباره المفسر الوحيد للقرآن والسنة النبوية، مع أنه فرض على هذه الأقلية القبول بسلطة الحكومة. ودعيت هذه الفئة "الشيعية"

وقبل أن نتابع محاولتنا في ترتيب الأحداث التي أدت في النهاية إلى تخلي الحسن عن الخلافة، فإن لدينا ما نقوله حول مصادر المعلومات الخاصة بهذا الموضوع.

إن الصراع بين معاوية والحسن وهو أحد المقاصل الهامة في تاريخ الجماعة الإسلامية، ما يزال غامضاً، ولم تجر عليه دراسات نقدية دقيقة. فلهوزن قدم موجزاً سريعاً لتخلي الحسن،<sup>١٩</sup> وهو يتذر لأن تدوين الأحداث توافق بمغوض وتقطع، بحيث صار من الصعب ترتيب تفاصيل معينة بدقة في مسيرة هذا المنعطف الهام. والترتيب الزمني هو دائماً مشكلة صعبة في تواريخ المسلمين المبكرة. ولكن يبدو أن فلهوزن اعتمد على اليعقوبي<sup>٢٠</sup> والدينوري<sup>٢١</sup> والطبري<sup>٢٢</sup> في وصفه المختصر لهذا الموضوع. وكلاً من اليعقوبي والدينوري يتغاضيان عن التفاصيل في كتابيهما المحكمين والمختصرين، والبحث في كتابيهما عن رواية شاملة لتخلي الحسن عمل لا



جدوى منه. والطبري يقدم معلومات أكثر من سابقه، ولكنه لا يغطي هذا الموضوع بدقته المعهودة ويترك الباحث غير راض حيال العديد من الأسئلة الهامة. وينقص هذه المصادر الثلاث أنها لم تقدم عرضها للأحداث بتعاقب زمني، وهذا ما يجعل من الصعب تحديد ما إذا كان الحسن تخلصي عن الخلافة بإرادته الحرة أو أجبرته الظروف على ذلك.

على كل حال، ثمة مصادر ثلاثة لم يستخدمها فلهوزن، أو أنها لم تكن متاحة له. وهذه المصادر كتبها ابن الأعمم الكوفي،<sup>٢٣</sup> (توفي حوالي ٣١٤هـ - ٩٢٦م) وأبو الفرج الأصفهاني،<sup>٢٤</sup> (توفي ٣٥٦هـ - ٩٦٧م)، وابن أبي الحديد<sup>٢٥</sup> (توفي ٦٥٥هـ - ١٢٥٧م). ينقل أبو الفرج كامل الحدث عن أبي مخنف مع تعديلات وإضافات من خمس سلاسل رواة آخرين ويعلق قائلاً: "هذه الروايات ممتزجة الواحد منها بالآخر، ولكنها قريبة في المعاني." أما ابن أبي الحديد فيرغم أنه مؤلف متأخر فهو من أفضل المخبرين. فهو ينقل روايته عن مؤرخ مبكر مشهور هو المدائني، ويكملها من أبي مخنف. فالجزء الثاني من رواية ابن أبي الحديد مماثل لما أخذه أبو الفرج؛ وحقيقة أن أبا مخنف والمدائني كتبوا عن الموضوع مؤكدة من قائمة أعمالهما المذكورة في فهرست ابن النديم<sup>٢٦</sup>

أما "كتاب الفتوح" لأبي محمد أحمد بن الأعمم الكوفي الكندي فيجب إعطاؤه أهمية خاصة، ربما لأنه أحد الأعمال المنظمة والشاملة والمبكرة جداً لفتوح المسلمين الأولى، والتراع المدني ضمن الأمة الإسلامية. وبحسب تقرير الدكتور شعبان<sup>٢٧</sup>، وهو أستاذ معاصر فإن "كتاب الفتوح" كتب عام ٢٠٤هـ - ٨١٩م؛ وهذا معناه أن وفاة ابن الأعمم تمت حوالي

منتصف القرن الثالث التاسع الميلادي وليس عام ٣١٤هـ-٩٢٦ م كما  
أفترض حتى الآن. وفي جميع الحالات فإن تاريخه أثبت أنه المصدر الرئيسي  
لتاريخ العرب المبكر وخاصة لأحداث العراق. وكان ابن الأعمش محظوظاً  
لأنه حصل على أعمال الزهري وأبي مخنف وابن الكلبي وآخرين أقل  
تقليدية وباشكالها الأصلية غير المفسدة. وطريقته - كما يتضح من كتاب  
الفتوح - هي مزج روايات سابقه في سرد مترابط متماسك وبدون  
تفسيرات أو ذكر لمصادره بالتفصيل. لكنه حين يروي حدثاً هاماً يسمي  
مصدره؛ وفي مثل هذه الحالة فإن المدائني يحتل المقام الأول. وبرأي شعبان  
أن ابن الأعمش عاصر المدائني لذلك حاز سبقاً من خلال اقتباسه لهذا  
المصدر العظيم (المدائني) خلال حياته.<sup>٢٨</sup> بمقارنة روايات ابن الأعمش  
بروايات المدائني كما سجلها تظهر أن ابن الأعمش لم يزودنا بما ندقق به  
روايات الطبري فحسب، ولكنها بقيت محفوظة في كتاب الفتوح.  
وبالتالي فإن سلسلة الأحداث التي جرت للحسن كما دونها المدائني قد  
وصلتنا كاملة من خلال ابن الأعمش. وهذا ثابت من خلال مقارنة رواية  
ابن الأعمش برواية ابن أبي الحديد، الذي ينقل عن المدائني أيضاً؛ ولكنه  
يقدم رواية موجزة لتخلي الحسن عن الخلافة، أما ابن الأعمش فسجل  
وصفاً كاملاً لمسيرة الأحداث كما رواها المدائني.

لقد زدتنا هذه المصادر الثلاثة بنصوص كاملة للمراسلات المطولة بين  
الحسن ومعاوية، وقد اقتبسنا رسالتين منها سابقاً. وليس ثمة شك في صحة  
هاتين الرسالتين. وهناك تراث غني في المراسلات المتبادلة بين شخصيات  
هامة خلال الفترة الكلاسيكية الإسلامية.<sup>٢٩</sup> ومراسلات الحسن ومعاوية

جزء من هذا التراث، ويجب إعطاؤه أهمية مناسبة. إن دراسة جميع المصادر التي اهتمت بهذا النوع من الأدب تعيننا على تشكيل صورة أوضح لهذه الفترة مما كانت عليه حتى الآن.

يروي الطبري الأحداث في روايتين مستقلتين الأولى عن الزهري والثانية عن عوانة. ويبدو أن رواية الزهري تميل لصالح موقف معاوية على حساب الحسن،<sup>٣٠</sup> أو على الأقل تتغاضى عن التفاصيل التي تضعف موقف مؤسس الخلافة الأموية. وهذا مفهوم لأن الزهري كان على صلة وثيقة بالقصر الأموي، وكان يكتب تحت رعاية خلفاء معاوية. فروايته غامضة ومعزولة بمعنى أنها وحيدة لم يسجلها أي مصدر آخر؛ وهي على عكس رواية عوانة التي تبدو أكثر توازناً في وصفها للظروف التي أدت إلى تخلي الحسن. وتحمل رواية عوانة مصداقية تاريخية، فهي تتوافق إلى حد كبير مع روايات مؤرخين آخرين مثل اليعقوبي والدينوري.

بحسب الزهري، كان الحسن ميالاً منذ البداية لتسليم الخلافة لمعاوية مقابل ضمان أفضل للشروط التي يمكنه حيازتها من منافسه لنفسه. وكان علي قبل وفاته قد ائتمن قيس بن سعد أحد ثقاته ومؤيديه المتحمسين على قيادة جيشه المؤلف من أربعين ألف مقاتل ليقودهم ضد معاوية. وكان قيس عدواً لدوداً لمعاوية والسوريين، وبايع علي على الموت. وعرف الحسن أن قيس لن يوافق على خطته بالتخلي لصالح معاوية، لذلك عزل قيس وعين مكانه عبد الله بن عباس. وكان الكوفيون مترددين حيال نوايا الحسن لأنه لم يلتزم بحرب معاوية عندما بويع بالخلافة. وسرعان ما أدركوا أن الحسن لم يكن الشخص المناسب لقيادتهم ضد خصومهم

السوريين، وبالتالي ازدادوا قلقاً. ولم يمض وقت طويل حتى أدرك الحسن شعورهم السلبي تجاهه، فقد هوجم وجرح في فخذه. وعلى العكس من جميع المؤرخين الآخرين، فإن الزهري لم يحدد مكان وتاريخ الهجوم على الحسن، مما يجعل روايته أكثر غموضاً والتباساً.

وعقب الهجوم عليه أسرع الحسن بالكتابة إلى معاوية معلناً اعتزاله الخلافة بشرط تسلمه مبلغاً معيناً من معاوية. وحالما أرسل الحسن رسوله إلى معاوية، أجاب معاوية بأن أوفد رسوله الخاص إلى الحسن ومعه ورقة بيضاء في أسفلها توقيع وخاتم معاوية مما يعني أنه سمح للحسن بوضع شروط الاتفاق التي يريدها مقابل التخلي، وتم وصول الرسالتين لكل منهما. وعندما تلقى معاوية رسالة الحسن وفيها قراره بالتخلي من غير شروط صعبة طار فرحاً؛ واحتفظ برسالة الحسن دلالة على تخليه، وأعلمه بقبوله بجميع شروطه. وعندما تسلم الحسن رسالة معاوية التي ترك له حرية التصرف (شيك على بياض)، أضاف الحسن مطالب مالية أخرى عليها. وأثناء اجتماع الحسن ومعاوية سأله الحسن أن يعطيه الشروط التي شرط في السجل الذي ختم معاوية في أسفله، ويتجاهل رسائله السابقة. فأبى معاوية أن يلتزم بشروط هذا السجل (الرسالة)، وقال: لك كل ما كنت كتبت إليّ سابقاً—فقال الحسن وأنا قد اشترطت حين جاءني كتابك، وأعطيتني العهد على الوفاء بما فيه. فاختلفا في ذلك، فلم ينفذ معاوية للحسن من الشروط شيئاً. ولم يستطع الحسن الحصول من معاوية على أي شيء، وأسف لتسرعه في كتابة شروط اتفاق تخليه.<sup>٣٧</sup>

يخبرنا الزهري أيضاً أنه حالما لاحظ عبد الله بن عباس أن الحسن كان يناقش بنود تخليه مع معاوية، سارع هو نفسه سرّاً إلى التعامل مع معاوية من أجل سلامته وضمان الحصول على مبلغ من المال. ووافق معاوية بسرعة على شروط ابن عباس، ولذلك غادر ابن عباس معسكر الحسن إلى معسكر معاوية تحت جنح الظلام.<sup>٣٣</sup> وحالما وجد جيش الحسن نفسه من غير قائد، اختار قيس مرة أخرى قائداً لحمل بشرط أن يتابع الحرب حتى يضمن أنباع علي عفواً عنهم وسلامة ممتلكاتهم. واستطاع قيس الحصول على هذه التنازلات من معاوية بسهولة فمعاوية كان يرغب بتوفير التسهيلات إذا كانت تمكنه من الوصول إلى تسوية سلمية تجنبه الصدام مع جيش قيس القوي. وقدم عرضاً مباشراً لقيس نفسه، ولكن قيساً رفض المال الذي عرضه عليه معاوية، ومن غير أي اتفاق يخصه نفسه، تخلى عن المقاومة بشرط ضمان العفو عن الجيش العراقي وسلامته.<sup>٣٤</sup>

إن ذرائعية Pragmatism الزهري في روايته لأحداث تخلي الحسن تشير أسئلة أكثر مما تقدم إجابات. هذه الرواية التي تشير إلى مقاومة ضعيفة من طرف الحسن، صنعها الأمويون الذين، تجاهلوا المبادئ الثلاثة: الإجماع والنص والنشورى التي حددت اختيار الخلفاء الأربعة السابقين وبحثوا عن أساس شرعي لحكمهم. إن تخلي الحسن الطوعي لمعاوية، كما أرادنا الزهري أن نعتقد يزود الأمويين الخلفية الشرعية (القانونية). ومن الطبيعي أن الزهري في ظل أمويي دمشق بنى التقليد السائد والمعروف هناك. وليست الأحداث التي أدت إلى تخلي الحسن هي بالبساطة كما صورها الزهري.

أما رواية عوانة كما هي في الطبري ومصادر أخرى ذكرناها سابقاً تفيد على نقيض رواية الزهري. فبحسب عوانة لم يقد قيس كامل جيش علي خلال حياته، وإنما قاد طليعة مكونة من ٢٠٠٠ مقاتل، واستمر في قيادتها حين خلف الحسن أباه. وحين وصلت أخبار توجه معاوية نحو العراق، أرسل الحسن قيس مع قواته كطليعة لمراقبة جيش العدو حتى يصل الحسن بكامل قواته.<sup>٣٦</sup> وبحسب اليعقوبي وأبي الفرج وابن أبي الحديد أرسل الحسن طليعة جيشه بقيادة عبيد الله بن عباس وأرسل معه قيس بن سعد وسعيد بن قيس بصفتهم مستشارين يعتمد عليهما عبيد الله في قراراته.<sup>٣٧</sup> وسبب تأخر الحسن هو قلة حماس مؤيديه للحرب. وهذا واضح من رواية تقول أنه عندما ناشد الحسن الكوفيين الخروج للمقاء معاوية تلقى استجابة بالسة. ولم يتحركوا حتى خطب فيهم عدي بن حاتم مؤيد علي القديم وزعيم قبيلة طيء حاثاً إياهم على الاستجابة لدعوة إمامهم "ابن بنت رسول الله"<sup>٣٨</sup>

وحالما غادر الحسن الكوفة مع جيشه الرئيسي ووصل المدائن وعسكر هناك، كان قيس قد وصل إلى مسكن وتقابل مع جيش معاوية. وعرض معاوية على قيس رشوة من مليون درهم إن هو تخلى عن الحسن وجاءه. رفض قيس العرض بإزدراء قائلاً "أردت ان تعشني في ديني"<sup>٣٩</sup> عندئذ قدم معاوية العرض نفسه لعبيد الله ابن عباس أو لأخيه الأكبر عبد الله الذي قبله، وانضم إليه مع ٨٠٠٠ مقاتل. وهكذا بقي قيس مع ٤٠٠٠ مقاتل منتظراً قدوم الحسن.<sup>٤٠</sup> ولما تجب ملاحظته هنا هو أنه رغم أن عبيد الله انضم إلى معاوية فعلاً قبل تخلي الحسن، فإن التوقيت الذي ذكره

اليعقوبي يبدو خاطئاً. والأصح أن هروب عبيد الله حصل قبل وقت قصير من تخلي الحسن. كما ستذكر لاحقاً.

بينما كانت طليعة جيش الحسن منتظرة في مسكن وصول الحسن وجيشه الرئيسي، تعرض الحسن في المدائن لموقف خطير. فقد ثار عليه جزء من جيشه ونهب خيمته ووثبوا عليه نفسه. وهناك خمس روايات لحادثة التمرد هذه في المصادر. فبحسب عوانة<sup>١</sup> أن أحدهم اندفع ينشر الأخبار في معسكر الحسن أن قيس خسر المعركة وقتل وهربت قواته. عندئذ هاجم جيش الحسن خيمته ونهبها وهجم عليه نفسه. إذا كانت هذه الرواية صحيحة، فإن انتشار الشائعة يدل على أنها خدعة مخططة بدقة وعملية جاسوسية قام بها جواسيس معاوية الذي -بدون أدنى شك- نفذ إلى كبار قواد جيش الحسن وعرف مواقفهم الضمنية بدقة. الرواية الثانية سجلها اليعقوبي،<sup>٢</sup> الذي يقول أنه حالما وصل الحسن إلى المدائن، أرسل معاوية المغيرة بن شعبه وعبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن أم الحكم إلى الحسن بصفتهم وفد وساطة. وتحادثوا سرّاً مع الحسن وحالما خرجوا من خيمته نشروا خبر أن الحسن وافق على التخلي لصالح معاوية، عندها وثب جيش الحسن عليه ونهب خيمته. ويذكر اليعقوبي أيضاً أن معاوية أرسل رجالاً إلى معسكر الحسن لينشروا الأخبار بأن قيساً صالح معاوية وانضم إليه، وفي الوقت عينه نشر الأخبار بين قوات قيس أن الحسن صالح معاوية.<sup>٣</sup> وفي هذه الرواية أيضاً تكون أجهزة معاوية مسؤولة عن عصيان جيش الحسن.

والرواية الثالثة جاءت في الدينوري، وفيها أن الحسن غادر الكوفة إلى المدائن وحين وصل ساباط في ضواحي المدائن أدرك أن قسماً من قواته يظهر التردد وغياب الهدف واللامبالاة وكره الحرب.<sup>٤٤</sup> فخطبهم قائلاً: "أيها الناس، إني قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضعيف، وإني ناظر لكم كنظري لنفسي، وأرى رأياً فلا تردوا عليّ رأيي، إن الذي تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة، وأرى أكثركم قد نكل عن الحرب، وفشل عن القتال، ولست أرى أن أحلكم على ما تكرهون."<sup>٤٥</sup>

عندما سمع قومه هذا، نظر بعضهم إلى بعض، مظهرين ارتياحهم. وكان بينهم من يميل إلى رؤيا الخوارج، وقالوا "كفر الحسن كما كفر أبوه قبله" ووثبوا عليه، وسحبوا السجادة من تحته، ومزقوا قميصه. فطلب المساعدة من أنصاره من ربيعة وهمدان الذين هرعوا إليه ودفعوا الوثابين عليه.<sup>٤٦</sup>

الرواية الرابعة أوردتها ابن أبي الحديد،<sup>٤٧</sup> نقلاً عن المدائني، فيقول أنه بينما كان الحسن في طريقه إلى المدائن جرح برمح في ساباط ونهبت خيمته، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى معاوية، نشرها في كل الأنحاء، عندها هجر الأشراف والقادة بين طليعة جيش الحسن المؤلفة من ٢٠٠٠ مقاتل وانضموا إلى معاوية. أخبر عبد الله ابن عباس الحسن بالموقف الخطير، وعندها دعا الحسن القادة العراقيين في كل جيشه وبأسف كبير أخبرهم بنيتهم بإنهاء الصراع والتخلي عن الخلافة. وقبل الانتقال إلى الرواية الخامسة، نرى أن من الأنسب أن نذكر أنه بناءً على الروايات الأربعة فإن



قرار الحسن بالتخلي فرضته الظروف، ولم يكن قراراً تابعاً من إرادته الحرة.

الرواية الخامسة سجلها ابن الأعمش و أبو الفرج،<sup>٤٨</sup> وهي غير واضحة. فابن الأعمش غالباً لا يذكر مصدره. أما أبو الفرج فيقتبس في البداية أبا مخنف بالإضافة إلى خمسة مخبرين آخرين. وبذلك لم نعد نعرف إن كان ينقل عن أبي مخنف أم من مصدر آخر من الخمسة. فبحسب روايته، أنه عندما وصل الحسن إلى المدائن توقف فجأة هناك وألقى خطبة أعلن فيها عن نيته في التخلي. ونص الخطبة التي نقلها أبو الفرج ماثلة لما نقلناه عن الدينوري سابقاً مع القليل من الاختلاف في المفردات. وفي نهاية الخطبة هاجمه جيشه وهب ممتلكاته وشق قميصه. هذه الرواية على عكس الروايات التي وصفناها أعلاه، لم تبين سبب قرار الحسن لإلقاء هذه الخطبة في تلك الساعة الخطيرة في المدائن، وبالتالي تبدو مبهمة. وهي تبرز تناقضات خطيرة، وتثير أسئلة عديدة لا نجد لها جواباً. قد يسأل المرء مثلاً لماذا دعا الحسن شعبه وألقى الخطب فيهم وشجعهم على الانضمام إلى جيشه لحرب معاوية، كما نقلنا سابقاً عن أبي الفرج نفسه. لماذا خرج من الكوفة إلى المدائن مع ما كلفه ذلك من تحضيرات، ثم فجأة يغير رأيه ويعلن نيته في السلم في المدائن؟ هنا نجد أن علينا أن نقبل إحدى الروايات الأربعة السابقة ولعل رواية الدينوري هي الأكثر احتمالاً والتي تؤكد أن خطبة الحسن وإعلانه الاستقالة من الخلافة يعودان إلى موقف الخونة العراقيين. وختم هذا الموقف نجاح معاوية في استخدام الجاسوسية والدبلوماسية.

فبعد المعاملة التي تلقاها من قواته، وجد الحسن المحبط واليأس أن من المستحيل البقاء في معسكره؛ فركب فرسه بحراسة المخلصين عن مرافقيه وأتباعه وسلك طريقاً آمناً إلى القلعة البيضاء في المدائن وهي مقر واليه. وقبل أن يصل القلعة كمن له خارجي متطرف هو الجراح بن سنان الأسدي، وطعنه بخنجر في فخذه هاتفاً "لقد كفرت مثل أبيك قبلك".<sup>٩٩</sup> ولكن الجراح حوَّصِرَ وقتل؛ ثم حمل الحسن الجريح وهو يترف إلى القلعة، حيث اعتنى به واليه عليها سعد بن مسعود الثقفي. وأشاع معاوية ما جرى للحسن. وهذا ما ضاعف تخاذل جيش الحسن المتردد أصلاً، وأدى إلى هروب الكثيرين من قواته.

بعد هذا الوصف، لا يقدم لنا اليعقوبي والدينوري والطبري إلا تفاصيل قليلة لوصف الأحداث اللاحقة، بل أسرعوا في وصف تخلي الحسن، برغم أن اليعقوبي والدينوري يحويان جملاً قليلة وعرضية ليس لها إلا قيمة تاريخية ضئيلة. وإذا أخذنا في الاعتبار أسلوبهما، يصبح هذا الإيجاز مفهوماً، بينما يصف لنا ابن الأعمش وأبو الفرج بالتفصيل الأحداث التي وقعت بين المهاجم على الحسن وتخليه. وثمة اختلاف في روايتهما يجب معالجته على انفراد.

تقول رواية ابن الأعمش أنه بينما كان الحسن يواجه هذه الصعوبات في المدائن، كانت طليعة جيش الحسن الـ ١٢٠٠٠ مقاتل بقيادة قيس بن سعد في معسكر مسكن بمواجهة جيش معاوية، منتظرة وصول جيش الحسن الرئيسي. وحالما علم قيس بالهجوم على الحسن رأى أن من الأفضل إشغال قواته بالاشتباك مع جيش معاوية، كي لا يتاح لهم الوقت

لإطالة التفكير بالموقف، وبالتالي قبط معنوياتهم. وبالفعل جرى الاشتباك ونتج عنه خسارة في الجيشين. عندها قدم موقف معاوية إلى قيس وقال له "لماذا تقاتلنا الآن وتقتل نفسك؟ لقد وصلتنا الأخبار المؤكدة بأن سيدك تخلى عن أتباعه، وطعن بخنجر وهو الآن مشرف على الموت. وعليك وقف القتال حتى تصلك الأخبار المؤكدة عن الوضع" وهكذا أجبر قيس على وقف القتال وانتظر وصول الأخبار الرسمية عما حدث من الحسن. وخلال ذلك بدأت قواته بالهروب إلى معاوية. وعندما عرف قيس ذلك كتب إلى الحسن بخطورة الموقف.<sup>٥١</sup>

وحين استلم الحسن رسالة قيس انتابه اليأس، فدعى قادة العراقيين وأشرفهم وخطب فيهم وهو محزون مشتمز قائلاً "يا أهل العراق، ماذا أفعل بكم وأنتم معي؟ هذا كتاب قيس بن سعد يخبرني أنه حتى الأشراف منكم قد انضموا إلى معاوية. والله، إنها لصدمة وسلوك شنيع منكم! انتم أكرهتم أبي على قبول التحكيم في صفين؛ وبعد أن حصل التحكيم الذي طلبتموه انقلبتم عليه. وحين دعاكم لقتال معاوية مرة أخرى تكاسلتم وفترتم. وبعد موت أبي جئتموني وبايعتموني برغبة منكم وإرادة. فقبلت بيعتكم وخرجت إلى معاوية؛ والله وحده يعرف كم كنت أقصد ذلك. والآن عدتم إلى قديم عهدكم. يا أهل العراق، لقد نلت منكم ما يكفي، ولا تضلوني في ديني، لأنني الآن سأترك هذا الأمر لمعاوية."<sup>٥٢</sup> [إن المترجم يعبر عن بالغ أسفه لأنه لم يستطيع العثور على المصدر الذي نقل عنه المؤلف فترجم النص بأقرب ما استطاع لأسلوب الحسن(ع)].

ويقدم يعقوبي السبب نفسه لقرار الحسن، رغم أنه يتحدث عن الموضوع باختصار شديد.

إذا كانت هذه الخطبة صحيحة، فهي كافية لتفسير كامل الموقف والظروف التي حدثت بالحسن للتخلي عن الخلافة لمعاوية. وهذه الخطبة تعكس بوضوح تام أن الحسن كان منذ البداية وحتى منذ صفين مرتاباً بتصرفات العراقيين التي لا يصح الإعتماد عليها. فهم بالنسبة للحسن قوم ينقادون لآزواتهم، ويتكلمون بعاطفة، ولكن عندما يأتي وقت العمل والامتحان لا يثبتون. هذه الحقيقة حول تخلي الحسن لم تذكرها المصادر بالتفصيل، ولكنها تظهر بوضوح أكثر حين دعوا أخاه الحسين ليقود ثورتهم. وكل الذين نصحوا الحسين بعدم الاستجابة لدعوتهم ذكروه بتخاذلهم عن نصره أبيه وأخيه في أوقات الشدة.<sup>٥٣</sup> ولم تكن مشاعر الحسن إلا صدى لموقف علي من غالبية أنصاره العراقيين، ذلك الإحساس الذي عبر عنه أكثر من مرة في خطبه المبثوثة في نهج البلاغة ومصادر أخرى كثيرة.

وبعد هذه الخطبة أمام أهل العراق، أرسل الحسن خيراً لمعاوية يعلمه فيه بأنه رضي بالتخلي عن الخلافة. وحين وصلت أخبار هذا القرار إلى قيس، أخبر مقاتليه؛ والآن عليكم أن تختاروا أحد اثنين "إما أن تقاتلوا بغير إمام وإما أن تباعوا الضال معاوية." فأجابوه "البيعة أهون علينا من سفك الدماء." بعدها انسحب قيس وقليل من معه من مسكن عائدين إلى الكوفة. ومن الملاحظ أن اسم عبيد الله بن عباس لم يظهر في هذه الرواية.

نعود الآن إلى أبي الفرج، فروايته تخبرنا أن قائد طليعة جيش الحسن المؤلفة من ١٢٠٠٠ مقاتل كان عبيد الله بن العباس وليس قيس بن سعد. وأن معاوية وعبيد الله بن العباس وصلاً مسكن مع جيشهما في مساء اليوم نفسه الذي وصل فيه الحسن المدائن. وفي صباح اليوم التالي وبعد صلاة الفجر وبينما كان الحسن يواجه عصيان قواته، ويصاب بجرح، حصلت مواجهة قصيرة بين معاوية وعبيد الله. وعند وقوع الليل أرسل معاوية رسالة إلى عبيد الله قائلاً: "إن الحسن قد راسلني وإنه راغب في السلم، وتسليم الأمر إلي. فإذا تنضم إلي وأنت متبوع، وإما أنفذ إليك وعندها تأتي وأنت تابع. ولك إن جئتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم نصفها الآن ونصفها عندما أدخل الكوفة".<sup>٤٤</sup>

وخلال الليل انسل عبيد الله بن العباس إلى معاوية. وانتظره القوم في الفجر كي يأتيهم ويؤمهم في الصلاة. وعندما بحثوا عنه ولم يجدوه جاء قيس وأم الصلاة، وبعدها ألقى خطبة حماسية هاجم فيها عبيد الله وأباه العباس وأخاه عبد الله لتراخيهم وترددهم في تعاطيهم الشؤون السياسية. وحين سمع الناس كلام سعد صاحوا "الحمد لله ترك عبيد الله معسكرنا، والآن سننهض للقاء عدونا"، وبدأ الهجوم. فتقدم بسر بن أرطاة وهو من يثق به معاوية مع ٢٠٠٠٠ مقاتل وصاح "هذا هو قائدكم عبيد الله معنا، وقد بايع معاوية، والحسن وافق على الصلح، فلمماذا تقتلون أنفسكم؟" عندئذ خاطب قيس أصحابه قائلاً "اختاروا أحد اثنين: إما أن تقاتلوا بغير إمام وإما أن تباعوا معاوية ببيعة ضلال وخداع." فأجابه أصحابه أنهم سيقاتلون حتى يغير إمام، وقاموا بهجوم سريع على قوات

معاوية، ثم عادوا إلى مخيمهم. حين اتضح لهم أن الحسن وافق علسي التخلي، عادوا إلى الكوفة.<sup>٥٥</sup>

إن عرض أبي الفرج للأحداث ما بين الهجوم على الحسن وتخليه هام لأنه يقدم توقيتاً منطقياً ومفهوماً لقرار عبيد الله الذي روثه المصادر الأخرى بشكل مبهم. ورواية أبي الفرج توضح أيضاً حال الأخوين ابني العباس، فالذي قرأ إلى معاوية هو عبيد الله وليس أخاه الأكبر عبد الله المذكور في رواية الزهري فقط. وعلى كل حال، فإن أبا الفرج يذكر أن العراقيين أجابوا قيساً بأنهم سيتابعون القتال حتى بدون إمام، وهذه الرواية يجب رفضها، وذلك ببساطة لأنها تخالف رواية المصادر الأخرى التي أجمعت على أن تلك القوات كانت تفضل مبايعة معاوية.

أما بنود وشروط اتفاق تخلي الحسن فكما هي في المصادر ليست متبينة فقط لكنها مبهمة ومشوشة أيضاً. قاليعقوبي والمسعودي لا يذكران بنود الاتفاق أبداً. ويذكر الطبري ثلاثة شروط مباشرة ويذكر الرابع موارد في سياق مختلف. فالشروط الثلاثة هي

١- أن يحتفظ الحسن بخمسة ملايين درهم الموجودة يومها في خزينة الكوفة.

٢- أن تكون موارد دار بيجرد الفارسية السنوية للحسن.

٣- ألا يسب علي أو يهان، كما جرت عادة معاوية منذ خلافة علي أو على الأقل ألا يتم ذلك بحضور الحسن.<sup>٥٦</sup>

أما الشرط الأول القاضي باحتفاظ الحسن بما في خزينة الكوفة فغير معقول لسببين ظاهرين. الأول لأن الحسن حتى تخليه كان الخليفة الحاكم الوحيد في الكوفة، وبالتالي كانت محتويات الخزينة يتصرفه. الثاني تؤكد مصادرنا أنه كان من عادة علي أن يفرغ الخزينة في نهاية كل أسبوع. وهكذا يصبح من الصعب القبول بأنه خلال أشهر معدودة من خلافة الحسن صارت الخزينة تحوي خمسة ملايين درهم. وبخاصة أن الحسن قاد جيشاً للحرب مما يعني أنه دفع نفقات باهظة لتجهيزه.<sup>٥٧</sup> وكانت الإدارة التي تجمع الضرائب في حالة فوضى بسبب موت علي المفاجئ. ومن المهم ملاحظة أنه بعد فجوة كبيرة في تاريخه وصف فيها وحشية بسر بن أرطاة في إدارة البصرة، عاد فذكر الشرط الرابع من شروط تسليم الخلافة لمعاوية.

وفيه يخبرنا أن الحسن اشترط على معاوية ألا يضار أصدقاء وأنصار وأولياء علي حيثما كانوا بل يجب ضمان سلامتهم.<sup>٥٨</sup> وهذا الشرط ذكرته المصادر الأخرى في مكانه المناسب.

أما الشروط التي ذكرها الدينوري فهي:

١- أن لا يحتقر أحد من أهل العراق، وأن تضمن سلامة كل فرد بغض النظر عما قد ينسب إليه من قمة أو فعل.

٢- أن تكون الواردات المالية لمنطقة الأهواز من نصيب الحسن (بدلاً من داريجرد كما ذكر الطبري).

٣- أن يفوق نصيب الهاشميين (العلويين والعباسيين) من العطاء نصيب بني عبد شمس (الأمويين).<sup>٥٩</sup>

أما ابن عبد البر وابن الأثير وهما من أصحاب الرأي السديد، وقد كتبا عن حياة صحابة النبي، ومصادر أخرى فأضافت شرطين آخرين وهما:

١- ألا يؤخذ من أحد من سكان المدينة والحجاز و العراق أي من الممتلكات التي حازوها أيام خلافة علي.

٢- أن تعاد الخلافة إلى الحسن بعد معاوية.

يبدو أن أبا الفرج لم يكن مهتماً بذكر الشروط بالتفصيل. فهو يذكر أن معاوية أرسل كلاً من عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة وفداً إلى الحسن لمناقشة شروط السلم. "وضمننا شروط السلم للحسن، وهي الشروط التي وافق عليها معاوية وهي ألا يساء لأحد من شيعة علي. ألا يذكر علي إلا بخير، وأشياء أخرى طلبها الحسن".<sup>٦١</sup>

أما الرواية الأشمل فقد وردت عند ابن الأعمش، ويجب أن تكون مأخوذة عن المدائني، لاسيما وأن ابن أبي الحديد<sup>٦٢</sup> قد ذكر الشروط نفسها وقد اقتبسها من المدائني بصفته مخبره. فيحسب ابن الأعمش أنه بعد أحداث المدائن وبعد خطبة الحسن أمام أشرف العراق -كما ذكرنا سابقاً- أرسل عبد الله بن نوفل بن الحارث إلى معاوية ليخبره برغبة الحسن بالتخلي، ومناقشة شروط الاتفاق معه نيابة عن الحسن. وكان الشرط الوحيد الذي طلبه الحسن هو العفو العام عن الجميع. وعندما وصل عبد الله إلى



ممكن، أخير معاوية أن الحسن فوضه بمناقشة شروط السلام نيابة عنه،  
وكانت شروطه هي

١- أن تعود الخلافة للحسن بعد وفاة معاوية.

٢- أن يستلم الحسن خمس ملايين درهم من خزينة الدولة.

٣- أن يستلم الحسن الموارد المالية السنوية لمنطقة داربيجرد.

٤- أن تضمن سلامة جميع الناس.<sup>١٤</sup>

وحالما سمع معاوية هذا أخذ صحيفة بيضاء، ثم وقع في أسفلها وختمها  
وقال لعبد الله "خذ هذه الصحيفة الموقعة والمختومة *carte blanche*  
للحسن وقل له ليكتب فيها ما يشاء." وطلب معاوية من صحبه أن  
يشهدوا على توقيعهم ووعده. عندها عاد عبد الله وجماعة من قريش منهم  
عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة وآخرون من النبلاء السوريين إلى  
الحسن وأخبره قائلاً "وافق معاوية على جميع الشروط التي طلبتها منه  
لك، والتي يمكنك تدوينها في هذه الصحيفة." فأجاب الحسن أنا غير  
مهتم بالخلافة، ولو كنت أريدها لما سلمتها لمعاوية، أما المال، فإن معاوية  
لا يستطيع أن يمنعه بأي حال، فهي مسألة قم الأمة كلها. ثم طلب كاتبه  
وأمره أن يكتب "هذه هي الشروط التي بموجبها يسلم الحسن بن علي بن  
أبي طالب معاوية بن أبي سفيان ويسلمه حكومة أمير المؤمنين علي

١- على معاوية أن يحكم بكتاب الله وسنة نبيه وسلوك الخلفاء  
الراشدين.

٢- لا يسمى ولا يعين معاوية أحداً بعده للخلافة، بل يجب ترك  
الاختيار شورى للمسلمين.

٣- يترك جميع الناس يعيشون في سلام حيث هم في أرض الله.  
٤- يضمن معاوية سلامة أصحاب علي وأتباعه، حياتهم وممتلكاتهم  
ونسائهم وأبنائهم، وهذا عهد الله وميثاقه يلتزم معاوية بسن أبي  
سفيان الوفاء به.

٥- لا يقوم معاوية بأي عمل خطر أو يؤذي الحسن بن علي وأخاه  
الحسين أو أي فرد من أهل بيت النبي.

وشهد علي ذلك عبد الله بن نوفل وعمر بن أبي سلمى وفلان وفلان.  
عرض ابن الأعمش هذه الشروط كما أملاها الحسن محلّ قضايا عديسة،  
ويفسر إمام روايات المصادر الأخرى المتباينة. إن توقيت إرسال هذه  
الصفحة من معاوية إلى الحسن مبهم في رواية الطبري؛ بينما هذا التوقيت  
مفهوم في رواية ابن الأعمش. في رواية الطبري وأبي الفرج وبعض المصادر  
الأخرى يذكر اسم عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة بصفتهم وقد  
معاوية للحسن لمناقشة شروط السلم؛ أما ابن الأعمش بينما يؤكد هذا  
الحدث يحدد المناسبة بدقة منطقية ومهمة التوقيت. كما يذكر ابن العثم  
الشروط في جزأين الأول: هي التي دونها موفد الحسن عبد الله ابن  
نوفل، والثاني حين أملاها الحسن بنفسه - كما ذكرناه سابقاً - إذا  
نظرنا إلى الشروط مجتمعة نجد أنها باستثناء الأول والثاني المذكورين أعلاه  
مذكورة متفرقة وغير منظمة في المصادر الأخرى. فالشرط الأول القاضي  
بأن يحكم معاوية بكتاب الله وسنة نبيه وسلوك الخلفاء الراشدين تعكس  
بقوة الميل والروحانية السائدة في تلك المرحلة، وهي قيود تضبط  
تصرفات شاغل مهمة الخلافة. وفي جميع الاحتمالات، فإن خليفة علي

والخلفاء الراشدين لم يكن باستطاعته تسليم الخلافة من غير تأكيد هذا الشرط التقليدي؛ على الأقل ظاهراً، هذا إذا كنا شكاكين جداً في قبول رواية كهذه. ومن الجدير بالملاحظة - على كل حال - أنه منذ الشورى فإن علياً وآله ومؤيديه أكدوا دوماً ضرورة إتباع السنة النبوية ورفضوا الاعتراف بصلاحية سنة الخلفاء الثلاثة الأول. وبالتالي فمن المحتمل أن تكون الإشارة إلى سلوك الخلفاء الراشدين قد أضيفت مؤخراً في محاولة لمصالحة "الجماعة" كما ذكر سابقاً. فمن المؤكد أن الحسن ما كان قادراً على مخالفة موقف أبيه في الشورى، حين رفض إتباع سنة أبي بكر وعمر.

أما الشرط الثاني وهو أن لا يعين معاوية ولا يسمي أحداً بعده للخلافة، بل يتركها شورى بين المسلمين فليس من الصعب علينا قبوله. إن سابقة تسمية الخليفة التي أحدثها أبو بكر حين سمي عمر أيديها قلة من الشخصيات المؤثرة. فقرار أبي بكر كان - على كل حال - تحت تأثير إخلاص واهتمام بمصالح الأمة الإسلامية عامة، وهو لم يعين ابنه أو قريبه لمنصب رسمي. والحال ليست كذلك عند معاوية والأمويين. وبالتالي كان هذا الشرط لازمة طبيعية يجب فرضها على معاوية من طرف الحسن في ذلك الموقف. أما الشرط الذي ذكرته المصادر الأخرى والقاضي بأن تعود الخلافة للحسن بعد موت معاوية فيجب مناقشته. فمن رسالة معاوية التي ذكرناها سابقاً، قد يمكننا أن نستنتج أن معاوية أشار إلى خلافة الحسن بعد وفاته هو نفسه باعتبار ذلك احتمالاً قوياً، لكن بدون أن يلزم نفسه به. وبعد مضي بعض الوقت تجمع الشيعة وأظهروا احتجاجهم على

حقيقة أن الحسن لم يطلب ضماناً كافياً، ولم يؤكد ما يلزم معاوية كتابة بأن يعيد الخلافة إليه بعد وفاته.<sup>٦٦</sup>

أخيراً، فإن قبول معاوية بالعفو العام عن جميع أتباع وأصحاب علي هي القضية الأكثر أهمية على ما يبدو. فقبول هذا الشرط الخاص يفضح زيف السبب الذي أعلنه معاوية للقتال، وهذا السبب هو الثأر لدم عثمان ومعاقبة المسؤولين عن قتله. فمن بين شيعة علي الذين منحهم معاوية عفواً تاماً بحسب شروط الاتفاق مع الحسن كان هناك رجال مثل عمرو بن الحمق الخزاعي الذي قيل أنه اشترك في قتل عثمان، ومالك بن الأشتر الذي كان قائد ثوار الكوفة. وبذلك وضع أن السبب بالثأر لدم عثمان كان - كما أوضحنا سابقاً - ذريعة استخدمها معاوية لتحقيق طموحه للقبض على الخلافة لنفسه.

وتم تنفيذ الاتفاق، فعاد الحسن إلى الكوفة، حيث انضم إليه قيس. ودخل معاوية بكامل قواته الكوفة بعد عودة الحسن مباشرة. وحصل اجتماع عام قامت خلاله مجموعات مختلفة بمبايعة معاوية الواحدة بعد الأخرى. وتعرض المصادر مشاعر الناس المتباينة وهم يقبلون بمبايعة معاوية قائداً جديداً لهم. بعضهم أخذ الأمر على أنه موقف مؤقت لحماية مصالحهم، وآخرون لم يستطيعوا إخفاء امتعاضهم بل وكرههم لحكم معاوية، ولكن مع ذلك اضطروا لتطويع أنفسهم بحسب الموقف.<sup>٦٧</sup> فالإشارات الحادة، والخطابات المريرة والأشياء المتبادلة بين الطرفين توفر مادة ممتعة للدراسة ومصدراً للمعلومات ولكنها تخرج عن إطار اهتمامنا هنا. لكن خطاب الحسن الذي ألقاه بناء على إصرار عمرو بن العاص ومعاوية يستحق

الاهتمام. فبرغم أن جميع المصادر أوردت هذا الخطاب لكن مع اختلافات في المفردات والمحتوى. وأقصر الروايات حفظها الطبري نقلاً عن الزهري وهي كما يلي "أما بعد، أيها الناس، فإن الله قد هداكم بأولنا- ويقصد محمد وعلي- وحقن دماءكم بآخرنا- ويقصد نفسه- وإن لهذا الأمر- الخلافة- مدة، والدنيا دول، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ((وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين)) سورة الأنبياء ١١١ فلما قاهها، قال معاوية وقد تنبه للخطر: اجلس فلم يزل ضرباً على عمرو بن العاص، وقال هذا من رأيك.<sup>٦٨</sup>

روى المدائني كما ورد عند ابن أبي الحديد نصاً أطول لهذا الخطاب، حيث فسّر الحسن أسباب تخليه، وكما ذكر فيه إضافة إلى طموحات معاوية وعصيانه، موقف مؤيديه المتخاذل والمتردد والخائن. كما أشار الحسن إلى أيام خلافة والده وكيف خذله العراقيون.<sup>٦٩</sup> أما أبو الفرج فيروي جملة واحدة من كامل الخطاب وهي "إن الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وليس الخليفة من سار بالجور، ذلك ملك ملكاً يتمتع به قليلاً، ثم تنقطع لذته، وتبقى تبعته ((وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين)) الآية.<sup>٧٠</sup> ومن المفيد أن نلاحظ أنه إذا كان هذا الاقتباس تاريخياً صحيحاً، فيكون هو المصدر الأول لاستخدام مصطلح "ملك" بدلاً من خليفة لمعاوية وخلفائه والذي أطلقه المؤرخون المسلمون عليه منذ وقت مبكر. وعلى كل حال، ثمة حالات عديدة مدونة حيث قال معاوية عن نفسه "أنا أول ملك في الإسلام".<sup>٧١</sup>

إن الروايات التاريخية للظروف التي واجهت الحسن منذ بداية خلافته تشير إلى أن تخليه لا يعود إلى ملذات الحياة وسهولة العيش المترف، كما يريدنا بعض الكتاب المعاصرين أن نعتقد.

تحدد المصادر أسباب تخلي الحسن مثل حبه للسلم، وكرهه للسياسة ومناوراتها، ورغبته في حقن دماء المسلمين. وأكثر من ذلك، لقد قُدِّر الموقف بطريقة واقعية، وكان مدركاً العواقب المدمرة له ولأفراد عائلته وللقلة من أتباعه المخلصين إذا أصر على حل مشكلة عصيان معاوية عن طريق العنف.<sup>٧٢</sup> وبالتالي قبل الحقائق السياسية السائدة يومها بينما استفاد من الوقت المتاح للشيعة من أجل التفكير بطريقة ما لتدعيم موقفها وأتباعها على أسس إيديولوجية. وهذا واضح من أية رواية متوفرة لدينا لخطابه الذي ألقاه عند تحويل الخلافة إلى معاوية كما ذكرناه سابقاً.

وبرغم تخلي الحسن عن الخلافة استمر قائداً للشيعة بصفته إمام الشيعة بعد أبيه. وحتى أولئك الشيعة الذين انتقدوا عملية تخليه، لم يتوقفوا البتة عن تأكيد أن والده عينه لخلافته بصفته أمير المؤمنين. إن تفاصيل نظرية الإمامة نظمت بالتأكيد في وقت لاحق، لكن الحقيقة بقيت وهي أن الشيعة اعتبرته طيلة حياته رأس البيت العلوي (نسبة إلى علي)، وكذلك فعل أفراد الأسرة من آل بيت النبي، وكان هذا كافياً للشيعة لاعتباره - عبر التاريخ - الإمام الثاني بعد علي.

كان تخلي الحسن موضع إدانة والشمزاز العراقيين الذين ناصروه وأباه من قبله مبدئياً بسبب كرهه سيطرة السوريين. وعلى المستوى نفسه، كان تخليه مزعجاً للخوارج الذين تجمعوا حوله لمحاربة معاوية؛ وكان الذي

طعنه رجل خارجي (هو الجراح بن سنان الأسدي) حين علم بنيته في التخلي. وكان هناك مجموعة أخرى مثل حجر بن عدي الكندي ألقفها قرار الحسن بالتخلي، لكن أسباب قلقها مختلفة. لقد كانت هذه المجموعة هي التي تمثل شيعة علي الحقيقية في تلك المرحلة. آمنت هذه المجموعة بأحقية علي وذريته في الخلافة على أسس دينية، على عكس مؤيدي علي ومن بعده الحسن الذين ناصروهما لاعتبارات سياسية أو اقتصادية. وبالتالي فإن التشيع لعلي اتخذ اتجاهين منذ تولى عثمان الخلافة وسيطر الأمويون على مقدرات الأمة اتجاه ديني واتجاه سياسي.

وجد أصحاب هذين الاتجاهين أنفسهم موحدين أثناء الحرب الأهلية بين علي ومعاوية ضد عدو مشترك. ولكن عندما حسم معاوية الموقف لصالحه من خلال تفوقه السياسي والعسكري، فإن أصحاب الاتجاه السياسي في معسكر الحسن انهاروا، وتفرقوا، وهربوا جماعات إلى جانب معاوية؛ بينما بقي أصحاب الاتجاه الديني ثابتين على عقيدتهم. لقد خاب أملهم بتخلي الحسن، ولكنهم استمروا مصرين على مثلهم وطموحاتهم فيما يخص القيادة الإسلامية. لم يضيعوا هويتهم بصفتهم معارضين لمنافسي أهل بيت النبي، حتى بعد انهيار التأييد السياسي لعائلة محمد؛ ورفضوا قبول<sup>٢٣</sup> ما قبلت به الأكثرية بإرادتها أو مكرهة، كما سئى فيما يلي.

في وقت متأخر، حين دوت أحداث الإسلام الأولى بطريقة منهجية (في عصر التدوين = القرنين الثاني والثالث الهجريين) فسر المؤرخون وحدثون السنة والشيعة عمل الحسن بأنه "عمل يستحق التقدير" وجمع الفريقين. ودعي العام الذي تمت فيه هذه المصالحة "عام الجماعة"، وذكر

حديث نسب للنبي قال فيه "إن ابني هذا سيد يصلح الله به بين فئتين عظيمتين"<sup>٧٤</sup> (والنص من أسد الغابة هذا الحديث يعكس جهود النصف الثاني من القرن الأول وأوائل القرن الثاني حين ظهرت جماعة الوسطية أو "الجماعة" من وسط وضع مشوش، بالتالي عكست بوضوح ميلاً تأسست بناءً عليه. وهكذا فإن الشيعة دافعوا عن موقف الحسن بالتخلي أمام المغالين في لومه على تخليه؛ ومن جهة ثانية قبل السنة هذا التفسير بصفته يؤكد حاجتهم للتوفيق بين متعارضين حزب عثمان الذي يقوده معاوية، وحزب علي الذي يقوده الحسن. هذه المجموعة الوسطية عرفت فيما بعد باسم "الجماعة" وتركت خلفها متصليين وهم الذين لم يوافقوا على المصالحة، ولم ينضموا إلى توليفة هذه الجماعة الوسطية "central body" "الجماعة"

برغم أن الحسن أوقف سفك الدم بحلّ تخلى فيه عن الخلافة لصالح معاوية، فإنه لم يعد اللحمة إلى الأمة. والحقيقة هي أن تخليه جلب عواقب بعيدة المدى في تطور التشيع. فحتى تخليه، كان الحسن - اسماً على الأقل - رئيس كتلة المسلمين المركزية، لكن الأحداث تطورت في اتجاه معاكس بحيث صار حزب العثمانية والذي يقوده معاوية هو الكتلة المركزية، بينما الشيعة تحولت إلى حزب معارضة صغير دفع باتجاه موقف معاند. ولم يعد الحسن هو الحسن الناطق باسم هذه المعارضة بل حجر بن عدي الكندي. وأيده عدد من المتحمسين الأشداء من شيعة الكوفة، فتابع احتجاجه المستمر ضد معاوية وأوامره بسب علي على المنابر - تلك السياسة التي فرضها معاوية كحملة دعائية.



خلال فترة السنوات التسع من تخلي الحسن عام ٤١هـ-٦٦٠م وحتى وفاته عام ٤٩هـ-٦٦٩م مرت المشاعر والميول الشيعية في مرحلة يمكن وصفها بحالة الجمر تحت الرماد، بلا أنشطة ظاهرة متميزة على السطح.

إن الاستعراض التاريخي لتطور الطموحات الشيعية خلال هذه الفترة صعب جداً لأن مصادرها لا تعرض شيئاً مهماً. ومع ذلك، فإن هذه الفترة لم تخل تماماً من أصوات ترتفع هنا وهناك مؤيدة لأهل بيت النبي ومعارضة معاوية ونظامه. فقد كان أفراد أو جماعات صغيرة العدد من الكوفة تتردد على الحسن والحسين تدعوها للثورة- ولكن هذه الدعوات لم تلق استجابة.<sup>٧٥</sup>

إن صمت الشيعة خلال هذه الفترة يعود إلى سببين : الأول الإحكام التام على شؤون الإمبراطورية الذي حققه معاوية من خلال الكادر الإداري السوري المدرب جيداً والموالي للنظام والذي منع أية إمكانية للتحرك ضد معاوية. والثاني هو أن الشيعة لم تكن منظمة جيداً للقيام بعمل ضد سلطة قوية جداً. ومع ذلك فإن الشيعة كانت تمر بضرورة تطوير طوعية توصلها إلى تجميع وتنظيم تأييد واسع، تترجمه في عمل ما. وكان معاوية يدرك ويعي المشاعر الشيعية القوية عند عناصر معينة من سكان الكوفة، فاتخذ إجراءات مختلفة لمنع تحركاتها. فحالما دخل الكوفة نقل قبائل معروفة بولائها لعلي وآله من المدينة، واستبدلها بقبائل موالية له استقدمها من سورية والبصرة والجزيرة.<sup>٧٦</sup>

بعد تخلي الحسن، غادر الكوفة واستقر في المدينة، وعاش حياة هادئة، لم تشهد أي نشاط سياسي حقيقي. ويمكن تفهم موقفه من واقعة أنه خلال

رحلة عودته من الكوفة إلى المدينة، وحين كان في القادسية تلقى رسالة من معاوية طلب فيها معاوية من الحسن المشاركة في حملته على الخوارج الذين فضوا ضده للتو. وأجاب الحسن أنه تخلى عن قتال معاوية كي يحقق السلام في المجتمع الإسلامي، لذلك لن يشاركه في أية حملة.<sup>٧٧</sup> وحافظ الحسن على هذا الموقف المتقاعد تجاه معاوية، والمهدى لأولئك الشيعة الذين ترددوا عليه معبرين عن مشاعرهم المريرة من حكم بني أمية.

لم يعيش الحسن طويلاً. فقد توفي عام ٤٩هـ - ٦٦٩م قبل منافسه (معاوية) بزمان طويل. فقد تسلم معاوية الخلافة من الحسن وهو في سن ٥٨ وتوفي عام ٦٠هـ - ٦٨٠م وعمره ٧٧ عاماً. ومن المهم ملاحظة هذا الفارق في السن، وبخاصة حين نقرأ خطط معاوية الطموحة لإبقاء الخلافة في ذريته وقد عين ابنه يزيد لورثته. ولم يكن ذلك ممكناً، وذلك بسبب بنود اتفاق تخلي الحسن لمعاوية، ومع أخذ فارق السن الكبير بينهما بالإعتبار، فإن معاوية لم يكن يأمل أن يتوفى الحسن قبله. ولكي يتابع تنفيذ مخططه، وتحقيق رغبته، اضطر لإزاحة الحسن من مسرح الأحداث. تورد غالبية المصادر سنية وشيعية على السواء سبب وفاة الحسن وهو أنه بسم دسسته له إحدى زوجاته جعدة بنت الأشعث.<sup>٧٨</sup> يقال أن معاوية أغراها بأن وعدها بمبلغ كبير من المال وأن يزوجه من ابنه يزيد. وبعد أن أكملت مهمتها، دفع لها معاوية ما وعدها به من مال، ولكنه رفض تزويجها من يزيد قائلاً أنه يخشى منها على حياة ابنه.<sup>٧٩</sup>

وتؤكد المصادر التاريخية رغبة معاوية في تعيين ابنه وارثاً له، وهذا ما فعله عقب وفاة الحسن مباشرة، وهناك إشارات في مصادر أخرى تجعل من

المحتمل جداً أن يكون معاوية وراء سم الحسن، رغم أن تأكيد تلك العملية سيبقى من الصعب القطع بصحتها. ومع ذلك، فإن حقيقة موت الحسن بسبب السم الذي دسته زوجته جعدة تبقى حقيقة تاريخية مؤكدة. فبحسب تصريح الحسن أن ذلك الحدث كان الثالث من نوعه، وأن السم الذي وضعته جعدة كان قاتلاً أكيداً. وتخبرنا المصادر أنه حين وصلت أخبار وفاة الحسن، لم يستطع معاوية إخفاء مشاعر الإرتياح وحتى السرور حين نقل ذلك الخبر إلى ابن عباس.<sup>٨٠</sup> وتؤكد المصادر بالإجماع حقيقة أخرى أنه عقب وفاة الحسن مباشرة بدأ معاوية عملية تعيين ابنه يزيد وريثاً له،<sup>٨١</sup> وهذا ما ستبحثه الآن.

بينما استغل معاوية موت الحسن لضمان وراثة ابنه يزيد له في الخلافة، وجد شيعة الكوفة الفرصة مناسبة لمحاولة إعادة الخلافة إلى ذرية علي. فحالما علم الشيعة في الكوفة بوفاة الحسن، تنادوا إلى اجتماع في بيت سليمان بن صرد الخزاعي وكتبوا رسالة طويلة إلى الحسين. وفيها بعد التعبير عن مشاعر الحزن والأسى والمؤاساة للحسين بوفاة "ابن الوصي وابن بنت النبي وعلم الهداية" دعوا الحسين للثورة على معاوية، ووعدوا بتضحية حياتهم في سبيله. والتزاماً من الحسين باتفاق أخيه الحسن مع معاوية رفض الاستجابة لدعوتهم، ونصحهم بالابتعاد عن التحريض. والسكون في بيوتهم ما دام معاوية على قيد الحياة.<sup>٨٢</sup>

ولكن الشخص الأكثر حماسة واندفاعاً بين الشيعة لم يستطع الركون. فخرج حنظل بن عدي الكندي مع صحابته - وهم الذين لم يتنازلوا أبداً عن مثلهم - في ثورة علنية ضد معاوية وقائده العسكري زياد ابن أبي

سفيان وواليه على البصرة والكوفة بعد وفاة والي الكوفة المغيرة بن شعبة عام ٥١هـ - ٦٧١م. ولقد سجلت المصادر تفاصيل الثورة، وأظهرت مشاعر الحركة الشيعية القوية فور تحركها على هذا المستوى. وبالرغم من أن هذه الحركة انتهت من غير أي نشاط عسكري، فإن الحقيقة وهي أن المصادر خصصت حيزاً واسعاً لنشاط حجر<sup>٨٣</sup> تبين أن هذا الفصل من الحركة الشيعية لم يكن قليل الأهمية في الأحداث الثورية من تاريخ الإسلام المبكر.

تخبرنا المصادر التاريخية أن هؤلاء السياسين الثابتين على مبادئهم من الشيعة كانوا يحتجون باستمرار لا على شتم علي فقط، بل وضد حكم معاوية أيضاً الذي اعتبروه غاصباً لحقوق آل علي في الخلافة. وكان شعارهم "لا تصح الخلافة ولا تجوز إلا لذرية أبي تراب"<sup>٨٤</sup>. وبينما كان زياد في البصرة وكان نائبه عمرو بن الحرث يدير الكوفة، كان الشيعة يذهبون إلى المسجد ويدنون علناً معاوية وزياد. وحين حاول عمرو تخذيرهم خلال خطبة إحدى الجمع من عواقب هذا العصيان العلني ضربه بالحجارة وأجبروه على الالتجاء إلى قصر الأمانة.<sup>٨٥</sup> ويمكن تقدير عدد هؤلاء الذين أظهروا ولاءهم للقضية الشيعية من الرواية التي تقول بأنهم "كانوا يشغلون نصف مساحة المسجد"<sup>٨٦</sup>. ومن المفيد معرفة أن مسجد الكوفة كان يتسع لحوالي أربعين ألف.

حين أخبر عمرو بن الحرث زياداً بالموقف الحرج، أسرع زياد عائداً إلى الكوفة. وبعث أولاً في طلب بعض قادة القبائل اليمنية ممن لهم ميول شيعية، وتؤكد المصادر أن زياداً حاول منذ توليه الكوفة

عام ٥١هـ - ٦٧١م جاهداً أن يستميل حجراً إلى جانبه. فقد عرض عليه موقعاً خاصاً في مجلس إدارته، ورغب في إعلاء موقعه في قبيلة كعدة. ولكن كل محاولاته لم تغير موقف حجر. وبالفعل، لو كانت القضية ذات طبيعة سياسية محضة، فإنه يجب أن نبين أن زياداً قدم كل التنازلات السياسية الممكنة تقريباً والإغراءات المادية لإرضاء حجر. وأكثر من ذلك، إن رفضه قبول أي من عروض التنازلات التي قدمها زياد إليه، لم تترك له مجالاً لمزيد من طموحات ربما رغب بها ناشط سياسي. كان حجر ببساطة رجلاً متقدماً في العمر. وحتى لو نجح في إيصال الشيعة إلى السلطة من خلال وصول الحسين إلى الخلافة، فإن وضعه لن يكون أفضل مما كان عليه أيام خلافة علي. لقد عرض عليه زياد كل ما يرفع من شأنه الشخصي، ولكنه رفض جميع العروض. وفي التحليل الأخير نجد أنفسنا أمام خيار وحيد وهو أن نقبل أن دافع حجر كان القناعة الدينية الخالصة وإيماله العميق بقيادة أهل البيت. لقد فشل قادة القبائل الذين أرسلهم زياد لاسترضاء حجر وبعضهم من أصدقائه القدماء، ولكنهم التمسوا من الوالي (زياد) أن يعامل حجراً برفق.<sup>٨٧</sup> وهذا يظهر تقديرهم وتبجيلهم العميقين لحجر. إن المرء لا يستطيع قبول فكرة أن قادة القبائل يمكن أن يدافعوا عن شخص يبحث عن سلطة وذي دوافع سياسية ومحرض اجتماعي يمكن أن يتحدى أو يقلل من هيبتهم القيادية. وإنما ومن جهة أخرى نقبل أنهم دافعوا عن رجل ذي قناعات دينية عميقة جداً تتفق مع قناعاتهم لكنه أكثر شجاعة منهم وثباتاً على مبادئه.

ولكن على كل حال، رفض زياد مناشدتهم بخصوص حجر، وبعث بشرطة للقبض عليه، إلا أن مؤيدي حجر الناشطين استطاعوا رد الشرطة. عندها أدرك زياد خطورة الموقف فأرسل خلف الأشراف وقادة القبائل وبخاصة اليمنية منهم وخطب فيهم قائلاً: "إن جماعتكم مع حجر، وإن لم يعودوا عن ذلك هددتهم باستدعاء قوم من السوريين "أقيم بهم أودكم وصعركم". وهناك جملة من خطبة زياد توضح موقف هؤلاء القادة وميزاتهم. فقد أورد الطبري أن زياداً قال: "أبدانكم معي وأهواؤكم مع حجر".<sup>٨٨</sup> ويقتبس أبو الفرج جملة من خطبة زياد تزيد الأمر جلاء وهي "أبدانكم معي، لكن أهواءكم مع حجر هذا الرجل المذبوب؛ أنتم معي لكن اخوانكم وأبناءكم وأبناء عشائركم مع حجر".<sup>٨٩</sup> وخاف قادة القبائل هؤلاء أن يفقدوا مواقعهم، فأظهروا ضعف مزاياهم واقتنعوا رجائهم بعدم تعرضهم للقوات السورية. وبينما تفرق غالبية مؤيدي حجر، بقيت جماعة منهم ممن لا يسامون حول حجر رفضوا التخلي عنه وقاوموا اعتقاله. فاضطر زياد لإستدعاء فريق من المقاتلة واختار فريقاً منهم من أصول يمنية لمعالجة الوضع.

لم يكن من السهل معالجة الموقف، لا بسبب هبة حجر والتأييد الواسع الذي يتمتع به بين جماهير الكوفة وحدهما، وإنما بسبب التعقيدات القبلية أيضاً. وتدبر زياد السياسي الماهر والمتعدد المواهب في معالجة التمرد بأن استدعى بعض القوات اليمنية التي ينتمي حجر إليها وطلب منها اعتقال حجر، وتجنب بذلك خطراً أعظم لو أنه أشرك قبائل نزارية في العملية؛ فقد كان من المحتمل أن تنشب خلافات قبلية بين الفريقين. وأوقع بين

القبائل اليمنية وحرص بعضهم ضد بعض، وهدد أشراف وأفراد قبيلة كندة- وهي قبيلة حجر نفسه- بالموت وبتخريب ممتلكاتهم إن هم رفضوا تسليم حجر له. فالرواية التي نقلها أبو مخنف في الطبري وأبو الفرج ممتعة من نواح عدة. كيف استغل زياد مصالح قادة القبائل ضد مثلهم الدينية، وكيف أوقع بين المتنافسين منهم، وكيف قهر مؤيدي حجر، وكيف نجح زياد أخيراً في اعتقال أحد أكثر قادة الشيعة احتراماً في الكوفة، وكيف أخذ حركة عميقة الجذور.

وإلى جانب حجر تم اعتقال ثلاثة عشر رجلاً من قادة الشيعة البارزين وتصفيدهم بالقيود.<sup>٩٠</sup> وكان الرجال الأربعة عشر يتوزعون على القبائل كما يلي: رجلان من كندة، وواحد من حضرموت، واثنان من عبس، وواحد من خثعم، واثنان من بجيلة، وواحد من ربيعة، وواحد من همدان، وثلاثة من تميم، وواحد من هوازن. ومن الممتع ملاحظة أن من بين الرجال الأربعة عشر هناك ثمانية من قبائل يمنية (كندة وحضرموت وخثعم وبجيلة وهمدان) وستة من قبائل نزارية شمالية (عبس وربيعه وقيم وهوازن). وهذا يظهر أبعاد الحركة ويدل على أن المشاعر الشيعية في الكوفة لم تقتصر على اليمنيين.

وقرر زياد إرسال أسراه إلى دمشق كي يتعامل معاوية معهم. وتوجب عليه أن يرسل معهم لائحة إتهام يشهد على صحتها القضاة. وبالتالي استدعى زياد أربعة من رؤساء الأقسام الإدارية في الكوفة،<sup>٩١</sup> وربت لجنة زياد هذه اتهاماتها ضد حجر كما يلي

١- جمع حجر الجماهير حوله وشم وسب الخليفة علناً.

- ٢- حرض الناس على قتل أمير المؤمنين.
- ٣- سب خرابا في المدينة وأخرج والي الخليفة منها.
- ٤- هو يعتقد أن الخلافة لا تصح إلا في آل بيت أبي طالب، ويدعو لذلك.
- ٥- إنه ينشر بين الناس أن أبا تراب (علي) كان معصوماً، ويعتدحه، ويدعو الناس لخبته واحترامه.
- ٦- يدعو للابتعاد عن أعداء علي وإدانتهم، وكل الذين قاتلوه معهم.
- ٧- إن الرجال الذين بعثهم زياد إلى معاوية مع حجر هم قادة أتباعه ويتبعون مبادئه عينها.<sup>٩٢</sup>

إن التهم الموجهة إلى حجر في هذه الوثيقة من طرف لجنة الاقحام المؤلفة من أربعة قادة من الكوفة، كانت بلا شك صحيحة وتمثل تفكير ومشاعر ونشاطات حجر وأتباعه وهذه الوثيقة التي حفظت بدون أية محاولة لتزييف أو حذف أي من بنودها، تعطينا الصورة الأكثر وضوحاً لموقف الشيعة الديني خلال حياة حجر، ومشاعرهم وطموحاتهم، وحبهم لبيت علي، كرههم لمعاوية بصفته مفتصباً.

لم تعجب لائحة الاقحام زياداً. وقد سجلت المصادر السبب بوضوح، وهو من الأهمية بحيث أنه يلقي الضوء على الموقف الحقيقي. وحالما قرأ زياد لائحة الاقحام قال "لا أظن أن لائحة الاقحام هذه كافية، أريد شهادات أكثر من شهادة هؤلاء القادة الأربعة ثبت عليها."<sup>٩٣</sup> الاقحامات الموجهة إلى حجر في الوثيقة الأصلية تذكر قضية حجر الشيعية بشكل شامل وحب



لبيت علي. اعتقد زياد أن معظم اليمنيين الذين دعاهم للشهادة على الوثيقة لن يوقعوا على لائحة الأتّام، على أساس أنّها تشرح نشاطات حجر في سبيل القضية الشيعية وطموحاتها. كان معظم اليمنيين من ذوي الميول الشيعية، ولكن بدرجات متفاوتة من الالتزام، كما هو طبيعي. ويبدو أن زياداً كان متردداً في إخبار معاوية رسمياً بالمشاعر الشيعية وأن نشاط الشيعة كان قوياً وظهر إلى العلن في الكوفة وزياد واليه. وكان زياد قد حظي بحق خاص جداً حين عينه معاوية لولاية البصرة والكوفة معاً، الأمر الذي لم يسبقه إليه أحد.

لذلك تم تنظيم لائحة اتّام جديدة تتضمن الاتّامات التالية

- ١- حجر بن عدي تخلى عن بيعته الخليفة.
- ٢- خلق شرخاً في الجماعة.
- ٣- سب الخليفة.
- ٤- دعى إلى الحرب وخلق فوضى.
- ٥- جمع الناس حوله وحرصهم على خلع بيعته أمير المؤمنين وإزاحته من الخلافة.
- ٦- إنه لا يؤمن بالله.<sup>٩٤</sup>

الاختلاف المحدد بين الوثيقتين واضح بشكل كاف. فبينما تركزت الاتّامات في اللائحة الأولى على نشاطات حجر وتمرده العلني من أجل القضية الشيعية، فإن اللائحة الثانية تؤكد تمرده ضد الدولة وسلطة معاوية، بدون أية إشارة إلى الحركة الشيعية. الوثيقة الأولى تؤكد حسب حجر الراسخ لعلي وإخلاصه لعائلة علي على أسس دينية؛ فإن اللائحة

الثانية تستبدل هذا الاتهام (حب وإخلاص لعلي وذريته) بعدم إيمانه بالله، والذي - بحسب السابقة التي أجراها أبو بكر (الارتداد) - يعرضه للقتل. إن كل البراهين المتوفرة بين أيدينا تجعلنا لا نشك بأن الاتهامات المدرجة في اللائحة الأولى صحيحة، بينما اللائحة الثانية ما هي إلا مراجعة مزيفة للأسباب المذكورة آنفاً. وهذا ما يفسر الرواية التي تقول إن معاوية كان متردداً في قبول لائحة الاتهامات، وراعياً عن اتخاذ إجراء عنيف ضد حجير. وأكثر من ذلك، كما سترى لاحقاً، فإن الشرط الوحيد الذي وضعه معاوية أمام قادة الشيعة لإنقاذ حياتهم هو سب علي وإدانته. وهذا يتضمن أيضاً أن جريرتهم الرئيسية هي نشاطهم لصالح الشيعة، وليس جرائم ضد الدولة والخليفة كما عرضت الوثيقة الثانية.

إننا لا نحتاج لتأكيد أن سكان الكوفة نظروا إلى حجير على أنه قائد شيعي متحمس ولا يقبل التنازلات. كما أنهم اعتبروه رجلاً مسلماً تقياً. ويشهد بذلك حتى أولئك الذين ليست لديهم ميول شيعية. كتب القاضي شريح بن الحارث إلى معاوية قائلاً "أما بعد: فإنه بلغني أن زياداً كتب إليك بشهادتي على حجير بن عدي، وإن شهادتي على حجير أنه ممن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حرام الدم والمال، فإن شئت فاقتله وإن شئت فدعه." <sup>٩٥</sup> فقرأ معاوية كتابه على وائل بن حجر وكثير (مبعوثي زياد إلى معاوية آخذي حجير بن عدي وأصحابه إليه) فقال معاوية ما أرى هذا إلا قد أخرج نفسه من شهادتكم.

مع ذلك، فإن زياداً استدعى القوم للشهادة بصحة الاتهامات. وشهد بذلك سبعون رجلاً منهم خمسة وأربعون ذكرت أسماءهم، وأنهم وقعوا على لائحة الاتهامات.<sup>٩٦</sup> بعض هذه التوقيعات كانت بالتأكيد مزيفة، كما هو مفهوم من المصادر التي ذكرت أسماء الموقعين. فقد احتج القاضي شريح في رسالته إلى معاوية (المذكورة أعلاه) بأنه لم يوقع على لائحة الاتهامات البتة، وأن اسمه أضيف من غير معرفته. واعتذر بعض الذين وقعوا عن فعلتهم، وهذا يدل على أن زياداً أجبرهم على الشهادة بالاتهامات التي زيفها.<sup>٩٧</sup>

عندما وصل الأسرى إلى معاوية، واجه ضغطاً من قبائل عدة لتحرير أقاربهم. وبالفعل تم تحرير سبعة من الأسرى نتيجة لجهود وتأثير أقاربهم. وأعطى حجر والستة الآخرون الفرصة لإنقاذ أنفسهم بسبب علي وإدائته علناً. فقد أخبرهم منفذو أوامر معاوية "إننا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له، فإن فعلتم تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم، وإن أمير المؤمنين يزعم أن دماءكم قد حلت له بشهادة أهل مصركم عليكم، غير أنه قد عفا عن ذلك، فابروا من هذا الرجل نخل سيلكم. قالوا اللهم إنا لسنا فاعلي ذلك." فقتلهم.<sup>٩٨</sup>

إن تضحية هؤلاء الرجال بأنفسهم، بدلاً من البراءة من علي ولعنه قضية لا يمكن الاستهانة بها، إنها تحمل دلالة أعمق من مجرد مصالح سياسية. فالتاريخ مليء بأخبار رجال ضحوا بنفوسهم، ولم يقبلوا التنازلات في عقيدتهم، ولا يمكن تفسير تاريخ البشرية بمجرد علاقات سياسية واقتصادية. إن فهم التاريخ على أسس مادية فقط، هو ظاهرة مؤسفة يقع

فيها بعض المؤرخين المعاصرين. ومن جهة أخرى، فإن قبول أهمية الوعي الديني في حالة ما ورفضها في حالة أخرى برغم تشابه الظروف، هو أيضاً مثال مؤسف للتحيز. وبالتأكيد، إن معظم الحركات الشعبية في المجتمع الإنساني تأثرت أو سيطرت عليها عوامل سياسية واقتصادية، ومع ذلك تبقى حالات حيث نجد الوعي الشخصي يذهب إلى أبعد من هذه الاعتبارات. وقضية حجر بن عدي كانت إحدى هذه الحالات. فهو لم يمنح الفرصة لإنقاذ حياته فقط، بل وعرض عليه زياد مغريات سياسية واقتصادية، ورفض ذلك. أجل كان هناك دلالات سياسية في هذا الفصل فقط على ضوء اعتبارات سياسية ثانوية القيمة للأهداف الدينية. فاهتمام حجر - بناءً على ما قلناه - كان قضية من يصلح لأن يكون خليفة لا على أسس سياسية أو اقتصادية، بل إنه كان يعتقد أن مزايا خاصة ضمنها الله في آل النبي هي وحدها المناسبة لمن يكون خليفة، وكان مستعداً للموت في سبيل اعتقاده هذا، وقد فعل.

وهكذا، يجب اعتبار حجر وصحبه ممثلي أولئك الشيعة الأوائل الذين رفعوا أصواتهم مجاهدين بآرائهم الدينية تأييداً لعللي مباشرة عقب وفاة النبي، وكانوا السابقين في تطوير الحركة التي تركزت سريعاً بصفقتها فريفاً إسلامياً متميزاً. لقد كان حجر صحابياً متميزاً نال احتراماً واسعاً لتقواه، والتزامه بالممارسات الدينية، مع إخلاصه الكامل لعللي. وقد سبب قدره التراجيدي موجات من الحزن والآسى وصدمة شديدة في المسدتين المقدستين (مكة والمدينة). حتى أن أرملة النبي عائشة وعبد الله بن عمر احتجا بعنف لقتله.<sup>٩٩</sup> ومن المهم ملاحظة أن تراجيديا حجر بدأت أدب

"الشهادة" الشيعي الغني، وكان موته مناسبة للعديد من الرثائيات التي تطورت إلى نوع خاص من الأدب في التراث الشيعي الإسلامي. ومن الطبيعي أن ترك هذه التراجم أثراً خاصاً على الكوفة والكوفيين. وأشاعت مشاعرهم إحساساً بالنكبة فأحدثت ردود فعل خطيرة وجديدة. فأرسل الكوفيون بعثة إلى الحسين في المدينة، تدعوه لقيادة حركة مسلحة ضد معاوية. ورد الحسين دعوتهم، ونصحهم بالهدوء، كما مر سابقاً. ولم يكن معاوية غافلاً عن هذا التحول إلى الحسين، وانتبه لهذه الأنشطة، وبخاصة حين استلم رسالة من واليه على المدينة مروان بن الحكم، محذراً بأن بعثة الكوفيين مكثت في المدينة واجتمعت تكراراً مع الحسين. فكتب معاوية رسالة تحذير إلى الحسين، لكن جواب الحسين أوضح موقفه المهادن اتجاه النظام القائم وطمأن معاوية أنه مستمر في الالتزام باتفاق معاوية وأخيه الحسن.<sup>١١</sup>

كانت الفترة ما بين وفاة الحسن ووفاة معاوية فترة هدوء وقهر، عدا ثورة حجر بن عدي التي قمعت بأقصى معايير العنف. والانطباع العام الذي يمكن أن نستخلصه من المصادر التاريخية هو جو من الخوف والحذر من كلا الطرفين. إن خوف معاوية من أي تحرك شيعي يوضحه مستوى العنف المبالغ فيه تجاه ثورة حجر الحدودة والخطيرة معاً. إن الحقيقة المعروفة جيداً عن معاوية هي دهاؤه الدبلوماسي في تحقيق أهدافه، لكن ذلك لم يبد في تصرفه تجاه حجر بل عامله بمنتهى العنف وهذا يدل على موقف معاوية الصلب تجاه أية عواطف شيعية، وهو موقف ناتج عن معرفته الأكيدة بعمق الحركة الشيعية، وبخاصة في الكوفة حيث تتمتع

الحركة بتأييد قوي. أما موقف الحسين حين رفض تكراراً قيادة المتحمسين الشيعة في ثورة علنية فإنها تكشف عن موقف حذر ورغبته في تجنب منح معاوية أي عذر للقضاء نهائياً على مؤيدي بيت علي. وخلال هذه الفترة بدأ معاوية محاولاً القضاء على أتباع علي الذين لم يتمكن من استمالتهم أو إغنائهم من الوجود لدى أي سابقة تسمح له بذلك؛ فقد لتحقيق لديه أنه ما لم يتم ذلك فإن الخلافة الأموية تبقى في خطر.

لم يكن بعيداً عن الاحتمال أن أحد أسباب سب علي على المنابر كان بقصد استثارة المتعاطفين مع الشيعة للقيام بثورة علنية، وبالتالي القضاء عليهم على يد القوات الأموية. فعندما عين معاوية المغيرة بن شعبة عام ٤١هـ - ٦٦١م والياً على الكوفة كانت إحدى واجباته التي حددتها معاوية هي تكثيف وتقوية حملته في سب علي في أهم مراكز الشيعة، ونشر فضائل عثمان ومؤيديه وفي الوقت ذاته اصطناع قبائح ونسبتها لعلي. وعندما توفي المغيرة عين معاوية زياد بن أبي سفيان مكانه والياً على الكوفة وأعطاه التوجيه نفسه.<sup>١٠٢</sup> وقد نفذ كلا الوالين هذا الأمر بما أرضى معاوية. لم يستطع حجر وقلّة آخرون التسامح مع هذه الحملة العدائية المستمرة على الشيعة فوقعوا في المصيدة، في حين بقي معظم الشيعة الآخرون حذرين محتسرين. أما الحسين من طرفه فقد فهم الوضع تماماً، فتنجب بحكمة أي تحرش بمعاوية، وانتظر حتى تتاح له الفرصة المناسبة للحركة. وبذلك أنقذ نفسه وأتباعه من قمع عنيف أكيد، والتزم باتفاق أخيه مع معاوية، مما يعني أنه كان مشمولاً بتلك الاتفاقية بشكل غير مباشر. لعل الحدث الأهم في تاريخ تطور "الألم" الشيعي هو تسمية

معاوية ابنه يزيداً خلافة. فلم يكن الخليفة قادراً على تصرف من هذا القبيل ما دام الحسن حياً ، وكان من الأهمية بمكان أن معاوية حين تلقى خبر وفاة الحسن بدأ ينشط في تفعيل خطته التي تحقق رغبته في استمرار حكم أسرته. ولم تكن تلك مهمة سهلة، وكان عليه أن يستعمل دهاءه إلى أبعد حد ممكن ويستخدم كل أدوات نظائمه؛ الدبلوماسية، والهدايا السخية والرشاوى وأخيراً التهديد والوعيد. وليس من اهتمامنا هنا بيان تفاصيل خطة معاوية تلك وكيف اشترى ضمائر قادة القبائل، وأخرس بعضهم الآخر بأقسى أنواع العنف. هذه التفاصيل روتها جميع المصادر بدون أية اختلافات تستحق الذكر.

يكفينا هنا أن نذكر أنه من أجل تحقيق هذا الهدف تدبر معاوية بالتعاون مع ولاته استحضار وفود من معظم الولايات إلى دمشق كي يعلنوا بيعتهم ليزيد كوريث لعهد معاوية كما خطط سلفاً.<sup>١٠٣</sup> لكن الوضع في الحجاز كان مختلفاً حيث كان يعيش نبلاء المسلمين وأشرافهم من أمثال أنباء الصحابة والخلفاء الأكثر شهرة واحتراماً من أمثال الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر. فكل وفد من المدينة لا يضم هؤلاء كان بلا معنى، وعدم تعاونهم كان يشكل خطراً أكيداً. لذلك ذهب معاوية بنفسه إلى المدينة مصحوباً بألف فارس اختارهم لمرافقته كي يتعامل مع هؤلاء الرجال الصعي المراس.

بحسب إحدى الروايات، وصل معاوية إلى ضواحي المدينة فاستدعى هؤلاء الأربعة، وأظهر لهم بأسه وعاملهم بقساوة، مما جعلهم يفرون إلى مكة. وهذا ما خطط له معاوية، وفي غيابهم أعلن معاوية ترشيح ابنه يزيد،

فاستحسن ذلك مؤيدوه، بينما لم يظهر الآخرون أية معارضة. وهكذا حل  
 معاوية مشكلته مع أهل المدينة، ثم توجه معاوية إلى مكة. وهناك غير  
 موقفه، فحاول في البداية استمالة هؤلاء الأربعة من خلال معاملتهم بمنتهى  
 اللين والصدقة. وبعد أن أمضى معهم بعض الوقت مظهرًا لهم عطفه  
 وتقديره لهم، وقبل أن يبدأ رحلة عودته إلى دمشق عبر عن رغبته في أن  
 ينال تأييدهم ليزيد. شرح لهم بأنه لا يطلب منهم الكثير، وذلك أن يزيدًا  
 سيحكم بالاسم فقط، وهم أنفسهم يسيطرون باسم يزيد على الحكم، مما  
 يعني أنهم الحكام الفعليون. وبعد فترة صمت تكلم ابن الزبير نيابة عن  
 الجميع رافضًا اقتراح معاوية. فقال معاوية الغضبان: "في مناسبات أخرى  
 عندما أحدث من على المنبر سأسمح لأي منكم أن يعارضني إذا رغب، أما  
 من يعارضني اليوم فإن السيف سيسكته" ثم دخل مسجد مكة بصحبة  
 هؤلاء الأربعة وأعلن "إن هؤلاء الأربعة، الذين لا يجري أمر بدوهم قد  
 وافقوا على ترشيح يزيد؛ ولذلك فما من أحد منكم أيها الناس يجد  
 صعوبة في الاقتداء بهم" فبايع الناس يزيدًا بينما بقي هؤلاء الأربعة  
 صامتين خوفًا.<sup>١٠٤</sup> فحتى إذا تعاملنا مع هذه الرواية بحذر على أنها نظمت  
 في وقت لاحق، فإن ذهاب معاوية إلى الحجاز لإجبار هؤلاء الأربعة  
 وضمنان عدم معارضتهم ليزيد لا يمكن إنكاره.



## ملاحظات الفصل ٦

- ١- الطبري جـ ٢ ص ٥
- ٢- الطبري جـ ٢ ص ١ وما يليها، المسعودي مروج جـ ٢ ص ٢٤٠، التبيه ص ٣٠٠، العقد جـ ٤ ص ٣٦١، اليعقوبي جـ ٢ ص ٢١٤ وما يليها، الدينوري ص ٢١٦، الاستيعاب جـ ١ ص ٣٨٥، أسد الغابة جـ ٢ ص ١٤
- ٣- اليعقوبي جـ ٢ ص ١٨٨، وبحسب ابن سعد جـ ٦ ص ٤ و ٣٧٠ يقول أن بعض الصحابة توجهوا إلى الكوفة واستقروا هناك حالما أسس عمر بن الخطاب مدينة الكوفة ومعسكرها.
- ٤- أسد الغابة جـ ٢ ص ١٢، الترمذي جـ ٢ ص ٣٠٦، مسند أحمد جـ ٤ ص ٣٥٤، ابن أبي الحديد الشرح جـ ١٦ ص ٢٧
- ٥- مسند أحمد جـ ٢ ص ٥١٣.
- ٦- أفردت كتب الحديث فصلاً لمناقب الحسن والحسين.
- ٧- ابن حبيب المخبر ص ٤٦، صحيح البخاري جـ ٢ ص ١٥٧ و ١٩٨، أسد الغابة جـ ٢ ص ١٣
- ٨- بحسب أبي الفرج الأصفهاني مقاتل الطالبين ص ٥٢ عبد الله بن عباس نفسه هو أول من رشح الحسن للخلافة ودعا الناس لمبايعته فور وفاة علي. انظر شرح النهج أيضاً جـ ١٦ ص ٣١.
- ٩- الدينوري ص ٤١٦، المقاتل ص ٥٢، الشرح جـ ١٦ ص ٣٠
- ١٠- الطبري جـ ٢ ص ١، أسد الغابة جـ ٢ ص ١٤، الاستيعاب جـ ١ ص ٣٨٤، الشرح في الملاحظات السابقة.
- ١١- انظر الملاحظات السابقة.
- ١٢- سابقة.
- ١٣- ابن الأعمش جـ ٤ ص ١٤٨، الطبري جـ ٢ ص ٥، الشرح جـ ١٦ ص ٣١.

١٤- مقاتل ص ٥٢، الشرح ج ١٦ ص ٢٥ وما يليها.  
١٥- الأغاني ج ٢١ ص ٢٦، مقاتل ج ١٦ ص ٢٢، اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٤،  
الشرح ج ١٦ ص ٣١.

١٦- ابن الأعمم ج ٤ ص ١٥٣، الشرح ج ١٦ ص ٢٦  
١٧- مقاتل ص ٥٦ نقلاً عن أبي مخنف، ابن الأعمم ج ٤ ص ١٥٢، الشرح  
ج ١٦ ص ٢٤ نقلاً عن المدائني ص ٢٣ نقلاً عن أبي مخنف مع بعض  
الاختلاف.

١٨- مقاتل ص ١٧ نقلاً عن أبي مخنف، ابن الأعمم ج ٤ ص ١٥٢، الشرح  
ج ١٦ ص ٢٥ نقلاً عن المدائني ص ٣٥ نقلاً عن أبي مخنف مع بعض  
الاختلاف.

١٩- مملكة العرب ص ١٠٤-١٠٧ E

٢٠- تاريخ ج ١١ ص ٢١٤ وما يليها.

٢١- اختبار ص ٢١٧ وما يليها.

٢٢- تاريخ ج ٢ ص ٨-٨.

٢٣- كتاب الفتح ج ٤ ص ١٤٨-١٦٧

٢٤- مقاتل ص ٤٦-٧٧

٢٥- الشرح ج ١٦ ص ٩-٥٢

٢٦- فهرست ص ٩٣ و ١٠١ وما يليها وأهمية هذين المؤرخين ناقشناها في  
الفصل ٢.

٢٧- ماجد شعبان دائرة المعارف الإسلامية الطبعة ٢ مثال بعنوان "ابن الأعمم"

٢٨- شعبان سابقه، ياقوت إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب تح د.س.

مارجيوس طبعة لندن ١٩٠٧ ج ١ ص ٣٧٩ وسي ي ستوري الأدب

الفارسي، عرض بيبو غرافيا لندن ١٩٢٧ ج ١ ص ١٢٦٠

٢٩- انظر أحمد زكي صفوت جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة،

القاهرة ١٩٣٧ حيث تم تجميع كل الرسائل من أيام النبي حتى نهاية الحكم

العباسي ووثقت في عمل ضخمة من أربع مجلدات.

- ٣٠- الطبري ج٢ ص ١ وما يليها، ويلها وزن مملكة العرب ص ١٠٧ E
- ٣١- الطبري ج٢ ص ٢-٥
- ٣٢- الطبري ج٢ ص ١-٥ وما يليها.
- ٣٣- الطبري ج٢ ص ٢ و٧
- ٣٤- الطبري ج٢ ص ٧-٩.
- ٣٥- الطبري ج٢ ص ٢-٤.
- ٣٦- الطبري ج٢ ص ٢
- ٣٧- اليعقوبي ج٢ ص ٢١٤، المقاتل ص ٦٢، الشرح ج١٦ ص ٤٠.
- ٣٨- مقاتل ص ٦١، الشرح ج١٦ ص ٣٨.
- ٣٩- اليعقوبي ج٢ ص ٢١٤.
- ٤٠- سابقة.
- ٤١- الطبري ج٢ ص ٢
- ٤٢- اليعقوبي ج٢ ص ١١٥
- ٤٣- سابقة.
- ٤٤- التعبير العربي هو "فلما انتهى إلى ساباط رأى من أصحابه قتل وتواكل عن الحرب"
- ٤٥- الدينوري ص ٢١٦
- ٤٦- سابقة.
- ٤٧- الشرح ج١٦ ص ٢٢.
- ٤٨- فتوح ج٤ ص ١٥٤، مقاتل ص ٦٣
- ٤٩- الدينوري ص ٢١٧، ابن الأعمش ج٤ ص ١٥٥، اليعقوبي ج٢ ص ٢١٥، المقاتل ص ٦٤
- ٥٠- سابقة.
- ٥١- ابن الأعمش ج٤ ص ١٥٦ وما يليها.
- ٥٢- سابقة.

٥٣- الطبري ج٢ ص ٢٢٠ و ٢٢٣ ، الدينوري ص ٢٤٣ و ٢٩٩ ، العقد الفريد  
ج٤ ص ٣٧٦

٥٤- مقاتل ص ٦٤ وما يليها.

٥٥- مقاتل ص ٦٥ وما يليها.

٥٦- الطبري ج٢ ص ٤-٧

٥٧- أقصر مدة خلافته هي ثلاثة أشهر وأطولها سبعة.

٥٨- الطبري ج٢ ص ١٣

٥٩- الدينوري ص ٢١٨

٦٠- الاستيعاب ج١ ص ٣٥٥ ، أسد الغابة ج٢ ص ١٤ و يضيف "وبعض

الشروط الأخرى مثل ذلك" انظر أيضاً ابن حجر الهيثمي الصواعق المحرقة

ص ١٣٤ ، الإمامة والوصاية ج١ ص ١٤٠

٦١- المقاتل ص ٦٦ ، الشرح ج١٦ ص ٤٣ وما يليها.

٦٢- ابن الأعمم ج٤ ص ١٥٨ وما يليها.

٦٣- الشرح ج١٦ ص ٢٢ وما يليها.

٦٤- ابن الأعمم ج٤ ص ١٥٨

٦٥- ابن الأعمم ج٤ ص ١٥٩ ، الشرح ج١٦ ص ٢١٥

٦٦- ابن الأعمم ج٤ ص ١٦٥

٦٧- انظر ابن الأعمم ج٢ ص ١٦١-١٦٧ ، مقاتل ص ٦٨-٧٣ ، الطبري

ج٢ ص ٦-٩ ، يعقوبي ج٢ ص ٢١٦ وما يليها.

٦٨- الطبري ج٢ ص ٦ ، يعقوبي ج٢ ص ٢١٥.

٦٩- الشرح ج١٦ ص ٢٨

٧٠- مقاتل ص ٧٢ وما يليها.

٧١- الاستيعاب ج٣ ص ١٤٢٠ ، ابن كثير البداية والنهاية ج٨ ص ١٣٥.

٧٢- انظر جوابه لحجر بأنه تخلى لانقاذ حياة أوليائه الحقيقين القلة. الدينوري

ص ٢٢٠

٧٣- ابن الأعمش ج٤ ص ١٦٤، مقاتل ص ٦٧، اليعقوبي ج٢ ص ٢١٦،  
الدينوري ص ٢٢٠، الاستيعاب ج١ ص ٣٨٧.

٧٤- أسد الغابة ج٢ ص ١٣ الاستيعاب ج١ ص ٣٨٤، صحيح البخاري  
ج٢ ص ١٩٨، الطبري ج٢ ص ١٩٩، الجاحظ، الرسائل رسالة في بني  
أمية ص ٦٥، العاملي أعيان ج٤ ص ٥٤.

٧٥- الدينوري ص ٢٢٠

٧٦- الطبري ج١ ص ١٩٢٠

٧٧- البلاذري أنساب ج٤ ص ١٣٨، الشرح ج١٦ ص ١٤، ومقاتل  
فاغلوري في دائرة المعارف الإسلامية طبعة ٢ مقال "الحسن"

٧٨- المسعودي مروح ج٢ ص ٤٢٦، مقاتل ص ٧٣، الشرح  
ج١٦ ص ١٠، الاستيعاب ج١ ص ٣٨٩، أسد الغابة ج٢ ص ١٤،

اليعقوبي ج٢ ص ٢٢٥، ابن خلكان وفيات الأعيان ج٢ ص ٦٦

٧٩- المسعودي مروح ج٢ ص ٤٢٧، مقاتل ص ٧٣، الشرح  
ج١٦ ص ١١

٨٠- الدينوري أخبار ص ٢٢٢، اليعقوبي ج٢ ص ٢٢٥، العقد الفريد  
ج٤ ص ٣٦١.

٨١- ابن الأعمش ج٤ ص ٢٠٦ و ٢٢٤، مقاتل ص ٧٣، ياقوت  
ج٢ ص ٢٢٨، الاستيعاب ج١ ص ٣٩١

٨٢- اليعقوبي ج٢ ص ٢٢٨، الدينوري ص ٢٢١.

٨٣- الطبري ج٢ ص ١١١-١٥٥، البلاذري ج٤ ص ٢١١-٢٣٦،  
الأغاني ج١٧ ص ٧٨-٩٦، الدينوري ص ٢٢٣-٢٢٥، الاستيعاب

ج١ ص ٣٢٩-٣٣٣.

٨٤- الطبري ج٢ ص ١٣١، الدينوري ص ٢٢٣، الأغاني ج١٧ ص ٧٩

٨٥- الأغاني ج١٧ ص ٨١، البلاذري ج٤ ص ٢١٤

٨٦- سابقة.

٨٧- ابن سعد ج٦ ص ٢١٩،

- ٨٨- الطبري ج٢ ص ١١٧، البلاذري ج٤ ص ٢١٤
- ٨٩- الأغاني ج١٧ ص ٨٢.
- ٩٠- الطبري ج٢ ص ١١٧
- ٩١- بعد أن أحكم زياد حكمه على الكوفة أعاد تجميع كامل سكانها وقسمهم إلى أربعة أقسام إدارية وعين رئيساً لكل قسم. وقد تمت مناقشة ذلك في الفصل ٥ في علاقته بتقويم الموقف في الكوفة.
- ٩٢- الطبري ج٢ ص ١٣١، الأغاني ج١٧ ص ٨٩.
- ٩٣- سابقة.
- ٩٤- الطبري ج٢ ص ١٣٢، البلاذري ج٤ ص ٢٢١ والأغاني سابقة.
- ٩٥- البلاذري سابقة، الطبري ج٢ ص ١٣٧
- ٩٦- الطبري ج٢ ص ١٣٣، البلاذري ج٤ ص ٢٢١ مع بعض الاختلافات، الأغاني ج١٧ ص ٨٩.
- ٩٧- انظر الملاحظة ٩٥
- ٩٨- الطبري ج٢ ص ١٤٠، البلاذري ج٤ ص ٢٢٤ والأغاني ج١٧ ص ٩٢.
- ٩٩- الطبري ج٢ ص ١٤٥، الاستيعاب ج١ ص ٢٢٩، البلاذري ج٤ ص ٢٢٨ و ٢٢٩.
- ١٠٠- الدينوري ص ٢٢٤
- ١٠١- سابقة.
- ١٠٢- الطبري ج٢ ص ١١١، البلاذري ج٤ ص ٢١١
- ١٠٣- انظر من أجل تفاصيل أكثر الطبري أحداث السنوات ٥٦-٦٠، والمسعودي مروج ج٣ ص ٢٧
- ١٠٤- انظر من أجل تفاصيل أكثر: ك ابن الأعمش ج٤ ص ٢٣٥-٢٤٩، ابن الأثير الكامل في التاريخ (بيروت ١٩٦٥) ج٣ ص ٥٠٨-٥١١.
- ١٠٥- انظر مراجع الملاحظتين ١٠٣ و ١٠٤ والطبري ج٢ ص ١٧٥ وما يليها.

## الفصل السابع

### استشهاد الحسين

فوز وفاة معاوية في رجب ٦٠ هـ - آذار ٦٨٠ م استلم ابنه يزيد الخلافة حسب وصية والده معاوية غير السابقة (لم تحصل سابقاً). وهذه الحالة تمثل أسلوباً في الحياة العامة شائعاً في الأرستقراطية الأموية فما قبل الإسلام، مع أن يزيد لم يكن يحظى بأي احترام بين المسلمين. لقد جلب له تصرفه المنافي للقيم الإسلامية وممارساته العلنية المخالفة للدين والمعروفة جيداً بين المسلمين الاشمزاز والاستياء وبخاصة من أولئك الذين يهتمون بالقضايا الدينية. حتى الكتاب الذين حاولوا كتم بعض المعلومات غير المستحبة لدى البيت الأموي لم يستطيعوا الأحجام عن ذكر أن يزيد كان أول الخلفاء الذين شربوا الخمر علناً، وضم إليه صحبة سيئة، وصرف وقته في ملذات الموسيقى والغناء، وتسلية نفسه باللعب مع القُرود وكلاب الصيد. ولم يكن تقياً ولم يهتم بمشاعر الآخرين الدينية. وبما أن يزيد أدمن الخمر، والمجذب إلى المغنيات واستسلم لكل أنواع الملذات، فإننا لا نجد كاتباً مسلماً في أية فترة عاش ولأي مدرسة فكرية انتمى ذكر يزيد بقول حسن. وما زاد الأمر سوءاً هو إصراره على انتهاك القيم الإسلامية مما هزّ مشاعر المسلمين، وذلك لأنه أحد أقارب النبي والخلفاء الراشدين وهو الذي ادعى خلافتهم، واستقى سلطته من سلطتهم. ومع ذلك، فإن دهاء معاوية وتدبيره المحسوب جيداً إلى جانب القوة العسكرية القابضة على العالم الإسلامي، كل ذلك أدى إلى وصول يزيد إلى الخلافة بحدوء. وهكذا صار يزيد "أمير المؤمنين" وقيل ذلك كل قادة القبائل

وحكام الولايات؛ ومع ذلك فإنه لم يكن آمناً على لقيه ما لم يضمن بيعة الشخصيات الأربعة الأكثر أهمية في الإسلام، الذين لم يستطع معاوية - برغم كل الجهود التي بذها - أن يشتري موافقتهم أو يجبرهم على القبول بيزيد كما فعل مع الوجهاء الآخرين وقادة القبائل.

عمت معاوية الذي كان الأخير من الجيل الأول الذي استطاع أن يدعي لنفسه على الأقل بعض الأهمية السياسية، فإن الخلافة صارت إلى الجيل الثاني (التابعين) بعد النبي. وأكابر التابعين هم كما وصفنا في الفصل السابق الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر، وهم أبناء الصحابة البارزين الكبار الذين تمتعوا باحترام المسلمين؛ وحاز الحسين بصفته الحفيد الأخير الحي للنبي على تقدير أعظم بين الأربعة. وبالتالي كان من المؤكد أنه بدون اعتراف هؤلاء بسلطة يزيد لم يكن من الممكن لها أن تبقى قوية. وكان معاوية عذركاً لأهمية هؤلاء الأربعة، وبما أنه فشل في ضمان تأييدهم لخلافة يزيد، فقد حذر ابنه من خطرهم قبل أن يلفظ نفسه الأخير. فقد نصح ابنه وهو على فراش الموت قائلاً: "يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال (أو الرجال)، ووطأت لك الأشياء وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد، وإني لا أخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح



عنه فإن له رجلاً ماسّةً وحقاً عظيماً، وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم، ليس له هم إلا في النساء واللهو، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويروغك مراوغة الثعلب، فإن أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً أرباً.<sup>٢٠</sup>

(النقل من الطبري المترجم). نقلت جميع المصادر وصية معاوية، وهي تؤكد أن جهود معاوية لضمان تأييد كبار المسلمين هؤلاء لخلافة يزيد لم تنجح. ولكي يضمن يزيد خلافته، فإن أول عمل قام به هو أن أمر والي المدينة الوليد بن عتبة أن يحصل علىبيعة هؤلاء الأربعة الصعبي المراس، وبخاصة الحسين وابن الزبير. وفي رسالته إلى الوالي أمره بشدة ألا يسمح لهم بتأخير البيعة، وإذا رفضوا البيعة أمره بقتلهم. بعض المصادر تذكر اسم عبد الله بن عمر إلى جانب الحسين وابن الزبير في رسالة يزيد.<sup>٢١</sup>

أرسل الوليد بن عتبة يطلب الحسين وابن الزبير في ساعة متأخرة وغير معتادة من الليل وأمرهما أن يبايعا الخليفة الجديد. وعرفا فوراً أن معاوية مات، وقرراً عدم مبايعة يزيد. لم يستجب ابن الزبير لدعوة الوالي وفر في اليوم التالي إلى مكة. أما الحسين فذهب إلى الوالي مضحواً بجماعة قوية من مؤيديه محتملين وقوع خطر. ترك الحسين مؤيديه عند باب القصر ودخل وحده. قرأ الوليد رسالة يزيد عليه وطلب منه مبايعة يزيد فوراً. أجاب الحسين دون إلزام نفسه بشيء أن البيعة كي تكون شرعية يجب أن تتم علناً، وعلى الوالي أن يهبط جمعاً في المسجد يحضره الحسين. وعند هذه الإجابة فض الحسين ليغادر القصر، نبه مروان بن الحكم وكان حاضراً الوليد قائلاً: "والله لئن فارقت الساعة ولم يبايع لا قدرت منه

على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبس الرجل، ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه. فوثب عند ذلك الحسين، فقال: يا ابن الزرقاء أنت تقتلني أم هو! كذبت والله وأثمت. "والحقيقة أن مروان كان قد نصح الوليد بطلب الرجلين للبيعة، وإن رفضا قتلهما حالاً قبل أن ينتشر خبر موت معاوية بين الناس. لكن الوليد لم يقبل نصيحة مروان وغادر الحسين القصر. واستدار الوليد إلى مروان وقال له: "وتخ غيرك يا مروان، إنك اخترت لي التي فيها هلاك ديني. والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها، وإني قتلت حسيناً، سبحان الله! أقتل حسيناً إن قال: لا أبايع! والله إني لأظنُّ أمراً يُحاسب بدم حسين الخفيف الميزان عند الله يوم القيامة. (النص من الطبري- المترجم) إن جواب الوليد لمروان الذي أوردته جميع المصادر يوضح ذلك التقدير والاحترام الخاصين الذين تمتع بهما حفيد النبي لا من طرف مؤيديه فقط، بل من الغالبية العظمى للمسلمين. نجح الحسين في تجنب بيعة يزيد ليومين ثم توجه مع أسرته ومعظم الهاشميين إلى مكة. ودفع الوليد بن عتبة جزاء ليونته مع الحسين فقد عزله يزيد من منصبه كـوالٍ للمدينة.

أما عبد الله بن الزبير الذي وصل مكة قبل الحسين فقد جمع الناس حوله ضد يزيد، وتذكر المصادر أنه كان يعمل سراً من أجل طموحاته في الوصول إلى الخلافة. ولكن حالما وصل الحسين إلى مكة انفض الناس عن ابن الزبير وتجمعوا حول الحسين. وكان هذا أمراً طبيعياً، فمصادرنا تذكر بوضوح أن "الحسين كان أعز عند الحجازيين وأكثر احتراماً من ابن

الزبير، الذي عرف أن سكان الحجاز لن يتبعوه مادام الحسين في مكة.<sup>٥</sup> لقد كان تبجيل الحسين عظيماً جداً حتى أن الناس صلوا خلفه وطافوا معه حول الكعبة فور وصوله، وفضلوا البقاء إلى جانبه معظم الوقت.

فالحسين مثل أخيه الحسن يجمع في شخصه حقوقاً خاصة بصفته سليل النبي وعلي، وبعد وفاة الحسن أصبح المرشح الوحيد للخلافة من عائلة النبي. ولكنه في ما مضى من سنوات لم يفعل الكثير لدعم حقوقه، بل اكتفى بإظهار موقف سلمي من ترشيح يزيد للخلافة. ولم يكن بمقدوره أن ينشط لضمان حقوقه نظراً لأن معاهدة الحسن مع معاوية كانت تفيد معاداة معاوية حياً. وهذا ما شرحه الشيعة الكوفة كلما حاولوا الثورة على معاوية. لكن موت معاوية غير الموقف. فمن جهة أولى حرر الحسين من تلك المعاهدة، ومن جهة أخرى ازداد إلحاح شيعة الكوفة عليه من أجل هدايتهم وقيادتهم. فحالما علم الكوفيون بموت معاوية عقدوا سلسلة من الاجتماعات معبرين عن تجديدهم ولائهم وحماسهم لنصرة الحسين. وأرسلوا إلى الحسين رسائل عديدة وواتروا بعض الوفود إليه طالبين منه القدوم إلى الكوفة لتولي قيادتهم، حيث أنهم لا يقرون إماماً سواه. فالرسالة الأولى التي تلقاها الحسين في ١٠ رمضان ٦٠هـ — حزيران ٦٨٠م وقعها سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة أو نجبة ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة نيابة عن شيعة ومسلمي الكوفة وهي كما يلي "... أما بعد، فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار الغنيد الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها، وغصبها فيثها، وتأمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مال الله

دولة بين جابرها وأغنيائها، فبعداً له كما بعدت ثودا! إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك.<sup>٦</sup>

هذه الرسالة الموقعة من الرجال الذين ذكرناهم سابقاً كانت حافز الحسين الرئيسي، لأن موقعها كانوا من المؤيدين الموثوقين لعائلته منذ البداية وقد أثبتوا ولائهم في معركتي الجمل وصفين إلى جانب علي. وبرغم أنهم قلقوا للغاية وأحبطوا بتخلي الحسن عن الخلافة لصالح معاوية، فإنهم بقوا مع ذلك موالين للحسن ومعادين لمعاوية. وإلى جانب هؤلاء الشيعة فإن كوفيين آخرين بعثوا برسائل عديدة وقّع كلاً منها قادة كبار يرغبون الهدف نفسه.<sup>٧</sup> وهناك رسائل مماثلة بعثها شيعة البصرة طالبن فيها من الحسين التحرك لاستلام قيادتهم وتنشيطها. ومن المؤكد أن درجة حافزهم الديني تتفاوت: فقد كان لبعضهم رغبة سياسية في التخلص من السيطرة السورية.

وعلى كل حال، فإن أعمال الحسين من بدايتها وحتى نهايتها تظهر أن استراتيجيته كانت تهدف إلى هدف أسمى من مجرد استلام الخلافة. فليس لدينا برهان على أنه حاول -حين كان في مكة- أن يجند مؤيدين نشطين من بين الذين تجمعوا حوله، أو أن يشرح قضيته لجموع الناس القادمين إلى الحج؛ كما أنه لم يرسل مبعوثين إلى الولايات مثل اليمن وفارس حيث يوجد موالون كثر لعائلته لتحريك أي تمرد، رغم أن بعض أقاربه نصحه

بذلك. وفوق كل ذلك، فلو أنه تحرك بسرعة استجابة لدعوة الكوفيين حين كانت الولاية في قبضة الوالي الضعيف النعمان بن بشير لكان من المحتمل أن ينجح في مساعاه. إن وصوله السريع إلى الكوفة ما كان ليستبق أي عمل مؤثر من طرف الأمويين فقط، بل كان سيشتع حماساً حقيقياً بين الكوفيين. وهذا ما أكدته قادة الحركة حين كتبوا قائلين: "بسم الله الرحمن الرحيم/ للحسين بن علي من شيعته المؤمنين والمسلمين. أما بعد: فحي هلا، فإن الناس ينتظرونك لا إمام لهم غيرك، فالعجل ثم العجل والسلام." <sup>٨</sup> (النقل من اليعقوبي)

هذه الرسالة الأخيرة وقّعها العديد من الناس وأرسلوها مع وفد مؤلف من هاني بن هاني السبيعي وسعيد بن عبد الله الحنفي وهما من أكثر الشيعة في الكوفة مصداقية. وعلى كل حال، أجاب الحسين بأن أرسل رسالة مع هذا الوفد. ومحتويات هذه الرسالة تستحق التوقف عندها وفيها: "بسم الله الرحمن الرحيم، من حسين بن علي إلى الملا من المؤمنين والمسلمين. أما بعد: فإن هانئاً وسعيداً قدما عليّ بكتبكم، وكانا آخر من قدم عليّ من رسلكم، وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالة جلّكم: إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق. وقد بعث إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم. فإن كتب إليّ أنه قد أجمع رأي ملتكم وذوي الفضل والحجج منكم على مثل ما قدمت عليّ به رسلكم، وقرأت في كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله؛ فلعمرى ما الإمام إلا العامل

بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والخابس نفسه على ذات الله.  
والسلام.<sup>٩٠</sup> (النقل عن الطبري)

تشرح الحملة الأخيرة من هذه الرسالة واجبات الإمام، وطبيعة الإمامة،  
وتساعدنا على فهم مقاربة الحسين وموقفه من كامل المعضلة. وحفظ لنا  
أبو مخنف رسالة الحسين إلى شيعة البصرة وهي تستحق أن نقتبسها وهي  
كما يلي: "أما بعد: فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على  
خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه الله إليه وقد نصح  
لعباده، وبلغ ما أرسل به صلى الله عليه وسلم، وكنا أهله وأرلياءه وورثته  
وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا، وكرهنا  
الفرقة، وأحبنا العافية، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا من  
تولاه، وقد أحسنوا وأصلحوا، وتحروا الحق، فرحمهم الله، وغفر لنا ولهم.  
وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة  
نبيه صلى الله عليه وسلم، فإن السنة قد أُميتت، وإن البدعة قد أحييت  
وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم  
ورحمة الله.<sup>٩١</sup>

إن محتويات هذه الرسالة هي نص كامل بعقيدة الشيعة في الإمامة حتى في  
هذا الوقت المبكر. لم تذكر المصادر التاريخية إلا القليل عما ندعوه  
النظرية الدينية - السياسية الشيعية وذلك بسبب حقيقة هي أن اهتمام  
هذه المصادر الرئيسي هو بالأحداث، وليس بالمبادئ المنضوية تحت هذه  
الأحداث. ومع ذلك فإن تسجيل المصادر للأحداث حفظ لنا وثائق  
معينة مثل الرسائل والخطابات التي تقدم لنا لمحات عن هذه الأفكار

الكامنة وراء الأحداث. فقد اقتبسنا رسائل الحسن في الفصل السابق وأشرنا عندها إلى تفكير أهل البيت. والآن، في أيام الحسين، أي بعد عشرين سنة، نجد رسائل الحسين تقدم الشريان الفكري عينه وبالضبط. فقد فسر الإمام الحسين في رسائله مفهوم الولاية بشكل مناسب جداً، والذي يعني أن الله منح عائلة النبي شرفاً وميزات خاصة، وبالتالي جعلهم حكماً من نوع مثالي، وأنه من خلال وجودهم في الأرض ينشر الله نعمه. والمصطلحان العقائديان الآخران الهامان في هذه الرسالة هما: الرصاية والوراثة (الوصي والوارث). وقد رأينا في الفصل الرابع أنه حين انتخب علي للخلافة خطب بهذين المصطلحين من طرف مناصريه المقربين. والآن بعد خمسة وثلاثين عاماً نرى الحسين يستخدمهما. مما يعني أن هذين المصطلحين يملكان فكرة أن الله أوصى وزكى عائلة النبي للناس، وأن محمداً أوصى بعلي، وعلي أوصى بالحسن الذي ترك هذا الإرث في سلالة الحسين. قد يبدو على كل حال، أنه من المبكر لهذين المفهومين أن ينضجا بمحتويات عقائدية، ومع ذلك يمكننا أن نرى حضور العقيدة في صورة المفهومين الجينية.

والقسم الآخر الهام في رسالة الحسين هو تصريحه بأن قيادة الأمة حتى خاص بآل النبي، وأهم وحدهم القادرون على قيادة الأمة على الصراط المستقيم، أو بكلام آخر، إنهم وحدهم - وبفضل ميزاتهم الخاصة - يستطيعون أن يجمعوا السلطة الزمنية المادية والهداية الدينية معاً. وأكثر من ذلك، إن الحسين بهذه الرسالة حكم على خلافة كل من أبي بكر وعمر وعثمان. وبعدها، وبدعوة الحسين الأمة لتتمسك بسنة النبي، فإن

الحسين رفض ضمناً تفسيرات الخلفاء الثلاثة الذين لا يشملهم مصطلح أهل البيت. وبالتالي، فإنه على أتباع أهل البيت أن يعودوا مباشرة إلى سنة النبي والأئمة الملهمين.

وقرر الحسين أن يجيب الدعوة؛ وذلك بفضل عاملين ألهما التحرك الأول، إنه حفيد مؤسس الإسلام، فقد شعر أن واجبه يملئ عليه أن يجيب دعوات هؤلاء المسلمين المتكررة؛ والثاني، إن ضغوط يزيد الهائلة للحصول على البيعة جعلت الحسين يمتنع عن قبول خلافة يزيد، لأنه يرى نفسه ابن النبي، ويأنف من مبايعة يزيد. كان الموقف صعباً. فقبول سلطة معاوية كرئيس للجماعة الإسلامية مختلف كثيراً عن قبول سلطة يزيد. فبرغم ميل معاوية المادية وعدم اكتراثه بالقضية الدينية فإنه لم يخالف المعايير الإسلامية بالكامل، على الأقل علناً. أما يزيد فلم يخالف المعايير القرآنية والسنة النبوية فقط، بل أخضعهما علناً للاستخفاف والازدراء كما أجمع على ذلك مؤرخو ذلك العصر. حتى عمال معاوية في تنفيذ خطته لترشيح يزيد للخلافة كانوا متحفظين على شخصيته. وبالتالي، عندما طلب معاوية من زياد أن يحضر سكان البصرة والكوفة لقبول تسمية يزيد للخلافة، نصحه زياد أن يحاول إصلاح سلوك ابنه قبل الطلب من الناس بيعته.<sup>١١٠</sup>

إن من الخطأ الجسيم تقييم حالة يزيد بدون الأخذ بالاعتبار الأثر الحي للرسول والجيل الأول من المسلمين. إن التعارض الحاد بين هذا الأثر وطباع يزيد هو الذي قاد في النهاية إلى مأساة كربلاء، التي سنبحثها



الآن. ولكي نوالي سردنا فإن المعلومات الواردة في مصادرها ومصادفتها سنناقشها في نهاية هذا الفصل.

برغم المناشدات المتكررة والرسائل العديدة التي توجه بها وأرسلها الكوفيون، فإن الحسين لم يسرع في اتخاذ قرار، ولخزوه أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة كمبعوث له وبتوجيه محدد وهو أن يتأكد من حقيقة أولئك الممثلين للكوفيين، ثم يخبره بحقيقة ما يجد عندهم. وحالما وصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة تم عقد اجتماع في بيت سليمان بن صرد الخزاعي، وحضره قادة الحركة فقط بسبب السرية الضرورية في تلك المرحلة. وهناك قرأ مسلم بن عقيل رسالة الحسين التي اقبسناها أعلاه أمام الحضور، فقام عابس بن أبي شبيب الشاكري ثم حبيب بن مظاهر الفقعسي ثم سعيد بن عبد الله الحنفي وأعلنوا تأييدهم للحسين حتى آخر نفس فيهم.<sup>١٢</sup> وسرى فيما بعد أن كلامهم لم يكن بلا معنى فقد بقي هؤلاء على ولائهم وانجزوا ما وعدوا به وأخيراً سخروا بنفوسهم مع الحسين في كربلاء. وإلى جانب هؤلاء الأولياء المتحمسين لقضيتهم دينياً المناصرين لأهل البيت، فإن مؤيدي علي السياسيين من بين الكوفيين رأوا أن من الخطأ التخلف عن تأييد الحركة التي احتملوا أنها ستجح في تخليصهم من السيطرة الأموية، وفتحت سبلاً جديدة لهم. وسريعاً ما حصل مسلم بن عقيل على آلاف الوعود بالناصرية. أما عدد الناس الذين سجلوا أسماءهم وبايعوا مسلماً نيابة عن الحسين فيتراوح ما بين ١٢٠٠٠ و ١٨٠٠٠ ومعظم المصادر تذكر الرقم الأخير.<sup>١٣</sup> وسرعان ما أصبحت

الحركة علنية وتوسعت حتى أن مسلم بن عقيل استطاع أن يتروأس اجتماعات عامة من على منبر جامع الكوفة.

وحينما وثق مسلم من تأييد الكوفيين كتب إلى الحسين أن أقدم على الكوفة لاستلام القيادة. ولم يحمل رسالة مسلم شخص عادي بل عباس بن حبيب الشاكري وهو من ثقة قادة الحركة الشيعية في الكوفة.<sup>١٤</sup> وعندما تبين الحسين من درجة حماس الكوفيين قرر الرحيل إلى العراق. والتقى الحسين في طريقه من مكة إلى المدينة بأخيه محمد بن الحنفية وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس فحذروه من المخاطر. ومرة أخرى أعاد ابن عباس وأصدقاء آخرون تحذير الحسين وأصروا وحاولوا إقناعه بعدم الاعتماد على وعود الكوفيين، وذكروه بتقلب آرائهم، وأن الخيانة طبع فيهم، وكيف غدروا بأبيه وأخيه في ساعة المحنة.<sup>١٥</sup> ومن جهة ثانية فسان عبد الله بن الزبير أبدى اهتمامه بسلامة الحسين نفاقاً، ومع ذلك حثه على المضى في خطته،<sup>١٦</sup> وذلك لأنه أراد الشروع بمغامرته الخاصة للوصول إلى السلطة. ومادام الحسين في الحجاز فمن المستحيل أن ينجح ابن الزبير، لأن الناس لن تفضله على حفيد النبي.<sup>١٧</sup> لذلك كان ابن الزبير مسروراً لرؤية الحسين يخلي له الساح في مكة. وبرغم كل النصائح التي تلقاها الحسين فإنه لم يتخل عن مشروعه، فقد كان يحمل في ذهنه خطة واستراتيجية محددين، كما سنشرح فيما بعد.

حين علم يزيد بوصول مسلم بن عقيل إلى الكوفة، والتأييد الذي تلقاه، فقد لفته بوالي المدينة الضعيف واللين الجالب النعمان بن بشير، فعين رجله القوي عبید الله بن زياد واليه على البصرة والياً على الكوفة أيضاً وأمره

بالرحيل إلى الكوفة فوراً. وكانت مهمة عيد الله الفورية هي سحق الحركة الشيعية بكل الوسائل التي يتطلبها الوضع. وقد حفظت لنا المصادر نص رسالة يزيد، وهذه الرسالة توضح عنف موقف يزيد من حركة تأييد الحسين.<sup>١٨</sup> وكان ابن زياد مدركاً التمرد في الكوفة لصالح الحسين، فتوجه إلى الكوفة متنكراً مرتدياً عمامة سوداء وهو متلثم، وأخذ معه مجموعة صغيرة من الفرسان. وحين دخل ابن زياد الكوفة ظنوه الحسين وكانوا ينتظرونه فأخذ لا يمر بجماعة من الناس إلا سلموا عليه وقالوا: مرحباً بك يا بن رسول الله قدمت خير مقدم، ويتجمعون حول حصانه.<sup>١٩</sup> وراقب ابن زياد حماس الكوفيين للحسين، ثم دخل المسجد واعتلى المنبر ثم كشف عن وجهه. وألقى خطبة نارياً معلناً أنه سيعاقب بالقتل كل المتعاطفين مع الحسين، ووعد أولئك المواليين للخليفة. وأصاب الملح الكوفيين المعروفين بقلة تمسكهم بتواقفهم، وضربهم الخوف، فتخلوا عن مسلم بن عقيل الذي حاول أن ينظم ثورة فورية لكنه فشل في ذلك، وألقي القبض عليه وقتل مع هاني بن عروة المرادي حيث كان يقيم في بيته.<sup>٢٠</sup> هذا الموقف الخائن الذي درج عليه الكوفيون بعمامة يظهر ضعف طباعهم وترددهم كما حدث به من لقي الحسين وهو في طريقه إليهم. فقد لقي الحسين الشاعر المعروف الفرزدق في مكان يدعى الصفاح وسأله عن حال الكوفيين فأجاب: "قلوب الناس معك، وسيرفهم مع بني أمية."<sup>٢١</sup>

غادر الحسين مكة يوم الثامن من ذي الحجة ٦٠ هـ الموافق العاشر من أيلول ٦٨٠ م في اليوم نفسه الذي قتل فيه مسلم بن عقيل في الكوفة.

وخرج معه حوالي خمسون رجلاً مسلحاً من بين أقاربه وأصدقائه، إلى جانب نساء وأطفال رافقوه من مكة في تلك الرحلة المشؤومة. إن خروج الحسين المفاجئ من مكة قبل يومين من موسم الحج حيث قضى هناك خمسة أشهر وحيث كان عدد كبير من الناس يتوافدون لأداء الحج، لم يكن من غير سبب خطير. يذكر الطبري وآخرون قول الحسين نفسه: "إن الوالي الأموي بعث بعض الجنود المستترين بزي الحجاج للقبض عليه أو حتى لقتله".<sup>٢٣</sup> وبرغم أن من الصعوبة بمكان إثبات مصداقية هذه الرواية، لكننا لا نستطيع استبعاد إمكانية حصول ذلك على ضوء ما حدث للمدينتين المقدستين على يد الجيش الذي بعث به يزيد لقمع تمرد ابن الزبير.

بينما كان الحسين متوجهاً نحو العراق، كان ابن زياد قد جعل من الكوفة مكاناً للهلع والإرهاب بعد قتل مسلم وهاني. أولاً: أوقع ابن زياد ضغوطاً اقتصادية على السكان من خلال العرفاء، الذين كان واجبه هو المسؤولية عن توزيع الأرزاق والحفاظة على القانون والنظام في المواقع المسؤولين عنها والتي ناقشناها في الفصل الخامس. فقد استغل هؤلاء وطلب منهم تدوين أسماء الغرباء والمتمردين والمشكوك بولائهم. وحلهم المسؤولية عن أية مشكلة قد تقع كلاً في منطقته، وهددهم بالصلب وبقطع الأرزاق عن تابعيهم إذا أخفوا عنه شيئاً. ثانياً: أعلن أن كل شخص يتوقع منه تأييد الحسين سيعدم بغير محاكمة، ويحرق بيته، وتصادر ممتلكاته.<sup>٢٤</sup> وبالتالي وقعت الكوفة حالاً في قبضته. ثم أغلق ابن زياد كل الطرق التي تؤدي من الحجاز إلى الكوفة، وأمر بجمع أي شخص من

مغادرة الكوفة أو القدوم إليها. ووضع قوة مسلحة من ٤٠٠٠ رجل تحت قيادة الحصين بن النمير التميمي في القادسية وهي محطة هامة على الطريق المعتادة بين الحجاز والكوفة. كما أنه وجه سرايا من الجيش الأموي إلى نقاط الحدود مثل القطفطانة ولعلع وكوفان التي تربط البصرة بالكوفة لحراستها؛<sup>٢٥</sup> فأصبح من المستحيل تقريباً على أحد الخروج أو الدخول إلى الكوفة. وعرف الحسين بهذه الإجراءات جميعها من البدء، ولكنه تابع رحلته غير متردد. وعندما وصل الثعلبية أخبره بعض المسافرين بقتل مسلم وهاني في الكوفة؛ وعندما وصل زبالة عرف أن مبعوثه قيس بن مشير الصيدائي الذي أرسله من حاجر على بعد أربعة مراحل من مكة برسالة إلى الكوفيين يخبرهم بقدومه القريب إليهم، أن قيس هذا قد أسر في القادسية وأخذ إلى ابن زياد فقتله في الكوفة، رمي من أعلى قصر الإمارة حين رفض سب الحسين وأبيه وهو شرط ابن زياد لإنقاذ حياته.<sup>٢٦</sup> ولم يستطع الحسين أن يخفي دموعه لمصير وليه الثقة واقتبس آية تقول: ("منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً". اللهم اجعل لنا ولهم الجنة منزلاً، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك، ورغائب مذخور ثوابك).<sup>٢٧</sup> قول الحسين هذا واضح بما فيه الكفاية لبيان أنه كان مدركاً تماماً لما ينتظره، وأنه كان مستعداً له. وهناك تعبير آخر عن تفكير الحسين أطلقه حين دعا أصحابه بعد أن عرف هذه الأخبار في زبالة؛ فقد خاطبهم فأخبرهم بالأنباء المؤلمة وخطر الموت المحدق بهم جميعاً، وطلب أن ينسحبوا ويتركوه لمصيره. وعندها غادره أولئك الذين انضموا إليه أثناء رحلته آملين بمكاسب مادية، وبقي معه أولئك

الذين خرجوا معه من الحجاز.<sup>٢٨</sup> يجب أخذ تصريحات الحسين هذه بعين الاعتبار لأنها هامة لفهم تفكيره الذي نبحثه فيما يلي.

غادر الحسين زبالة واقترب من الكوفة إلى موقع يقال له بطن العقيق. عندها عرف تفاصيل القوة العسكرية المتمركزة في القادسية؛ فغير طريقه إلى الكوفة لدخولها من جهة أخرى. وعلم الحصين بن نمير أن الحسين غير طريقه فأرسل سرية قوامها ألف رجل بقيادة الحر بن يزيد التميمي البريعي لاعتراضه. وعندما بدت هذه السرية للحسين في الأفق أمر أصحابه بالتوجه إلى مكان أكثر أمناً لهم هو "ذو حسم" ونصبوا خيامهم هناك. ولم يطل الوقت حتى وصلت سرية الحر إلى مواجهة الحسين وأصحابه. كان الطقس حاراً وقد نفذ الماء من قوات الحر بن يزيد؛ ولم يطق حفيد النبي أن يرى حتى خصومه يعانون العطش، فأمر أتباعه أن يسقوا الجيش الأموي ويغلبهم. واشترك الحسين بنفسه في إرواء القوم.<sup>٢٩</sup> كان الحر بن يزيد يكنّ بعض الاحترام للحسين حتى أنه وأصحابه صلّوا خلف الحسين. ورفض التعرض بالأذى لأربعة رجال من شيعة الكوفة استطاعوا الهرب منها والانضمام إلى الحسين رغم أن الحر استنكر ذلك.<sup>٣٠</sup> وبعد كل صلاة كان الحسين يشرح لخصومه سب قدومه قائلاً: "إني لم آتكم حتى أتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم: أن أقدم علينا، فإنه ليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتمكم، فإنكم إن تقفوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى الله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم وإن أنتم كرهتمونا،

وجهنتم حقنا، وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم وقدمت به رسلكم،  
انصرفت عنكم." ٣١

ثم طلب الحسين خرجين يضمن رسائل الكوفيين إليه وأراها للحر بن  
يزيد، فأنكر الحر معرفته بهذه الرسائل قائلاً: "إنا لمنا من هؤلاء الذين  
كتبوا إليك، وقد أمرنا إذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نقدمك على عبيد  
الله بن زياد." رفض الحسين الاستسلام، ولم يجبره الحر بالقوة على ذلك.  
وبعد جدل قصير وهام بين الحسين والحر تم الاتفاق على أن يسير الحسين  
في طريق بحاذاة الفرات لا توصله إلى الكوفة، ولا ترده إلى المدينة،  
ويتبعه الحر حتى تأتية أوامر جديدة من ابن زياد. وحين وصل الحسين إلى  
نينوى جاء فارس من الكوفة. فوقف الجميع ينظرون إلى الفارس الذي  
سلم على الحر ولم يسلّم على الحسين، ودفع إلى الحر كتاباً من عبيد الله  
بن زياد فإذا فيه: "أما بعد فجمع جمع (أي أزعج وأخرج أي أحبس)  
بالحسين، فلا تزل إلا بالعراء من غير حصن ولا ماء." ٣٢ عندها اقترح  
زهير بن القين وهو أحد أتباع الحسين أن يهاجم سرية الحر الصغيرة.  
فقال له الحسين: "ما كنت لأبدأهم بالقتال." فقال زهير سرّ بنا إذن إلى  
هذه القرية الحصينة. فقال الحسين وأية قرية هي؟ فقال هي القفر.  
وعلى كل حال، تدبر الحسين وضعه حتى وصل سهل كربلاء وهناك  
نصب خيامه في الثاني من محرم ٦١ هـ الثاني من تشرين الأول ٦٨٠ م.

تدهور الوضع في اليوم الثالث من محرم حين وصل عمر بن سعد بن أبي  
وقاص مع الجيش الأموي المؤلف من ٤٠٠٠ رجل، وتسلّم القيادة العليا  
في الميدان. حين وصل ابن سعد إلى كربلاء علم أن الحسين ينوي العودة

إلى المدينة، ولكن ابن زيادة وبرغم علمه بنية الحسين أمر بأن على جميع "العصاة" مبايعة يزيد بن معاوية. وإلى أن يفعلوا ذلك يجب حرمانهم من الوصول إلى النهر. عندئذ وضع عمر بن سعد سرية من ٥٠٠ فارس على طريق النهر لمنع أصحاب الحسين من الوصول إلى الماء، وبالتالي عانى الحسين وأصحابه العطش لثلاثة أيام قبل المذبحة الشنيعة. تدبورت مجموعة من ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً من أصحاب الحسين بقيادة أخيه العباس أمر الوصول إلى الماء ومالت بعض القرب القليلة. وحتى تلك اللحظة كان عمر بن سعد يحاول إفناع الوالي ابن زياد أن يصل إلى حل سلمي لتجنب قتل حفيد النبي، ولكن كل محاولاته ذهبت هباءً. أخيراً بعث ابن زياد أوامره النهائية مع شمر بن ذي الجوشن إلى عمر بن سعد وفيها إما أن تهاجم الحسين وأصحابه، وإما أن تسلم القيادة لشمر نفسه،<sup>٣٣</sup> وكان نص رسالة ابن زياد إلى عمر بن سعد كما يلي: "إني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ولا لتطاوله، ولا لتمنيه السلامة والبقاء، ولا لتقعد له شافعاً عندي. انظر، فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا، فابعث بهم إلى سلماء، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم، فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتل حسين فأوطى الخيل صدره وظهره، فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم..<sup>٣٤</sup>" توجب على ابن سعد أن يتحرك للعمل، لأنه كان قلقاً على تعيينه نائباً لوالي الري، كما كان يدرك أن الحسين لن يستسلم أبداً، لأن في داخله "نفس أبيّة"

وهكذا حين وصلت أوامر ابن زياد الأخيرة مع شمر بن ذي الجوشن أمر قواته بالتحرك نحو نجيم الحسين مساء التاسع من الحرم. عندها بعث



الحسين أخاه العباس مع بعض أصحابه لاستجلاء الخبر عن اقتراب جيش ابن سعد من المخيم. وحين أخبر العباس بالأوامر الأخيرة لابن زياد، عاد إلى الحسين وأخبره بذلك، فطلب منه الحسين أن يعود إلى ابن سعد ليطلب إمهاله تلك الليلة، وحصل على ذلك. عندها جمع الحسين أقاربه وأصحابه وخطب فيهم. وقد أوردت جميع المصادر هذا الخطاب بأسانيد مختلفة، وهو مفيد لمعرفة تفكير الحسين. قال الحسين فيه: "أثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء اللهم إني أحمذك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوعلى من أهل بيتي، فجزاكم الله عني خيراً، ألا وإني أظن أن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإني قد رأيت أو أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا ليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً." ٢٥

رفض أقاربه وأصحابه إلا قليلاً أن يتخلوا عنه أو يعيشوا بعده، وأظهروا ومن خلال كلماتهم التي سبحتها لاحقاً إخلاصاً راسخاً لقضيته. واتخذ الحسين بعض الإجراءات خلال الليل مثل تقريب الخيام وربطها ببعضها ببعض وحفر خندقاً خلفها وضع فيه الحطب والقصب، حتى إذا هاجم عدوهم الخيام من خلفها أشعل النار في الحطب لحماية الخيام، ثم أمضى الحسين وأصحابه الليل في الصلاة والدعاء وذكر الله.

انتهى ليل الهدنة، وانبج صباح القدر المختوم في العاشر من محرم وجاء معه بأصوات الموت والنهاية المأساوية لعائلة النبي وقلة من الأتباع. صف

الحسين جيشه الصغير أمام مخيمه، وكان جيشه مؤلفاً من ٧٢ رجلاً منهم ٣٢ فارساً و ٤٠ رجلاً من أعمار مختلفة، كان فيهم مسلم بن عوسجة وعمره سبعون عاماً والقاسم بن الحسن بن علي وعمره أربعة عشر عاماً. أشعلت النار في الخطب خلف المخيم لحماية من هجرم الأعداء؛ وكسان علي ميمنة الحسين زهير بن القين، وعلي الميسرة حبيب بن مظاهر الأسدي، وعلي أهل البيت العباس بن علي. وحضر الحسين نفسه فارتدى عباءة رسول الله وتطيّب بالسك وركب فرسه، ووضع أمامه القرآن، وخاطب أعداءه ذاكراً الله تعالى في خطبة رائعة قائلاً: "اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمّن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت ولي كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة".<sup>٣٧</sup>

وأجاب أعداء الحسين خطابه بعبارات تهكمية، ومنهم شمر الذي قال حين رأى النار خلف مخيم الحسين: "يا حسين، استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة." فأراد صاحب الحسين مسلم بن عوسجة الذي لم يعد يستطيع ضبط أعصابه أن يجيبه بسهم، لكن الحسين أوقفه قائلاً: "لا ترمه، فإني أكره أن أبدأهم".<sup>٣٨</sup> ازداد الموقف حرارة وأصبح هجوم الجيش الأموي واضحاً، عندها تقدم الحسين فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد وآله وخاطب عدوه قائلاً: "أما بعد، فانسبوني فانظروا من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك

حرمتي؟ ألسنت ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وسلم وابن وحيدته وابن عمه، وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه! أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي! أوليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمي! أولم يبلغكم قول مستفيض فيكم: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي ولأخي: "هذان سيدا شباب أهل الجنة".<sup>٣٨</sup> فإن صدقتموني بما أقول - وهو الحق - فوالله ما تعمدت كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضر به من اختلقه، وإن كذبتموني، فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، أو أبا سعيد الخدري، أو سهل بن سعد الساعدي، أو يزيد بن أرقم، أو أنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لي ولأخي، أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟ فإن كنتم في شك من هذا القول، أفتشكّون أثراً ما إني ابن بنت نبيكم! فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غربي منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصة."<sup>٣٩</sup> وذهبت كل خطب الحسين ونداءاته عقب مقتل كل فرد من أصحابه هباءً. والجواب الوحيد الذي تلقاه هو أن عليه أن يستسلم ليزيد أو يقتل. وفي كل مرة كان جواب الحسين على هذا المطلب: "لا والله، لا أعطيهم - يقصد الأمويين - بيدي إعطاء الدليل، ولا أقرّ إقرار العبيد."

بدأ يوم المعركة الطويلة في الصباح وانتهى قبل غياب الشمس بقليل، وكانت المعركة تدور أحياناً بمبارزات فردية، وأحياناً أخرى بشكل جماعي. ويمكن متابعة أحداث المعركة بوضوح تام. فبعد خطبة الحسين

الأولى بدأ الجيش الأموي برشق السهام ثم جرت مبارزات. ولكن معظم الأحداث كانت على شكل مبارزات وحوارات بين المتخاصمين مناقشها لاحقاً. ويبدو أن هجومين رئيسيين قام بهما الجيش الأموي ضحي ذلك اليوم ولكن قابلهما مقاومة صامدة، ومع ذلك تابع فرسان الجيش الأموي و ٥٠٠ رامي سهام. الضغط على جماعة الحسين القليلة العدد. وبما أن قوات الحسين كانت محصنة من الخلف، فقد أرسل ابن سعد بعض قواته لمهاجمة خيام الطالبين من اليسار ومن اليمين لتخريبها، ولكن رجال الحسين اندفعوا بين الخيام ودافعوا عن المخيم بنشاط وحماس. وحاول شمر الذي كان يقود جمعاً غفيراً من الجيش الأموي اقتراب من خيمة الحسين ونسائه وأراد إحراقها، لكن حتى أفراد مقاتليه لاموه على ذلك، فعاد عن ذلك خجلاً.<sup>٤٠</sup>

عند الظهر أدى الحسين وأنصاره صلاة الظهر بحسب طقوس صلاة الخوف. واشتد هيب المعركة بعد الظهر، وراح مناصري الحسين يقاتلون أمامه الواحد بعد الآخر. ولم يلحق الأذى بأي فرد من عائلة الحسين حتى استشهد آخر رجل من أنصاره.<sup>٤١</sup>

ولكن عندئذٍ جاء دور قرابته. وكان أول من قتل هو علي الأكبر بن الحسين، تبعه فوراً عبد الله بن مسلم بن عقيل وثلاثة أخوة للعباس بن علي بن أبي طالب من زوجته أم البنين والقاسم بن الحسن وقد وصفه حميد بن مسلم كما ورد في الطبري قال: "خرج إلينا غلام كأن وجهه شفة قمر في يده السيف عليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شسع أحدهما، ما أنسى أفما اليسرى، فقال لي عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي.

والله لأشدن عليه. فقلت له: سبحان الله، وما تريد إلى ذلك! يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم فشدّ عليه فما ولى حتى ضرب رأسه بالسيف فوق الغلام لوجهه. فقال: يا عماه! قال: فجلى الحسين كما يجلى الصقر، ثم شدّ شدة ليث غُضِبَ، فضرب عمراً بالسيف، فاتفاه بالساعد، فأطتها من لدن المرفق: فصاح، ثم تنحى عن الغلام، وحلت بحبل أهل الكوفة ليستنقذوا عمراً من حسين، فاستقبلت عمراً بصدورها، فوطئته حتى مات، وانجلت الغبرة، فإذا الحسين قائم على رأس الغلام، والغلام يفحص برجليه وحسين يقول: بُعداً لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جألك! ثم قال: عزّ والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفعك! صوت والله كثر واتره، وقلّ ناصره. وكان الحسين يراقب سقوط كل فرد من أهل بيته، ثم يهجم فيكشف العدر عنه يجلبه إلى مخيمه ويضع الجسد في صفٍ إلى جانب القتلى قبله أمام خيمته.<sup>٢٢</sup> واستشهد آل أبي طالب الواحد تلو الآخر ولم يبق سوى الحسين وأخوه العباس حامل راية جيش انتهى. أشتهر العباس بقوته البدنية وشجاعته، وقد عرف بأنه "بدر بني هاشم" لجماله الفائق، وكان مؤيداً مخلصاً للحسين طيلة فترة العذاب والمحنة. وجاء دوره الآن لينازل الجيش الأموي المتعطش للدم. بقلوب منكسرة، ونفوس حزينة، وثياب ملطخة بدماء أعزائهما اندفع الأخوان نحو العدو. وشق العباس الغاضب صفوف أعدائه، وابتعد عن الحسين داخل الصفوف، ثم قتل بعيداً عنه.<sup>٢٣</sup> وحيداً، قلقاً عاد الحسين إلى مخيمه ليواسي النساء الخائفات المفجوعات، وليودعهن ويصبرهن على ما سيحصل هن بعده، وحاول أن يواسي

رضيعاً له عطشاً، حمله بين يديه فأصابه سهم فقتل الطفل. عندئذ رفعه الحسين بين يديه نحو السماء وقال: "قتل الله قوماً قتلك يا بني، ما أجرأهم على الرحمن، وعلى انتهاك حرمة رسول الله، على الدنيا بعدك العفاء."<sup>٤٤</sup>

منهك ومضنى ومحزون وجريح ومدمى وعطش جلس الحسين أمام خيمته. وتماوج الجيش الأموي لهيبات و الرجال مترددون كلُّ يريد أن يكفيه غيره قتل حفيد رسول الله. وأخيراً تقدم شمر بمجموعة من جنوده، ولكنه نفسه لم يجرؤ أن يقوم بضربه الأخيرة للحسين، عندها حصلت مشادة بين الحسين وشمر. ثم فُض ابن علي وهجم على الجيش الأموي. ولكن هاجمه الطغاة من كل صوب حتى سقط على وجهه أمام خيمته على مشهد من النساء والأطفال. وأقبل إلى الحسين غلام من أهله هو عبد الله بن الحسن هلعاً فرعاً، لم تستطع النساء حبسه، وصاح: "يا ابن الخبيثة، أقتل عمي! فأهوى عليه بحر بن كعب التميمي بالسيف فأتقاه الغلام بيده، فأطنها إلا الجلدة."<sup>٤٥</sup> عندها جاء سنان بن أنس بن عمرو ورفع سيفه يريد ضرب الحسين الضربة الأخيرة، فاندفعت زينب أخت الحسين من الخيمة وصاحت بابن سعد قائلة: "يا عمر بن سعد، أقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟"<sup>٤٦</sup>

ما كان باستطاعة أي شيء وقف المجزرة. فقد ذبح سنان حفيد النبي أمام الخيمة بينما النساء والأطفال يراقبون ويكون. وأخذ خولي بن يزيد الأصبحي الرأس واحتفظ به لينقله إلى ابن زياد في الكوفة.<sup>٤٧</sup> وعندها انتهت المعركة، واستدار الجنود الأمويون إلى السلب والنهب. فأخذوا ثياب الحسين وسيفه وكل ما كان بحوزته. وانتهبوا الخيام وحلي النساء

ومتاعهم، والعباءات وأخطية رؤوس النساء. ولم ينج من الذكور من ذرية الحسين سوى علي الذي كان يعاني مرضاً حقيقياً ويضطجع على جلد في إحدى الخيام. حتى ذلك الجلد سحب من تحته ونهب، وأراد شمر قتله، ولكن زينب بنت علي ألقت نفسها واحتضنته، ودفع عمر بن سعد شمر عنه.<sup>٤٨</sup> وعرف ذلك اليوم بـ "العاشوراء"

لم تنته الوحشية عند هذا الحد. فقد نادى عمر بن سعد في أصحابه: "من ينتدب للحسين ويوطئه فرسه؟ فانتدب عشرة فأتوا قداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهوره وصدره وكأن جراحه وأحزانه وقتل ذريته وأهله لم تكف فترضي أعداء حفيد النبي."<sup>٤٩</sup>

في صباح الحادي عشر من المحرم جمع عمر بن سعد أجساد قتلاه وصلى عليهم ودفنهم. أما جسد الحسين المقطوع الرأس وأجساد الذين قتلوا معه فتركوا مكشوفين. جاء رجال من بني أسد من قرية الغادرية القريبة من كربلاء بعد أن رحل الجيش الأموي صباح الثاني عشر من محرم ودفنوا جسد الحسين وأصحابه حيث جرت المذبحة.<sup>٥٠</sup> ومن الغريب المذهل أن هذه الأجساد التي تركت في وضع محزن ومؤسف لم يسبق له مثيل تحولت مع قبورهم إلى مزارات مشرفة أو موضع للاحترام والتبجيل وأماكن للقداسة والتعبد فقد بنيت فوقها القباب المطلية بالذهب والخلافة بأجمل الزينات، ثم صارت مكاناً للحج لعدد غير محدود من الموالين. ولكن من المستحيل العثور على قبر أو نصب لأولئك الذين انتصروا في كربلاء، بينما أضرحة الحسين وأصحابه المقهورين بماآذنها العالية أصبحت

علامة مميزة ورمزاً ومكاناً للتبرك بها والصلاة عندها لطلب المعونة وتحقيق الأمل.

وشهد يوم الثاني عشر من محرم أحداثاً متعاقبة خاصة جداً، ففسد عباد انجيش الأموي من كربلاء إلى الكوفة، واقعاً اثنين وسبعين رأساً على أسنة الرماح يتبعهم نساء آل النبي على الإبل. ويصف أبو مخنف رحيل زينب بنت علي ومن بقي معها من نساء آل النبي كأسرى كربلاء. وينقل أبو مخنف عن مرة بن قيس التميمي قال: "نظرت إلى تلك النسوة لما مررن بحسين وأهله وولده صحن ولطمن وجوههن. قال: فاعترضتهن على فارس، فما رأيت منظرًا من نسوة قط كان أحسن من منظر رأيتنه منهن ذلك اليوم، والله هن أحسن من مها يبرين. قال: فما نسيت من الأشياء لا أنسى قول زينب ابنة فاطمة حين مرت بأخيها الحسين صريعاً وهي تقول: يا محمداه، يا محمداه صلى عليك ملائكة السماء، هذا حسين بالعرء، مرمّل بالدماء، مقطّع الأعضاء، يا محمداه وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة تسعي عليها الصبا. قال: فأبكت والله كل عدو وصديق."<sup>٥٢</sup>

وصلت الرؤوس والأسرى إلى الكوفة، وقدمت لابن زياد. وينقل أبو مخنف عن حميد بن مسلم قال: "دعاني عمر بن سعد فسرحني إلى أهله لأبشّره بفتح الله عليه وبعاثيته، فأقبلت حتى أتيت أهله، فأعلمتهم بذلك: ثم أقبلت حتى أدخل فأجد ابن زياد قد جلس للناس، وأجد الوفد، الرؤوس والأسرى، قد قدموا عليه، فأدخلهم، وأذن للناس، فدخلت فيمن دخل، فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه، وإذا هو ينكت بقضيب بين ثنيتيه ساعة، فما رآه زيد بن أرقم صحابي النبي ولم يكن يدري ما



حدث، قال له: "اعل بهذا القضبب عن هاتين الشبتين، فوالذي لا إله غيره  
لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين  
يقبلهما." <sup>٥٣</sup> وتتابع رواية حميد بن مسلم كما هي في الطبري تقول: " ثم  
انفصح الشيخ -زيد بن أرقم- يبكي. فقال له ابن زياد: أبكى الله  
عينك! فوالله لولا أنك شيخ قد صرقت وذهب عقلك لضربت عنقك.  
قال حميد: فنهض فخرج، لما خرج سمعت الناس يقولون: والله لقد قال  
زيد بن أرقم قولاً لو سمعه ابن زياد لقتله؛ قال: فقلت: ما قال؟ قالوا: مرَّ  
بنا وهو يقول: ملك عبد عبداً فاتخذتم تلداً، أنتم معشر العرب العبيد بعد  
اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأصرتم ابن مرجانة فهو يقتل خياركم، ويستعبد  
شراركم، فرضيتم بالذل، فبعداً لمن رضي بالذل." <sup>٥٤</sup>

ثم أن ابن زياد نصب رأس الحسين في الكوفة، فجعل يدار به في الكوفة،  
ثم دعا زحر بن قيس فسرّح معه برأس الحسين ورؤوس أصحابه إلى يزيد  
بن معاوية في دمشق. وليس من الواضح كم مضى على الأسرى في  
سجن تحت الأرض في الكوفة، ولكن يبدو أن مقامهم هناك لم يطل، بل  
أرسلوا مع رؤوس الضحايا إلى دمشق لعرضها على "الخليفة" وعندما  
تم عرضها على يزيد في قصره أمام الناس، كما كانت الحال عند ابن  
زياد، قام زحر بن قيس الذي قاد قافلة رؤوس الضحايا والأسرى من  
النساء والأطفال، فألقى خطبة تحدث فيها كيف جرى قتل الحسين  
وأصحابه أوردها الطبري نقلاً عن هشام عن الغاز بن ربيعة الجرشي من  
حمير قال: "والله إنّا لعند يزيد بن معاوية بدمشق إذ أقبل زحر بن قيس  
حتى دخل على يزيد بن معاوية، فقال له يزيد: ويلك! ما وراءك؟ وما

عندك؟ فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره، ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته، فسرنا بهم، فسألناهم أن يستسلموا ويثّلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال، فاختاروا القتال على الاستسلام، فعدونا عليهم مع شروق الشمس، فأحطنا بهم من كل ناحية، حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم، يهربون إلى غير وزر، ويلوذون منا بالآكام والحفر، لوأداً كما لاذ الحمام من صقر، فوالله، يا أمير المؤمنين ما كان إلا جزر جزور، أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسادهم مجردة، ونياهم مرملة، وخدودهم معقرة، تصهرهم الشمس، وتسفي عليهم السريح، زوّارهم العقبان والرخم بقي سبب (صحراء). وكانت ردة فعل يزيد مختلفة عن ردة فعل ابن زياد. وتأسف على قهر ابن زياد. ويدور أن ذلك يناقض كل الروايات التي وصفت أوامر يزيد لواليه على المدينة المنورة، وأوامره إلى ابن زياد التي ورد فيها بوضوح بأن يحصلوا من الحسين وأتباعه على بيعتهم ليزيد أو قتلهم من دون تأخير. والمحادثة التي جرت بين يزيد وكل من زينب بنت علي وعلي بن الحسين وفيها وبخ يزيد كليهما، وعاملهما بقساوة تلقي ضوءاً على ما زُعم من أسفه. وعلى كل حال، فقد ذكر ابن كثير -وهو تلميذ ابن تيمية، وعادة معاد لقضية الشيعة- أنه لو كان يزيد أسف حقيقة لما فعله واليه ابن زياد بصفته خطيئة حقيقية في تعامله مع الحسين لكان اتخذ شيئاً ما ضده. لكن ابن كثير يقول: أن يزيد لم يعزل واليه من منصبه، ولم يعاقبه بأي شكل من الأشكال، ولا حتى كتب له رسالة لوم لتجاوزته أوامره.<sup>٥٦</sup> وإذا كان

يزيد قد عبر عن أسفه، فإن ذلك كان بسبب خوفه من ردة فعل أو ثورة ما من طرف جزء من الأمة الإسلامية. أطلق يزيد سراح الأسرى، بعد وقت قصير وأرسلهم إلى المدينة. وهكذا انتهت أشنع مأساة في التاريخ الإسلامي. لم يستطع أدوارد جيبون، مع نقص معلوماته في التاريخ الإسلامي، بل معتمداً على رواية أوتلي لحدث كربلاء، إلا أن يعلق قائلاً: "إن مأساة الحسين في مكان قصي وزمن بعيد ستوقظ تعاطف حتى أكثر القراء برودة."<sup>٧٧</sup> لقد رأينا في الفصل السابع كم كان النبي يعطف على حفيديه الحسن والحسين ويحبهما، لكن بعد خمسين سنة من وفاته فقط - كما يذكر الدينوري<sup>٧٨</sup> - بينما كان كثير من صحابة النبي ما يزالون على قيد الحياة ويتذكرون كم كان حب النبي لحفيديه عظيماً، فإن أحدهما - الحسين - قتل بوحشية غريبة على يد أولئك الذين يحسبون أنفسهم من أمة محمد.

إلى هنا ونهي هذه الخلاصة الموجزة الروايات المطولة لمأساة نهاية الحسين، التي قصدنا بها أولاً إلى تحليل كيف أصبح من السهل على الأمويين القضاء عليه وسحق الحركة الشيعية من خلفه؛ وثانياً تحديد مكوّنات المشاعر الدينية النقية المنغرس في عقول أولئك الذين ضحّوا بأنفسهم سخيّة مع الحسين، وبالتالي تقدموا خطوة أخرى باتجاه تدعيم الفكر الشيعي في الإسلام. لقد أشرنا سابقاً إلى أن الذين دعوا الحسين إلى الكوفة، وإلى أن الذين بايعوا موفده مسلم بن عقيل و عدد هم ١٨٠٠٠ رجل لم يكونوا كلهم شيعة من حيث الإحساس الديني الخضر، بل كانوا مؤيدين - بيت علي لأسباب سياسية - ذلك التمييز يجب أن يبقى في

الذهن لكي نفهم التاريخ المبكر للإسلام الشيعي. هؤلاء كتبوا مناسبات الرسائل إلى الحسين وقّع كلاً منها العديد منهم، وعندما قدم مسلم بن عقيل الكوفة التقوا حوله، لكن ذلك كان تعبيراً منهم عن رغبتهم في التخلص من سيطرة السوريين، المهدف الذي اعتقدوا أنه يمكن تحقيقه في ذلك الوقت من خلال الحسين. ولكن حالما سيطر ابن زياد على حكم الكوفة المعروف في التاريخ الإسلامي بسياسته المعتمدة على القوة والعنف، وعندما اتخذ ابن زياد الإجراءات الصارمة والمبالغ فيها لسحق تلك الحركة، عندها رأى الكوفيون آمالهم تلاشت، وغطت سماتهم المشهورة في التردد والاسترخاء في ساعة الامتحان على طموحاتهم السياسية. فاستسلموا لواقعية الظروف، ولم يخاطروا بأنفسهم في سبيل قضيتهم.

وإلى جالب هؤلاء، كان في الكوفة مجموعة صغيرة دعت الحسين حفيد النبي ليقود حركتهم مدفوعين بمشاعرهم الدينية النقية. لكن، أين كان هؤلاء عندما عانى الحسين قانطاً في كربلاء ثم استشهد صابراً؟ لقد رأينا كيف أن الكوفة حوصرت بعد مقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة ووضعت تحت السيطرة الكاملة من طرف ابن زياد وأنصاره، وقتل كل من أبدى مشاعر تعاطف مع الحسين. وبالتالي، كان من الطبيعي أن كل القادة المخلصين للحركة الشيعية تبوا خدعة إخفاء أنفسهم لتجنب الاعتقال والقتل، لا لأنهم أرادوا تضليل الحسين وإنقاذ حياتهم، وإنما لأنهم أرادوا وضع أنفسهم مباشرة بتصرف الحسين الذي كان في طريقه إلى الكوفة كما سنرى لاحقاً. ويمكننا معرفة هؤلاء من خلال مقارنة أسماء

الذين ضحوا بأنفسهم إلى جانب الحسين: وبعد ذلك مع حركة "التوابين" بأولئك الذين كتبوا رسائل الدعوة إلى الحسين والذين كانوا يقومون بالحركة في الكوفة. لقد شهدنا كيف أن أربعة من هؤلاء القادة انضموا إلى الحسين في ذي حصن رغم اعتراض الحر بن يزيد وحالما صار وصول الحسين إلى كربلاء معروفاً، فإن أولئك الذين استطاعوا تدبير أمر الوصول إليه فعلوا ذلك رغم العوائق التي أقامها ابن زياد، وضحوا بأنفسهم سخية قبل أن يؤذى الحسين أو أي فرد من أهل بيته. أما أولئك الذين لم ينضموا إلى الحسين في كربلاء لأن بعضهم كان معتقلاً، والبعض الآخر لم يستطع الإفلات من الحصار الذي ضربه ابن زياد على الكوفة، فإنهم لم يستطيعوا الوصول إلى كربلاء إلا بعد فوات الأوان.

عندما غادر الحسين مكة كان معه خمسون فرداً، ١٨ من الطالبين أو أقاربه الأقربين و٣٢ آخرون. أما بعد معركة كربلاء فكان هناك ٧٢ رأساً عرضت على ابن زياد منهم ١٨ من الطالبين و٥٤ من الشيعة الآخرين، بالرغم من أن الذين استشهدوا مع الحسين في كربلاء ربما كانوا أكثر من اثنين وسبعين فرداً. فالسماوي ومصادر أخرى تذكر أن عدد الذين استشهدوا مع الحسين هو ٩٢ فرداً عدا الطالبين.<sup>٩٠</sup> وإذا صح هذا التقدير، فإن من الممكن أن رؤوس الذين ليس لهم هوية قبيلة لم يؤخذوا إلى ابن زياد، ومن هنا بدا أن عدد القتلى كان ٧٢ فقط. يحدد الطبري والديتوري أسماء القبائل وعدد الرؤوس الذين أخذتهم قبائلهم إلى الكوفة كما يلي: كندة ١٣؛ هوازن ٢٠؛ تميم ١٧؛ أسد ٦، مذحج ٧؛ ثقف ١٢؛ الأزد ٥ بالإضافة إلى سبعة آخرين من قبائل غير معروفة

تخالفاً<sup>٦٠</sup>. هناك بعض الاختلاف بين الطبري والدينوري. ويؤكد فحص دقيق للمصادر الأخرى أن ٧ رؤوس حملتها مذبح و ١٢ رأساً حملتها ثقيف. وهذا يجعل مجموع الرؤوس التي عرضت على ابن زياد ٨٧ رأساً.

ونخبرنا الطبري ومصادر أخرى بالتفصيل كيف تدبر أتباع الحسين المخلصين خروجهم سراً من الكوفة ووصلوا كربلاء.<sup>٦١</sup> وبالإضافة إلى ذلك، نجد بعض الأسماء ممن جازوا إلى كربلاء ضمن الجيش الأموي، وعندما شاهدوا انتهاك الحرمات ومعاملة الجيش الأموي لحفيد النبي، لم يستطيعوا مقاومة مشاعرهم تجاه الحسين، فتركوا الجيش الأموي وألقوا بأنفسهم إلى جانبه. فقد ذكر أنه إلى جانب تحوّل الحر بن يزيد السدي روي بتفاصيل دقيقة ثمة ثلاثون من وجهاء الكوفة هربوا قبل المعركة وانضموا إلى الحسين صباح عاشوراء.<sup>٦٢</sup> وأكثر من ذلك، من الجدير بالملاحظة أن الحصار الذي فرضه الجيش الأموي على الكوفة وما حولها ومنع الدخول إليها والخروج منها جعل من المستحيل علي غالبية شيعة الكوفة المختفين فيها و القاطنين في المدن الأخرى مثل البصرة الوصول إلى كربلاء لمساعدة الحسين. ومع ذلك، فإن قلة من الأفراد وصلوا كربلاء واشتركوا في المعركة.<sup>٦٣</sup> وبناء على ذلك، فإننا نستطيع الافتراض بأنه لولا العوائق الكثيرة، وضيق الوقت الذي لم يتح الفرصة "للتوايين" لتحريك قواهم، لكان هؤلاء -الذين ضحوا بأنفسهم على اسم الحسين- انضموا إلى الحسين في كربلاء. من جهة أخرى، إن هدف هذا الافتراض ليس القول أن أولئك الذين ضحوا بأنفسهم مع الحسين وبعده في ظل

الظروف القائمة كانوا سيغيرون قدر الحسين. إن من المؤكد أنه لم يكن هناك مجال لذلك، بسبب وجود جيش أموي منظم جيداً وقوة عسكرية جبارة إلى جانب طباع غالبية الكوفيين المتقلبة مضافاً إلى ذلك ضعف وقلة تنظيم حركة الشيعة ذات الحوافز الدينية. إن ما نريد قوله في هذا الصدد هو لو كانت الظروف أقل قساوة لما حدث قدر كربلاء بهذا الشكل من المأساوية وبدون مقاومة تذكر، ولكننا حصلنا على صورة أوضح لقوة الحركة الشيعية في تلك المرحلة. ولتأكيد نظرتنا يمكننا التذكير بالنجاحات التي تحققت بعيد كربلاء بزم من قصير - لكن تحت ظروف وفرص أفضل مما أتيج للحسين - حيث تحرك المختار وابن الزبير وكلاهما أقل أهمية من حفيد النبي.

ونود أن نشير هنا وسريعاً إلى أن المختار بن عبيد الله الثقفي تملك الكوفة عام ٦٦هـ - ٦٨٦م واستحوذ على العراق وبعض أجزاء من الولايات الشرقية من سورية معقل الأمويين الرئيسي باسم دم الحسين. ولكنه على كل حال، فقد كل ذلك وقتل عام ٦٧هـ - ٦٨٧م. أما عبد الله بن الزبير فأعلن نفسه خليفة عام ٦١هـ - ٦٨٠م وبحلول عام ٦٤هـ - ٦٨٤م احتل العراق وكامل الجزيرة العربية وبعض أجزاء من سورية. لكنه قتل في معركة مع الحجاج عام ٧٣هـ - ٦٩٢م بعد أن حكم حوالي تسع سنوات. إن تحليل وصف المصادر لحركة المختار وحركة ابن الزبير والتأييد الذي حازا عليه يؤكد أن بعض المجموعات من شيعة الحسين، الذين احسوا باليأس والمضللين أفسحوا المجال أمام مشاعرهم المناهضة للأمويين فانضموا إلى هذين المعامرين. وهذه المقارنة بين ما جرى للحسين

وما جرى لطهين المغامرين - المختار وابن الزبير - تقودنا إلى نقطة هامة أخرى. فقد نجح ابن الزبير والمختار في مغامرتهما وحققا نجاحاً سياسياً معتبراً واستطاعا بسط حكمهما على مناطق محددة من العالم الإسلامي لبضع سنوات، ولكن ما من أحد منهما استطاع أن يخلف وراءه أي أتباع ذوي ميول دينية بعد سقوطه، ورغم أنهما استشهدا كما استشهد الحسين. فليس لدينا أي إثبات أن ابن الزبير خلف أي أتباع كطائفة دينية، أما اسم المختار فقد بقي يتردد لوقت قصير، ثم اختفى واندمج أتباعه في مجموعة أكبر.<sup>٦٤</sup> والسبب في الحالين واضح جوهري. فلا المختار ولا ابن الزبير ولا أتباعهما كان لهم مثل محددة أو آراء خاصة يمكن أن تعيش في ذاكرة الفكر الديني الإسلامي. أما الحسين وقضيته وبرغم الفشل العسكري الذي حلّ بهما، فقد ألزم بهما قسم كبير ومعروف من الجماعة المسلمة، وصار اسم الحسين رمزاً وهوية لثاني أكبر مجموعة في الأمة الإسلامية. وما ذلك إلا حقيقة أن حركة الحسين كانت مؤسسة على عقيدة خاصة في القيادة الإسلامية التي أوضحناها في الفصلين الأولين من هذا الكتاب، والتي فصلتها رسائل الحسن لمعاوية ورسائل الحسين للكوفيين. لقد انمحت ذكرى المختار وابن الزبير إلا من صفحات كتب التاريخ. أما ذكرى الحسين فبقيت حية في قلوب وعقول المسلمين وأصبحت موضوعاً متكرراً لقيم معينة. والفريق المسلم الذي تمسك بقضية الحسين وذكراه على حساب الوقائع السياسية وبغض النظر عنها بقي جزءاً عضوياً أساسياً في الوجود الإسلامي، أفرزته الأكثرية المسلمة ليصبح بحكم



طائفة إسلامية استسلمت مكرهة للوقائع السياسية برغم فكرها ومشاعرها الدينية.

بعض المؤرخين المسلمين الذين كانوا يكتبون تحت تأثير السلطات، الحاكمة آنئذٍ، وأولئك المتكلمون (كتاب الفرق) الذين حاولوا بشكل طبيعي إيجاد موقف وسط بين السلطات الحاكمة من جهة والمسلمين العاديين من جهة أخرى، وصفوا ما قام به الحسين بأنه محاولة طموحة للوصول إلى السلطة السياسية ولكنه خطأ في التقدير. والأكاديميون الغربيون الدارسون الإسلام في محاولاتهم السطحية لدراسة نشاط الحسين اتبعوا أسلوباً آلياً محدداً يدعونه "مقاربة تاريخية علمية" فمدرسة الاستشراق الألمانية وهي الأولى التي دخلت حقل الاستشراق المعاصر -وبرغم أنها أنجزت مساهمات جادة وقيمة في بعض فروع الدراسات العربية الإسلامية بدقة وعمق مثيرين للإعجاب- تبنت أسلوباً تاريخياً لم يمكنها أبداً من فهم المشاعر الدينية والاستعدادات الفطرية وهما أمران حيويان وبالغا الأهمية لفهم التاريخ الديني وتطوراتهِ. وكان تأثير المدرسة الألمانية قوياً جداً إلى درجة أن هذا التوجه تشبث بموقفه، وتابعه في ذلك المستشرقون الفرنسيون والبريطانيون مع استثناءات قليلة. وبالتالي فإن من المؤسف أن يدرس هؤلاء المستشرقون مأساة كربلاء بأسلوب التأريخ الميكانيكي mechanical historicism ولم يحاول أي منهم دراسة نشاط الحسين من خلال وسائله وهدفه. وبالتالي كان من الطبيعي أن يصف هؤلاء المستشرقون الحسين بمغامر سيء الحظ حاول الاستحواذ على السلطة

السياسية، ووصفوا حركته بأنها تمرد على النظام القائم، ونشاطه بأنه خطأ قاتل في تقدير وعود الكوفيين.<sup>٦٥</sup>

لقد نوهنا سابقاً إلى أن الحسين كان واعياً بالموقف والنتائج. فقد حذره العديد من العارفين بالأمور أثناء رحلته من المدينة إلى مكسة ومنها إلى الكوفة بأن "قلوب العراقيين معه وسيوفهم مع بني أمية" ولكن جواب الحسين لجميع هؤلاء الذين حاولوا ثنيه عن هدفه، كان جواباً واحداً: "يفعل الله ما يشاء أسأل الله أن يختار الأفضل لا يخاصم الله من يعمل للحق".<sup>٦٦</sup> هذه الإجابات توضح أن الحسين كان واعياً تماماً بالمخاطر التي يواجهها، وأن لديه استراتيجية وخطة في ذهنه، وذلك أنه كان يريد أن يؤيد ثورة في وعي جماهير المسلمين. وأبعد من ذلك، إن من الواضح مما أوردته المصادر التي ناقشنا محتوياتها سابقاً أن الحسين لم يحاول تنظيم أو حشد تأييد عسكري، الأمر الذي كان سهلاً عليه أن يفعله في الحجاز، ولم يحاول حتى استغلال كامل القوة المتوفرة لديه. ومن بين أمثلة كثيرة تؤيد ما قلناه سنتصر على اقتباس واحد منها فقط. فعندما وصل إلى مكان يدعى "عذيب الهجانات" وقد عرف أن الكوفيين انفضوا عن مبعوثه مسلم بن عقيل، وسلموه لابن زياد فقتله، عندها تأكد الحسين أنه لا أمل له في الكوفيين، ولا أمل حتى في العيش في الكوفة. ومع ذلك رفض الأمان الذي قدم له. يروي أبو مخنف وآخرون أنه في هذا المكان وصل أربعة من قادة الشيعة تدبروا أمر خروجهم وانضموا إلى الحسين بمساعدة من الطرماح بن عدي الطائي الذي قادهم كدليل، وهناك ناشد الطرماح الحسين قائلاً: "والله إني لأنظر فما أرى معك أحداً، ولو لم

يقاتلك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازميك لكان كفى بهم — يقصد مجموعة من ١٠٠٠ فارس بقيادة الحر بن يزيد الرياحي كانوا يلازمون الحسين في مسيره...، وقد رأيت قبل خروجي من الكوفة إليك يوم ظهر الكوفة وفيد من الناس ما لم تر عيناى في صعيد واحد جمعاً أكثر منه، فسألت عنهم، ف قيل: اجتمعوا ليُعرضوا، ثم يسرحون إلى الحسين، فأنشدك الله إن قدرت على ألا تقدم عليهم شبراً إلا فعلت! فإن أردت أن تورل بلدأ بمنعك الله به حتى ترى من رأيك، ويستين لك ما أنت صانع فسر حتى أنزلك مناع جبلنا الذي يدعي "أجأ"، آمتعنا والله به من ملوك غسان وحير ومن النعمان بن المنذر ومن الأسود والأحمر، والله إن دخل علينا ذلّ قط؛ فأسير معك حتى أنزلك القرية، ثم نبعث إلى الرجال ممن بأجأ وسلمى من طيء، فوالله، فإن هاجك هيج فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائي يضربون بين يديك بأسياقهم، والله لا يوصل إليك أيداً ومنهم عين تطرف."٦٧ وكان جواب الحسين الوحيد على هذا العرض الثمين الذي جاء في الوقت المناسب، حين تلاشى كل أمل بنصرة الكوفيين، هو قوله: "جزاك الله وقومك خيراً، إنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسانا نقدر معه على الانصراف، ولا ندري علام تنصرف بنا وبهم الأمور في عاقبة."٦٨

لا يستطيع المرء إلا أن يتساءل كيف يمكن لرجل يحاول الحصول على التأييد أن يرفض قبول عرض بالتأييد. هل يمكن لأي إنسان أن يفكر أنه بعد أن عرف الحسين كل التطورات التي حصلت في الكوفة، أنه كان ما يزال يأمل أن يجد أي تأييد أو حتى أي حظ ولو ضئيل على العيش في

الكوفة؟ وأكثر من ذلك، فنحن نجد وصفاً تفصيلياً لحقيقة ما حدث في "زُبالة"، فحين عرف الحسين بالإعدام الوحشي لمبعوثه قيس ابن مشير جمع أصحابه وطلب منهم أن يتخلوا عنه ويتركوه وحيداً ويطلبوا النجاة لأنفسهم. وبعد زُبالة كور الحسين هذه النصيحة لأتباعه مرات عديدة، آخرها ليلة عاشوراء. هل من المعقول أن أي شخص يكافح من أجل سلطة يدع مؤيديه للتخلي عنه، مهما كان عددهم؟ لا يمكن أن يجب أي عاقل على هذه الأسئلة بالإيجاب. فما الذي كان في ذهن الحسين؟ ولماذا تابع مسيره نحو الكوفة؟

إن مما يجيب الآمال أن نرى الأستاذة الغربية في دراستها للإسلام، اهتمت كثيراً جداً بالوقائع التاريخية، وركزت انتباهها على مظاهر حدث كربلاء الخارجية البارزة، ولم تحاول قط أن تحلل التاريخ الداخلي والصراع المؤلم في ذهن الحسين. إن علم تشريح جسم الإنسان يقدم علماً عن مختلف الأعضاء وتركيبها، لكنه لا يقدم لنا فهماً للإنسان نفسه. أما في حالة الحسين، فإن الدراسة الجدية وتحليل الأحداث في كربلاء جميعها تكشف عن حقيقة أن الحسين منذ البداية خطط لثورة كاملة في وعي المسلمين. وكل تصرفات الحسين تظهر أنه كان مدركاً لحقيقة أن نصراً يتحقق من خلال قوة عسكرية وجيروت هو دائماً نصر مؤقت، لأن قوة أخرى أكثر جيروتاً تستطيع بمرور الزمن أن تحطمه. لكن نصراً يتحقق من خلال الآلام والتضحية هو نصر خالد، يترك آثاراً دائمة في وعي الإنسان. نشأ الحسين في حضن مؤسس الإسلام، وورث حب أسلوب الحياة الإسلامية والإخلاص لها من والده. لقد أدرك الحسين أنه بمرور الوقت ثمة تغيرات

هائلة جرت بسرعة ضمن الأمة غاصّة النظر عن المشاعر الدينية والأخلاقية. وحلّ زمان الفعل ورد الفعل. وذلك، أن فعل محمد الإسلامي التقدمي نجح في قهر المحافظة conservatism العربية التي تجلّت في ممارسات وفكر العرب في الجاهلية. لكن هذه المحافظة انتعشت بعد أقل من ثلاثين عاماً على وفاة محمد كرد فعل تتحدى ما قام به مرة أخرى. بدأت أقوى ردة الفعل هذه التحرك مع ظهور معاوية، لكن خلافة يزيد كانت علامة واضحة على أن هذه القوى حشدت طاقاتها وظهرت آنذاك بكل جبروتها. طاقة هذه القوى التي تجسدت في طبائع يزيد كانت قادرة على كبت أو على الأقل تشويه ما نجح فيه محمد. ورأى الحسين الإسلام في حاجة ماسّة لإعادة تنشيط عمل محمد ضد ردود أفعال العرب القديمة، وهذا ما تطلب صدمة قوية جداً. هذه الصدمة ما كانت لتكون مؤثرة جداً في أيام الحسن لأن منافسه معاوية الذي حاول سبرغم ضالة احترامه للدين - وعلى الأقل ظاهرياً أن يخفي طبعه القبلي الارتدادي: أما يزيد فلم يهتم حتى بهذه الإدارة؛ فقد تباهى بانتهاك سنة محمد والمعايير القرآنية ومارس ذلك بكل جسارة. وهكذا صار الصراع بين ارتداد يزيد ونشاط محمد الإسلامي مباشراً وعلناً. ظهر ذلك مثلاً حين قدم يزيد إلى المدينة المنورة في موسم الحج وهناك ضبط سكراناً بخرم شربه. وحصل أن مرّ به ابن عباس والحسين فأمر يزيد خادمه أن يقدم الخمر للحسين، واصرّ على الحسين أن يشرب الخمر. وعندما غضب الحسين ونهض مغادراً غنى يزيد منشداً:

الا يا صاح للعجب دعوتك ثم لم تجب

إلى النقيات واللذات والصهباء والطرب  
وباطية مكللة عليها سادة العرب  
وفيهن التي تلبست فؤادك ثم لم تسب

فأجابه الحسين: "بل فؤادك يا ابن معاوية."<sup>٦٩</sup>

الآن، هذا هو يزيد بن معاوية خليفة المسلمين يطلب من الحسين بن علي أن يقبل بسلكته. إن قبول الحسين بيزيد بموقفه الارتدادى عن المعايير الإسلامية كان لا يعنى مجرد القبول بترتيبات سياسية كما كان الحال بين الحسن بن علي ومعاوية بن أبي سفيان، بل يعنى الموافقة على طباع يزيد وسلوكه المشين أيضاً. لم يكن هذا أمراً يمكن أن يقبله أو يفكر به حفيد النبي وهو الآن رأس عائلة محمد ونجس سته.

ولكى يواجه الحسين هذا الارتداد الأموي على العملية الإسلامية فقد أعد استراتيجية الخاصة. ويرأى الحسين أنه يمتلك الحق، بفضل محدده العائلي وموقفه الخاص الناتج عن نسبه ليقود الناس ويتلقى تقديرهم واحترامهم. على كل حال، إذا كان حقه هذا موضع تحد فإنه كان راعياً أن يضعي ويموت في سبيل قضيته. وتأكد الحسين أن مجرد القوة المسلحة لن تنقذ القيم الإسلامية وتوقف الضمير الإنساني. بل رأى أن ذلك يحتاج إلى صدمة مشاعر ورجة قلوب. وهكذا قرر أن ذلك يحتاج إلى توضحية فريدة وآلام هائلة. وليس هذا صعباً على فهم أولئك الذين يقسّدون بشكل خاص الأعمال البطولية والتضحيات الرائعة لكل من سقراط ويوحنا المعمدان، على سبيل المثال، وكلاهما احتضنا الموت في سبيل

مثلهما، وفوق كل ذلك، آلام وتضحية عيسى المسيح لفداء النوع الإنساني.

ومن هذه الزاوية وعلى ضئونها علينا أن نفهم إجابات الحسين لأرئك الناصحين الذي حاولوا ثنيه عن التوجه إلى العراق. وهذا يفسر أيضاً هدف الحسين من أخذ نسائه وأطفاله معه، برغم أن عبد الله بن عباس نصحه بأنه إذا أصرّ على تنفيذ خطته فعليه، على الأقل، ألاّ يسطحب أفراد عائلته معه. كان الحسين مدركاً لأبعاد الطبيعة الوحشية لقوى الارتداد وعرف أنه إذا قتل بيد الأمويين فإنهم سيأخذون نساءه وأطفاله أسرى على طول المسافة من الكوفة إلى دمشق. وهذه القافلة من أسرى عائلة محمد المباشرين ستعمم رسالة الحزن وتجبر قلوب المسلمين على التفكير ملياً بهذه المأساة. وستجعل هذه القافلة المسلمين يفكرون بأحوال الأمة كاملة وبالتالي توقظ ضمائرهم. وهذا ما حصل بالضبط. ونجح الحسين في تحقيق هدفه. إن من الصعب اليوم أن نثمن بدقة آثار عمل الحسين على ضمائر المسلمين وطريقة تفكيرهم، لسعة وعمق تلك الآثار. فلو لم يوقظ الحسين ضمائر المسلمين ويصدم مشاعرهم، من يدري، لربما صارت طبيعة يزيد وسلوكه معيارين نموذجيين لسلوك المسلمين إذا أيدهما ودعمهما حفيد نبي الإسلام. نعم، لقد ساد سلوك يزيد بعد انتهاء فترة ملكه وانتشر بين خلفائه، وكان كل منهم يزيد عصره، لكن تغير طريقة التفكير الذي أحدثته تضحية الحسين أدى دوره دائماً، بصفته خط تمييز بين المعايير الإسلامية الصحيحة وبين طباع الحكام (الخلفاء) الشخصية وسلوكهم.

امتدح المؤرخون والمؤلفون المسلمون دائماً ونوهوا بالعمل البطولي الذي قام به الحسين، عدا قلة من كتاب القرون الوسطى الذين التزموا بمصالح معينة. ومن المشجع في العصر الحالي أن يتزايد عدد الكتاب المسلمين من جميع المذاهب والمدارس الفكرية الذين ينتجون أعمالاً موضوعية يفسرون فيها فلسفة تصحية الحسين واستشهاده. ومن بين العديد من هؤلاء نذكر اثنين فقط ممن نشروا كتباً منذ عقود قليلة تزامنت مع يقظة العالم الإسلامي الأول هو الكاتب المصري المشهور عباس محمود العقاد وكتابه يدعى "أبو الشهداء الحسين بن علي"<sup>٧٠</sup> والثاني هو الأستاذ الشيخ اللبناني العظيم عبد الله العلايلي وكتابه "الإمام الحسين سمو المعنى في سمو الذات"<sup>٧١</sup> وفيهما دراسة شاملة لحياة الحسين وعصره واستشهاده. كلا الكاتبين العقاد وهو أستاذ علماني للتاريخ والفلسفة والثاني شيخ من مستوى رفيع وأستاذية متفوقة، ناقشا بدقة معاني وأهداف وفلسفة ومثل الحسين وعمله.

نتحول الآن لمناقشة النتيجة الثانية التي نستخلصها من الخطوط العريضة لسلسلة أحداث كربلاء التي رويناها سابقاً: ولتحديد المشاعر الدينية لأولئك الذين قدموا حياتهم راغبين مع الحسين. حين تصف مصادرتنا المأساة تزودنا بروايات وفرة عن المشاعر العقائدية التي ألزمت مؤيدي الحسين لاختيار الموت معه على الحياة السلمية والراحة، ذلك الخيار الذي ظل متاحاً أمامهم حتى اللحظة الأخيرة. ويمكن توضيح ذلك من خلال فحص الخطب وعهود الولاء التي قطعوها على أنفسهم في مناسبات عديدة. وكذلك من خلال الرجز المتبادل بين المتبارزين. كان من عادة



العرب عندما يتبارز متنافسان أن يعلن كل منهما عن هويته وقبيلته وأعمالها، ومزجه فيها والقضية التي يقاتل من أجلها. ويكفي هنا أمثلة قليلة من كل صنف من الأصناف الثلاثة لبيان أنه كان ثمة موقف عقائدي خاص لأتباع الحسين وقد استشهدوا من أجله.

١- لقد مرّ معنا أن مبعوث الحسين قيس بن مشر الصيدائي الذي أرسله الحسين من حاجر إلى الكوفيين ليخبرهم بوصول الحسين، فأخذه الحصين بن تميم في القادسية، وبعث به إلى ابن زياد في الكوفة. فأمره ابن زياد أن يصعد إلى أعلى القصر ويسبّ الحسين إن رغب في السلامة. استغل قيس هذه الفرصة ليدعو إلى قضيته فخطب في الناس قائلاً: يا أهل الكوفة، أنا رسول الحسين، أشهد أمامكم أن الحسين حفيد النبي هو خير رجل في زمانه بين رجال الله في أرضه وله أفضل الحق عليكم أكثر من سواه، وإن واجبكم أن تحبوه. ثم لعن قيس ابن زياد وأباه، وصلى على الحسين وأبيه.<sup>٧٢</sup> فألقي به من أعلى القصر. إذا قارنا موقف قيس بموقف حجر بن عدي الكندي قبل اثني عشر عاماً نجد استمرارية في التفكير تصل الاثنين بسلسلة الفكر الشيعي. فتقدم قيس للحسين بإشارة خاصة لصلته بالنبي وتصريحه بأنه أفضل رجال الله في زمانه على الأرض يعود إلى الأفكار التي صدرت عن مؤيدي علي منذ البداية.

٢- كما مرّ معنا سابقاً، ففي ذروة أحداث عاشوراء وليلة ٩ محرم أمر ابن سعد قواته بالتقدم نحو محيم الحسين بعد أن تلقى أوامر ابن زياد بالهجوم الفوري عليه. ليلتها أرسل الحسين أخاه العباس بن علي مع

بعض قادة أتباعه ليطلب ليلة من الهدنة. وبعد بعض الجدل تمت الموافقة على الطلب، وعاد العباس لإعلام أخيه الحسين بذلك، لكن حبيب بن مظاهر وزهير بن القين الذين رافقا الحسين في رحلته بقيا في المعسكر الأموي محاولين إقناع هذا المعسكر بخطأ ما يقومون به من مهاجمة الحسين. حفظت لنا المصادر بعض الحوارات المفيدة بين الرجلين وخصومهما. تكلم حبيب أولاً لأعدائه قائلاً: "أما والله لبئس القوم عند الله غداً قوم يقدمون عليه وقد قتلوا ذرية نبيه عليه السلام وعترته وأهل بيته صلى الله عليه وسلم وعباد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار، والذاكرين الله كثيراً." فقال له عزرة بن قيس: "إنك لتزكي نفسك ما استطعت." مما يعني: لا تحاول إقناعنا. عندئذ رد عليه زهير بن القين قائلاً: "يا عزرة، إن الله قد زكّاها وهداها، فاتق الله يا عزرة فإني لك من الناصحين، أنشدك الله يا عزرة أن لا تكون ممن يعين الضالّ على قتل النفوس الزكية." فقال عزرة بن قيس: "يا زهير ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت، إنما كنت عثمانياً." فأجابه زهير: "أفلمست تستدل بموقفي هذا أي منكم، أما والله ما كتبت إليه كتاباً قط، ولا أرسلت إليه رسلاً قط، ولا وعدته نصرتي قط، ولكن الطريق جمع بيني وبينه، فلما رأيته ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منه، وعرفت ما يقدم عليه من عدوه وحزبكم، فرأيت أن أنصره، وأن أكون في حزبه، وأن أجعل نفسي دون نفسه، حفظاً لما ضيعتم من حق الله وحق رسوله عليه السلام." ٧٣

٣- بعد هدنة تلك الليلة، وبعد تلاشي كل الآمال، صار من المؤكد أن الصباح سيجلب معه دعوات الموت للحسين وأنصاره. عندها جمع الحسين أصحابه، وطلب منهم أن يغادروا ويدعوه وحيداً، ذلك لأن أعداءه لا يريدون سوى رأسه. عندئذٍ رفض كل القادة البارزين من أنصاره وكذلك أقاربه التخلي عنه، حتى يقتلوا جميعاً. وربما كان علينا أن نتجنب ذكر العهود التي قطعها أقاربه على أنفسهم مثل أخيه العباس وأبناء مسلم بن عقيل..<sup>٧٤</sup>، وذلك لأنها (هذه العهود) يمكن أن تفسر على أنها ولاء طبيعي لكبير عائلة الهاشميين. وبالتالي، سنكتفي بذكر عهود أولئك الذين لا تقوم بينهم وبين الحسين رابطة الدم (القربة) من أي نوع، إلا الرابطة الدينية أو الولاء العقائدي.

فمن بين أصحاب الحسين وقف مسلم بن عوسجة الرجل المتقدم في السن وكان في الخامسة والسبعين من عمره قائلاً: "أنحن نخلي عنك ولما نَعذر إلى الله في أداء حَقِّك! أما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضرهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولا أفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به، لقدفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك."<sup>٧٥</sup>

بعدها خاطب سعد بن عبد الله الحنفي الحسين قائلاً: "والله لا نخليك حتى يعلم الله أننا حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك، والله لو علمت أنني أقتل ثم أحيى ثم أحرق حياً ثم أذرى، يفعل ذلك بي سبعين مرة، ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك، وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.

وفي كتاب البداية والنهاية تقرأ: "والله لو علمت أبي أقتل دونك ألف مرة، وأن يدفع الله بذلك القتل عنك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك لأحببت ذلك وإنا هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً." ٧٦

بعد أن تذكر مضادونا خطاباً مماثلاً قاله زهير بن القين، تلخص قول جميع أصحاب الحسين قراراً يؤكد ما قيل، ومعلنين ولاءهم الكامل للحسين قائلين كما يذكر الطبري: "وتكلم جماعة من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فقالوا: والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نفيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قُتلنا كنّا وقينا، وقضينا ما علينا." ٧٧

إن جميع الخطب والتعهدات تؤكد نقاطاً مفيدة، فهي تؤكد أن الأساس الدينية هي التي جعلت أصحاب الحسين ثابتين ومتحمسين جداً، حتى في لحظات الكارثة. والنقاط البارزة في هذه التعهدات هي:

أ- تأكيد صلة الحسين المباشرة بالنبي أكثر من صلته بأبيه علي؛

ب- خيانة الحسين هي خيانة النبي أو الإخلاص للحسين هو إخلاص للنبي محمد؛

ت- التخلي عن الحسين هو تخلي عن الإسلام، الذي أوحى للناس من خلال جده النبي؛

ث- إن خيانة الحسين في هذا اليوم (عاشوراء) ستهلكهم يوم  
القيامة وتحرمهم من شفاعته النبي.

إن جوهر كل هذه النقاط هو أنه كان في تفكيرهم عقيدة راسخة  
بضرورة وجود إمام أو سلطة مركزية هي محور جوهري يجسد  
فكرة أن حب هذا الإمام هو بالتأكيد حب مباشر لشخص النبي  
نفسه. ٧٨

٤- صباح يوم عاشوراء، وقبل وقوع الكارثة الكبرى، اندفع الحر بن  
يزيد وهو قائد محترم في الجيش الأموي الذي كان أول من التقى  
بالحسين ومعه ١٠٠٠ فارس وأجبره أن يتوقف في كربلاء - كما  
ذكرنا سابقاً- وقع تحت تأثير صراع داخلي حين استيقظ ضميره  
وتحركت مشاعره. ففكر الحر ملياً، ودار صراع في ذهنه بين أن يلوث  
يديه بدم الحسين حفيد النبي وبين أن يتخلى عن مكانته وسلطته  
العسكرية التي كانت تؤهله لمكانة أرفع عند الأمويين. وربحت  
مشاعره الدينية أخيراً معركة ذلك الصراع، فتحول فجأة على فرسه  
نحو مخيم الحسين. ويروي الطبري ذلك فيقول: "وأخذ يدنو من  
الحسين قليلاً قليلاً، فقال له رجل من قومه يقال له المهاجر بن أوس:  
ما تريد يا ابن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟ فسكت وأخذه مثل الغرّاء  
(كفلّوا: الرعدة من الحمى)، والله إن أمرك لمريب والله ما رأيت منك  
في موقف قط مثل شيء أراه الآن، ولو قيل لي: من أشجع أهل  
الكوفة رجلاً ما عدوتك، فما هذا الذي أرى منك! قال الحر: إني  
والله أخير نفسي بين الجنة والنار، والله لا أختار على الجنة شيئاً ولو

قُطعت وحرقت، ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين عليه السلام فقال له: جعلني الله فداك يا ابن رسول الله! أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع، وسأيرتك في الطريق، وجمعت (أقلقت) بك في هذا المكان، والله الذي لا إله إلا هو، ما ظننت أن القوم يردّون عليك ما عرضت عليهم أبداً، ولا يبلغون منك هذه المزلّة. فقلت في نفسي: لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم، ولا يرون أبي خرجت من طاعتهم، وأما هم فسيقبلون من الحسين هذه الخصال التي يعرض عليهم، والله لو ظننت أنهم لا يقبلونها منك، ما ركبتها منك، وإني قد جئت تائباً مما كان مني إلى ربي، ومواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك، أفترى ذلك لي توبة! قال الحسين: نعم، يتوب الله عليك، ويغفر لك، ما أسمك؟ قال: أنا الحر بن يزيد، قال الحسين: أنت الحرّ كما سمّيتك أمك، أنت الحر إن شاء الله في الدنيا والآخرة؛ انزل، قال الحر: أنا لك فارساً خير مني راجلاً، أقاتلهم على فرسي ساعة، وإلى السّرول يصير آخر أمري. قال الحسين: فاصنع يرحمك الله ما بدا لك.<sup>٧٩</sup>

عندها تقدم الحر نحو الجيش الأموي فكلّمهم بكلام طويل لصاخ الحسين، وأدان أعمالهم تجاه حفيد النبي، ووبّخهم، وذكرهم بالحساب يوم القيامة.<sup>٨٠</sup> إن تحول الحر إلى جانب الحسين وفدّاه بنفسه قبل بدء المعركة بقليل، وأن الجيش الأموي قتله هو حقيقة تاريخية كما هو حدث كربلاء أجمعت على ذلك جميع المصادر التاريخية.

إن تحول الحر كعمل مادي ليس هو المهم، وإنما المبدأ الديني الذي جسّده هذا التحول هو المهم وهو ما يجب التركيز عليه بجدية. فقد

كان هذا التحول أعظم نصر لقضية الشيعة التي ضحى من أجلها الحسين وأصحابه. وما كان تفكير الحرّ وما دار في ذهنه إلا ما كان يفكر به جميع أصحاب الحسين. وهذا أيضاً يؤيد الرأي القائل بأن ثمة طريقة للتفكير خاصة عزّزت العقيدة الشيعية.

هـ- لا تقل أهمية الرجز الذي تبادله الطرفان عن أهمية الخطب. ومن أوضح ما قيل رجزاً:

أ- ما قاله الحرّ نفسه عندما برز للقتال، قال:

آليت لا أقتل حتى أقتلا	ولن أصاب اليوم إلا مقبلا
أضربهم بالسيف ضرباً مقصلا	لا ناكلاً عنهم ولا مهللاً
أضربهم في أعراضهم بالسيف	عن خير من حلّ مني والخيف. <sup>٨١</sup>

(أي في مكة)

ب- وتقدم نافع بن هلال الجملي مرتجماً: "أنا الجملي، أنا على دين علي." ومن الجانب الأموي تقدم نحو نافع رجل يقال له مزاحم بن حريث فقال: "أنا على دين عثمان" فأجابه نافع: أنت على دين شيطان.<sup>٨٢</sup>

ت- عندما تقدم زهير بن القين للقتال قال:

"أنا زهير وأنا ابن القين      أذودهم بالسيف عن حسين

ثم تابع يقاتل بين يدي الحسين وهو يرتجز ويقول:

أقدم هُديت هادياً مهدياً      فاليوم تلقى جدك النبا  
وحسناً والمرضى علياً      وذا الجناحين الفتى الكما

(جعفر بن أبي طالب)

وأسد الله الشهيد الحبي<sup>٨٣</sup>. يقصد حمزة بن عبد المطلب الذي قتله  
الأمويون في موقعة أحد.

إن الرجز الذي قاله المتقاتلون من الطرفين، وقد وصلنا في مصادر موثوقة،  
وسنقصه لاحقاً يزودنا بقراءة مفيدة وبنقاط هامة. وقد اقتبسنا ثلاثة  
أمثلة فقط بغية الإيجاز. هذا الرجز يشير إلى أن تيار الفكر الشيعي كان  
ناشطاً تماماً بين أولئك الذين اختاروا التضحية بأنفسهم مع الحسين. إن  
عبارة الحر بن يزيد بأن الحسين أفضل من سكن مكة "إمام" وتصريح نافع  
وزهير بأنهما كانا على دين علي وعلى الصراط المستقيم هو تفسير كامل  
لعتيدتهم، ولا يحتاج إلى المزيد من الشرح. ومع ذلك، فإن تصريحات  
صحابه الحسين بأنهم كانوا على دين علي تفيد بالتأكيد بأن هذا المصطلح  
"دين علي" قد استعمل على أساس ديني عقائدي، وبما يناقض استخدام  
الذين كانوا مع علي في معركتي الجمل وصفين ومناسبات أخرى، على  
أساس سياسي والذين تغيرت مواقفهم بتغير الظروف السياسية فالتحقوا  
بالأكثرية الذين يقدمون الآن على قتل ابن علي. ومن طرف ثانٍ عندما  
ننظر في هذه الاقتباسات نجد أنه خلال حدث كربلاء كان هناك إصراره  
وميل عقائدي متماسك بين أتباع الحسين، مؤسس على تصريحاتهم



بتفاصيل أكثر ليصبح عقائد شيعية طورت ذاتها في مجالي علم الكلام النظري وعلم الفقه بشكل مغاير لما لدى بقية المسلمين.

علق الأستاذ فلييب حتي على مأساة كربلاء فقال: "إن التشيع ولد في العاشر من محرم".<sup>٨٤</sup> لكن المعلومات المستقاة من مصادرنا، وكل البراهين التي قدمناها ترفض هذا الرأي كلية. وبدلاً من ذلك، فإن دراسة متأنية للمواد التي وصلتنا من مصادر مختلفة الآراء والميول تؤكد حقيقة أن موقف العقيدة الشيعية ابتدأ منذ وفاة النبي، وكان موت الحسين بمثابة الخاتم على صيغة التشيع الرسمي.<sup>٨٥</sup> ويهدف تأكيد هذه الحقيقة ذهبنا إلى تفاصيل مطوّلة واقتبسنا من الخطب والتعهدات وشعر الحرب (الرجز) التي قيلت "قبل" استشهاد الحسين، وكلها توضح بجلاء طبيعة الميول القائمة والمنتشرة "قبل" حدوث المأساة. وما يصحّ أن يقال هو أن مأساة كربلاء قامت بدور هام وأكيد، لا في خلق التشيع، بل في تعزيز وتوطيد أركان الهوية الشيعية. إن قدر الحسين صُمم ليصبح العامل الأكثر تأثيراً في الدعوة إلى التشيع وفي سرعة انتشاره. وأضافت مأساة كربلاء إلى التشيع الإسلامي الإحساس "بالألم" الذي يؤثر في سيكولوجية الإنسان ويجعل الإنسان أكثر استعداداً للتقبل من البراهين العقائدية النظرية وأي شيء آخر. وهكذا نجد أن جزئيات هذا الألم أصبحت علامات مميزة في الشيعية. نعم، نتج عن مأساة كربلاء ظهور حركة التواوين مباشرة، وجعلت ثلاثة آلاف منهم يضحون بأنفسهم توبة عن إخفاقهم في نصره الحسين حفيد النبي. كما هيأت المناخ للمختار كي يبدأ حركته.

وزودت العباسيين بشعار جذاب لإنهاء الحكم الأموي. وأخيراً، صار اسم الحسين وذكره جزءاً أساسياً من أخلاق وحماس الشيعة المسلمين.<sup>٨٦</sup>

نورد الآن تعليقاً موجزاً عن مصداقية مصادر معلوماتنا عن كامل رواية كربلاء، بما في ذلك الخطب والتعهدات والرجز والتي تلفظ بها أصحاب الحسين بالترتيب. فالمصدر الأساسي لمعلوماتنا حول كربلاء هو أبو مخنف لوط بن يحيى توفي ١٥٧هـ - ٧٤٤م وهو أول من كتب رواية شاملة عن كربلاء، وكان عنوان كتابه "مقتل الحسين"، وقد ذكر هذا الكتاب عند جميع كتاب التراجم.<sup>٨٧</sup>

وأبو مخنف هذا هو أحد أفضل المؤرخين العرب الأوائل، وقد درس آثاره دراسة نقدية مفصلة أساتذة مثل فلهوزن<sup>٨٨</sup> وآخرون ومؤخراً دَرَسَهُ أرسولا سيزن Ursula Sezgin في كتاب جدير بالإعجاب بعنوان "أبو مخنف"<sup>٨٩</sup> وقد وجدته -بشكل عام- أكثر المؤرخين مصداقية ودقة فيما كتبه عن حواريات (التاريخ بحسب السنوات) الكوفة والعراق أثناء الحكم الأموي. وتؤكد أنه لم يأخذ رواياته من مؤلفين سبقوه أو من مصادر بعيدة عن الأحداث، ولكنه جمعها بنفسه من خلال بحثه والسؤال عنها من جهات مختلفة ومن شخصيات عديدة قدر أنها على دراية كاملة بالأحداث ممن لديه معلومات أولية first hand أو حضر فرأى وسمع بنفسه. إنها سلسلة رواية حقيقية وليست شكلاً من أشكال الكتابة الأدبية (أي التي يدخل فيها الخيال)، وهي دائماً مختصرة. ويقول عنه إن أبا مخنف كان يدون رواياته مباشرة بعد الأحداث، أو يأخذ عن رواة حضروا الحدث مباشرة.<sup>٩٠</sup> ويرى هاملتون جب Gibb أن أبا مخنف يمثل العراقيين أو

الكوفيين وليس وجهة النظر الشيعية حين كتب تاريخه.<sup>٩١</sup> وموقفه يمثل وجهة نظر العراقيين في مواجهة رأي السوريين، وموقف علي المضاد لموقف الأمويين. ومع ذلك يرى فلهوزن أنه لم يلاحظ من الحباة ما يستحق معه الشك بروايات أبي مخنف.<sup>٩٢</sup>

وصلنا كتاب "مقتل الحسين" عبر مصادر متعددة. إنه الطبري، على كل حال، الذي استفاد من هذا الكتاب بالكامل ولأول مرة، وبالتالي صار مصدرنا الأساسي الذي اعتمدنا عليه. وفي معظم الحالات يقتبس الطبري أبا مخنف مباشرة، ولكن في روايات قليلة جداً يقتبس من هشام بن محمد الكلبي ومعظم روايات الكلبي مأخوذة من أبي مخنف نفسه. ويبدأ الطبري أحياناً روايته بقوله: قال أبو مخنف عن فلان عن فلان ...، وفي حالات أخرى يقول: قال هشام بن الكلبي عن أبي مخنف عن فلان عن فلان وهذا يعني أن الطبري في الحالة الأولى يقتبس أبا مخنف مباشرة، أما في الحالة الثانية فيقتبس أبا مخنف عبر نص نقحه ابن الكلبي. وإلى جانب أبي مخنف يقتبس الطبري أيضاً روايات قليلة جداً من رواة آخرين، يضيفون اختلافات قليلة، وفي معظم الحالات يؤكدون رواية أبي مخنف.

ثمة مصدر آخر استفاد من كتب أبي مخنف هو البلاذري توفي ٢٧٩هـ — ٨٩٢-٨٩٣م حين دون كتابه "أنساب الأشراف"، والفصل الخاص بالحسين لم ينشر بعد، لكن فيثيا فغليري Vaglieri أطلعت عليه واستخدمته في مقالها المطول والدقيق عن الحسين والذي كتبه في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية. وقد وجدت فغليري أن البلاذري استفاد من مصادر الطبري نفسها، لكنه أخذ خلاصتها غالباً، وبدأ روايته

به قالوا ثم أضاف بعض أبيات الشعر وعندما دققنا المخطوطة وجدنا أنفسنا نوافق ما قاله فعلي، لذلك رأينا أن اقتباس مخطوطة الأنساب ليس ضرورياً.<sup>٩٣</sup>

إلى جانب هذين المؤرخين (الطبري والبلاذري) الذين استفادا من أبي مخنف، ذكرنا ابن كثير توفي ٧٧٤هـ - ١٣٧٢م وهو تلميذ ابن تيمية، وسني من المدرسة السورية ملتزم بمذهبه، وناقد حاد للشيعه، وغالباً ما يذكر الشيعة باسم "الروافض" واختار ابن كثير مراجعه، وغالباً ما تجاهل روايات أبي مخنف التي لا توافق مصالحه، مثل ما ذكره أبو مخنف عن عثمان؛ وفيما عدا ذلك فقد قبل بمعظم رواياته. ومن جهة أخرى، فإن الكتاب الشيعة، مثل الشيخ المفيد ٣٣٦هـ - ٩٤٧م - ٤١٣هـ - ١٠٢٢م في كتابه الإرشاد وغيره فقد روى مأساة كربلاء من مصادره الخاصة إلى جانب رواية أبي مخنف، وغالباً ما عاد إلى رواية علي بن الحسين. ابن الحسين هذا كان في الثالثة والعشرين من عمره حين كان حاضراً في كربلاء، ولم يستطع المساهمة في القتال بسبب مرضه الذي ألغته من المذبحة الجماعية. وهذا ما يجعله الراوي الأساسي للمأساة. إن من المفيد بالفعل أن نلاحظ أن الخطوط العامة للأحداث الرئيسية التي ذكرها الشيخ المفيد وهو شيعي ملتزم بشيعيته تتوافق مع ما رواه ابن كثير.

عند فحص كتاب أبي مخنف "مقتل الحسين" يجب أن نأخذ بالحسبان عامل الزمن وهو بالتأكيد لصالح أبي مخنف. فنحن لا نعرف ميلاده بالتحديد، ولكن عندما نهض ابن الأشعث على الحجاج ٨٠-٨٢هـ - ٦٩٩-

٧٠٢م،<sup>٩٥</sup> كان أبو مخنف قد وصل سن النضج.<sup>٩٥</sup> وحدثت مأساة كربلاء عام ٦١هـ - ٦٨٠م وهذا يعني أن أبا مخنف قد ولد في عام المأساة نفسه على الأغلب، وكان أيام ثورة ابن الأشعث ما بين الثامنة عشرة إلى الثانية والعشرين من عمره. ومن المؤكد أن العديد ممن اشترك في معركة كربلاء من الجانب الأموي كانوا على قيد الحياة، وبالتالي فقد استغل المؤلف الفرصة وقابل واستنطق هؤلاء الذين شهدوا الحدث شخصياً. لهذا السبب نجد أبا مخنف يتحدث بإصرار عندما يذكر رواته بقول الراوي: كنا قد شهدنا قتل الحسين. وكان أبو مخنف يستخدم الفعل حدثني؛ وحين كان يروي عمن لم يشهد المعركة، وهذا على العموم قليل- كان يذكر الناقل عمن شهد الحدث. وبالتالي، إن رواية ما اقتبسناه سابقاً من خطب وتعهدات ورجز يسير على النحو التالي:

١- أبو مخنف - محمد بن قيس شاهد عيان

٢- أبو مخنف - حارث بن حصيرة وعبد الله بن شريك العامري

شاهدي عيان

٣- أبو مخنف - عبد الله بن عاصم والضحاك بن عبد الله شاهدي

عيان

٤- أبو مخنف - أبو جناب الكلبي وعدي بن حرمة شاهدي عيان

٥- أبو مخنف - محمد بن قيس شاهد عيان.<sup>٩٦</sup>

ويقوي أبو مخنف إسناد رواته بالأخذ عن أكثر من شاهد عيان، مثلاً في ١ و ٢ و ٤ أعلاه. فهو يقول عند ذكر تعهدات أصحاب الحسين ليلة

عاشوراء: أن علي بن الحسين قال: "كنت مستلقياً في فراشي، وسمعت خطاب أبي وما أجابه به أصحابه".

ومن المؤكد أن كتاب مقتل الحسين لأبي مخنف وجد رواجاً واسعاً، وجرى نشر العديد من نسخه. يدل على ذلك كثرة ذكره في المصادر التي كتبها لاحقوه. كان مصدر الطبري الرئيسي المباشر بدون شك هو هشام بن الكلبي. أما الشيخ المفيد وأبو الفرج (مقاتل الطالبيين) وابن كثير وغيرهم كثير فيذكرون مصادر وأسماء أخرى من الذين وصلهم "مقتل الحسين" مثلاً الشيخ المفيد يبدأ روايته بتعليق افتتاحي: "ماذا روى الكلبي والمدائني وآخرون أكثر من هؤلاء الاثنين من بين أصحاب السير".<sup>٩٧</sup> كذلك اقتبس أبو الفرج أبا مخنف من ابن الكلبي والمدائني ومصادر أخرى إضافية مثل حسين بن نصر ابن المؤرخ الشهير نصر بن مزاحم المنقري مؤلف كتاب "وقعة صفين" وعنوانه المؤرخ المشهور. ويستخدم أبو الفرج حوالي خمسة إسنادات مختلفة تعود في النهاية إلى أبي مخنف، وقليل منها إسنادات مستقلة تعود في النهاية إلى علي بن الحسين، ثم يلخص كالعادة رواياتهم. ومصدر أبي الفرج الأساسي هو المدائني الذي أخذ عن أبي مخنف.<sup>٩٨</sup> وأما ابن كثير فرواه رجعوا به إلى أبي مخنف.<sup>٩٩</sup>

أخيراً، ثمة ملاحظة عن المخطوطات الأربعة للكتاب "مقتل الحسين" فهي موجودة في جوتا Gotha رقم ١٨٣٦ وبرلين سبرنجر رقم ١٥٩-١٦٠ ولیدن رقم ٧٩٨ وسان بطرسبورغ AM رقم ٧٨ ومن المخطوطتين الأولى والثانية نشر فرناند وستفيلد ترجمة بالإلمانية عام ١٨٨٣ وبينما يؤكد وستفيلد باكورية أصل المخطوطين Early origin فإنه يشك أن

المؤلف هو أبو مخنف. وحجته الأهم في شكه هي أن الكتاب يتضمن بعض القصص الإعجازية ذات الطابع غير المعقول، مثل ظهور الأسى في مظاهر الطبيعة: إجمار السماء والرمل الدامي... الخ. أرسولا سيزن Ursula Sezgin يناقش نقد وستفيلد في نقاط عديدة فيقول قد تكون المخطوطات إعادة كتابة أو كتابة منقحة من طرف بعض الكتاب اللاحقين لكن الحقيقة تبقى قائمة وهي أن سبيل الطبري الرئيسي إلى كتاب أبي مخنف هو ابن الكلبي.<sup>١٠١</sup>

على كل حال، فإن بعض هذه القصص الإعجازية أو الخيالية موجودة حتى في الطبري، مما يعني أن هذه القصص قد تكون بالأصل من تدرين أبي مخنف نفسه أو قد تكون أدمجت من طرف ابن الكلبي حين أعاد كتابة كتابه المعروف. ولكن، الشك بأن أبا مخنف هو مؤلف كتاب مقتل الحسين على أساس أنه يتضمن بعض الأحداث الإعجازية أو غير الواقعية كما يريد وستفيلد أن يقول، فإن ذلك يعني تجاهل ميول معينة في طبيعة ذلك العصر. إن مما يؤسف له أن نتوقع من كتاب في أوائل القرن الثامن الميلادي عن شخصية دينية عظيمة لا يحتوي أحداثاً فوق طبيعية كمسألة عادية، خاصة عندما يكون الحدث الرئيسي مشحوناً بالعاطفة والألم. لقد انتج الشرق الأدنى، كما يقول الأمريكيان أو الشرق الأوسط كما يقول الأوربيون، عدداً كبيراً من كتب معجزات الأولياء والرجاء المقدسين. وسيكون من الغريب ألا يتبع المسلمون خطى أسلافهم في تمجيد أفعال نبهم وعائلته، حتى على حساب عظمتهم البشرية. وأكثر من ذلك، وكما شرحنا في الفصل الأول. فإن العرب اعتقدوا دائماً بأن قوى فوق

بشرية مُنحت لبعض العائلات الكهنوتية. كما تضمن نظام الاعتقاد عند العرب القبول أو الإيمان بردود فعل معينة من بعض أجزاء الطبيعة ضمن شروط معينة. وبعد أن دخل العرب في الإسلام زادت القصص الإعجازية منذ حياة النبي ويشهد على ذلك ما في سيرة ابن هشام من أمثلة عديدة على ذلك.

تبع استشهاد الحسين المثير للاستغراب فوق العادي نشوء حركة التوابين التي كانت مليئة بتكيت الضمير والعاطفة، وأنتجت الحملة الدعائية التي قام بها التوابون والمختار بشكل طبيعي بعض القصص الإعجازية إلى جانب رواية المأساة. والآن صار بمقدورنا أن نختم هذا الفصل بالقول: إنه برغم ذكر بعض الأساطير والأحداث الفوق طبيعية ذات الصلة بالمأساة الكبرى في كتاب مقتل الحسين، فإن ذلك لا يعني نفي أن أبا مخنف هو مؤلفه أو أن الكتاب غير موثوق. إن ذكر بعض هذه القصص لا يغطّي على حقيقة أن الكتاب يحتوي على جهود مؤرخ عربي بارز جمع وحفظ أكثر الروايات مصداقية عن أحداث استشهاد الحسين التي توفرت لهذا الإسناد في وقت كان ما يزال كثير ممن اشتركوا في الأحداث على قيد الحياة، ووفروا معلوماتهم لبحث أبي مخنف.



- ١- لمعرفة شخصية وسلوك يزيد أنظر: رسائل الجاحظ، رسالة في بني أمية ص ٢٩٤ وما يليها. والبلاذري أنساب الأشراف، والأغاني ج ١٥ ص ٢٣٢، والمسعودي مروج ج ٣ ص ٦٧ والدارمي: حياة الحيوان ص ٢٦١ وما يليها، واليعقوبي ج ٢ ص ٢٢٨ ومن المدهش حقاً أن هنري لامنس في "خلافة يزيد" وما يتعارض مع إجماع روايات المؤرخين المسلمين في كل العصور بل دل جهداً مضنياً ليصور يزيد كشخصية مثالية. الاحترام الذي أبداه لامنس للأمويين جعله يقرأ النصوص بطريقة تناسب مقاصده.
- ٢- البلاذري ج ٤ ص ١٢٢، العقد الفريد ج ٤ ص ٢٢٦، الطبري ج ٢ ص ١٩٦ وما يليها، الدينوري ص ٢٢٦
- ٣- البلاذري ج ٤ ص ١٢، اليعقوبي ج ٢ ص ٢٤١، الطبري ج ٢ ص ٢١٦، العقد الفريد ج ٤ ص ٢٢٧، البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٦ وما يليها.
- ٤- الطبري ج ٢ ص ٢١٩، البلاذري ج ٤ ص ١٥، الدينوري ص ٢٢٨، البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٧
- ٥- الطبري ج ٢ ص ٢٢٣، البلاذري ج ٤ ص ١٣، الدينوري ص ٢٢٩، المسعودي مروج ج ٣ ص ٥٥، البداية والنهاية ج ٨ ص ١٥١
- ٦- الطبري ج ٢ ص ٢٣٣، مقاتل ص ٩٦
- ٧- الطبري ج ٢ ص ٢٣٤، الدينوري ص ٢٩٩، البداية والنهاية ج ٨ ص ١٥١
- ٨- الطبري ج ٢ ص ٢٣٤ وما يليها، اليعقوبي ج ٢ ص ٢٤٢
- ٩- الطبري ج ٢ ص ٢٣٥، الشيخ المفيد، الإرشاد ج ٢ ص ٣٥ وما يليها.
- ١٠- الطبري ج ٢ ص ٢٤٠
- ١١- التفاصيل في الطبري ج ٢ ص ١٧٤ وما يليها.
- ١٢- الطبري ج ٢ ص ٢٣٧ وما يليها. المفيد الإرشاد ج ٢ ص ٣٦، البداية ج ٨ ص ١٥٢

١٣- الطبري ج ٢ ص ٢٦٤، المسعودي مروج ج ٣ ص ٥٤، الدينوري ص ٢٣٥، البلاذري ج ٢ ص ٨٠، المفيد، الإرشاد ج ٢ ص ٣٨، البداية ج ٨ ص ١٥٢، والعقد الفريد يقدم تفاصيل أكثر ويقدر العدد بـ ٣٠٠٠٠ ج ٤ ص ٢٧٨

١٤- أرسل مسلم رسالته إلى الحسين يوم ١٢ ذي العقدة ٦٠هـ - ١٥ آب أغسطس ٦٨٠م قبل ٢٧ يوماً من قتل مسلم. انظر الطبري ج ٢ ص ٢٦٤، المفيد الإرشاد ج ٢ ص ٦٧ و ٧٢

١٥- الطبري ج ٢ ص ٢٢٠ وما بعدها، الدينوري ص ٢٢٩ و ٢٤٣، وما بعدها والعقد ج ٢ ص ٣٧٦ والمقاتل ص ١٠٩ البداية ج ٨ ص ١٥٩ وما بعدها.

١٦- الطبري ج ٢ ص ٢٧٤-٢٧٦، البداية ج ٨ ص ١٦٦

١٧- الطبري ج ٢ ص ٢٧٤، البلاذري ج ٤ ص ١٤، الدينوري ص ٢٢٩، المقاتل ص ١٠٩، البداية ج ٨ ص ١٦٠-١٦٣.

١٨- نص أمر يزيد في الطبري ج ٢ ص ٢٢٨ و ٢٤٠ وهناك تفاصيل رواية في الجهمياري الوزراء والكتاب تح. صدقة والإبياري والشلي (القاهرة ١٩٣٨) ص ٣١، والدينوري ص ٢٣١ و ٢٤٢، البداية ج ٨ ص ١٥٢، والمفيد الإرشاد ج ٢ ص ٤٠.

١٩- الطبري ج ٢ ص ٢٢٩ و ٢٤١، والدينوري ص ٢٣٢، والمسعودي مروج ج ٣ ص ٥٧ والمقاتل ص ٩٦، والبداية ج ٨ ص ١٣٥، والمفيد الإرشاد ج ٢ ص ٤١.

٢٠- الطبري ج ٢ ص ٢٤٢، الدينوري ص ٢٣٢، المقاتل ص ٩٧، البداية ج ٨ ص ١٥٤ والمفيد الإرشاد ج ٢ ص ٤١.

٢١- الطبري ج ٢ ص ٢٦٧، والمسعودي مروج ج ٣ ص ٥٩ وما يليها، والدينوري ص ٢٤٠ والمقاتل ص ١٠٠-١٠٨، والبداية ج ٨ ص ١٥٣-١٥٧، والمفيد الإرشاد ج ٢ ص ٤٢-٦٧

٢٢- الطبري ج ٢ ص ٢٤٢ و ٢٧٧، الدينوري ص ٢٤٥، والبداية ج ٨ ص ١٦٦

٢٣- الطبري ج ٢ ص ٢٧٨، اليعقوبي ج ٢ ص ٢٤٩، والبداية ج ٨ ص ١٦٧، وتقول المصادر الشيعية أن يزيد أرسل جنوداً بزي حجاج لاغتيال الحسين، بينما يكون الحسين بين الحجيج انظر المفيد الإرشاد ج ٢ ص ٦٩.

٢٤- الطبري ج ٢ ص ٢٤٢

٢٥- الطبري ج ٢ ص ٢٨٥ وما بعدها، الدينوري ص ٤٣، المفيد الإرشاد ج ٢ ص ٧١

٢٦- الطبري ج ٢ ص ٢٨٩، ٢٩٣، ٢٠٣، الدينوري ص ٢٤٧، البداية ج ٨ ص ٢٧٤، ٢٦٨، المفيد الإرشاد ج ٢ ص ٧٢

٢٧- الطبري ج ٢ ص ٣٠٣، البداية كما في المرجع السابق رقم ٢٦

٢٨- الطبري ج ٢ ص ٢٩٤، الدينوري ص ٢٤٨، البداية ج ٨ ص ١٦٩، المفيد الإرشاد ج ٢ ص ٧٧.

٢٩- الطبري ج ٢ ص ٢٩٦ وما بعدها، الدينوري ص ٢٤٩، البداية ج ٨ ص ١٧٢، المفيد ج ٢ ص ٧٨ وما بعدها.

٣٠- المرجع السابق رقم ٢٩

٣١- الطبري ج ٢ ص ٢٩٨، الدينوري ص ٢٤٩، البداية ج ٨ ص ١٧٢، المفيد ج ٢ ص ٨١

٣٢- الطبري ج ٢ ص ٢٩٩-٣٠٧، الدينوري ص ٢٤٩-٢٥١، البداية ج ٨ ص ١٧٢-١٧٥، المفيد ج ٢ ص ٨٤.

٣٣- الطبري ج ٢ ص ٣٠٨-٣١٦، والدينوري ص ٢٥٣-٢٥٥، البداية ج ٨ ص ١٧٥ وما بعدها، المفيد ج ٢ ص ٨٥-٩١.

٣٤- الطبري ج ٢ ص ٣١٦، الدينوري ص ٢٥٥، البداية ج ٨ ص ١٧٥

٣٥- الطبري ج ٢ ص ٣١٩، البداية ج ٨ ص ١٧٦، المقاتل ص ١١٢، المفيد ج ٢ ص ٩٣

٣٦- الطبري ج ٢ ص ٣٢٤، البداية ج ٨ ص ١٧٧، الدينوري ص ٢٥٦،  
المفيد ج ٢ ص ٩٧

٣٧- الطبري ج ٢ ص ٢٧٧، البداية ج ٨ ص ١٧٨، ١٦٩، المفيد ج ٢  
ص ٩٩

٣٨- الطبري ج ٢ ص ٣٢٨، المفيد ج ٢ ص ٩٩

٣٩- الطبري ج ٢ ص ٣٢٩، البداية ج ٨ ص ١٧٩، المفيد ج ٢ ص ١٠٠

٤٠- الطبري ج ٢ ص ٣٣٥ وما بعدها و ٣٤٤-٣٤٦، البداية ج ٢ ص ١٨١  
وما يليها.

٤١- الطبري ج ٢ ص ٣٤٧، ٣٥١-٣٥٥، البداية ج ٨ ص ١٨٤ وما  
بعدها، الإرشاد ج ٢ ص ١٠٩، الدينوري ص ٢٥٦ وما بعدها.

٤٢- الطبري ج ٢ ص ٣٥٦-٣٥٩، الدينوري ص ٢٥٦ وما بعدها، البداية  
ج ٨ ص ١٨٥-١٨٩، الإرشاد ج ٢ ص ١١٠-١١٤، المقاتل ص ٨٠-  
١١٣

٤٣- الطبري ج ٢ ص ٣٨٦، الدينوري ص ٢٥٧، المقاتل ص ٨٤، الإرشاد  
ج ٢ ص ١١٣

٤٤- الطبري ج ٢ ص ٣٦٠، الدينوري ص ٢٥٨، الإرشاد ج ٢ ص ١١٢،  
البعقوبي ج ٢ ص ٢٤٠، المقاتل ص ١١٥

٤٥- الطبري ج ٢ ص ٢٦١-٢٦٣، البداية ج ٨ ص ١٨٧، الإرشاد ج ٢  
ص ١١٤

٤٦- الطبري ج ٢ ص ٣٦٥، البداية ج ٨ ص ١٨٧، المفيد ج ٢ ص ١١٦

٤٧- الطبري ج ٢ ص ٣٦٦، البداية ج ٨ ص ١٨٨، الدينوري ص ٢٥٨،  
المفيد ج ٢ ص ١١٧

٤٨- لمزيد من تفاصيل هذه الأعمال الفظيعة انظر الطبري ج ٢ ص ٣٦٧،  
البداية ج ٨ ص ١٨٨ وما بعدها، الدينوري ص ٢٥٨، المفيد ج ٢ ص ١١٧  
وما بعدها، المقاتل ص ١١٧ وما بعدها.

٤٩- الطبري ج ٢ ص ٣٦٨، والمقاتل ص ١١٩، والمفيد ج ٢ ص ١١٧

- ٥٠- الطبري ج ٢ ص ٣٦٨، والدينوري ص ٢٦٠ والبداية ج ٨ ص ١٨٩
- ٥١- الطبري ج ٢ ص ٣٦٩، الدينوري ص ٢٥٩، البداية ج ٨ ص ١٩٠،  
المفيد ج ٢ ص ١١٨
- ٥٢- الطبري ج ٢ ص ٣٧٠، البداية ج ٨ ص ١٩٣
- ٥٣- الطبري ج ٢ ص ٣٧١، الدينوري ص ٢٥٩ وما بعدها، البداية ج ٨  
ص ١٩٠
- ٥٤- انظر الملاحظة رقم ٥٣ السابقة.
- ٥٥- الطبري ج ٢ ص ٣٧٥، البداية ج ٨ ص ١٩١، المفيد ج ٢ ص ١٢٣
- ٥٦- البداية ج ٨ ص ٢٠٣ وللمعرفة تبكى الضمير عند يزيد انظر البداية  
ج ٨ ص ١٩١ وما بعدها والطبري ج ٢ ص ٣٦٧ وما بعدها.
- ٥٧- تاريخ الخدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية. تح. J.Bury. طبعة ٢  
لندن ١٩٠١ ج ٥ ص ٣٩١
- ٥٨- أخبار ص ٢٥٩
- ٥٩- إحصار العين في أحوال أنصار الحسين. النجف ١٣٤١هـ ص ٤٧ وما  
بعدها.
- ٦٠- الطبري ج ٢ ص ٣٨٦، أخبار ص ٢٥٩
- ٦١- الطبري ج ٢ ص ٣٠٣ و ٣٣٥
- ٦٢- البداية ج ٨ ص ١٧٠، العقد الفريد ج ٤ ص ٣٨٠.
- ٦٣- الطبري ج ٢ ص ٢٣٦
- ٦٤- برنارد لويس أصول الإسماعيلية (كمبردج ١٩٤٠) ص ٢٧ E  
والتونجتي فرق الشيعة ص ٤٥
- ٦٥- أفضل مثال على ذلك من بين العديد منها هو هنري لامنس خلافة يزيد  
ومقاله في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى بعنوان "الحسين" وانظر  
أيضاً فلهوزن المملكة العربية ص ١٤٥-١٤٧
- ٦٦- الطبري ج ٢ ص ٢١٦-٢٥٩ ومصادر الملاحظة رقم ١٤ السابقة.
- ٦٧- الطبري ج ٢ ص ٣٠٤ وما بعدها.

- ٦٨- سابقه.
- ٦٩- الأغاني ج ١٥ ص ٢٣٣
- ٧٠- طبعة الثانية القاهرة بلا تاريخ
- ٧١- طبعة الثانية بيروت ١٩٧٢
- ٧٢- الطبري ج ٢ ص ٢٨٨ و ٣٠٣، البداية ج ٨ ص ١٦٨ و ١٧٤
- ٧٣- الطبري ج ٢ ص ٣١٨ وما بعدها، البداية ج ٨ ص ١٦٧ ويعرض مختصر حبيب بن مظاهر.
- ٧٤- من أجل معرفة تلك التعهدات انظر الطبري ج ٢ ص ٣٢٢، والمفيد ج ٢ ص ٩٤، والبداية ج ٨ ص ١٧٦ والمقاتل ص ١١٢
- ٧٥- الطبري سابقه، البداية ج ٨ ص ١٧٧ والمفيد ج ٢ ص ٩٥ ويقدم رواية أطول وأقوى
- ٧٦- الطبري ج ٢ ص ٣٢٢، البداية ج ٨ ص ١٧٧، المفيد ج ٢ ص ٩٥.
- ٧٧- سابقه
- ٧٨- آصف فيضي "نظرية الفقه الشيعي" القانون في الشرق الأوسط. تحرير ماجد خضوري ولسبسي J.H Lesbesny واشنطن ١٩٥٥ ص ١١٣
- E
- ٧٩- الطبري ج ٢ ص ٣٣٣، المفيد ج ٢ ص ١٠٣، البداية ج ٨ ص ١٨٠ ويلخص كلمات الحر.
- ٨٠- الطبري سابقه، المفيد سابقه، البداية ج ٨ ص ١٨٠ وما بعدها وينقل خطاب الحر عن الطبري.
- ٨١- الطبري ج ٢ ص ٣٥٠، البداية ج ٨ ص ١٨٣
- ٨٢- الطبري ج ٢ ص ٣٤٢ و ٣٥٠، المفيد ج ٢ ص ١٠٦، البداية لا يذكر جواب لافع.
- ٨٣- الطبري ج ٢ ص ٣٥٠ البداية ج ٨ ص ١٨٣
- ٨٤- تاريخ العرب ص ١٩١
- ٨٥- آصف فيضي ملاحظة رقم ٧٨ ص ١١٣

- ٨٦- هـدسن "كيف أصبحت الشيعة الأوائل فرقة" ص ٣
- ٨٧- ابن النديم، الفهرست ص ٩٣، الطوسي، الفهرست ورقة ٥٨٥، ١٥٥،  
التجاشي، الرجال ص ٢٤٥، أهل وردت ورقة رقم ٩٠٢٨، ٩٠٢٩،  
٩٠٣١-٩٠٣٨؛ أرسولا سيزن، أبو مخنف مؤرخ بشاعة بني أمية ليدن  
١٩٧١ ص ١١٦-١٢٣ بالألمانية لمناقشة كتاب مقتل الحسين. وفي  
فهرست الطوسي انظر مقدمة سبرنجر لتحقيقه لهذا العمل في قائمة الكتب  
الهندية (كلكتا ١٨٥٣)؛ ومناقشة براون لأعمال المؤلفين في تاريخ إيران  
الأدي (كمبردج ١٩٠٢-١٩٠٤) ج ٤ ص ٣٥٥-٣٥٨.
- ٨٨- انظر مقدمته كتاب مملكة العرب وسقوطها E
- ٨٩- انظر مراجع الملاحظة رقم ٨٧.
- ٩٠- فلهاوزن ذكر سابقاً.
- ٩١- مقال "أبو مخنف" في دائرة المعارف الإسلامية. E
- ٩٢- فلهاوزن ذكر سابقاً.
- ٩٣- في مخطوطة استنبول لأنساب الأشراف ذكر الحسين في المخطوطة رقم  
٥٩٧ ورقة رقم ٢٩١ A - B ٢٥١
- ٩٤- انظر من أجل ثورة ابن الأشعث مقال "ابن الأشعث" في دائرة المعارف  
الإسلامية الطبعة الثانية.
- ٩٥- فلهاوزن ذكر سابقاً.
- ٩٦- الطبري الفهرس
- ٩٧- الشيخ المفيد، الإرشاد ج ٢ ص ٢٩
- ٩٨- المقاتل ص ٩٥
- ٩٩- البداية والنهاية، ابن كثير ج ٨ ص ٦٠-٦١
- ١٠٠- انظر مقدمة وستفيلد (الحسين).
- ١٠١- سيزن، أبو مخنف ص ١٩٠

## الفصل الثامن

### رد الفعل بعد كربلاء

كانت مأساة كربلاء واستشهاد الحسين ذات أهمية دينية بالغة العظيمة، وتركت أثراً عميقاً عند محاسبة النفس التي أعقبتها لدى الشيعة، وأحدثت انعطافاً جديداً لمزاج وطبيعة الحركة الشيعية. لقد حركَ قدر الحسين المأساوي المشاعر الدينية والأخلاقية، وبخاصة ضمن أولئك الكوفيين أتباع البيت النبوي الذين سألوا الحسين بحماس بالغ أن يأتيتهم إلى العراق ليقودهم على ما اعتبروه سبيل الله. ولكن عندما جاءهم لم ينصروه في وقت الحنة، أو لم يستطيعوا فعل ذلك. وسرعان ما أدركوا عجزهم أو ضعفهم الذي أذى إلى تلك المأساة. وهاج فيهم إحساس عميق بالندم فأيقظ فيهم وعيهم الديني؛ ولكي يكفروا عن تقصيرهم، وينالوا مغفرة الله، اعتقدوا أن عليهم أن يضْحَوْا بأنفسهم كما فعل الحسين. وآمنوا أنهم يستطيعون البرهان على صدق ندمهم من خلال تعريض أنفسهم للموت فقط، بينما يطلبون الثأر لدم الحسين. فسمّوا أنفسهم "التوابين" وعرفوا في التاريخ الإسلامي بهذا اللقب الذي فرضوه على أنفسهم. وأثبتت هذه الحركة - كما سنرى لاحقاً - أنها خطوة هامة على طريق تعزيز وتقوية الإسلام الشيعي.

بدأت الحركة بقيادة خمسة من الرجال المتقدمين في العمر ومن أكثر مؤيدي علي ثقة، ولهم منات المتحمسين المخلصين من شيعة الكوفة، وكان هؤلاء القادة جميعاً فوق الستين من العمر.<sup>٢</sup> وعامل الزمن هذا هو مما يجب أخذه بالحسبان، فهو يدل على النضج في التفكير الديني والسلوك.



وهؤلاء القادة وهم سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة الفزاري وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي وعبد الله بن وال التميمي ورفاعة بن شداد البجلي، وكان هؤلاء دائماً في مقدمة جميع النشاطات الشيعية في الكوفة، وكانوا محترمين حازوا على ثقة أتباعهم بفضل صدق التزامهم وإخلاصهم الأكيد لقضية أهل البيت. وكذلك وصف أتباعهم الذين انضموا لهذه الحركة بأنهم "ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم".<sup>٣</sup> وقبل نهاية عام ٦١هـ عقدوا أول اجتماعاتهم في بيت سليمان بن صرد.<sup>٤</sup> وكانت تلك هي المناسبة الأولى كي يخرجوا علناً من مخابثهم ويجمعوا، منذ فرض حالة الطوارئ العسكرية على الكوفة قبيل مذبحة كربلاء، تلك الحالة تراخت، وعادت الأمور إلى عادتها. وقد حفظت لنا المصادر التاريخية تفاصيل رواية هذا الاجتماع والخطب التي ألقاها هؤلاء القادة الخمسة. وكان أول المتحدثين هو المسيب بن نجبة الفزاري الذي قال: "أما بعد، فإننا قد ابتلينا بطول العمر، والتعرض لأنواع الفتن، فترغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غداً: "أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم نذير". سورة فاطر ٣٧؛ فإن أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) قال: العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه، وقد كنّا مغرمين بتزكية أنفسنا، وتقرّظ شيعتنا، حتى بلا الله أختيارنا فوجدنا كاذبين في موطين من مواطن ابن بنت لبينا صلى الله عليه وسلم، وقد بلغتنا قبل ذلك كربة، وقدمت علينا رسله، وأعذر إلينا يسألنا نصره عوداً وبدءاً، وسراً وعلانية، فيخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل على جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جادلنا عنه

بالاستننا، ولا قويناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرننا، فما عذرنا إلى ربنا وعند لقاء نبينا صلى الله عليه وسلم وقد قتل فينا ولده وحببيه، وذريته ونسله! لا والله، لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين له، أو تقتلوا في طلب ذلك، فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك، وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن. أيها القوم، ولّوا عليكم رجلاً منكم، فإنه لا بد لكم من أمير تفرعون إليه، وراية تحقون بها. أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.<sup>٥</sup> ثم تحدث رفاعه بن شداد البجلي أحد القادة الخمسة مناشداً الأحاسيس الدينية لدى الحاضرين. وبعد أن أكد ما قاله المسيب اقترح قائلاً: " وإن رأيت -يقصد المسيب- رأي أصحابنا ذلك ولينا هذا الأمر شيخ الشيعة صاحب رسول الله وذا السابقة والقدم سليمان بن صرد الحمود في بأسه ودينه والموثوق بحزمه."<sup>٦</sup> وتكلم القادة الثلاثة الآخرون بما يشبه ذلك وأكدوا على اقتراح رفاعه باختيار سليمان بن صرد قائداً للأسباب نفسها التي ذكرها رفاعه. ومن المهم أن نبين أن مؤهلات قيادة الحركة التي كانت بالفعل مكرسة للقضية الشيعية هي صفة النبي والسابقة في الإسلام. وهذا، كما في أمثلة كثيرة أخرى، يعني أن تأكيد الشيعة الرئيسي هو لتدعيم المثال الإسلامي، الذي اعتقدوا أنه يمكن تحقيقه فقط من خلال أهل البيت النبوي.

قبل سليمان بن صرد مسؤولية قيادة الحركة وخاطب الحاضرين مؤكداً المعايير الصارمة المطلوبة من أولئك الذين أرادوا أن يساهموا في الحركة وأكد أن عليهم أن يكونوا جاهزين للتضحية بحياتهم لأشرف مهمة تنتظرهم.<sup>٧</sup> وقابله الحاضرون جميعاً بحماس مساو لحماسة. وتعهدوا أن

يطلبوا عفو الله عنهم بقتال قاتلي حفيد النبي حتى الموت. ولكي يؤكدوا صدق نواياهم فقد تصدق كثير منهم بكل ما يملك عدا سلاحه. وعين سليمان عبد الله بن وال التيمي خازناً للمال، يجمعه، ويصرفه في التحضير للعمل.<sup>٨</sup> ولم يدع سليمان الوقت يمضي بل بادر فوراً في تنظيم الحركة. فكتب قادة الشيعة في مدن أخرى وبالتحديد سعد بن حذيفة بن اليمان في المدائن والمثنى بن محربة العبدى في البصرة. وتابعت الحركة عملها سرّاً حوالي ثلاث سنوات تزيد في أعداد المنتسبين إليها وتقوي نفسها بما يلزمها منتظرة الفرصة المناسبة.

وتطورت الظروف لصالح الحركة، بموت يزيد غير المتوقع عام ٦٤هـ — ٦٨٣م، مما شجع التوابين على الظهور علناً. وحث بعض القادة البارزين سليمان على التحرك العلني لطرد عمرو بن حريث نائب عبيد الله بن زياد من المدينة ومتابعة قتلة الحسين، ودعوة الناس لتأييد أهل البيت النبوي. لكن سليمان اختار التريث مشيراً إلى أن قتلة الحسين هم أشرف القبائل الكوفيين الذين يجب أن يلقوا جزاء ما فعلوا بالحسين. وبالتالي فالتحرك السريع ضد هؤلاء والثورة عليهم في هذه الحالة لن تجدي شيئاً سوى الدمار وربما على الأرجح هلاك كامل الشيعة أنفسهم. وربما فُقدت فرصة الثأر لدم الحسين. ولذلك فإن من الأفضل في هذه المرحلة — كما رأى سليمان — تركيز حملتهم الدعوية ضمن الشيعة والآخرين في الكوفة، وتجنيد المؤيدين إلى أبعد قدر ممكن. وأضاف أنه نظراً لموت يزيد فإن الناس سينضمّون إلى الحركة الشيعية بسرعة وبتزايد مستمر.<sup>٩</sup> وانتشر اقتراح سليمان وخرجت الحركة التي كانت تلك اللحظة سرية إلى العلن

وقامت بحملة واسعة ومركزة لفضيتها. وبدأ العديد من المبعوثين دعوة الناس للانضمام إلى الحركة.

وحفظ لنا أبو مخنف خطبة أحد هؤلاء الدعاة وهو عبيد الله بن عبد الله المري. "قال رجل من مزينة ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبلغ من عبيد الله المري في منطق ولا عظة وكان من دعاة أهل المصر زمان سليمان بن صرد، وكان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم، بدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول: أما بعد، فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه بنبوته، وخصه بالفضل كله، وأعزكم بتابعه، وأكرمكم بالإيمان به، فحقن به دماءكم المسفوكه، وأمن به سبلكم المخوفة وكنتم على شفى حفرة من النار، فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تتدرون." آل عمران ١٠٣ فهل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيا وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسوله؟ لا والله، ما كان ولا يكون. الله أنتم! ألم تروا ويبلغكم ما اجترم (اقترب) إلى ابن بنت نبيكم! أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمة، واستضعافهم وحدته، وترميلهم (القائه مدمى في الرمل) إياه بالدم، وتجراهموه على الأرض، لم يراقبوا فيه ربه ولا قرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم، اتخذوه للنبل غرضاً، وغادروه للضياع جزراً، فلله عينا من رأى مثله! والله حسين بن علي ماذا غادروا به ذا صدق وصبر، وذا أمانة ونجدة وحزم! ابن أول المسلمين إسلاماً، وابن بنت رسول رب العالمين، قلت حُماته، وكثرت عُدائهُ حوله، فقتله عدوهُ،

وخذله ولَّيه. فويل للقاتل، وملامة للخاذل! إن الله لم يجعل لقاتله حجة، ولا لخاذله معذرة، إلا أن ينصح الله في التوبة، فيجاهد القاتلين، وينابذ القاسطين؛ فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة، ويقل العثرة، إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، والطلب بدماء أهل بيته، وإلى جهاد المخالين والمارقين، فإن قُتلنا فما عند الله خير للأبرار، وإن ظهرنا (انتصرنا) ردّدنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبينا" وكان يعيد علينا هذا الكلام في كل يوم حتى حفظه عامتنا.<sup>١٠</sup>

نجد في هذا الخطاب ومما سبق من فصول هذا البحث الذي يعالج التطورات منذ وفاة النبي وحتى وفاة الحسين، نجد أن موقف الشيعة وطموحاتهم الدينية - السياسية كانت تتكرر باستمرار. إذا استرجعنا المجادلات التي عرضها مؤيدو علي يوم السقيفة، والشورى (مجلس عمر بن الخطاب الستة لاختيار خليفته)، ومحتويات رسائل الحسن إلى معاوية، ورسائل الحسين إلى الكوفيين والبصريين، والخطب والتعهدات التي تفوه بها أصحاب الحسين في كربلاء، وخطب قادة التوايين في اجتماعهم الأول، وموعظة المري السابقة نرى شيئاً واحداً يتكرر، إنه لا شيء سوى صدى الطموحات والمثل الشيعة نفسها. ويكفي القول أنه في موعظة المري نجد أن التوكيد الأساسي كان علاقة القرابة بين النبي والحسين عبر فاطمة. لقد ظهر اسم علي مرتين فقط: الأولى عند ذكر الحسين قال الحسين بن علي وهي العادة المتبعة في ذكر شخص ما، والثانية عند ذكر الحسين بصفته ابن أول المسلمين، ولكن حتى في هذه المرة ذكر مكانته

مباشرة من حيث هو ابن بنت النبي. وحتى في السقيفة والشورى كان التأكيد على قرابة وقرب علي من النبي.

وهكذا نرى التوابين يزيدون في تأكيد على فكرة خلافة النبي من خلال النسب أكثر مما يؤكدون خلافة علي لنفس السب. فالقسم الرئيسي من موعظة المري هو الدعوة لقتل قتلة الحسين للثأر له، أو التضحية بالنفس للتكفير عن تقصيرهم في دعم الحسين، وبالتالي طلب المغفرة من الله وهذا بُعدٌ جديدٌ حتمته مأساة كربلاء. أخيراً، نجد في هذه الموعظة دعوة إلى كتاب الله وسنة النبي، - كما أشرنا سابقاً - وهذا رفض مبطن لسوابق الخلفاء الثلاثة الأول، وبالتالي تخصيص علي والأئمة الآخرين من ذرية النبي بسلطة خاصة لتفسير أو إعادة تفسير سنة النبي.

نجحت حملة التوابين في الحصول على تأييد ١٦٠٠٠ كوفي، وذلك لأن الوضع في الكوفة صار الآن أكثر ملاءمة لتحقيق النجاح. فلقد أضعف موت يزيد المفاجئ السيطرة الأموية على تلك الولاية. أما معاوية الثاني ابن يزيد المريض فقد خلف والده لفترة ستة أشهر فقط ثم توفي، ونجح العجوز مروان بن الحكم في الوصول إلى الخلافة الأموية. لكن هذا أدى إلى قيام صراع في سورية بين القبيلتين المتنافستين كلب وقيس، وهذا أدى إلى الفوضى في دمشق العاصمة الأموية، مما صعب على الأمويين فرض سيطرتهم الكاملة على العراق المجاور.

أما في الحجاز فقد قام عبد الله بن الزبير وأعلن حقه في الخلافة مستغلاً موت يزيد والفوضى في سورية وضعف الأمويين، فنظم وقوى موقفه واتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين. أما والي الأموي القوي عبيد الله بن

زياد حاكم الكوفة والبصرة فقد طرته ثورة سكان البصرة فهرب إلى مروان في دمشق. وطرده الكوفيون عمرو بن الحرث نائب الوالي ابن زياد على الكوفة.<sup>١٢</sup> في ظل فراغ السلطة في الكوفة كتب أشرف الكوفة بسرعة إلى عبد الله بن الزبير ليستغل الفرصة ويعين والياً على الكوفة من قبله. مع خروج المجموعة الشيعية إلى العلن، وضعف السيطرة السورية، وجد رؤساء القبائل والبطون أن من صالحهم أن يتحالفا مع ابن الزبير، الذي يمثل الهيمنة القرشية المكيّة القديمة. فأرسل ابن الزبير فوراً عبد الله بن يزيد الأنصاري والياً على الكوفة مسؤولاً عن الشؤون العسكرية وإبراهيم بن محمد بن طلحة مسؤولاً عن الخراج (مسؤول مالي).<sup>١٣</sup>

الآن، بعد زوال العوائق، بدأ سليمان بن صرد قائد التوابين التحضيرات النهائية للعمل. فكتب إلى قادة الشيعة في المدائن والبصرة داعياً إليهم كي يكونوا على أهبة الاستعداد للثأر لدم الحسين، ولإصلاح الأوضاع الخاطئة ولإقامة العدل. وأمرهم أن يتجمعوا في النخيلة، خارج الكوفة في الأول من ربيع الثاني عام ٦٥ هـ - ٦٨٤ م. عندها دعا قائد الشيعة في المدائن سعد بن حذيفة بن اليمان شيعته وقرأ عليهم رسالة سليمان فأجابوه بحماس بالغ. وكذلك قبل المثنى بن مخزبة العبدى قائد الشيعة في البصرة الدعوة وحشد قواته. إن نص الرسالتين المطولتين<sup>١٤</sup> الذي حفظه لنا أبو مخنف المؤرخ المدقق هو نص مفيد جداً وواضح لفهم الأحاسيس والمشاعر الدينية والموقف العقائدي لشيعة تلك الفترة. وهذا النص مماثل تماماً لنص خطب التوابين وموعظة المري السابق ذكرها.

في هذه المرحلة بالذات ظهر في الكوفة المختار بن أبي عبيد الثقفي وهو مؤيد مخلص لأهل البيت. وكانت رسالته مماثلة تماماً لرسالة التوابين في الثأر لدم الحسين وإعادة الحق لأهل البيت، لكنه اختلف مع التوابين من حيث أنه أراد إنجاز السيطرة السياسية عبر قوة عسكرية أكثر تنظيمًا. وهكذا حاول المختار إقناع التوابين بعدم الإسراع في التحرك والانضمام إليه من أجل حظ أوفر في تحقيق النجاح. رفض التوابون الانضمام إلى المختار، حيث أنهم لم يرغبوا في المشاركة في أية مغامرة مشكوك بنجاحها أو الانحراف عن هدفهم الرئيسي وهو التكفير عن خطيئتهم عبر التضحية. وقال التوابون أنهم يتبعون "شيخ الشيعة" فقط سليمان بن صرد.<sup>١٥</sup> ثمة نقطتان في مجادلات المختار مع التوابين تستحقان الأخذ في الحسبان لأنهما توضحان الاختلاف بين الطرفين. الأولى: رأي المختار أن سليمان بن صرد لا يعرف كيف ينظم القوة العسكرية للحرب، وليس لديه خبرة سياسية أو دبلوماسية؛ الثانية: ادعى المختار أن المهدي محمد بن الحنفية عينه نائباً له ومؤتمناً على أسرارهِ ووزيراً للثأر لدم الحسين.<sup>١٦</sup> (كان محمد هذا ابن علي وثالث ابنائه من امرأة حنفية، ولم يكن من ذرية النبي.) ويشير رفض التوابين تأييد المختار إلى أنهم لم يكونوا مهتمين بمغامرة عسكرية محضة ولا بالشؤون السياسية، ولم يكونوا جاهزين لقبول حتى أكبر أولاد علي الأحياء إماماً، لأنه ليس من ذرية النبي من فاطمة. وهكذا، فإن الخلاف بين الطرفين لم يكن على الاستراتيجية ولا على التكتيك، وإنما على الإمام.



برغم أن التوابين لم يصرحوا علناً بأي اسم لشخص من أهل البيت بصفته إمامهم، فثمة إشارات قوية إلى أنهم اعتقدوا بأن الإمام الحق هو يومئذ علي ابن الحسين الوحيد من بين أبناء الحسين الذكور، الذي بقي على قيد الحياة بعد مأساة كربلاء، والذي عرف فيما بعد بلقبه المشهور زين العابدين. وهناك عوامل كثيرة تؤيد هذا الرأي. الأول: إن الفكرة الأكيدة بأن القيادة مؤسسة على وراثته مقدسة، وهي التي جذبت ميل الشيعة العرب، كانت محصورة بذرية محمد من ابنته فاطمة؛ وأن هذه الوراثة انتقلت من الحسن إلى الحسين وليس لأي شخص آخر من الهاشمين. لقد تكررت الإشارة فيما مرّ معنا أن الحسن والحسين ابني علي وصفاً بأنهما "ابنا بنت رسول الله" الثاني: لم يذكر اسم محمد بن الحنفية مطلقاً عندما عقد التوابون اجتماعهم مباشرة بعد كربلاء عام ٦١ هـ — ٦٨٠م؛ أما المختار فوصل الكوفة بعد موت يزيد بما يزيد عن ستة أشهر وذلك عام ٦٤ هـ — ٦٨٤م؛ وبدأ حملته باسم محمد بن الحنفية. وهكذا، فإن اسم ابن الحنفية ظهر لأول مرة بعد أربع سنوات، وحين كان التوابون على وشك بدء تحركهم. الثالث: المختار الذي كان أول من أظهر اسم ابن الحنفية ودعا لقيادته، كان قد حاول أولاً علي بن الحسين — كما سنناقش لاحقاً — وعندما رفض علي بن الحسين الاشتراك في أية حركة علنية، عندئذ فقط تحول المختار إلى ابن الحنفية وتودد إليه راجعاً في السماح له بأن يرفع اسمه.

بما أن علي بن الحسين نفسه رفض الإعلان عن أي دعوى، كما رفض أن يستعمل اسمه نيابة عنه، فإن التوابين أحجموا عن ذكر اسمه. ومع ذلك،

فإن إشارات غامضة إلى حدّ ما ذكرها التوابون خلال حملتهم مثل آيات الشعر التي نظمها شاعرهم عبد الله بن الأحرر وفيها تحدث عن الداعي "الداعي الذي يندبهم للخلاص".<sup>١٧</sup>، هذه الإشارات تدلّ على إمام، وبما أن اسم ابن الحنفية لم يذكر بأن له صلة بالإمامة إلى ما بعد ثلاثة أعوام، فإن ذلك "الداعي" الذي ذكره ابن الأحرر لابد أن يكون علي بن الحسين. وهذا الرأي مؤسس على حقيقة أن شيعة الكوفة أقاموا سابقة عندما أعلنوا الحسن بن علي خليفة لأبيه، وليس أي شخص آخر من الهاشميين. ويبدو أن التوابين، وبعد خبرتهم المأساوية فيما يخص الحسين، قرروا ألا يعلنوا اسم إمامهم حتى يحققوا النجاح في إنهاء الحكم الأموي من الكوفة أو التضحية بأنفسهم في توبة عملية ناشطة تعويضاً لفشلهم بعدم القيام بواجباتهم تجاه الحسين.

على كل حال، رفض القسم الأعظم من التوابين الانضمام إلى المختار رغم أن ألفين ممن احتشدوا مع سليمان بن صرد تحولوا إليه آملين باحتمالات سياسية أفضل.

ومع اقتراب موعد التحرك كان سليمان بن صرد وقادة التوابين الآخرون يؤكدون المرة تلو الأخرى بأنهم ليس لديهم أية طموحات بفتح سياسي أو غنائم مادية. أو، كما قال سليمان بن صرد: "يا أيها الناس، من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحن منه، فرحمة الله عليه حياً وميتاً، ومن كان إنما يريد الدنيا وحرثها فوالله ما نأبى فينا نستقيته، ولا غنيمة نغنمها، ما خلا رضوان الله رب العالمين، وما معنا ذهب ولا فضة ولا خز ولا حرير، وما هي إلا سيوفنا في عواتقنا ورماحنا في أكفنا،

وزاد قدر البلغة إلى لقاء عدونا، فمن كان غير هذا ينوي فلا يصحبا." (هذا الاقتباس من طرف المترجم لتأكيد ما قاله المؤلف. وهو من الطبري ج ٥ ص ٥٨٥ من طبعة دار المعارف المصرية تح. محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٦٣ التي اعتمدها المترجم للنقل عنها). وبحسب خطة التواوين بدؤوا تحركهم مع بداية ربيع الثاني ٦٥هـ تشرين الثاني ٦٨٤م "وندادوا" بسا لثارات الحسين"، وانطلقوا مقدمين نحو النخيلة وهي إحدى ضواحي الكوفة. تجمع التوابون هناك للانطلاق نحو قوات عبيد الله بن زياد الوالي الأموي المسؤول عن مذبحة كربلاء. كانت المعايير التي وضعها سليمان بن صرد قاسية جداً على معظم مؤيديه وعددهم ١٦٠٠٠ رجل، لذلك خرج معه إلى النخيلة ٤٠٠٠ رجل منهم. حاول عبد الله بن يزيد والي ابن الزبير على الكوفة إقناعهم بعدم الخروج وتنفيذ خطتهم، واقترح على سليمان بن صرد أن ينتظره حتى يتم تحضيراته وينضم إلى التوابين. رفض التوابون طلب ابن يزيد بتغيير خطتهم أو قبول مساعدته،<sup>١٨</sup> لأنها ستعدّل خطتهم. كانت نيتهم الثأر لدم الحسين لإقامة الإمامة الشيعية أو الموت. وفضلوا الموت على قبول مساعدة ابن يزيد غير الشيعي. إن قبولهم لمساعدة ابن يزيد يعني أنهم انضموا لفريق سياسي آخر مؤيد لابن الزبير ضد الفريق الذي يؤيد بني أمية.

والآن مع تناقص عدد التوابين المتطوعين من ١٦٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ رجل ما عاد لهم من أمل سوى القتال حتى الموت طالين التوبة والعفو. لقد صمموا على تنفيذ ما تعاهدوا عليه أمام أنفسهم.

أمضى التوابون ثلاثة أيام في النخيلة يصلون ويذكرون الله. لم يصل شيعة المدائن وشيعة البصرة، وأراد بعض المتجمعين في النخيلة انتظارهم؛ لكن سليمان بن صرد أصّر على متابعة التحرك دون تأخير. قال: "أيها الناس، فإن الله قد علم ما تنوون، وما خرجتم تطلبون، وإن للدنيا تجاراً، وللآخرة تجاراً، فأما تاجر الآخرة فساع إليها متنصب بتطلابها، لا يشتري بها ثمناً، لا يرى إلا قائماً وقاعداً، وراكعاً وساجداً، لا يطلب ذهباً ولا فضة، ولا دنيا ولا لذة. فعليكم يرحمكم الله في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل، وذكروا الله على كل حال، إنكم لن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة وأنا مدجلون من منزلنا هذا إن شاء الله فأدخلوا." ١٩

يقول البلاذري: فأجابه الناس من كل صوب "إننا لا نطلب الدنيا، ولم نخرج لها" ٢٠ ولكن في الصباح هرب ألف منهم. ولم يجن سليمان بل قال: "ما أحب أن من تخلف عنكم معكم، ولو خرجوا معكم ما زادوكم إلا خيلاً." ٢١

ورحل التوابون من النخيلة باتجاه كربلاء إلى قبر الحسين حيث أسلموا أنفسهم للأحزان وعبروا عن أساهم باليكاء المنقطع النظير ومما قالوا: يارب إنا قد خذلنا ابن بنت نبينا، فاغفر لنا ما مضى منا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، وارحم حسناً وأصحابه الشهداء الصديقين، وإنا نشهدك يا رب أنا على مثل ما قُتلوا عليه. ٢٢ يشير وهوزن إلى أنها كانت المرة الأولى التي يجند فيها قبر الحسين وأنها عادة عربية في ملاحمتها

وطبيعتها حيث أن العرب اعتادوا تمجيد الحجر الأسود الموجود في الكعبة.<sup>٢٢</sup> وبعد أن أمضوا يوماً وليلة غادروا قبر الحسين.

ثم توجهوا نحو قرية قرقيسيا وهي خمس المسافة حتى الحدود مع سورية، فأكرمهم شيخ القرية زفر بن الحارث وأخبرهم أن عبيد الله بن زياد ومعه ٣٠٠٠ رجل وصلوا عين الوردية. ثم زودهم بالمؤونة وقدم لهم نصائح كثيرة عن أحوال جيش ابن زياد، وأخبر سليمان بأسماء القادة مع ابن زياد. وأخبر زفر سليمان أنه ورجاله سيقاتلون إلى جانب التوابين إذا بقوا في القرية واتخذوها قاعدة لهم. ولكن سليمان لم يوافق على ذلك.

وأخيراً وصل التوابون إلى عين الوردية واشتبكوا بعنف مع القوات السورية، وهم ينادون الجنة! الجنة! للتوابين.<sup>٢٣</sup> واستمرت المعركة ثلاثة أيام، وقاتل التوابون بإصرار لم يسبق له مثيل. ورغم تفوق عدد القوات السورية فقد انتصر التوابون في اليوم الأول وكبدوا السوريين خسائر كثيرة. ولكن في اليوم الثاني بدأ التوابون يفقدون قادتهم الواحد تلو الآخر وأصابتهم خسائر جمة. فكان أول القتلى من قادة التوابين سليمان بن صرد ثم المسيب بن نجيبة فعبد الله بن سعد ابن نفيل ثم عبد الله بن وال التميمي، وكان هؤلاء يتوالون على قيادة المعركة حتى يقتل فيليه الثاني وهكذا. وفي نهاية اليوم الثالث كان التوابون قد وفوا بما عاهدوا أنفسهم عليه وهو التضحية بأنفسهم ثأراً للحسين. ولم يبق على قيد الحياة من قادة التوابين سوى رفاعه بن شداد الذي انسحب مع بقية قليلة منهم، وفي طريق العودة تقابل مع شيعة المدائن والبصرة القادمين لنصرة شيعة الكوفة (التوابون) فعادوا جميعاً إلى قرقيسيا.<sup>٢٤</sup>

نجد في تحليلنا لحركة التوبين نقاطاً قليلة مميزة. الأولى؛ إن كل الثلاثة آلاف من التوابين الذين قاتلوا في عين الوردة كانوا من العرب، ولم يكن أحد من الموالي معهم.<sup>٢٥</sup> وإثماً كان المختار هو أول من حرك الفرس نحو مشاركة فعالة مما وسع جاذبية الحركة الشيعية. الثانية: برغم أن معظم التوابين الثلاثة آلاف كانوا من عرب الجنوب، إلا أن عرب الشمال والوسط من مضر وريبعة ساهموا أيضاً في معركة عين الوردة. فقد كان المسيب بن نجبة من مضر وكان نائب القائد العام سليمان بن صرد. وبالتدقيق في أسماء التوابين كما تذكرها المصادر نجد أن كثيراً من القبائل العربية الهامة من اليمينيين والزاريين قد تمثلت في عين الوردة،<sup>٢٦</sup> وهذا يؤكد أن المشاعر الشيعية لم تقتصر على جماعة بعينها. ثالثاً: ضم التوابون عدداً كبيراً من قرّاء الكوفة،<sup>٢٧</sup> ومنهم القادة الخمسة المذكورون سابقاً.

كل هذه الحقائق تشير إلى نقطتين جوهريتين. الأولى: هي أن الحركة الشيعية حتى زمن التوابين (٦٥، ٦٨٤) كانت عربية محضة في خصائصها ومميزاتها، ولم تلتصق بها أية مكونات غير عربية، لا عقائدية ولا سواها. الثانية: إن حركة التوابين كانت حركة دينية كلية. حين قابل الحسين جيش يزيد، كان مدرّكاً منزله بصفته حفيد النبي وابن علي أيضاً، وكان التوابون بحركتهم يجمعون ولاءهم لعلي مع ولائهم للنبي نفسه، وكانوا يأخذون القضية على أساس ديني محض. أخيراً: إذا قارنا مشاعر وتعبيرات أصحاب الحسين في كربلاء مع مشاعر وتعبيرات التوابين الذين أجمعوا على التضحية بأنفسهم في سبيل قضيتهم نجد أن كل المجادلات والأحاسيس في الجماعتين كانت قائمة على المبادئ الدينية عينها.

ولكن هناك فرق كبير بين الجماعتين، ففي كربلاء فرض حضور الحسين نفسه التزاماً شخصياً على الشيعة الذين قاتلوا وقتلوا معه. أما في حالة التوابين فلم ينشأ أي التزام شخصي يجمعهم ويجعلهم يضجون بأنفسهم سوى الشعور القوي بالواجب وإحساس عميق بالالتزام الديني المحض. وهكذا، دفعت حركة التوابين التشيع خطوة أخرى نحو التميز وتحقيق الوجود المتماثل.

## مراجع وملاحظات الفصل ٨

- ١- البلاذري ج ٥ ص ٢٠٤، الطبري ج ٢ ص ٤٩٧، المسعودي مروج ج ٣ ص ٩٣، وهوزن كما ترجم عمله عبد الرحمن بدوي تحت عنوان "أحزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الإسلام" القاهرة ١٩٦٨ ص ١٨٩
- ٢- الطبري ج ٢ ص ٤٩٨، وهوزن سابقه
- ٣- الطبري ج ٢ ص ٤٩٨، البلاذري ج ٥ ص ٢٠٤
- ٤- الطبري ج ٢ ص ٤٩٧، والبلاذري نفسه
- ٥- الطبري ج ٢ ص ٤٩٨، والبلاذري ج ٥ ص ٢٠٥
- ٦- الطبري ج ٢ ص ٤٩٩، والبلاذري نفسه
- ٧- الطبري ج ٢ ص ٤٩٩، والبلاذري ج ٥ ص ٢٠٥
- ٨- الطبري نفسه و البلاذري نفسه
- ٩- الطبري ج ٢ ص ٥٠٦ و ٥٠٧
- ١٠- الطبري ج ٢ ص ٥٠٧-٥٠٨
- ١١- البلاذري ج ٥ ص ٢٠٨
- ١٢- البلاذري ج ٥ ص ٢٠٧
- ١٣- البلاذري ج ٥ ص ٢٠٨، والطبري ج ٢ ص ٥٠٩
- ١٤- الطبري ج ٢ ص ٥٠٢-٥٠٥
- ١٥- البلاذري ج ٥ ص ٢٠٧ و الطبري ج ٢ ص ٥٠٩
- ١٦- سابقتها
- ١٧- المسعودي مروج ج ٣ ص ٩٣
- ١٨- الطبري ج ٢ ص ٥٤٣، البلاذري ج ٥ ص ٢٠٩
- ١٩- الطبري ج ٢ ص ٥٤٥
- ٢٠- البلاذري ج ٥ ص ٢٠٩
- ٢١- البلاذري سابقه، الطبري ج ٢ ص ٥٤٦، وهوزن أحزاب ص ١٩٤
- ٢٢- أحزاب ص ١٩٤، الطبري ج ٢ ص ٥٤٦، البلاذري ج ٥ ص ٢٠٩



- ٢٣- المسعودي مروج ج ٣ ص ٩٤، الترايون نسبة إلى أبي تراب علي بن أبي طالب.
- ٢٤- لمزيد من معرفة ما جرى في عين وردة انظر البلاذري ج ٥ ص ٢١٠ وما بعدها، والطبري ج ٢ ص ٥٥٨ وما بعدها، والمسعودي مروج ج ٣ ص ٩٤
- ٢٥- وهوزن أحزاب ص ١٩٤
- ٢٦- انظر الطبري ج ٢ ص ٤٩٧ و ٥٥٩، و ٥٦٦، و ٥٩٩ و ٦٠١، البلاذري ج ٥ ص ٢٠٧ وما بعدها وهوزن ص ١٩٤
- ٢٧- وهوزن ص ١٩٤

## الكفاح من أجل الشرعية

إن ما قيل حتى الآن يكمل المرحلة الأساسية الأولى من تاريخ تطور الإسلام الشيعي. في هذه المرحلة ثمة اتجاه خاص، ونزعة فكرية محسنة جيداً، ونظام نموذجي، ومبدأ تحي underling للتماسك العقائدي: أقرت وصار من السهل تمييزها بصفاتها التفسير الشيعي للإسلام. وربما حتى في هذه المرحلة المبكرة (من وفاة النبي ١٠هـ - ٦٣٢م وحتى وفاة الحسين ٦١هـ - ٦٨٠م) يستطيع المرء أن يميز الاختلاف الأساسي بين الشيعة وبقية الأمة الإسلامية، بينما فضل الشيعة قبول قيادة أولئك الذين يستمدون سلطتهم مباشرة من شخص النبي فقط، وبذلك يتمتعون بقداسة إلهية، فإن بقية الأمة الإسلامية قبلت سلطة الأمة بكاملها بحيث هي التي تختار القيادة.

ودخل التشيع بموت الحسين المرحلة الثانية من تاريخه. فبينما بقيت المبادئ الأساسية هي هي نفسها، طفت على السطح الاختلافات حول المعايير الدقيقة التي تقرر من يكون القائد الملهم من الله، وهذا ما أدى إلى الانقسام الداخلي ضمن المسلمين الشيعة. إن دراسة تاريخ الأديان تظهر أن هناك ظاهرة عامة في الأديان العالمية، ذلك أن الانقسامات كانت تحصل بسبب تفاصيل معينة حين يدخل الأتباع المرحلة الثانية من تاريخ دين ما. ولم يكن الإسلام استثناء، فقد حصل الانقسام بين السنة والشيعة كما في جميع الأديان الأخرى في هذه المرحلة.

لقد رأينا في الفصل السابق أنه قبل تحرك التوابين بقليل ضد السوريين، وصل المختار إلى الكوفة وحاول أن يحصل على تأييد سليمان بن صرد وأتباعه لخطته الخاصة للنهوض ضد الأمويين. ورفض التوابون، على كل حال، الانضمام إليه. وقد خضعت شخصية المختار وطباعه لكثير من التناقضات في تاريخ الشيعة المبكر. فقد وصفته بعض المصادر بأنه مغامر طموح حاول الوصول إلى السلطة باسم أهل البيت. وتشكك بعض المصادر الأخرى فتري أن أعماله ناتجة عن حبه لعائلة النبي، لكن توجهه وتكتيكه كانا مختلفين عن تلك التي لحركة التوابين.

وبتدقيق شامل للمصادر التاريخية نجد أن المختار كان تابعاً مخلصاً لآل علي وداعماً قوياً لقضيتهم، ولكن الحقيقة تبقى وهي أنه بشكل عام لم يسل تعاطفاً من مختلف المصادر لأسباب متباينة. فمصادر الشيعة الاثني عشرية تصفه بشكل غير مفضل وذلك لأنه بدأ حملته الدعاية لمحمد بن الحنفية، وبالتالي خالف مبدأ أساسياً وهو أن الإمامة تكون فقط في ذرية فاطمة. أما المصادر غير الشيعية فقد وقعت تحت تأثير الدعاية المضادة للمختار التي قام بها المتعاطفون مع ابن الزبير أو الأمويين. ولم تتم أية دراسة جادة للمختار، بل هناك إشارات خفية عرضها الدارسون المعاصرون<sup>١</sup> متأثرين بمصادرهم دون تدقيق نقدي. ومؤخراً أشار هودسن إلى أن تسويد سمعة المختار ومحاولة التشكيك به انطلقا عقب وفاته.<sup>٢</sup>

وبقي الحقيقة كما هي، وهي أن المختار وبفضل سياسة الهدوء التي تبناها زين العابدين، وعلى أغلب الاحتمالات، كان مسؤولاً عن تحويل الإمامة من ذرية النبي عبر فاطمة إلى ابن علي الآخر محمد بن الحنفية، وبالتالي

سبب أول انفصال عن جسم الشيعة الشرعية. وربما كانت "شرعية" غير دقيقة ولكننا استعملناها لوصف الكتلة المركزية الشيعية، حيث بقيت الإمامة بعد الحسين تنتقل من والد لولده بموجب نص جللي، وغالباً ما كانت تنتقل من الوالد إلى ولده الأكبر حتى انتهت مع الإمام الثاني عشر. وهدفنا في الفصول التالية هو الاقتصار على هذه الكتلة المركزية الشيعية، التي تنامت إلى عدد غير هام تقريباً بعد الحسين، وذلك بسبب الفروع المهدوية الثورية التي انبثقت مجدداً عن الكتلة الشيعية المركزية. قد يبدو مصطلح "الكتلة المركزية الشيعية" استبدادياً ووصفاً غير ناضج للتطور اللاحق، ومع ذلك تبقى الحقيقة هي أن هذه الكتلة الشرعية عادت إلى الظهور فيما بعد بصفاتها الأكبر، ولذلك بدت الكتلة المركزية وعرفت فيما بعد باسم الإمامية أو الأثنى عشرية. وبالتالي فإن حركة المختار وفكرة المهدي التي ألصقت بشخص محمد بن الحنفية وعقائدها الغالية والباطنية وانقسامات الشيعة الأخرى هي خارج نطاق هذه الدراسة.

وربما تجدر الإشارة هنا إلى أنه منذ الآن بدأ زمن الغموض يلف القيادة الشيعية بعد وفاة الحسين. وستعالج هذه الدراسة قضيتين مختلفتين: الأولى، كيف حافظت الكتلة المركزية الشيعية الشرعية على هويتها المستقلة ولم تستوعبها التوليفة السنية التي ظهرت مجدداً؛ والثانية، كيف احتفظت بمميزاتها الخاصة بعيداً عن الفروع الشيعية الثورية الغالية ضمن التشيع نفسه. فقد كانت مقاومة الذوبان في الحركات الشيعية الثورية أمراً صعباً بالفعل، وذلك لأن الأفكار الثورية الغالية هي عادة أكثر جاذبية من الأفكار المعتدلة.

حينما كان الحسين حياً بقيت الشيعة موحدة واعتبروه إماماً ورأس آل البيت النبوي. لكن موته المفاجئ والموقف الهادئ الذي اتخذته ولده الوحيد الذي بقي بعده على قيد الحياة علي زين العابدين ترك الشيعة في غموض وخلف فراغاً في قيادة أهل البيت النشطة. لذلك فإن الفترة التي أعقبت وفاة الحسين شهدت الصراع الأول على قيادة أتباع علي، ونتج عن هذا الصراع انقسام الشيعة إلى جماعات مختلفة.

كان علي زين العابدين هو الابن الوحيد من أبناء الحسين والذي لم يقتل في مذبحة كربلاء لأنه لم يشارك في القتال بسبب مرضه. وكان يبلغ الثالثة والعشرين من عمره يومها.<sup>٣</sup> وبعد عودته من كربلاء إلى المدينة المنورة عاش هناك معظم حياته متجنباً الانخراط في أي عمل سياسي بقدر ما استطاع ذلك. ولقد تركت مأساة كربلاء تأثيراً عميقاً عليه، وكان من الطبيعي جداً أن يحمل نقمة عميقة على الأمويين، معتبراً إياهم مسؤولين عن ذبح والده وأعضاء أسرته الآخرين. وبرغم ما في نفسه منهم، فإنه لم يعبر عن أي موقف عدائي تجاههم. وبالمقابل فإن الأمويين حاولوا المحافظة على علاقات طيبة معه، وبخاصة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك الذين حاولوا إظهار تقديرهما ومحبتهم له.<sup>٤</sup>

عندما ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية عام ٦٢ هـ - ٦٨١ م غادر زين العابدين المدينة إلى يستان له خارج المدينة،<sup>٥</sup> ليؤكد حياده في الصراع ضمن الأمة الإسلامية، ويومها اضطر وإلى المدينة إلى تركها، وعندها أودع زوجته عند زين العابدين وسأله أن يحميها. وأظهر زين العابدين شهامة عظيمة بقبوله تلك المسؤولية، وأرسلها إلى الطائف بحراسة ابنه عبد

الله.<sup>٦</sup> وعندما دحر جيش يزيد بقيادة مسلم ابن عقبة أهل المدينة في موقعة الحرّة وسلب ونهب المدينة، لم يصب زين العابدين أو عائلته أي أذى. وأكثر من ذلك، فقد أجبر يزيد أهل المدينة على قبول المذلة ومبايعة يزيد على أنهم عبيد له، لكن زين العابدين أعفى من ذلك.<sup>٧</sup> إذا كانت هذه المعلومات التي أوردتها جميع المصادر صحيحة، ولا نستبعد ذلك، فإن هذا يظهر من طرف أول سياسة الحياد التي تبناها زين العابدين، ومن طرف ثانٍ تشير المعلومات إلى أن الأمويين، وبعد قتل الحسين، بدأوا يدركون مقدار الاحترام والتبجيل الذين تتمتع بهما عائلة النبي بين معظم المسلمين. كذلك بقي زين العابدين محايداً في الصراع بين عبد الله بن الزبير والأمويين. ولم يتلق زين العابدين أي أذى من ابن الزبير، لكنه احتجزه في مكة تحت مراقبته. وهناك عامل آخر يذكر لزّين العابدين وهو سياسة التحفظ تجاه المختار، الذي حاول جاهداً الحصول على تأييد زين العابدين العلني، في محاولاته العديدة حين كان في الحجاز والرسالة التي كتبها له من الكوفة واعدت إياه بمبايعته.<sup>٨</sup> قتل المختار معظم أولئك المسؤولين عن مذبحه كربلاء ثاراً للحسين. وأرسل رأس عبيد الله بن زياد إلى زين العابدين، وليس إلى ابن الحنفية (الذي ادعى المختار القيام باسمه) وقدم الرأس لزّين العابدين بطريقة درامية.<sup>٩</sup> وتذكر المصادر التاريخية أن ابن الحسين كان مسروراً جداً في تلك المناسبة، وقيل أن الناس لم تره أبداً فرحاً منذ مأساة كربلاء. ومع ذلك، لم يغيّر زين العابدين موقفه المتحفظ من المختار. حتى أن المصادر التاريخية تذكر أن زين العابدين استنكر أعمال المختار بكلام قاس وعلناً، وإن كان ذلك

جديراً بفحص دقيق وجدي. إذا كان ذلك صحيحاً فإن ذلك يعود إلى أن المختار أعلن ولاءه لمحمد بن الحنفية وهذا ما اعتبره زين العابدين اعتداء على حقوقه الخاصة.

تورد المصادر الشيعية عدداً من الأحاديث تبين فيها أن الحسين عيّن بوضوح ابنه زين العابدين خليفة له. وأشهر هذه الأحاديث ذلك الذي يقول أن الحسين، وقبل أن يتوجه إلى العراق، أودع وصيته ورسائله عند أم سلمة أرملة النبي، طالباً منها تسليمها إلى أكبر أولاده الذكور سناً في حال عدم عودته. كان زين العابدين هو الولد الذكر الوحيد العائد إلى المدينة وقد سلمت أم سلمة الوصية والرسائل إليه فأصبح هو المرشح الوحيد لخلافة والده.<sup>١١</sup> وهناك حديث آخر يقول أن الحسين عيّن زين العابدين خليفة له وإمام أهل البيت قبيل خروجه لملاقاة الجيش الأموي في آخر مواجهة يوم عاشوراء في كربلاء.<sup>١٢</sup> وليس لدينا أي معيار تاريخي لقبول أو رفض مثل هذه الأحاديث. وربما كان المبدأ الجوهرى الذي يمكن الاعتماد عليه هنا هو الميل العام في ذلك العصر وممارسة الناس الشائعة في تلك المرحلة. واعتماداً على ذلك ربما استعدنا ما قلناه في الفصل السابع، وهو أنه بفضل نسب الحسين وموقعه كحفيد للنبي اعتقد أن من حقه الخاص أن يكون إماماً للأمة. وبناءً على ذلك، فإن من الطبيعى أن يورث تركته لابنه كى يحافظ على تقاليد عائلته في حقها بقيادة الأمة. هذه القيادة التابعة من صلته بالنبي. ومع ذلك، فإن الحقيقة بقيت وهي أن غالبية الشيعة اتبعت محمد بن الحنفية، وليس زين العابدين، رغم أن التوابين - كما مرّ معنا - اتخذوا من زين العابدين إماماً بعد

الحسين. وحتى البقية الباقية من التوابين الذين نجوا من معركة عين الوردة اجتذبتهم المختار إلى جانب ابن الحنفية.<sup>١٣</sup> وكان السبب واضحاً، وذلك أن شيعة الكوفة وبخاصة من الموالي أرادوا حركة ناشطة تستطيع تحريرهم من سيطرة الأمويين. ولم يجدوا متنفساً سوى قيادة المختار، وهناك بدا لهم بعض الأمل في دور المهدي ذلك الدور الذي روجه المختار عن ابن الحنفية.

ولم يتصل ابن الحنفية من دعوى المختار إلى إمامته ومهدويته، لكنه لم يلتزم علناً، ولم يدع ميراث الحسين.<sup>١٤</sup> إن من الصعوبة الأكيدة إثبات أن ابن الحنفية لم يعلن أي حق له بقيادة الشيعة، لما قد تجلب عليه مثل هذه الدعوى، أو أنه عرف أن ليس له حق في مثل هذه الدعوى لأنه لا يتحدر من النبي، وأن هذه القيادة مقصورة على تلك الذرية فقط. لقد أشرنا تكراراً في هذا الكتاب أنه منذ حدث السقيفة وحتى حركة التوابين إلى أن التأكيد الجوهري فيما يخص القيادة عند الشيعة كان على صلة القائد الإمام بالنبي. وقد جرى ذلك في حالة الحسن والحسين بشكل خاص حين ذكرا بقرابتهما للنبي أكثر مما ذكرا بصلتهما مع علي أبيهما. إذا كان للروايات التاريخية أي اعتبار عندئذ يبدو أن من الغريب بالفعل أنه بعد موت الحسين تغير الوضع مباشرة ليصبح التأكيد على ذرية علي بدلاً من ذرية النبي. وبالتالي، فإن ابن الحنفية، وعلى الأغلب، إلى جانب المخاطر السياسية، وكونه لا يتحدر من النبي، كان متردداً يادعاء الإمامة لنفسه. وهذا ما يوضح إصرار المختار أولاً على كسب تأييد زين العابدين؛ وأنه فقط حين فقد كل أمل بتأييده توجه إلى ابن الحنفية. أما الجانب الثاني من



المشكلة، وهو تغير موقف شيعة الكوفة وقبولهم إمامة ابن الحنفية الذي لا ينحدر من النبي، في الوقت الذي توفر هذا الشرط في زين العابدين، فإن ذلك يستدعي البحث عن إجابة ما. ربما كان الجواب الوحيد لذلك اللغز يكمن في حقيقة أن معظم الشيعة الأصليين الذين اتخذوا من مفهوم القيادة موقفاً عقائدياً أبعدوا أولاً في مذبح كربلاء وثانياً في معركة عين الورد بقيادة سليمان بن صرد الخراعي. ولم يكن أولئك العمود الفقري ذا المثل الشيعة الحقيقية فقط، بل كانوا المفكرين والقادة الدينيين، وقادة جموع الشيعة في الكوفة. بعد كربلاء وعين الورد لم يبق من الشيعة سوى العوام من العرب والموالي، الذين في ظل ذلك الظرف الصعب لم يكونوا قادرين على تقرير الشأن العقائدي والتميز بين ابن علي من فاطمة وابن علي من سواها. وعندهم أن علي كان ابن عم النبي وزوج ابنته وفرداً في العائلة المقدسة بني هاشم. وأن القداسة انتقلت بعد النبي لعلي خاصة، وليس لأي فرد آخر من الهاشمين كما فهمها الشيعة الأصليون، ولكنها غمت على البقية من عوام الشيعة بعد كربلاء وعين الورد. وهكذا تحولوا بفضل بلاغة وطلاقة المختار ونجاح دعوته لابن الحنفية بصفته "المهدي" وبالتالي "المنقذ" لهم من طغيان السيطرة الأموية. وبالتالي، لم تكن قضية حق ابن الحنفية في الإمامة أو شخصيته، بل قبل عوام شيعة الكوفة به بصفته الإمام -المهدي- بسبب توقعهم "لمخلص" محررهم من طغيان الأمويين. إن فحصاً دقيقاً لدعوة المختار إلى إمامة ابن الحنفية تظهر أن التأكيد الطاعني فيها هو الدعوة إلى دور "المهدي" أكثر

مما هي دعوى لدور الإمام. وهذا ما يفسّر العامل الأساسي في اجتذاب عوام شيعة الكوفة لقبولها.

وعلى كل حال، بعد أن غرس المختار فكرة المهدي، وجدت هذه الفكرة أرضية وطريقة لاجتذاب معظم عوام شيعة الكوفة ممن لم تستمكن في نفوسهم فكرة الإمامة العقائدية، بقدر ما كانوا شيعة سياسية استهوتهم فكرة المهدي. وبعد أن صارت حركة شعبية بآمال محددة، مال إليها حتى البقية الباقية من الشيعة الأصلية. وبالفعل، إن من الصعوبة بمكان مقاومة ما ندعوه دعوة ذات جاذبية جماهيرية، وبخاصة في وضع كحال العراق يومئذ، فحتى بعض المؤمنين حقاً بقيادة آل النبي لم يستطيعوا مقاومة أثر تلك الدعوة. وبالتالي، صارت مهدوية ابن الحنفية هي النظام السائد بين شيعة الكوفة. وبمضي الوقت، انتشرت تلك الدعوة ولاقت رواجاً وقبلها الناس، وصاغت عقائدها ونظريتها الخاصة وأساطيرها وإيمانها. ثم أنتجت شعراءها مثل كثير وسيد الحميري وآخرين. وصار معظم الشيعة في ذلك الوقت أتباع المهدي-الإمام (وليس الإمام فقط) العقيدة التي ربطها المختار وأعوانه بمحمد بن الحنفية، وطغت لفترة قصيرة على إمامة ذرية الحسين.

لم يستطع زين العابدين بن الحسين الأكبر والوحيد من ذرية محمد الباقي على قيد الحياة أن يتسامح مع هذا الوضع لفترة طويلة. وبرغم أنه حافظ على سياسة الهدوء ولم ينخرط في أية حركة سياسية-دينية، فإنه قاوم عقيدة قبول محمد بن الحنفية كإمام، وصمته الذي بدا لزين العابدين أنه يتضمن موافقته على دعوى المختار. والروايات التي نقلتها المصادر

الشيعة عنه فيما يخص ذلك<sup>١٥</sup> قد تكون صحيحة وقد لا تكون كذلك، لكنها تظهر أن زين العابدين لم يدع علناً حقه في ميراث آل البيت كفعل مضاد للدعوة التي نشرت نيابة عن عمه ابن الحنفية. هذا الاستنتاج مبني على حقيقة أن بعض الشيعة البارزين الذي صاروا أتباعاً لابن الحنفية مثل أبي خالد الكابلي<sup>١٦</sup> وقاسم بن عوف<sup>١٧</sup> وآخرين تخلوا عن ابن الحنفية، وعادوا لاتباع زين العابدين. لكن تجمع أتباع زين العابدين لم يتم تنظيمه قبل عام ٧٣هـ - ٦٩٢م ذلك العام الذي شهد موت ابن الزبير، ونهاية طموحات الحجازيين والعراقيين السياسية. مع ذلك بقيت معظم الشيعة تتبع إمامة ابن الحنفية ومن بعده ابنه أبي هاشم عبد الله.

يبدو أن زين العابدين استطاع أن يجمع حوله وقبيل وفاته جماعة صغيرة من تمسك بإمامته ضمت بعض الشخصيات البارزة من سبق لهم التمسك بإمامة أهل البيت، ومن أبرز هؤلاء يحيى بن أم الطويل<sup>١٨</sup> ومحمد بن جبير بن مطعم<sup>١٩</sup> وأهمهم جابر بن عبد الله الأنصاري<sup>٢٠</sup> صحابي النبي الجليل ومؤيد علي المخلص. استطاع جابر، بفضل موقعه كصحابي جليل وأحد الذين بايعوا النبي في العقبة وبيعة الرضوان أن يقدم خدمة جليلة لزين العابدين حين أقرّ بإمامته. وهناك أيضاً شخصية أخرى بارزة هي سعيد بن الجبير<sup>٢١</sup> الكوفي مولى بني أسد الشجاع المتحمس الذي رفض إخفاء علاقته وموالاته لأهل البيت النبوي. كان سعيد محدثاً معروفاً ومحدثاً شخصياً باسم زين العابدين استطاع أن يجتذب كثيراً من المحدثين (رواة الحديث النبوي)، وبخاصة من أصحاب علي بن أبي طالب الكبار. وضمت شيعة زين العابدين شاوين يافعين من الكوفيين لكنهما فعّالان: أبو

حزرة ثابت بن دينار<sup>٢٢</sup> من قبيلة الأزد و فرات بن أحنف العبدي<sup>٢٣</sup> وكان هذان الشابان مؤيدين لمخلصين لذرية الحسين، وكلاهما صارا من أصحاب محمد الباقر بن زين العابدين المقرين، يؤكد ذلك أن معظم الأحاديث الشيعة نقلت عنهما. من الواضح أن محدثي الشيعة الاثني عشرية ما كانوا ليقبلوا إسناد الأحاديث الخاصة بهم إلى هذين لو لم يكونا من أتباع أئمتهم. وبالتالي، فإنه لا داعي للشك بأن هذين الشخصين شكلا العمود الفقري للجماعة التي دعمت إمامة زين العابدين.

ربما كانت أهم شخصية دعمت جلال زين العابدين هي الشاعر المشهور الفرزدق. فلقد نظم الفرزدق مجموعة من القصائد التي تدعو إلى قضية زين العابدين، وأشهرها القصيدة التي مدح فيها الإمام، والتي قالها عندما أظهر الحجاج تبجيلهم لزين العابدين الذي طغى على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك. فقد أفسح الحجاج الطريق لحفيد النبي كي يصل إلى الحجر الأسود في الكعبة، حين كان الخليفة يكافح كي يصل إليه. وهذا ما أزعج هشام بعمق، فحاول السخرية بالسؤال عن ذلك الشخص الذي يجله الناس فأفسحوا له الطريق. وكان الفرزدق حاضراً تلك الواقعة، وحين سمع سؤال هشام ارتجل قصيدته وألقاها أمام هشام. ويجدر بنا اقتباس أبيات قليلة من هذه القصيدة التي تعتبر من أروع ما قال الفرزدق ومن أفضل الشعر العربي.

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحلّ والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا النقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله	بجده أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك من هذا بضائره      العرب تعرف من أنكرت والعجم

مشتقه من رسول الله نصبه      طابت مفارسه واخيم والشيم  
من معشر حبه دين وبغضهم      كفر وقرههم منجا ومعتصم  
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم      في كل بدءٍ ومحتوم به الكلم  
إن عداً أهل التقى كانوا أئمتهم      أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم<sup>٢٥</sup>

أما صحة هذه القصيدة ونسبتها للفرزدق والمناسبة التي قيلت فيها فلم يشك بها أحد البتة. ولذلك يجب أخذها وثيقة صادقة ومفيدة في كونها تصف زين العابدين بتأكيد خاص على محته ونبل مولده بصفته حفيد النبي ومتميزاً عن محمد بن الحنفية. وما تجدر ملاحظته أن الشاعر ذكر في آباء زين العابدين النبي وفاطمة ولم يذكره كحفيد لعلي بن أبي طالب.

نال الفرزدق جزاء مديحه الإمام، فقد حبسه هشام. وعندما علم زين العابدين بذلك، أرسل له ١٢٠٠٠ درهم هدية، لكن الفرزدق رفضها قائلاً أنه لم يمدحه لقاء هدية وإنما مدحه تعبيراً عن مشاعره الدينية. ومكث الفرزدق في السجن ولكنه بدأ يهجو هشاماً. وخاف الأمير الأموي سطوة لسان الشاعر فأطلق سراحه.<sup>٢٦</sup>

كل الروايات التي وصلتنا عن أنصار زين العابدين تظهر أن ذرية الحسين بقيت مركز الاهتمام والولاء والتبجيل الخاص، رغم أن هؤلاء الأنصار كانوا أقلية من الشيعة تحلقوا حول زين العابدين متمسكين بإمامته بصفته الإمام الشرعي الوحيد من أهل بيت النبي. ومع ذلك فإن هذا لا ينفي

أن الفترة ما بين وفاة الحسين عام ٦١ هـ - ٦٨٠ م ووفاة ابن الزبير عام ٧٣ هـ - ٦٩٢ م، لم تظهر أية نشاطات لأتباع زين العابدين.

اعتبر التوابون زين العابدين إمامهم - كما يبدو، ولكنهم لم يعلنوا ذلك أبداً، ولكن البقية التي نجت من معركة عين الوردة تحولت إلى المختار، وبالتالي قبلت إمامة ابن الحنفية. وهذا ما أكدته حديث الإمام محمد الباقر الذي نقله إلينا الكشي، ولا بد من قبول صحة هذا الحديث. قال الباقر: "بعد موت الحسين مرق الناس جميعاً عدا أبي خالد الكابلي ويحي بن أم الطويل وجبير بن مطعم، ولكن عاد إليهم بعضهم وكثر العدد." ٢٧ لم يكن لزين العابدين دور مهم بصفته إماماً وقائداً لمجموعة معروفة حتى عام ٧٣ هـ - ٧٩٢ م، وهذا الوضع واضح من حقيقة أنه لم يجر ذكره من بين ذرية علي بما فيهم ابن الحنفية الذي حبه عبد الله بن الزبير في سجن عارم. وهذا يعني أن زين العابدين لم يشكل أي خطر على ابن الزبير، فقد بقي هادئاً ولم يظهر أي دعوى بإمامته علناً. ولكن صمته لم يعن غياب الفكرة تماماً، لأن التعبير عن ذلك علناً، يخضع للظروف السائدة والفرص المناسبة.

إلى جانب مجموعة الأتباع الصغيرة التي تحلقت حول زين العابدين باعتباره إمامهم والمرجعية الدينية الوحيدة في ذلك الوقت، فإن زين العابدين حاز على احترام وتبجيل عظيمين من طرف علماء المدينة بعامة. هذا ما جرى في فترة تم فيها تزايد احترام وتعاطف المسلمين مع ذرية النبي، رغم أن ذلك كان مختلفاً عن مشاعر وعقائد الشيعة كما شهدت تلك الفترة اهتماماً خاصاً في المدينة بأحاديث النبي وبخاصة من طرف الفقهاء. وقد

رعى هذا الاهتمام فقهاء المدينة السبعة الذين ذكرناهم في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وقد ظهر زين العابدين باعتباره المحدث الأبرز في المدينة. وأبرز الفقهاء الذين بجلوا زين العابدين هو سعيد بن المسيّب.<sup>٢٨</sup> وتذكر المصادر الشيعية سعيداً بصفته أحد أتباع الإمام، وليس ذلك صحيحاً. والحقيقة هي أنه رغم احترام سعيد لزين العابدين وكونهما صديقين، فإن هناك تبايناً واضحاً في آرائهما الفقهية. وعلى كل حال، كانت المدارس الفقهية يومئذٍ في مراحلها الجنينية، وبالتالي كانت الاختلافات في الآراء الفقهية غير واضحة تماماً، أو أنها غير جذية في حال سعيد وزين العابدين. ومع ذلك فإن من المحتمل أن زين العابدين وعمه ابن الحنفية تمسكا بالأحاديث النبوية التي رواها الإمام علي فقط.

وهناك فقيه كبير ومحدث آخر هو الزهري الذي كان صديقاً حميماً ومعجباً جداً بالإمام زين العابدين. فقد كان الزهري أول من أطلق لقب زين العابدين على علي بن الحسين.<sup>٢٩</sup> ويدور من الروايات الوفيرة في المصادر الشيعية والسنية على السواء،<sup>٣٠</sup> أن زين العابدين كان محترماً من قبل جميع المسلمين بالنظر لميزاته الفائقة، مثل إطالته الصلاة، وتقواه، وكرمه. وتميز بتقواه الفريدة فلم يكن يظهر آياً من فضائله الجمّة. فحين كان يسافر مع جماعة لا تعرفه، كان يخفي هويته كيلا يميز نفسه عنهم بحقيقة كونه حفيد النبي.<sup>٣١</sup>

توفي زين العابدين عام ٩٤هـ - ٧١٣م ودفن في مقبرة البقيع. وهكذا يكون قد عاش أربعة وثلاثين عاماً بعد أبيه الحسين، وهي مدة كافية كي يبرز نفسه بصفته وريث والده ويترك أثر شخصيته على أتباعه.

ولقد عين زين العابدين ابنه الأكبر محمد الباقر وصياً ووارثاً لمقامه وهذا ما تجمع عليه المصادر الشيعية.<sup>٣٢</sup> قد يشك المرء بوجود وصية صريحة من الحسين بتسمية زين العابدين خليفة له، ولكن علينا أن نقبل بحديث أن زين العابدين عين صراحة ابنه الباقر -على الأقل ضمن دائرة أتباعه المخلصين- والعامل الأكيد الذي يؤيد مصداقية هذا الحديث هو أن غالبية الشيعة تخلت عن ذرية الحسين وذهبت إلى ابن الحنفية، وقبلت إمامة ابنه أبي هاشم من بعده؛ وفكر زين العابدين أن دعوى إمامة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية اغتصاب لحقوقه، وبدون أية صعوبة تذكر، نجح في استعادة مجموعة من هؤلاء إلى جانبه على أساس أن مبدأ الإمامة الشرعية هو في ذرية النبي عبر فاطمة، أي في ذرية الحسين وليس في سواه. وبالتالي، كان من الطبيعي أن يعين ابنه الأكبر لحمل مهمة العناية بأتباعه بصفته الإمام الشرعي الوحيد.

فالإمام زين العابدين ومن خلال تأكيده شرعية الإمامة في ذرية فاطمة فقط وبتجميع الأتباع حول نفسه، وضع الأساس المتين للشيعة الشرعية؛ وتابع خليفته وابنه محمد الباقر تطوير مبادئ الشرعية المفهوم الخلافة. (خلافة الإمام في ذريته وشرطها: الفاطمية). يشكك بعض الأساتذة<sup>٣٣</sup> فيما إذا كان الباقر قد حقق درجة ما من النجاح خلال حياته، أو أنه ادعى الإمامة إدعاءً. ثمة بالفعل احتمال أن كثيراً من الأحاديث المنسوبة له ذات الصلة بهذا الموضوع قد تكون من اختراع بعض أتباعه الذين عاشوا بعد وفاته. ومع ذلك، وفي غياب معيار محدد لقبول أو رفض هذه الأحاديث، علينا -وبقدر ما تسمح البراهين السائدة يومئذٍ- قبول هذه



الأحاديث بالشكل الذي وصلت في مصادر جمع الحديث الشيعة مثل أصول الكافي للكليني. وأكثر من ذلك، فإن شهادة الأئمة الذين توالوا بعد الباقر من ذريته ورفضهم كثيراً من الأحاديث (الخاصة بقضية شرعية الإمام، والتي لم يرفضها الأئمة اللاحقون) أقوى وأكثر قبولاً

برغم أن محمد الباقر ورث أتباع أبيه، لكنه اضطر لمواجهة مشاكل أكثر خطورة من تلك التي واجهها أبوه. فقد واجه زين العابدين دعوى المختار لإمامة ابن الحنفية، واستطاع بسهولة دحضها على أساس أنه الوحيد من ذرية النبي وفي الوقت ذاته ابن علي. أما بعد وفاة زين العابدين فإن العديد من أحفاد فاطمة، يحفزهم طموحهم الشخصي أو كرهوا فكرة أن يكون الإمام مجرد قائد ديني، وهي الفكرة التي تبناها زين العابدين، أذعنوا حقهم في ميراث النبي. وهكذا لم تكن المشكلة المباشرة التي واجهها الباقر من خارج عائلته، ولكنها من داخلها. وسوف نناقش حركتي منافسيه عبد الله المحض الذي كان يعمل لصالح ابنه محمد النفس الزكية، وأخيه غير الشقيق زيد بن علي زين العابدين في الفصل القادم. ويكفي القول هنا سريعاً أن حركة زيد ونشاطاته جذبت كثيراً من الشيعة فشككت تحدياً خطيراً لإمامة الباقر. في خضم هذه المنافسات، وحين تحرك زيد بن علي وانضم إليه معظم الشيعة، تحولت أنظار الناس عن الباقر وأتباعه، مما قاد الباقر إلى المزيد من التأكيد على أهمية الشرعية ضمن الحركة الشيعية. فقد لجأ الباقر لتأكيد إمامته إلى مبدأ "النص الجلي"، هذا المبدأ الذي سنتناقشه بالتفصيل في الفصل ١١. فقد قال الباقر أن والده زين العابدين عينه لخلافته في محضر من أخوته وأئمنه على

تابوت يحتوي على صحائف دينية سرية وسلاح النبي.<sup>٣٤</sup> وقد أوردت المصادر الشيعة العديد من أحاديث الباقر التي شرح فيها دور الإمام الذي ينطوي على مواصفات خاصة يرثها من خلال "النص" من الإمام السلف. وبذلك أدخل الباقر جملة من الأفكار التي شرحها ابنه جعفر الصادق بالتفصيل. توضح هذه الأحاديث بجلاء تام أنه عمل على تدعيم موقعه بصفته الإمام معلناً أنه يمثل Representative الله في الأرض والمهمل الذي يؤول كلمته (القرآن).

فالقضية الأكثر أهمية وحيوية والتي تممنا الآن هي كيف نجح الباقر في تأسيس مبدأ شرعية مفهوم الإمامة، وبالتالي هل استطاع تحقيق أي نجاح ديني خلال حياته. إن فحصاً دقيقاً متأنياً لسير الأدباء وأدبهم في المصادر السنّة والشيعة سيساعدنا في العثور على جواب لهذا السؤال. ولعل من المهم والمفيد جداً أن نلاحظ أن أسماء أتباع الباقر كما دونتها المصادر الشيعة وترجمتها بتفاصيل دقيقة، هذه الأسماء لم يشك أو يجادل بها أي من كتاب السير السنّة. (كتب السير نقصد بها ما هو معروف في التراث الإسلامي باسم كتب الرجال). وبالفعل، فإن الكتاب السنّة وحين يذكرون أتباع الأئمة الشرعيين يعقبون الاسم مباشرة بوصف صاحب الاسم بأنه رافضي أو غالي أو شيعي. وبالإضافة إلى كتب الرجال يصف كتاب الفرق أمثال البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق وابن حزم في كتابه الفصل بين الملل والنحل والشهرستاني في كتابه الملل والنحل هؤلاء يصفون أتباع الأئمة بعلامات مشينة. أخيراً، يجب ملاحظة أن الكتاب الشيعة يشيرون بشكل خاص أن فلاناً غير ولاءه في وقت ما إلى زيد أو

النفس الزكية بغض النظر عن السبب. وأكثر من ذلك، فإن كُتّاب الزيدية والإسماعيلية الذين انتجوا العديد من الكتب الدينية الخاصة بهذه الفرق لم يدّعوا أن أتباع الباقر كانوا من أعضاء هاتين الجماعتين. نعم لقد حصلت تحولات في التبعية ما بين أتباع هؤلاء القادة العلويين (الباقر وزيد والنفس الزكية) مثل بيان بن سنان والمغيرة بن سعيد العجلي وسرعان ما أذان هؤلاء كُتّاب الشيعة الاثني عشرية. هذه الحقائق تؤيد فكرة أن قائمة أتباع الباقر التي سرصدها هنا ليست قائمة خيالية. وبغض النظر عن التعديلات النهائية التي أجراها كُتّاب الرجال الشيعة الاثنا عشريون على هذه القائمة باتباع الباقر بقصد التمييز بين هؤلاء القادة العلويين (الباقر وزيد والنفس الزكية) لتأكيد من هو الإمام الشرعي، فإن هذه الروايات مبنية على حقائق محددة. فبالفعل، لم يكن زين العابدين والباقر والصادق مهمين على المستوى السياسي لأنهم تجنبوا الانخراط في أية مغامرة سياسية، لكن ذلك لا يعني أنهم لم يدعوا أي دور ديني بصفتهم أئمة. والحقيقة أن سياسة التهدئة السياسية التي تبناها دفعتهم إلى الظل مقابل نشاط زيد والنفس الزكية السياسي، ولكن في الوقت ذاته، ومن خلال هذه السياسة عينها، وفي النهاية ظهروا على أنهم الأئمة والقادة الشرعيون المعترف بهم من طرف غالبية الجماعات الشيعية. إنما حقيقة لا يخالطها شك، ذلك أنه عقب وفاة زين العابدين بدأ صراع على القيادة بين الباقر وأخيه غير الشقيق زيد بن علي، وأن عدداً كبيراً من الشيعة فضلوا الالتحاق بزيد بفضل سياسته النشطة وموقفه الجسور. ومع ذلك، ومع مرور الزمن نجح الباقر في استعادة بعض الشيعة الذين

التحقوا بزید، كما نجح في جذب مؤيدين جدد. وكان الأكثر أهمية من بين هؤلاء زرارہ بن أعین وأخوه حمران وحمزة بن محمد بن عبد الله الطيار. كان زرارہ المكسب الأهم، ذلك لأنه صار المتكلم والمحدث الأبرز في ذلك الوقت، حيث جمع حوله جماعة كبيرة في الكوفة.<sup>٣٧</sup> أما أخوه حمران فكان سابقاً من الأصحاب المقربين من زين العابدين، ثم صار من الأتباع المخلصين المتحمسين للباقر الذي بشره بالجنة وأعلن قائلاً: "حمران من شيعتنا في هذا العالم وفي العالم التالي".<sup>٣٨</sup> أما حمزة بن الطيار فكان في أول حياته معارضاً للباقر، ولكن بعد تردد ما بين مختلف مدعي الحق في القيادة اختار أخيراً أتباعه.<sup>٣٩</sup>

ومن أتباع الباقر الهاميين إلى جانب زرارہ والذين أصبحوا مراجع في فقه المدرسة الشيعية الاثني عشرية عند تأسيسها فيما بعد معروف بن خربوذ،<sup>٤٠</sup> وأبو بصير الأسدي،<sup>٤١</sup> وبُريد بن معاوية،<sup>٤٢</sup> ومحمد بن مسلم بن رياح الطائفي،<sup>٤٣</sup> وفضيل بن ياسر.<sup>٤٤</sup> وكان الأبرز من بين هؤلاء هو محمد بن مسلم بن رياح مولى ثقيف في الكوفة، كان يعمل طحاناً وعرف بلقب الأعور. فقد وصف بأنه "الأكثر ثقة بين الرجال" وعرف بأنه أعظم فقيه في الكوفة معاصر للفقهاء ابن أبي ليلى وأبي حنيفة صاحب المذهب السني والقاضي شريح. ويبدو أنه كان نظيراً لزرارہ المعروف بأنه محدث وفيلسوف متكلم، بل مؤسس "علم الكلام الشيعي"، وجمع محمد بن مسلم علم الحديث والفقه العملي واشتهر بإجاباته الجريئة والسريعة. وكان زاهداً معروفاً.

من بين أتباع الباقر أبو بصير ليث البختاري المرادي الذي كان فقيهاً شيعياً عظيماً ومحدثاً ثقة. كان أبو بصير مولى بني أسد، وصار صاحب الباقر المقرب وبعده ابنه جعفر الصادق. قيل أن جعفر الصادق قال: "أبو بصير وبُريد وزراره ومحمد بن مسلم هم أركان العالم، ولولاهم لكان الحديث النبوي ضاع."<sup>٥٩</sup> لقد كانوا السابقين والأصحاب المقربين للأئمة. وكان أبو حمزة الثمالي شخصية مثيرة شغلت مركزاً مرموقاً بين أصحاب الباقر، وروى عنه أحاديث كثيرة ذات ميل غالية، وعلى الأخص تلك التي تتعلق بالمعجزات.<sup>٦٠</sup>

وكان الشاعر المعروف يومئذ الكميث بن زيد الأسدي<sup>٦١</sup> أحد أهم مؤيدي الباقر الهاميين جداً. وقد خدم الكميث قضية الإمام أكثر من أي شخص آخر من خلال قصائده الشعرية الأصلية. عبّر الشاعر عن إخلاصه من خلال مواهبه الشعرية، ونشر اسم الباقر في كل مكان. لكن مجموعته الشعرية في مدح أهل البيت المعروفة "المهاشيات" سببت له بعض المتاعب الجدية. فقد أخبر والي العراق خصم العلويين يوسف بن عمر الخليفة عبد الملك.<sup>٦٢</sup> وتدبر الشاعر أمره مع الخليفة بأن نظم بعض القصائد في مدح الأمويين.<sup>٦٣</sup> ومع ذلك، بقي الكميث الشاعر المفضل عند الأئمة الشرعيين من ذرية الحسين، وقد قال فيه الإمام جعفر الصادق: "لم يزل الكميث مؤيداً بروح القدس"<sup>٦٤</sup>

وبرغم أن البصرة كانت على الجملة مدينة معادية للعلويين، فإن الباقر استطاع أن يجد مؤيدين عديدين هناك أيضاً، مثل محمد بن مروان

البصري<sup>٥١</sup> ومالك بن أعيان<sup>٥٢</sup> كما ربح الباقر قلعة من المؤيدين المتحمسين في مكة.

ولكن وعلى كل حال، فإن حركة زيد بن علي زين العابدين طغت على جهود الباقر في تأسيس الإمامة الشرعية، ومع ذلك حصر الباقر اهتمامه في مهاجمة اتباع وأصدقاء زيد فقط. وعندما حانت الفرصة المناسبة لم يتردد الباقر في منافسة ودحض حقوق زيد في الإمامة بحدة. فعندما سأله سعيد بن منصور وهو أحد قادة الحركة الزيدية: "ما قولك في النبيذ، فقد رأيت زيد يشربه؟" أجابه الباقر قائلاً: "لا أظن أن زيداً يشربه، ولكن إذا فعل فهو ليس نبياً، ولا وصي نبي، وهو ليس أكثر من فرد في عائلة محمد، وهو يخطئ ويصيب."<sup>٥٣</sup> وهذا القول يبين رفضه لحق زيد في الإمامة، وإعلان غير مباشر عن مقامه هو نفسه بصفته وصي النبي. وكانت أم الباقر هي فاطمة بنت الحسن<sup>٥٤</sup> وبذلك فهو سليل النبي وعلي من خلال أبويه وبالتالي فهو يتفوق على زيد ابن الأمة السندية<sup>٥٥</sup> ولكن الباقر لم يظهر أية رغبة في تأسيس أية حركة ناشطة، وإنما حافظ على سياسة أبيه السلمية. ومن طرف آخر، كان زيد صاحب المعتزلي واصل بن عطاء وتأثر بأفكاره لذلك أخذ يؤكد مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ويحض على ضرورة التغيير حتى بالقوة. وكان يعلن أن الإمام هو الذي يدافع عن حقه وسيفه بيده<sup>٥٦</sup>. وقد تشاجر الباقر وزيد على هذه القضية، وبما أن زيد رفع شعار حرب المعتصبيين، أجابه الباقر: "معنى ذلك أنك تنفي إمامة أبيك، فهو لم ينهض بهذه القضية."<sup>٥٧</sup> عندما سأل أبو بكر بن محمد الحضرمي وأخوه علقمة وكلاهما من شيعة الكوفة زيداً عن علي

بن أبي طالب إن كان إماماً قبل أن يلجأ إلى السيف، رفض زيد الإجابة على السؤال، مما جعلهما يتخيلان عنه ويعودان للإقرار بإمامة الباقر.<sup>٥٨</sup>

وكان السؤال الخطير هو عن حق أبي بكر الصديق وعمر بالخلافة. وانسجاماً مع رأي المعتزلة تمسك زيد بأن أبا بكر وعمر كانا إمامين شرعيين انتخبا بصورة شرعية، رغم أن علياً كان مرشحاً أفضل منهما، وهذا ما أثار عليه المحدثين الشيعة. وفي الوقت ذاته رفض زيد عقيدة المعتزلة "بالموتلة بين المرتلين"، ولكنه لم يرفض رأي واصل عن الصراع بين علي وخصومه، بأن أحد الطرفين كان بالتأكيد خاطئاً، رغم أن واصل لم يحدد آياً منهما،<sup>٥٩</sup> بينما أكد زيد فضائل علي وقال بتفوقها، ولكن فكرته هذه لم تكن كافية كي تقبلها الشيعة.

على كل حال، إن تأكيد زيد بن علي على قبول خلافة أبي بكر وعمر واتساع شعبيته ضمن دوائر المعتدلين يظهر من طرف أول، أن خلافة أبي بكر وعمر كانت موضوع مناقشة جدية في الدوائر الشيعية في ذلك الوقت، ومن طرف آخر إن نجاح زيد في موقفه من هذا الموضوع أحدث وضعاً معقداً ومعيقاً للباقر. فزين العابدين لم يتحدث أبداً ضد هذين الخليفين، لكن في زمن الباقر بدأ بعض المغالين من شيعته يشيرون هذه القضية. وبالتالي صار الباقر من وقت لآخر يتعرض للسؤال عن رأيه بخلافة أبي بكر وعمر، ولكنه لم يدهما علناً، بل كان يؤكد أنهما خليفان.<sup>٦٠</sup> ومع ذلك أعلن أفراد معينون من شيعة الكوفة أنه أدانهما ولكنه أخفى رأيه الحقيقي والتجأ في ذلك إلى مبدأ التقية.<sup>٦١</sup> هذه الدعاية من طرف شيعة الكوفة أتباع الباقر أكسبته بلا شك تعاطفاً كثيراً من

الغلاة وأنصاف الغلاة في الأوساط الشيعية، ولكنها من طسرف آخسر أحيطت أولئك الذين رغبوا في حركة عملية ناشطة لإعادة أهل البيت إلى السلطة، وكانوا غير راضين عن سياسة الباقر السلمية. لذلك فضل هؤلاء المعتدلون أن ينضموا إلى حركة أخيه زيد،<sup>٦٢</sup> الذي أكد قبوله بالخليفتين الأولين من أجل تحقيق مصالح محددة، ورفض في الوقت نفسه مبدأ التقية. وأغضب موقف زيد وحركته الباقر فقال: "حتى ولو أقام هؤلاء الجهلة Butrites خط قتال ما بين الشرق والغرب فإن الله لن يحقق المجد في العالم على أيديهم.

وكان من بين شيعة الكوفة الحكم بن عتيه الكندي أحد أبرز الفقهاء في مدينته.<sup>٦٤</sup> فضل الحكم هذا علي بن أبي طالب على أبي بكر، ولكنه مع ذلك بقي معتدلاً في ولائه الشيعي مما جعله موضع احترام كبير بين اتباع زيد. وقد ترك الحكم من موقعه كقاضٍ في الكوفة تأثيراً كبيراً على سكانها، وبالتالي قدم خدمة جليلة لحركة زيد.<sup>٦٥</sup> وكان من الطبيعي أن الباقر الذي اعتبر أنه الأحق بالإمامة من أخيه، والذي اعترض على هذا الموقف المساوم لزيد أن يتحدث بمرارة عن كلٍ من أبي بكر وعمر، وعبر عن عدم رضاه قائلاً: "إن الحكم وجماعته من الزيدية ضللوا الناس. إنهم يقولون إنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر؛ ولكنهم لا يؤمنون."<sup>٦٦</sup> وتابع خليفة الباقر ابنه الصادق الموقف ذاته، واتهم الحكم بالتحديف ضد الباقر،<sup>٦٧</sup> حتى أنه سَمَّى الزيديين بالنصاب الذين يكرهون علي.<sup>٦٨</sup>

إن التساؤل عن صحة خلافة أبي بكر وعمر في هذه المرحلة يلفت نظرنا إلى قضية أخرى: إنها الممارسة الدينية. فقد تمسك الباقر بالتقاليد المستقاة



من علي ومؤيديه. وهذا يعني أنه كان هناك تباين حتى ضمن أهل البيت، فقد مال زيد لقبول ممارسة "أصحاب الحديث الكوفيين" الذين أسسوا فكرهم على أحكام عمر بن الخطاب. ومن هنا نرى أن الباقر هو الذي أسس مذهب أهل البيت. يورد الكشي حديثاً هاماً جداً يقول: "قبل إمامة الباقر ما كان الشيعة يعرفون الحلال والحرام عدا ما تعلموه من الآخرين؛ حتى صار أبو جعفر إماماً وعلمهم وشرح لهم علوم الفقه عندها بدأوا يعلمون الآخرين الذين كانوا يتعلمون منهم".<sup>٦٩</sup>

يشير هذا الحديث بوضوح إلى أنه حتى زمن الباقر لم يكن هناك تباين واضح في الفقه بين الشيعة وأصحاب الحديث في المدينة والكوفة وسواهما. والواقع أن الفرق بين هاتين المدرستين كان في الفروع ضيقاً،<sup>٧٠</sup> فمثلاً حرّم الباقر النيبذ،<sup>٧١</sup> وأباحه المحدثون، وأباح زواج المتعة، وحرّمه المحدثون، واستند الشيعة في ذلك إلى تقليد علي، في حين استند المحدثون إلى تقليد عمر.<sup>٧٢</sup> وقالت الشيعة إذا حق لعمر تغيير حكم نبوي، حق لعلي تغيير حكم عمر.

على كل حال،، يبدو أن ما قلناه سابقاً يجعلنا نرى أن محمد الباقر دافع عن إمامته بصفته وريث أبيه زين العابدين، وأن الجماعة الصغيرة الموالية لزين العابدين بدأت تتطور تحت قيادة الباقر إلى أن صارت الفريق الشيعي الشرعي ضمن الحركة الشيعية. وإذا كان علينا ألا نقبل بهذا، فإننا عندئذٍ نخالف كثيراً من الحقائق التاريخية وأهمها الروايات العديدة التي تحدثت عن المنازعات ما بين الأخوين الباقر وزيد. ومع ذلك، إن تواريخ وفاة أتباع الباقر المقربين تشير إلى أن هذه التطورات كانت لصالح موقف

الباقر الذي نجح في أواخر حياته في استمالة أكثر الخدثين والفقهاء، ومعظمهم عاش بعد وفاة الباقر لسنوات.

عند وفاة الباقر كان الفريق الشيعي الشرعي محدود العدد، ولكنه أسس قواعد له في كل من الحجاز والعراق، وامتلك الأسس الضرورية لنموه في المستقبل ليصبح عقيدة قوية وواسعة الانتشار. فقد امتلك الأسس النظرية -مع أنها كانت ما تزال وليدة وغير محددة بدقة- وبرغم أن هذه الأسس لم تتميز تماماً عن الأفكار السائدة بين اتباع مذهب أصحاب الحديث، فإنها مع ذلك كانت متميزة كفاية كي تعتبر عقيدة قائمة بذاتها. لقد وجدت هذه الأسس في فكر زرارة وأتباعه مدرسة كلامية نظرية، ومدرسة فقهية جنينية. كما وجدت في شعر الكميث وسيلة لنشر أديها وإعلامها الذي نشرها في كل مكان.

لقد أوردت المصادر الكثير عن شخصية محمد الباقر وفضائله غير العادية، ومعظم ذلك ورثه عن أبيه. فقد كان جواداً وتقياً ومسالماً بطبعه، ولم يفكر قط بتنظيم ثورة أو عصيان لتأكيد حقوقه.<sup>٧٣</sup> ولكنه بدلاً من ذلك كافح للتأثير في الناس من خلال علومه الدينية، والحقيقة أنه نال تبعيلاً واسعاً بصفته أعلم أهل زمانه. ولذلك فقد دعي الباقر -كما يذكر اليعقوبي- أي الذي ينشر المعرفة: أي الذي يحص العلم وينفذ إلى أعماق الفكر.<sup>٧٤</sup> أما ابن خلكان فيرى أنه نال لقب الباقر لأنه جمع العلم من أطرافه.<sup>٧٥</sup> وقد جذب فقهه معظم الفقهاء حيث تعودوا الرجوع إليه لمناقشة القضايا الفقهية. ومن هؤلاء محمد بن منكدر وأبو حنيفة النعمان

وقنادة بن دعامة وعبد الله بن معمر الليثي ونافع بن الأزرق  
الخارجي.<sup>٧٦</sup>

لم يحدد تاريخ وفاة الباقر بالضبط. وأبكر تاريخ لوفاته هو عام ١١٣هـ - ٧٣٢م،<sup>٧٧</sup> وآخر تاريخ هو ١٢٦هـ - ٧٤٣-٧٤٤م.<sup>٧٨</sup> والتاريخ الأكثر قبولاً هو ١١٧هـ - ٧٣٥م كما ذكر يعقوبي.<sup>٧٩</sup> لا نشك في أنه توفي قبل ثورة زيد في الكوفة ولم يكن قد مات منذ زمن بعيد يومها، حين كان موقف الصادق لم يثبت بعد.

يخبرنا الشهرستاني أن جماعة من أتباع الباقر رفضت الإقرار بموته، وقالت برجته.<sup>٨٠</sup> وهؤلاء كانوا من أتباع الكيسانية تخلوا عن أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وقبلوا بإمامة الباقر. وهذا يعني ويؤكد أن الباقر أحرز نجاحاً في توطيد شرعية إمامته. ويذكر النوبختي شيعة الباقر باسم الباقرية،<sup>٨١</sup> وبعد وفاته عرفت باسم الجعفرية نسبة إلى ابنه الصادق وخليفته.<sup>٨٢</sup> ولا يجب أخذ هذه الألقاب حرفياً والتي أطلقها كتاب الفرق التي أريد بها ذكر أتباع أشخاص بعينهم وليس الفريق. أي التركيز على شخص الزعيم وليس الجماعة.

ويكون الإمام الباقر يوم توفي قد أمضى تسعة عشر عاماً إماماً. وترك ورائته لابنه وخليفته جعفر الصادق، الذي تتحول الآن لمناقشة إمامته.

## مراجع وملاحظات الفصل ٩

- ١- ويلهاوزن، أحزاب ص ١٩٨-٢٣٤، ك. أ. فارق، حكاية الدبلوماسية العربية (نيودلبي ١٩٦٧)
- ٢- هودسن، كيف أصبحت الشيعة المبكرة طائفة. مقال في Jaos ١٩٥٥ ص ٣ E
- ٣- ابن سعد ج ٥ ص ٢١٢
- ٤- ابن سعد ج ٥ ص ٢١٢-٢٢٠ الطبري ج ٢ ص ٢٠٩
- ٥- الطبري ج ٢ ص ٢٢٠
- ٦- سابقه
- ٧- المسعودي، مروج ج ٣ ص ٧٠، المبرد، الكامل ج ١ ص ٢٦٠، الدينوري ص ٢٦٦
- ٨- البلاذري ج ٥ ص ٢٧٢، المسعودي، مروج ج ٣ ص ٧٤
- ٩- اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٩
- ١٠- البلاذري ج ٥ ص ٢٧٢؛ ابن سعد ج ٥ ص ٢١٣
- ١١- محمد بن يعقوب الكليني، أصول الكافي (كراتشي ١٩٦٥ ج ١ ص ٣٥٣، المجلسي بحار ج ١١ ص ٧ الآمل، أعيان ج ٤ ص ٣٣٢، المسعودي، مروج ج ٣ ص ٢٢٥
- ١٢- الكليني من سابقه
- ١٣- ابن خلدون، الاعتبار (القاهرة ١٨٦٧) ج ٣ ص ١٧٢
- ١٤- البلاذري ج ٥ ص ٢١٨
- ١٥- الكليني ص ٣٥٢
- ١٦- الكشي، اختيار معرفة الرجال (طهران بلا تاريخ) ص ١٢١
- ١٧- سابقه
- ١٨- سابقه
- ١٩- سابقه

٢٠- سابقه ص ٤، ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب (القاهرة ١٣٥٠هـ)

ج ١ ص ٨٤

٢١- الكشي، رجال ص ١١٩

٢٢- سابقه

٢٣- سابقه

٢٤- الكليني، الكافي، يتكرر في صفحات عديدة

٢٥- ديوان الفرزدق ج ١ ص ٨٤٧، الأغاني ج ٢١ ص ٤٠٠، ابن خلكان،

الوفيات ج ٤ ص ٩٥ البيهقي، كتاب المحاسن والمساوي، تح سكوالي

(جيزن ١٩٠٢) ص ١٣١، أبو نعيم، حلية الأولياء (القاهرة ١٩٣٨) ج ٣

ص ١٣٩، الكشي، رجال ص ١٣٠، أبو نصر السبكي، طبقات الشافعية

تح. أحمد بن عبد الكريم (القاهرة بلا تاريخ) ج ١ ص ١٥٣، ابن كثير،

البداية ج ٩ ص ١٠٨

٢٦- انظر مراجع الملاحظة السابقة ٢٥

٢٧- الكشي، رجال ص ١٢٣

٢٨- ابن سعد ج ٥ ص ٢١٦، الكشي، رجال ص ١٥٥

٢٩- ابن سعد ج ٥ ص ٢١٦

٣٠- المراجع السنّة انظر ابن سعد ج ٥ ص ٢١٦-٢٢٢؛ ابن خلكان ج ٣

ص ٢٦٦، المبرد، الكامل ج ١ ص ٢٦٠ وج ٢ ص ١٣٨ وج ٣ ص ١٢٠،

ابن كثير، البداية ج ٩ ص ١٠٣-١١٥ المراجع الشيعة انظر اليعقوبي

ج ٢ ص ٢٤٧، المسعودي، مروج ج ٣ ص ١٦٠، الكليني ج ١ كتاب

الحجة متكرر، الشيخ المفيد، الإرشاد ج ٢ ص ١٣٨-١٤٥، الأملّي،

أعيان ج ٤ ص ٣٠٨-٤٦١

٣١- المبردي، الكامل ج ٢ ص ١٣٨

٣٢- الكليني ج ١ ص ٣٥٤، المجلسي، بحار ج ١١ ص ١٠٠، القاضي النعمان،

شرح الأخبار مخطوط ورقة ٣٢

٣٣- مونتغمري واط (الشيعية تحت الحكم الأموي) ص ١٦٨، هودسن المقال

#### السابق E

٣٤- انظر مراجع الملاحظة ٣٢

٣٥- انظر بشكل خاص الكليبي كتاب الحجّة متكرر

٣٦- مونتغمري واط، ملاحظة ٣٣

٣٧- الكشي، رجال ص ١٣٣

٣٨- الكشي، رجال ص ١٦١-١٦٧

٣٩- سابقه

٤٠- سابقه ص ٢٣٨، ٢١١، الحائري، انتهى المقال (طهران ١٣٠٢هـ—)

ص ٣٠٤-٣٠٥

٤١- الكشي، رجال ص ١٦٩ و ٢٣٨

٤٢- سابقه

٤٣- سابقه ص ١٦١، ٢٣٨، الحائري ص ٢٤٣

٤٤- الكشي، رجال ص ٢١٣، الحائري ص ٢٤٣، النجاشي، رجال ص ٢١٩

٤٥- الكشي، رجال ص ١٧٠، الحائري ص ٢٤٩-٢٥٠

٤٦- الكشي، رجال ص ٢٠١، الحائري ص ٧٣

٤٧- الأغاني ج ١٦ ص ٣٣٠، الجاحظ البيان ج ١ ص ٤٦

٤٨- الأغاني ج ١٦ ص ٣٣٣

٤٩- الكشي، رجال ص ٢٠٦، الأغاني سابقه

٥٠- الكشي، رجال ص ٢٠٦

٥١- الكشي، رجال ص ٢١٤، الحائري ص ٢٩٣

٥٢- سابقه

٥٣- الكشي، رجال ص ٢٣٢

٥٤- ابن سعد ج ٥ ص ٢١١ و ٣٢٠ و ٣٢٥

٥٥- مقاتل ص ١٢٧، ابن سعد ج ٥ ص ٢١١ و ٣٢٥

٥٦- الشهرستاني، الملل والنحل ج ١ ص ١٥٤

- ٥٧- سابقه
- ٥٨- الكشي ص ٤١٦
- ٥٩- الشهرستاني، الملل ج ١ ص ٤٩
- ٦٠- ابن كثير، البداية ج ٩ ص ٣١١، الذهبي، تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٣٠٠،  
ابن الجوزي صفة الصفوة ج ٢ ص ٦١ أبو نعيم، حلية ج ٣ ص ١٨٥
- ٦١- الروايات التي تذكر الشاعر الكميّ مقتبساً بالقر وهو يدين أبساً بكر  
وعمر انظر الكشي ص ٢٠٥ مع ذلك لم يعبر الكميّ عن رأيه صراحة  
فيما يخص الحليّتين انظر الهاشميات ص ١٥٥
- ٦٢- النوبختي، فرق الشيعة ص ٥٢، الكشي ص ٢٢٩
- ٦٣- الكشي ص ٣٢، أما المضللون فهم الذين لم يميزوا بين مدعي الإمامة من  
العلويين وأيدوا أقرب علوي إليهم متهم.
- ٦٤- الذهبي ج ٤ ص ٢٤٢، ابن حجر، التهذيب ج ٢ ص ٤٣٤
- ٦٥- ابن عماد، شذرات ج ١ ص ١٥١
- ٦٦- الكشي ص ٢٠٩
- ٦٧- الكشي ص ٢٠٩ الحائري ص ٢٦٣
- ٦٨- الكشي ص ٢٠٩ و ٢٢٩
- ٦٩- الكشي ص ٢٨٩
- ٧٠- سكاتش، أصول ص ٢٦٢ E
- ٧١- الكليني، فروع الكافي ج ٢ ص ١٩٣، الذهبي، تاريخ الحفاظ ج ١  
ص ١٦٠، القاضي النعمان شرح ورقة ٤٦
- ٧٢- سكاتش، أصول ص ٢٦٦، مالك بن أنس، الموطأ ج ٣ ص ٢٣، المرتضى  
بن داني تذكر العوام ص ٢٧٠-٢٧١
- ٧٣- ابن سعد ج ٥ ص ٣٢١، الكليني، الكافي ص ٢٩٩، القاضي، شرح ورقة  
٣٢، الآملي أعيان ج ٤ ص ٢٦٢، ابن خلكان ج ٤ ص ١٦٧، المجلسي،  
بحار ج ١١ ص ١٠٠

- ٧٤- يعقوبي ج ٢ ص ٣٢٠، البيهقي، الحاسن ج ٣ ص ٢٩٨، القاضي النعمان،  
شرح ورقة ٣٣
- ٧٥- ابن خلكان ج ٤ ص ١٦٧
- ٧٦- القاضي النعمان، سابقه، الأملی: أعيان ص ٤٩٠، المجلسي، بحار ج ٦  
ص ١٠٠، الكليني، الكافي ص ٢٩٩، الخلنجي، نور الإبصار ص ١٦٠
- ٧٧- ابن سعد ج ٥ ص ٣٢٤، ابن خلكان ج ٤ ص ١٧٤، أبو الحاسن، النجوم  
الزاهرة ج ١ ص ٢٧٣
- ٧٨- المسعودي، مروج ج ٣ ص ٢١٩
- ٧٩- يعقوبي ج ٢ ص ٣٢٠، الذهبي، تاريخ ج ٤ ص ٣٠٠
- ٨٠- الشهرستاني، الملل ج ١ ص ١٦٦
- ٨١- النوبختي، الفرق ص ٢٥
- ٨٢- الجعفرية هنا لا تعني مذهب جعفر الذي يطلق على فقه الاثنى عشرية  
حالياً.



## إمامة جعفر الصادق

الإمام السادس أبو عبد الله جعفر الابن الأكبر لـ محمد الباقر، ولد في المدينة إمام عام ٨٠ هـ - ٦٩٩ - ٧٠٠ م أو ٨٣ هـ - ٧٠٣ - ٧٠٤ م.<sup>١</sup> ومن جانب والده كان بالطبع حسنيّاً فهو من ذرية النبي، ومثل والده كان علويّاً من ناحيتين: فمن ناحية أبيه الباقر هو علوي وكذلك من ناحية أمه فهو علوي مضاعفاً.<sup>٢</sup>

أما من جهة أمه كان جعفر ابن حفيد أبي بكر،<sup>٣</sup> فأمه هي أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر.<sup>٤</sup> فالقاسم تزوج ابنة عمه عبد الرحمن بن أبي بكر وبالتالي كانت أم فروة حفيدة أبي بكر من جهة أبيها وأُمها.

تربى جعفر تحت رعاية جده زين العابدين حتى بلغ الرابعة عشرة من عمره. وبالتالي عاش وشهد كرم وتقوى وكثرة عبادة جده وكذلك انسحابه من العمل السياسي. كما شهد في الوقت ذاته دعوى جده الناس لإمامته وجهوده، برغم محدوديتها وضعفها، ليجمع حوله بعض الأولياء الذين رفضوا وقاوموا جاذبية إمامة محمد بن الحنفية وولسده أبي هاشم. وشهد جعفر الاحترام الذي حظي به جده من طرف علماء المدينة وغيرهم.<sup>٥</sup> وفي بيت أمه شهد الطفل جعفر جده القاسم بن محمد بن أبي بكر الذي نظر إليه أهل المدينة بصفته محدثاً عظيماً وبالتالي نال احترامهم.<sup>٦</sup>

أما خارج البيت فقد شهد جعفر الاهتمام المتنامي في المدينة للبحث عن علوم الحديث، والبحث عن تفسير آيات القرآن الكريم. وفي صباه شهد قمة الحكم الأموي، وتأسيس إدارتهم الإمبريالية، وفترة السلام والسوفرة المادية، وندرة الاهتمامات الدينية، كما سنين لاحقاً. مما جعل من المحتمل أن تلك الخلفية قد تركت أثرها على يافع في الرابعة عشرة من عمره وبصمت فكره وشخصيته ومنحت أعماله القادمة اتجاهاً معيناً.

وحين توفي جده زين العابدين كان جعفر قد بلغ بداية سن النضج، وأمضى حوالي ثلاث وعشرين سنة تحت عناية والده الباقر. وخلال هذه السنين لم يشهد جعفر جهود والده لتأصيل شخصيته بصفته إمام أهل البيت فحسب، بل ساهم في هذه الجهود بصفته الابن الأكبر لوالده. وعندما توفي الباقر كان جعفر قد بلغ الرابعة والثلاثين أو السابعة والثلاثين من عمره، وقدّر له أن يعيش لمدة ثمانية وعشرين عاماً بصفته إمام الشيعة التابعين الخط الحسيني، وهي فترة أطول من إمامة أي من الأئمة السابقين عليه.<sup>٧</sup>

عرف جعفر بعلومه الدينية التي فاقت علوم والده وأي إمام آخر عدا الإمام علي بن أبي طالب نفسه. وربما كان أقدم مرجع تاريخي يبرز الصادق بصفته أكثر شخصية محترمة ومبجلة في عصره، وبصفته حاز علماً عميقاً هو يعقوبي الذي ذكر أنه كان من المعتاد لدى العلماء الذين رروا عنه أي شيء أن يقولوا: "أخبرنا العالم"<sup>٨</sup> وحتى قيل أن عالم المدينة المشهور مالك بن أنس كان يقول حين يروي عن الصادق: "أخبرني الثقة جعفر بن محمد."<sup>٩</sup> وكذلك هناك ما يشبه ذلك روي عن أبي حنيفة

النعمان،<sup>١٠</sup> الذي روي أنه كان أحد تلاميذ الصادق. وقال الشهرستاني عن جعفر: "وهو ذو علم غزير في الدين، وأدب كامل في الحكمة، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات".<sup>١١</sup>

شهدت إمامة جعفر الصادق أكثر فترات التاريخ الإسلامي أهمية وخطورة في المناخين السياسي والعقائدي. فقد حصل فيها أحداث غيرت وأثرت في مجرى التاريخ: حركات عنيفة ونتائج طبيعية لنشاطات سرية متنوعة، ومحاولات ثورية، وفوق كل شيء مواقف تصالحية بين "أهل الحديث" و"المعتزلة" في جهود الجماعتين لتنظيم مجموعة من العقائد المكتوبة تؤخذ الأمة الإسلامية، أو "الجماعة" وجود هذا الوضع المعقد المتعدد الجوانب سهل ارتقاء إمامة جعفر إلى موقع بارز ومتميز لم يصل إليه والده أو جده (الباقر وزين العابدين). لذلك فإن القضية الجوهرية التي ستعرض لبحثها هي كيف حققت إمامة جعفر هذا التفوق العظيم كما شهد لها كل من الشيعة والسنة، بعد أن تدنت الشيعة إلى مجرد قلة من الأتباع غير المهمين، بسبب تحول غالبية الشيعة عن الإمامة الشرعية المسالمة واقتناعهم باتباع الحركات الشيعية المغالية والثورية. ولا يمكن الإجابة على هذا السؤال ما لم نفحص سلسلة من الأحداث ونتائجها الأخيرة -النتائج التي آلت إلى نجاح البيت العباسي وخسارة الحركات الشيعية وتنصل كثير من الشيعة من آرائهم السابقة والإحباط الذي أصاب القضية الشيعية. فلقد أصاب مسقطي حين لاحظ أن العباسيين بعد وصولهم إلى الخلافة وحدوا المسلمين ودفعوا الشيعة إلى القيام بدور المعارضة، مع العلم أنهم وصلوا إلى الحكم بجهود وقوة الفريق الشيعي.<sup>١٢</sup> إننا لا نريد أن نذهب إلى التفاصيل

الدقيقة، ولا يمكننا ذلك الآن، لكل هذه الأحداث ذات النتائج البعيدة التي حصلت قبل وخلال إمامة الصادق، والتي وصفناها سابقاً بأنها هامة وخطيرة وغيرت مجرى التاريخ الإسلامي. ومع ذلك فإن من الضروري ذكر الخطوط العريضة لهذه الأحداث.

عندما أحبطت سياسة الاتوقراطية الأموية وأسلوب حياتهم في الجحون والخلاعة توقعات المسلمين، وبخاصة بعد كارثة كربلاء، فإن كثيراً من المسلمين تعلقوا بفكرة "المهدي" القائد الذي اعتبروا أن الله يقوده مباشرة. وبرغم أن مصطلح المهدي استخدم بشكل رئيسي من طرف الشيعة، إلا أن الفكرة جذبت العديد من غير الشيعة أيضاً. إن أول من ادعى المهديوية هو ثالث أولاد علي محمد بن الحنفية<sup>١٣</sup> أما أهم الأحداث التي ساعدت على قبول فكرة المهديوية فهي: مذبحة كربلاء<sup>١٤</sup> وتدمير الكعبة، وحصار المدينة، واضطهاد شيعة علي في الكوفة وغيرها، لكن أهم هذه الأحداث بلا شك كان قتل حفيد النبي الوحيد الحسين بن علي<sup>١٥</sup>. إن امتناع ابن الحسين الوحيد الذي نجا من مذبحة كربلاء زين العابدين عن الانخراط في أية مغامرة سياسية جعل شيعة الكوفة المتحمسين يتحولون لدعم أي علوي يتوقعون منه رفع معنوياتهم. وبالتالي، لم تكن شخصية محمد بن الحنفية هي التي أثرت في الكوفيين، وإنما حاجتهم الأساسية إلى شخصية بارزة يستخدمون اسمها لبدء تحركهم. والحقيقة هي أن ابن الحنفية كان متردداً في دعوة نفسه "المهدي" أو يدعى القيام بهذا الدور<sup>١٦</sup>. فهم المختار هذا الوضع وأحسن استغلاله. فقد جمع شيعة الكوفة في بيته وأعلن أمامهم: "فإن المهدي ابن الوصي محمد بن علي بعثني إليكم أميناً

وزيراً ومنتخباً وأميراً، وأمرني بقتال الملحدين، والطلب بدماء أهل بيته،  
والدفع عن الضعفاء." <sup>١٧</sup> (والنقل عن الطبري. المترجم)

ومن المهم أن نلاحظ أن التأكيد في هذه الرواية لم يكن على محمد بن  
الحنفية، بل على "المهدي" وعلى "ابن الوصي" قد يكون ابن الحنفية قد  
وافق على اقتراح المختار، أو هذا ما يمكن فهمه من قول المختار لابن  
الحنفية: "صمتك هو موافقتك"؛ لكن مع ذلك، حافظ ابن الحنفية على  
موقف غير ملزم بما اقترح المختار. وفي جميع الأحوال، ربما كان هذا ما  
فهمه المختار من تصرف ابن الحنفية، كما شرحه أمام الكوفيين.

لاقت دعوى المختار إلى مهدوية ابن الحنفية تأييد الغالبية العظمى من  
الشيعة لم يسبق له مثيل، وضمت العرب ومعظم الموالي من الفرس الذين  
زاد عددهم على عدد العرب. وسمى الموالي الذين انضموا إلى المختار  
أنفسهم شيعة المهدي أو شيعة الحق. <sup>١٨</sup> ونتيجة لهذا ظهر فريق شيعي  
مستقل، وكان حسن التنظيم وناشطاً ومزوداً بأفكار متطرفة، ودعي هذا  
الفريق "الكيسانية" نسبة إلى كنية المختار نفسه أو على الأغلب نسبة إلى  
شخصية غامضة هي أبو عمر كيسان مولى المختار. <sup>١٩</sup>

وبرغم انتهاء حكم المختار سريعاً حين قتل هو ومعظم أتباعه، إلا أن  
أتباعه نشروا مذهب الكيسانية في مناطق عديدة، مما صعب القضاء عليه.  
واستمر هؤلاء الكيسانية، وبعضهم كان يعيش في مناطق بعيدة مثل  
خراسان، في الإقرار بابن الحنفية بصفته إماماً— مهدياً وخدموا أفكارهم  
بطريقة مبالغ فيها. وبعد وفاة ابن الحنفية عام ٨١هـ — ٧٠١م <sup>٢٠</sup>  
اعتقد الغلاة من الكيسانية بغيبته ورجعته، بينما قبلت أكثرية الكيسانية

ابنه الأكبر أبا هاشم عبد الله بصفته إماماً عينه مباشرة والده.<sup>٢١</sup> ومثل الجناح المغالي الشاعر أبو الطفيل عامر بن وائلة كُتِبَ وسيد الحميري؛<sup>٢٢</sup> لكن الأخير عاد إلى موالة جعفر الصادق.

يورد الكشي خبراً هاماً عن رجلين من أصحاب الصادق المقربين هما: السراج ومحمد بن عيسى كانا قبلًا يعتقدان بأن ابن الحنفية ما يزال حياً. فقد وبَّجها الصادق وأوضح بأن هناك من شهد دفن ابن الحنفية، وتقسيم أملاكه، وأن أرملة تزوجت.<sup>٢٣</sup> ومع ذلك بقيت فكرة "الرجعة" عندئذ عقيدة رئيسية مميزة لدى معظم فروع الشيعة.

وَأثرت توقعات الكيسانية الخلاصية Messianic في العديد من المسلمين شيعة وغير شيعة على السواء. وأصبحت المهدوية الخلاصية وسيلة عامة للتعبير عن المشاعر العامة في تلك المرحلة التاريخية المفصلية، وجرى استخدامها وسيلة فعالة في المغامرات السياسية.

انتشر السخط بين المسلمين على الناحيتين السياسية والاجتماعية لأسباب عديدة. فقد عارض العراقيون العرب هيمنة السوريين. وسخط الموالي على التعالي الذي أبداه الحاكمون العرب عليهم، وزاد عدد العرب المستحقين العطاء من بيت المال مما أدى إلى زيادة التكاليف المالية على الشعوب المغلوبة. وبفضل انتشار الشعور الديني وسيطرته على كل نواحي الحياة قُبِحت المعارضة ضد النظام القائم واستخدمت تعابير دينية لتأكيد حقوقها. لم يكن السخط موجهاً مباشرة ضد الأسس الدينية أو الفقهية للدولة الإسلامية.<sup>٢٤</sup> فأحكام القرآن والسنة هي أحكام إلهية وأحكام نبوية أهمها الله لنبيه، وبالتالي لا يمكن أن تكون خاطئة. لكن

الحكام المطالبين بتطبيق هذه الأحكام وتحقيق العدالة هم المسؤولون عن الانحرافات وإهمال هذه الأحكام الإلهية والسنن النبوية. وبالتالي، فقد كان الأمل بالتححرر وتغيير النظام السياسي والاجتماعي لا يعني تغيير الأسس الفقهية وإدخال أسس قانونية جديدة، وإنما الإخلاص في تطبيق هذه الأحكام الإلهية.<sup>٢٥</sup>

وهكذا وجدت الدعاية المضادة للأمويين تعابير تلقائية في مصطلحات دينية. كان اهتمام الأمويين الرئيسي، كما يذكر شاخت Schacht "ليس في الدين والأحكام الدينية، وإنما في إدارة سياسية، وهنا نرى الأمويين يجسدون ميلاً إلى البروقراطية المركزية المنظمة المتزايدة في الإدارة. واهتموا بقضايا دينية - سياسية ونظرية بقدر ما تخدم الولاء لهم أنفسهم.<sup>٢٦</sup> وإلى ذلك يمكن إضافة الملاحظة الهامة التالية. إن قرب فترة الحكم الأموي من فترة الحكم النبوي وبعده مباشرة حكم الراشدين، والفرق الكبير بين الفترتين من حيث تصرف الحاكمين جعل الناس يلاحظون باهتمام واندعاش أسلوب حياة الأمويين المتمثل بتعاطي الخمر والاستماع لغناء القيان. وبالتالي، ومن خلال التأكيد على فسق الأمويين، وبعدهم عن الاهتمامات الدينية، صار المسلمون ينظرون إليهم كفاشين لحقوق أهل بيت النبي ومضطهدينهم.<sup>٢٧</sup> كما كان حصار المدينة وإحراق الكعبة نقطة سوداء في تاريخ السلالة الأموية.<sup>٢٨</sup>

هذه العلامات الخاصة بالأمويين قادت المسلمين إلى ذمهم وتصوير حكمهم بأنه فترة ظلم، وفي الوقت نفسه أبرزوا أملاً للجماهير المسلمين بالتححرر ويتمثل هذا الأمل بانتصار العدالة التي هي أحد أعمدة الدين

والتقوى من خلال تطبيق الأحكام الدينية بدقة تحت إدارة قائد يلهمه الله مباشرة. فالمهدي يجب أن يكون أحد ذرية النبي، أو من عائلته. ومما تجب ملاحظته بشكل خاص أن فكرة الخلاص لا تعني انتظار الخلاص من خلال السلبية في المواقف والقيادة الروحية وهي السياسة التي تبناها وتميز بها خط الإمامة الشرعية أي جعفر الصادق وآبائه الباقر وزين العابدين. فمبدأ أو مفهوم الجهاد الذي يعني أن يعرض المؤمن نفسه وممتلكاته لخدمة الدين لا يسمح بموقف سلبي.

وكان أول العلويين الذين ثاروا على الأمويين هو زيد الولد الثاني لسزين العابدين. فحين توفي زين العابدين خلفه ابنه الباقر بصفته الإمام الشرعي في سلالة علي، تبنت الباقر سياسة أبيه السلمية وقصر دوره على القيادة الدينية، عندها رفض زيد بن علي وادعى أنه يريد إقامة العدل من خلال تطبيق مبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" بالقوة عند الضرورة. وقال زيد إن الإمام هو الذي يدعو إلى حقوقه وسيفه في يده. وكان هذا تعبيراً عن مشاعر عميقة لا عند شيعة الكوفة فقط بل عند أهل المدينة وكثير من المسلمين وهذا ما عوّل عليه زيد. وهكذا تحول كثير من اتباع زين العابدين عن الباقر إلى زيد. وانضم إلى هؤلاء كثير من الكيسانية اتباع ابن الحنفية ثم ولده أبي هاشم، لكن آراء زيد المعتدلة لم تلق موافقة غلاة الكيسانية. فحين تمسك زيد بأفكار وأصل بن عطاء وعقائده جذب تأييد المعتزلة، وبقبوله خلافة أبي بكر وعمر ربح تعاطف الحنّائيين. ويكشف هذا الخليط الفكري عن نقطتين هامتين. الأولى، رفض زيد وأصحابه الأفكار المنتشرة بين الجماعات الشيعية (الكيسانية والباقرية).



فالزيدون لا يقبلون إمامة إمام مسلم أو مرو مثل الباقر وابن الحنفية؛ بل الإمام في نظرهم هو سليل علي وفاطمة الذي يعلن إمامته علناً. الثانية: عرف زيد أنه كي يصل إلى الخلافة عليه أن يضمن وقوف رأي غالبية المسلمين خلفه، وبالتالي أعلن قبوله لما تقبل به الأغلبية. وهكذا أعلن قبوله خلافة أبي بكر وعمر واعتبرهما شرعيتين؛ وإلى جانب ذلك حافظ على عقيدة الشيعة في أفضلية علي؛ وصاغ ذلك في مبدئه المشهور وهو "قبول إمامة المفضل بوجود الفاضل"، وذلك كي تتحقق المصالح العامة.<sup>٢٩</sup>

وبعد وفاة الباقر حافظ الصادق على سياسة والده تجاه زيد وحركته فبقي مجرد مراقب سلبي تجاهها. وبما أن زيد كان عم الصادق وبالتالي له مقام خاص عند جعفر، فإن جعفر لم يدن سياسة عمه وفضائله علناً. لكن هذا لا يعني أن جعفر لم تكن له دائرته الخاصة من الأتباع المخلصين ورثها عن أبيه، حيث كان الصادق يؤكد هؤلاء الأتباع رفضه لآراء زيد. وفوق ذلك، أن تنازل زيد وقبوله بشرعية خلافة أبي بكر وعمر سببت له رفض الشيعة لهذا الموقف وبالتالي تخلى عنه معظم الشيعة المتحمسين وتحولوا إلى موالة الصادق.<sup>٣٠</sup>

قبل أن زيد خاطب الذين تحولوا عنه قائلاً: "رفضتموني" ولذلك سمى الشيعة المتحمسون "الرافضة"<sup>٣١</sup> وذهبت جماعة من شيعة الكوفة إلى المدينة وأخبرت الصادق بأفكار زيد ونشاطاته. فأجابهم الصادق محافظاً على سياسة احترام عمه: "زيد أفضلنا وسيدنا."<sup>٣٢</sup>

بدأت ثورة زيد في صفر ١٢٢هـ كانون الأول ٧٤٠م وفشلت. فقد قتل زيد وذبح الكثير من أتباعه.<sup>٣٣</sup> وأمر الخليفة هشام الطالبيين البارزين بالابتعاد عن الزيدية وإدانتها،<sup>٣٤</sup> ومن بين هؤلاء أبو عبد الله معاوية وأبو عبد الله المحض،<sup>٣٥</sup> ولكن اسم جعفر الصادق لم يذكر أبداً. وهذا يظهر أن جعفر الصادق ميز شخصه بمعارضته لحركة الزيدية ونشاط بعض أفراد عائلته (المذكورين أعلاه بالتحديد. المترجم)

هذا الوضع يذكرنا بما حصل لجده زين العابدين مع يزيد بن معاوية، حين أحمّد يزيد ثورة أهل المدينة، وأجر بني هاشم على مبايعته وإعلان أنفسهم عبيداً للخليفة بينما أعفى زين العابدين من ذلك.<sup>٣٦</sup> والآن أعفى الصادق من حالة مماثلة، مما يعني استمرار سياسة زين العابدين نفسها في خط الإمامة الشرعية.

تابع يحيى بن زيد سياسة والده ونشاطاته وفرّ إلى خراسان كي يجمع حوله شيعة الكوفة الذين نفاهم الحجاج والولاة الأمويون على العراق إلى أماكن قصية. ولكن في عام ١٢٥هـ ٧٤٣م وبعد ثلاث سنوات من العمل الفاشل لقي يحيى مصيراً كمصير والده.<sup>٣٧</sup> وفي الحقيقة لم تستطع حركة زيد أن تنال قبول الجماعات النشطة لأن زيد لم يدّع أنه المهدي - الفكرة التي سادت يومها في أوساط الجماهير الشيعية. كما حرّمه سياسته الفكرية المعتدلة من تأييد عامة الشيعة. ولكن حركته تركت أثراً بالغاً على تطور الحركة الشيعية بكاملها. فقد أيد أو تعاطف مع حركة زيد العديد من الشخصيات البارزة بين الفقهاء والمحدثين ومنهم: أبو

حنيفة النعمان وسفيان الثوري والأعمش قاضي المدائن وهلال بن حباب وآخرون من القادة في المدن الأخرى.<sup>٣٨</sup>

برغم أن حركة زيد انتهت إلى الفشل إلا أنها مهدت الطريق أمام مدعين آخرين، وقدمت أرضية جاهزة لثورة أخرى أكثر تأثيراً. موت زيد ومن بعده ولده يحيى ترك فراغاً في القيادة الناشطة، ودعم توقعات المستقبل أمام اثنين من أقاربهما ومنافسيهما حتى اللحظة وهما: جعفر الصادق ومحمد النفس الزكية. وبما أن الصادق التزم بسياسة الهدوء التي سنّها جده وأبوه فلم يكن ميّالاً لقيادة حركة ناشطة ذات ميول سياسية. ويجب أن نلاحظ أن الشيعة في هذه المرحلة كانت منقسمة عقائدياً إلى ثلاث مجموعات. الأولى هي الشيعة الغالية ذات الرسالة الخلاصية التي انبثقت عن الكيسانية؛ والثانية هي الشيعة المعتدلة التي تبنت أفكار زيد بن علي ودعمها المعتزلة والمحدثون في المدينة والكوفة؛ أما الثالثة والأخيرة فهي شيعة الصادق التي كانت تنشر وتعبّر بهدوء عن آرائه ونظرياته في الإمام ودوره، والتي لم تبني الادعاءات الخلاصية ولا الرعة الزيدية النصاحية المعتدلة، كما سنرى لاحقاً.

إلى جانب هذه المجموعات الثلاث ظهر إلى العلن مجموعة أخرى هي محمد النفس الزكية وهو من السلالة النبوية وأتباعه، وقد استطاعت هذه الحركة أن تجذب بقايا الزيدية والمعتزلة المؤيدين للشيعة وكذلك عدداً من الغلاة على أساس أن محمد النفس الزكية تبني الدعوات الخلاصية. وبرغم أن ثورة النفس الزكية بدأت فيما بعد إلا أن من المهم أن نذكر بأن حركته الخلاصية بدأت، في الواقع، منذ هذا المنعطف.

كان محمد النفس الزكية قد عَيَّن منذ طفولته للقيام بدور المهدي من طرف والده عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بلقب "الحض" عرف محمد بن عبد الله (النفس الزكية) بأنه رجل الفضائل واشتهر بعلومه الدينية وفصاحته.<sup>٣٩</sup> وحين بلغ سن النضج لم يدخر والده عبد الله جهداً لتعظيم الدور المتوقع من ابنه النفس الزكية. فقد انتشر حديث نبوي رواه عبد الله بن مسعود قال فيه النبي: "لا تقوم الساعة حتى يملك الأرض رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً".<sup>٤٠</sup>

وبما أن هذا الحدث يمكن أن ينطبق على محمد المهدي بن النصور العباسي،<sup>٤١</sup> فقد ظهر حديث آخر يؤكد أن دور الخلاص هو من حق النفس الزكية، ونسب هذا الحديث إلى أم سلمة أرملة النبي وفيه: "وسمعت رسول الله يقول: المهدي من ذرية فاطمة".<sup>٤٢</sup>

لم يؤيد ترشيح النفس الزكية لدور المهدي أقاربه فقط، بل دعمه أيضاً الغالي المتطرف المغيرة بن سعيد العجلي.<sup>٤٣</sup> اشتهر المغيرة بأنه من غلاة الشيعة، وقد حذر الصادق أتباعه مراراً من قبول أحاديث المغيرة.<sup>٤٤</sup> بقي أتباع المغيرة حتى بعد إعدامه أوفياء للنفس الزكية.<sup>٤٥</sup> كما ناصره المحدثون المعتدلون والمعتزلة بقيادة عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء،<sup>٤٦</sup> واعترف هؤلاء بأن هذا العلوي اليافع محمد النفس الزكية هو الشخص المناسب ليرث دور زيد بن علي وابنه يحيى.<sup>٤٧</sup>

على كل حال، بعد وفاة الوليد بن يزيد ظهر التفسخ في السلالة الأموية، وبعد تردد عبد الله بن معاوية الذي صادف نجاحاً محدداً في خراسان قرر

عبد الله الخض وبعض مؤيدي القضية العلوية التحرك.<sup>٤٨</sup> فقد دعى عبد الله الخض أثناء الحج أقاربه وأتباعه لمبايعة ولده النفس الزكية. وتم ذلك أولاً في الكعبة ثم أعيد في الأبواء قرب المدينة.<sup>٤٩</sup> وبحسب أبي الفرج، فإن من بين الذين بايعوا النفس الزكية كان العباسيون الأخوة الثلاثة: إبراهيم الإمام وأبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور محمد بن علي بن عبد الله بن العباس إلى جانب أعضاء آخرين من العباسيين. وليس لدينا ما يؤكد هذه الرواية وأن هؤلاء الثلاثة حضروا بيعة الأبواء. وإن يكن اسم أبي جعفر قد ورد في مصادر تاريخية أخرى.<sup>٥٠</sup> وهذا يبدو مقبولاً باعتبار أن أبا جعفر المنصور كان في صباه معتزلاً<sup>٥١</sup> صاحب عمرو بن عبيد<sup>٥٢</sup> الذي يحتمل أن يكون قد اقنع أبا جعفر المنصور بمبايعة النفس الزكية. والمعارضة الوحيدة لبيعة الأبواء جاءت من طرف جعفر الصادق،<sup>٥٣</sup> الذي اعتبر نفسه الوحيد صاحب الحق في الإمامة، كما عارض أية منظمة عسكرية.

على كل حال، برغم شعبية النفس الزكية فلا هو ولا والده تحركا بطاقة كافية، بل تركا الساحة للعباسيين كي يبادروا. وكان الاثنان (النفس الزكية ووالده) مجرد متفرجين سلبين على الانقلاب الهائل وهو سقوط الخلافة الأموية. لقد نهأت كل مكونات نجاح الثورة ولم ينقصها سوى ضربة صاعقة وتحرك مستمر بعدئذ. وكان الوضع هو من يضرب أولاً يربح الجائزة.

كانت فكرة تصنيف من هو من أهل البيت ومن هو من غير أهل البيت كانت بلا شك مشوشة جداً في ذلك الوقت. فكل مدع علوي ومؤيده

تبينوا نظرية خاصة مختلفة عما تبناه العلويون الآخرون لتأييد وتبرير دعواه. تمسك فريق شيعي واحد بأنه يعد علي فإن الحق في الإمامة وميراث النبي يعود إلى أولاد فاطمة وذريتهم، وحيث أن الحسين ورث الحسن بموجب وصية صريحة، فإن هذا الميراث انتقل إلى الحسين وذريته وبالتالي استبعد الفرع الحسني. هذا الفريق الذي نذكره بصفته الفريق الشيعي الشرعي، ورغم أنه لم يتوقف أبداً عن الدعوى إلى اعتبار نفسه صاحب الحق الشرعي الوحيد الموجود على الساحة فإن عدد أتباعه تناقص ليصبح الأقلية الشيعية في ذلك الوقت بعد انتهاء حركة التوابين. وهناك آخرون اعتقدوا أن فرداً من ذرية علي وفاطمة سواء من ذرية الحسن أم الحسين يحق له قيادة الأمة الإسلامية. وضم هذا الفريق اتباع زيد بن علي واتباع النفس الزكية. أما الفريق الثالث فضم غالبية الشيعة وهم الكيسانية أتباع محمد بن الحنفية ومن بعده ابنه أبي هاشم. كان هذا التصنيف مفهوماً جيداً لدى المتكلمين والفقهاء من سكان المدينة والكوفة. أما جماهير الشعب الممتلئة بكره الأمويين والحقدهم عليهم والشعور بالقرف من حكمهم فكانت جاهزة لتجتمع حول أي قائد علوي يتوقع منه أن يحررهم من معانقهم.

كانت الغالبية العظمى من سكان الكوفة، وبخاصة من الطبقات الدنيا جاهزين لتأييد أية حركة مناهضة للأمويين. وهكذا حصل حين منحت هذه الأغلبية تأييدها لعبد الله بن معاوية،<sup>٥٥</sup> ابن حفيد أخي علي جعفر بن أبي طالب. يذكر الطبري أن معظم مؤيدي عبد الله بن معاوية كانوا من العبيد والعوام من سكان الكوفة وسواها (ريفها).<sup>٥٦</sup> بعد فشل عبد الله

بن معاوية في الكوفة قرّ إلى إيران وسيطر على منطقة واسعة هناك حتى اغتيل على يد أبي مسلم على الأغلب.<sup>٥٧</sup> من المحتمل أن يكون ابن معاوية حقق نجاحاً في إيران بفضل دعواه بأنه رسول أبي هاشم. وسهّلت دعاية ابن معاوية في خراسان مهمة قائد آخر لتنظيم ثورة منظمة وقوية.

بعد كل الحركات السابقة والتمرد أصبح الوقت جاهزاً لتحرك ناجح لم يكن، في الحقيقة، لصالح أي علوي، وإنما للعباسيين الذين كانوا منذ بعض الوقت يهيئون الحطّط سراً وينتظرون الفرصة المناسبة. كان علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أول شخص في البيت العباسي يأمل بتحقيق طموحات سياسية، ولكنه لم يكن لديه أي حجة تدعمه من الناحية الشرعية. فجده العباس عم النبي لم يدع الحق في الخلافة أبداً. وأكثر من ذلك، إن تأخره في اعتناق الإسلام وسياسة الانتهاز<sup>٥٨</sup> التي تبناها لطخت سمعته بين المسلمين. أما ابنه عبد الله فبرغم شهرته كعالم فلم يكن لديه طموحات سياسة، وإنما كان بطل قضية ابن عمه علي بن أبي طالب.<sup>٥٩</sup> فقد كان واليه على البصرة ومثله الشخصي الملازم لحكمه أبي موسى الأشعري.<sup>٦٠</sup> ومن المحتمل أن علي بن عبد الله قد حلم بحقوق سياسية معينة مبنية على أسس العادات القبلية فالفرع المكّي الذي يحوز على صفة الكاهن - السيد يضم كل ذرية عبد المطلب، ومن هذه الزاوية الشرعية فإن دعواهم كانت في وضع أفضل من دعاوي بني أمية التي أسست على عوامل سياسية محضة. أما بنو أمية من جهتهم فقد حاولوا جاهدين للتأكيد بأن هذه الحقوق تشمل كل ذرية عبد المناف لقيادة قبيلة قريش.<sup>٦١</sup> مع ذلك، ورغم أن العباس استلم في فترة ما حجابة الكعبة

وذريته كان لديهم بعض الحق في الإدعاء بالقيادة كعلي بن أبي طالب (من هذه الزاوية)، فإن العباسيين تجاهلوا هذا الحق لصالح العلويين لفسرة طويلة. وأكثر من ذلك، إن إسلام علي المبكر بالمقارنة مع قبول العباس بالإسلام في وقت متأخر، وذلك أثناء فتح مكة، حسم وضع العباسيين في نظر المسلمين. ومن ثم فإن الشيعة وطدوا أنفسهم على عقيدة أن الحق في الخلافة يعود إلى العلويين فقط. وهكذا صار من الواضح أنه يستحيل على العباسيين إدعاء الحق بالخلافة مباشرة.

رأى علي بن عبد الله الفرصة المناسبة من خلال ضمّ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ووريثه، الذي لم يعقب، وكان رهينة لدى الأمويين في دمشق إلى دعواه، وبالتالي يصبح من حق العباسيين الإدعاء بوراثته في الإمامة. وهكذا وجّه ابنه اليافع محمد كي ينال ثقة أبي هاشم ورضاه. وحين أطلق الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك سراح أبي هاشم، وفي طريق عودته إلى الحجاز وضع له السم - كما قيل - من طرف الخليفة سليمان أو محمد نفسه.<sup>٦٢</sup> توفي أبو هاشم في الحمية، التي كانت مركز قيادة العباسيين بعد أن نزل ضيفاً عليهم. وقبل وفاته عين محمد بن علي وصياً له وحلّه رسائل إلى قواعد مؤيديه في خراسان.<sup>٦٣</sup> وهكذا صار محمد إماماً قبلته شيعة أبي هاشم، وصار من حقه وراثته حزبه ومنظّمته وحقوقه.<sup>٦٤</sup>

برغم أن الحركة العباسية نظمت أولاً في الكوفة وفيها نشأت مراكز القيادة يبدو أن العباسيين لم يتأكدوا من ولاء الكوفيين لهم، وذلك للعاطف الذي أبداه الكوفيون تجاه العلويين، وبالتالي كان العباسيون يخشون أن العراقيين لن يقبلوا بدعواهم الإمامة. وبرغم أن معظم أتباع



أبي هاشم قبلوا إمامة العباسيين، إلا أن بعضهم رفض تحويل الحق في الخلافة من العلويين إلى فرع آخر من الهاشميين. وكان هذا موقف الكوفيين الشيعة المواليين لآل البيت. وثمة قسم آخر من أتباع أبي هاشم رفض قبول موت أبي هاشم، وقال بغيبته، وأنه هو المهدي. وقسم آخر قبل بموت أبي هاشم إلا أنه قال بأن أبا هاشم عين أخاه علي للإمامة، ومن ثم ساق الإمامة في ذريته.<sup>٦٥</sup>

من طرف آخر، كانت خراسان أرضاً بوراً (عذراء) فيما يخص الصراع الطائفي. وكانت غالبية الشيعة في تلك المنطقة النائية غير مهتمة بالخلاف بين فروع أهل البيت، ولكنها جاهزة لمنصرة أي قائد من آل البيت يتحرك ضد الأمويين.<sup>٦٦</sup> وبقي أبو مسلم الخرساني القائد المنظم للحركة والذي عينه إبراهيم رأس العائلة العباسية<sup>٦٧</sup> يدعي أنه يعمل نيابة عن الإمام من أهل البيت الذي لم يجر تعيينه بعد. وبالتالي حاز أبو مسلم على تأييد الكثير ممن ما كانوا ليؤيدونه لو عرفوا بأن الإمام من بني هاشم سيكون من ذرية العباس.<sup>٦٨</sup> وربما كان تأييد بقايا أنصار المختار قد يقوّي هذا الافتراض.

على كل حال، اعتقل إبراهيم بأمر من الخليفة مروان بن محمد، وأحضر إلى دمشق، ثم أرسل إلى حرّان وسجن هناك حيث توفي إما بالطاعون أو -كما صرّح العباسيون- قتل بأمر الخليفة.<sup>٦٩</sup> تحرك أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور أخوا إبراهيم ومعهما أربعة عشر من أفراد العائلة العباسية من الحميمة إلى الكوفة بناءً على توجيه من إبراهيم الإمام.<sup>٧٠</sup> كان ممثل العباسيين في الكوفة هو أبو سلمة حفص وكان كيسانياً من

أتباع أبي هاشم. في هذا المنعطف الخطير قيل أن أبا سلمة فكّر بفك ارتباطه بالعباسيين حيث أنه مرتبط بإبراهيم الإمام وليس بأخويه.<sup>٧١</sup> أسكن أبو سلمة العباسيين الفارين في بيت وحاول إخفاء ذلك عن القادة الخراسانيين في الكوفة.<sup>٧٢</sup>

وعندما وصلت أخبار وفاة إبراهيم الإمام إلى الكوفة ذكر الجهمشياري والطبري أن أبا سلمة رغب في تنصيب علوي في الخلافة، وذلك بناء على "اقتراح ونصيحة البعض من شيعة الكوفة"،<sup>٧٣</sup> وبالتالي، كتب رسائل إلى جعفر الصادق وعبد الله المحض وعمر بن زين العابدين، وطلب فيها من كل واحد منهم أن يقدم على الكوفة، حيث يؤيدهم أبو سلمة في طلبهم الإمامة. وأمر أبو سلمة رسوله أن يتصل أولاً بجعفر الصادق، فإذا رفض، يذهب إلى عبد الله المحض، فإذا رفض، يذهب إلى عمر بن علي. وعندما عرض الرسول الرسالة على جعفر الصادق، طلب جعفر شعبة وأحرق الرسالة، وقال للرسول: "أخبر سيدك بما رأيت".<sup>٧٤</sup> يروي المسعودي القصة بطريقة أخرى قائلاً: "كان أبو سلمة لما قتل الإمام خاف انتقاص الأمر وفساده عليه، فبعث بمحمد بن عبد الرحمن بن أسلم وكان أسلم مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكتب معه كتابين على نسخة واحدة إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد، وإلى أبي محمد عبد الله بن الحسن، يدعو كل واحد منهما إلى الشخص إلى ليصرف الدعوة إليه، ويجتهد في بيعة أهل خراسان له، وقال للرسول: العَجَل العَجَل، فلا تكونن كوافد عاد، فقدم محمد بن عبد الرحمن المدينة على جعفر بن محمد فلقية ليلاً، فلما وصل إليه أعلمه أنه رسول أبي سلمة، ودفع إليه كتابه، فقال له أبو

عبد الله: وما أنا وأبو سلمة؟ وأبو سلمة شيعة لغيري، قال: إني رسول، فقرأ كتابه وتجيبه بما رأيت، فدعا أبو عبد الله بسراج ثم أخذ كتاب أبي سلمة فوضعه على السراج حتى احترق، وقال للرسول: عرّف صاحبك بما رأيت ثم أنشأ يقول متمثلاً بقول الكميت بن زيد.

أيا موقداً ناراً لغيرك ضوءها      ويا حاطباً في غير  
حبلك تحطب.<sup>٧٥</sup>

هذه القصة عنها تخبرنا أن عبد الله الخض قبل العرض وسرّ جداً بمساعدة أبي سلمة. أما جعفر الصادق - كما تقول جميع المصادر التي أوردت هذه القصة - فقد حذر عبد الله، وطلب منه عدم تعريض نفسه وذريته للخطر في هذه المباراة لنيل السلطة، وحذره خيانة أبي سلمة لكونه "لا هو من شيعة، ولا الخراسانيون أو الباقون". لكن عبد الله الخض رفض نصيحة الصادق قائلاً: "والله ما يمنعك من ذلك إلا الحمد".<sup>٧٦</sup> هذه القصة والحادثة بين الصادق والخض تلقي الضوء على سياسة الصادق الحذرة وبقائه خارج المناورات السياسية. أما فيما يخص أبا سلمة فيشير مسقطي إلى موقفه المتأرجح فيقول: "ويستطيع المرء أن يرى نتيجة الغموض المتعمد فيما يتعلق بحقوق آل بيت النبي، الذي كانت تنشره الدعاية الثورية".<sup>٧٧</sup>

وتطورت الأحداث سريعاً في الكوفة لصالح العباسيين. فقد استغل أبو حميد الطوسي أحد قادة الخراسانيين وجود العباسيين في الكوفة،<sup>٧٨</sup> وكان يعسكر مع جماعته خارجها وأخذ معه من قادة الخراسانيين أبا الجهم وموسى بن كعب وكان زعيمهم وسابق الخوارج في غفلة من أبي سلمة

وبايعوا أبا العباس<sup>٧٩</sup> بالإمامة والخلافة، وبايعه وجوه القواد وعلم أبو سلمة بذلك فبايعه.<sup>٨٠</sup>

وتوجه أبو العباس فوراً إلى قصر الإمارة ثم مسجد الكوفة حيث ألقى أول خطبة له. ولقب نفسه بالسفاح وربط مجد الله بنفسه وبأهل بيته. وسمى العباسيين أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وأنكر حقوق العلويين بالخلافة.<sup>٨١</sup>

وتبع خطاب السفاح عمه داود بن علي الذي أكد حق العباسيين بالخلافة قائلاً: "إنه والله ما كان بينكم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفة إلا علي عليه السلام وأمير المؤمنين هذا الذي خلفي -يقصد السفاح- ثم نزل الاثنان عن المنبر" وأكد داود أن الخلافة ستبقى في يد العباسيين حتى يسلموها إلى عيسى بن مريم.<sup>٨٢</sup>

تبع تسلم العباسيين الحكم مباشرة انفجار أول نزاع مع الشيعة الغلاة. فقد سمحت وصية أبي هاشم زعيم الغلاة الكيسانية ببدء دعاية العباسيين لأنفسهم من خلال شيعة أبي هاشم في خراسان، وهناك بدؤوا أول خلية في حزبهم السياسي -الديني. وفور وصول العباسيين إلى الخلافة قدموا مبررات عديدة لشرعية حقوقهم من غير أي ذكر لوصية أبي هاشم. فقد رأوا أنه من الضروري ترك تلك الوصية تذهب وتضيع في طي النسيان، لأن ربط العباسيين أنفسهم بغلاة الكيسانية من خلال هذه الوصية يمكن أن يجلب لهم الخطر أو الخجل. لذلك كان هم السفاح الأول التخلص من أولئك الغلاة الذين أيده على أساس طائفي. وكان أول من دفع ثمن ذلك هو أبو سلمة إما بسبب علاقته بالغلاة الكيسانية وإما بميله للعلويين

وتوجهه لتأييد حقهم بالخلافة كما ذكرت القصة التي تعرضنا لها سابقاً. وهناك سبب ثانٍ للتخلص من أبي سلمة ذلك أنه عقب بيعة السفاح وقبل أن يعلم برسائل أبي سلمة إلى القادة العلويين سمى أبا سلمة "وزير آل رسول الله"<sup>٨٣</sup> ولكنه حين علم بتأرجح ميول أبي سلمة دبر قتله. وهذا السبب ذكره المسعودي والطبري.<sup>٨٤</sup> والواقع أن السفاح أراد التخلص من القوى الثورية وعلى رأسها وأقواها أبو سلمة.

استمر حكم السفاح أربع سنوات كان العلويون خلالها في المدينة مشتين ويائسين لضياح آماهم،<sup>٨٥</sup> ولكن عندما تسلم أبو جعفر المنصور الخلافة عام ١٣٦هـ - ٧٥٣م بدأ العلويون رفع أصواتهم متذمرين لاغتصاب حقوقهم من طرف العباسيين. وفيما عدا شيعة العباسيين الذي رأوا في السفاح لا إماماً وخليفة فقط بل والمهدي أيضاً. عبّرت جماهير الشيعة عن سخطها، وظهر هذا السخط حتى في زمن السفاح،<sup>٨٦</sup> ولكنه تطور ونفى حين استلم المنصور الخلافة. وأحسن الشيعة أن ملك المهدي لم يتجسد، وإنما ذهب حكم سيء ليحل محله مثيله.

عندما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة رفض محمد بن عبد الله المحض الملقب بالنفس الزكية مبايعته، وهو الذي ادعى دور المهدي منذ أمد بعيد، وبدأ حملته بنشر دعاية خلاصية. وهذا ما أغضب المنصور العباسي، وفي عام ١٤٠هـ - ٧٥٨م قرر إجبار النفس الزكية وأخيه إبراهيم على البيعة. فأمر بإلقاء القبض على عبد الله المحض وبعض العلويين الآخرين وعرض بعض المحتجزين لمعاملة قاسية جداً محاولاً إجبارهم على إفشاء سرّ المختفين وتخديد مكان وجودهم، ولكن رفضوا وفشل المنصور في محاولته.<sup>٨٧</sup> من

المهم أن نلاحظ أن النفس الزكية حاول أن يحوز على تأييد أجزاء من بلاد المسلمين،<sup>٨٨</sup> وكان مجال حركته الرئيسي في الحجاز وليس في الكوفة، حيث تلقى تأييداً حماسياً، ومع بعض الاستثناءات القليلة، بويغ هناك.<sup>٨٩</sup> وناصر المحدثون في المدينة بقوة، وأيدوا دعوته؛ وأعلن مالك بن أنس أنبيعة العباسيين باطلة لأنها أخذت قسراً.<sup>٩٠</sup> وكان زيدية ومعتزلة الكوفة والبصرة جاهزين لتأييده.<sup>٩١</sup> وفي رمضان ١٤٥هـ - كانون الأول ٧٦٢م جرت معركة حامية نتج عنها خسارة واضحة لأهل المدينة وقتل فيها النفس الزكية، وريح جيش العباسيين. وترك موت النفس الزكية آثاراً تجلت في بعض الأحاديث المنسوبة إلى جعفر الصادق وفيها تنبأ الصادق بمصير النفس الزكية.<sup>٩٢</sup>

وتبع فشل حركة النفس الزكية حركة قادها أخوة إبراهيم في البصرة، حيث كان يحاول جمع الأنصار لأخيه، وبالفعل نال إبراهيم تأييد الزيدية والمعتزلة في البصرة والكوفة جميعهم.<sup>٩٣</sup> وكتب له أبو حنيفة النعمان وسفيان الثوري ومسعود بن كدامة رسائل تأييد ودعوه ليقدم عليهم، وأعلنوا فتاوى تأييد لدعوته.<sup>٩٤</sup> أرسل العباسيون جيشاً مؤلفاً من ١٥٠٠٠ جندي إلى البصرة فاضطر إبراهيم إلى التوجه نحو الكوفة لجمع مناصريه ولكنه التقى جيش العباسيين في بخرمه، وهناك لقي حتفه.<sup>٩٥</sup> وكانت حركة إبراهيم آخر تمرد علوي وتلاشت الدعاوي الخلاصية التي نشرها العلويون أو انتشرت باسمائهم. ووجد بعض بقايا أنصار النفس الزكية متنفساً لهم في أفكار غير طبيعية supernatural فقد رفضوا موته وقالوا أن الذي قتل هو شيطان اتخذ شكله، أما النفس الزكية

فاختفى في جبل من جبال نجد.<sup>٩٦</sup> وأنهى قتل إبراهيم أي أمل للمدنيين بإقامة خلافة من اختيارهم. واحبط كل أمل للشيعنة الغلاة المنطرفين.

كل هذه الأحداث والظروف شكلت خلفية إمامة جعفر الصادق. ولكن قبل البحث في تفصيل وضع الصادق وموقفه السياسي - الديني، هناك وجهة نظر حيوية تحتاج إلى تفصيل.

رأينا حتى الآن كيف تجزأ أنصار العائلة الهاشمية في الحقبة الأموية إلى علويين وعباسيين. لذلك اتخذ الصراع شكلاً جديداً. فلم يعد الصراع بين معتصمين (الأمويين) وأصحاب حق شرعي، وإنما بين فرعين من الهاشميين وكل منهما يدعي الحق لنفسه مقصياً الفرع الآخر كلية: بين أولاد عم النبي العباسيين وذرية النبي من ابنته وابن عمه فاطمة وعلي. والتعقيد الأبشع ظهر في ذرية علي الذين انقسموا إلى ثلاثة طوائف: ذرية الحسين، وذرية ابن الحنفية، وذرية الحسن التي ظهرت مؤخراً مع عبد الله المحض وابنه النفس الزكية وأخيه إبراهيم. وبالتالي ظهرت جهتان الأولى، عباسية والثانية، علوية مؤلفة من ثلاثة أقسام.

أدرك الخليفة العباسي الأول السفاح الموقف كاملاً، فبدأ منذ البداية مهمة تبرير حقوق عائلته في الخلافة لإكسابه الشرعية، وقد بدا ذلك واضحاً منذ خطابه الافتتاحي الأول. وبهذا الأسلوب وضع الأساس لسياسة عائلته تجاه الصراع المقبل وأراد بذلك اجتثاث دعوى العلويين بحقوقهم في قيادة الأمة. ولكن بفضل قصر فترة حكم السفاح، لم يظهر العلويون بأي معارضة خطيرة وعلنية، لذلك بقيت الأمور غامضة وهادئة.

وجاء دور المنصور الذي توجب عليه مواجهة معارضة مخيفة من طرف العلويين لسلطة العباسيين الناشئة مجدداً. وبالتالي، ولكي يقوّي المنصور خلافته ويدعمها ركّز جهوده على هدفين أساسيين وجوهريين. الأول هو تبرير حقوقه بالخلافة على أسس دينية مشروعة. وتضمّن تحقيق هذا الهدف اقتلاع جذور دعوى العلويين من خلال جدل فقهي. وكان الهدف الثاني هو جعل خلافته مقبولة في نظر الجماعة الإسلامية. وتطلب ذلك قطع علاقته بالجماعة الغالية والثورية. وتحقق المنصور بشكل جيد أن التشيع الكيساني والغلو الراوندي،<sup>٩٧</sup> وثورية أبي مسلم الخراساني وأتباعه (الذين كانت عقائدهم خليطاً من التشيع الكيساني والمناوية) أو الشيعة العباسية لا تخدم الأسس الدينية للخلافة العباسية. وبعد أن تخلص من جميع هذه الجماعات تطلع إلى دوائر المحدثين (أهل الحديث) وأقرّ بأنهم يمثلون الأمة الإسلامية، ومؤيدي "الجماعة". ونرى أن الأفضل تأخير بحث هذا الموضوع حتى ننتهي من بحث جهود المنصور لتبرير حقوق عائلته بالخلافة.

إن الرسائل المتبادلة بين المنصور والنفس الزكية المعارض والمنافس الأخطر على المنصور تمثل أفضل وربما أكثر البراهين مصداقية بصفتها وثائق. ولكي يتضح لنا أسلوب جدل المنصور وتوجهه لحل هذه المشكلة ننظر أولاً في رسالة النفس الزكية إليه، وفيها: "إن أبانا علياً كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء! ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالتنا وشرف آبائنا؛ لسنا ممن أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء، وليس يمت (يتوسل) أحد من بني هاشم



بمثل الذي نمتُّ به من القرابة والسابقة والفضل، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم. إن الله اختارنا واختار لنا، فوالدنا من النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن السلف أولهم إسلاماً علي، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة، وأول من صلى القبلة، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، ومن المولدين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة، وإن هاشماً ولد علياً مرتين، وإن عبد المطلب ولد حسناً مرتين، وإن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولدي مرتين من قبل حسن وحسين، وإني أوسط بني هاشم نسباً، وأصرحهم أباً، لم تعرق في العجم، ولم تنازع في الأمهات، فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام حتى اختار لي في النار، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وأهوهم عذاباً في النار، وابن خير أهل النار، ولك الله إن دخلت في طاعتي، وأجبت دعوتي أن أؤمتك على نفسك ومالك، وعلى كل أمر أحدثته وأنا أولى منك بالأمر وأوفى بالعهد، لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيت رجالاً قبلي؛ فأبي الأمانات تعطيني! أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله بن علي، أم أمان أبي مسلم!"<sup>٩٩</sup> (النقل عن الطبري)

يتضح من هذه الرسالة أولاً أن النفس الزكية يدعي حقوقه على أساس أن جده علي بن أبي طالب كان الوصي والإمام، ثم يدعم هذا بتأكيد ظروف مولده من جهتي أبيه وأمه: الشرف من طرف أبيه والرفعة من طرف أمه. ثم يشير إلى طبيعة العباسيين الخائنة. ومن المهم بشكل خاص

ملاحظة أنه برغم إشارته إلى علي بصفته وصياً وإماماً، وإلى نسبه من فاطمة،<sup>١٠٠</sup> فإن الحجاز أجمعت على تأييد قضية النفس الزكية.

ومن المفيد جداً أن نرى كيف جادل أبو جعفر المنصور مناقسه العلوي وكيف برر حقوقه في قيادة الأمة العليا (الخلافة). لقد أجاب المنصور على النفس الزكية قائلاً: "قد بلغني كلامك، وقرأت كتابك... ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم، فصارت للعباس من بين أخوته، فنازعنا فيها أبوك، ففقدنا لنا عليه عمر، فلم نزل فيها في الجاهلية والإسلام. وإذا جلّ فخرك بقرابة النساء<sup>١٠١</sup> لتضل به الجفافة والغوغاء؛ ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعصبة والأولياء. وأما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله يقول في كتابه: "ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم الأنبياء"<sup>١٠٢</sup> ولكنكم بنو ابنته؛ وإنما لقرابة قريبة، ولكنها لا تحوز الميراث ولا ترث الولاية، ولا تجوز لها الإمامة... ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غير العباس، فكان وارثه من عمومته. ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم فلم ينله إلا ولده. فالسقاية سقايته وميراث النبي له والخلافة في ولده، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام في دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورثه.<sup>١٠٣</sup>

هذه الرسالة هي وثيقة هامة جداً لفهم مسار الجدل الذي تبناه المنصور ضد منافسه العلوي. إذا حللنا محتويات هذه الرسالة. فسنجد النقاط الواضحة التالية. أولاً، عاد المنصور إلى العادة القبلية القديمة التي تقضي

بأنه عند وفاة الأب يأخذ العم مكانه. ثانياً أكد حكم عمر بن الخطاب لصالح العباس، وبالتالي أكد سلطة عمر كخليفة بما يطابق رأي أصحاب الحديث. ثالثاً أكد أن العباس بصفته عم النبي كان أحق بوراثته النبي من ابن عمه وصهره علي. رابعاً، رفض كل دعوى حق يعود إلى فضل الانتساب لفاطمة، هذا الفضل الذي كان حقاً خاصاً لا مثيل له لئلا يحترم الشيعة بخاتمة والمسلمين جميعاً بعامه. أخيراً، أكد فشل العلويين في الحصول على الخلافة بسبب ضعف شرعية حقوقهم، وقلة همتهم، بينما نجح العباسيون في ذلك بفضل شرعية دعواهم وهمتهم ومقدرتهم. ومن المهم أن نلاحظ أن كلاً من المنصور والنفس الزكية يعودان في جدهما إلى أعراف الجاهلية، ويؤكدان حقوقهما الخاصة المؤسسة على تلك الأعراف التي تشرّفهما ويمكن تطبيقها في الحقبة الإسلامية.

ومن الواضح من التأيد الذي تمتع به النفس الزكية وأخوه إبراهيم بعد هذه المراسلات أن أهل الحديث من المرجئة وسواهم ما كانوا مهتمين بالحجج التي عرضها المنصور لتأكيد حقوق العباس؛ واستمروا في تأكيد أن المرشح الحقيقي الوحيد للخلافة يجب أن يكون علوياً. لقد أشرنا سابقاً إلى فتوى مالك بن أنس حين أعلن أن بيعة العباسيين لم تكن شرعية، لأنها فرضت بالقوة.<sup>١٠٤</sup> وكذلك عندما ثار إبراهيم أخو النفس الزكية أعطى الفقهاء أمثال أبي حنيفة وسفيان الثوري والأعمش وآخرون من أهل الحديث في الكوفة تأييدهم له وشجعوا من أراد الانضمام إليه.<sup>١٠٥</sup>

بعد إعادة فتح المدينة وقمع ثورة إبراهيم، أمر أبو جعفر المنصور بجلد مالك بن أنس، وأعتبر أبا حنيفة عدواً شديداً للخطر، وحبس حتى

مات. ١٠٦ وفيما عدا الإجراءات الخاصة بهذين الشخصيتين القويتين والمعاندين والمعارضين، لم يهاجم المنصور الخدثين أبداً. بل بالعكس، نظر إليهم باعتبارهم مكونات أساسية لبناء أسس دولته الدينية وعلى رأسها خليفة الله (ويقصد نفسه)، وجعل طاعتهم له فرضاً. ١٠٧ وبالتالي، حين قال المنصور في خطبته: "أنا سلطان الله في الأرض" ١٠٨ لم يكن يعلن عن نفسه بصفته حامياً ومدافعاً عن الدين. لقد حدد اهتمامه بالدين الإسلامي وتعامل مع إرادة الله كترديف ومؤيد لأهدافه نفسه.

وعلى كل حال، وبالتدريج، انضم معظم أهل الحديث وفقهاء والكوفة إلى المصالحة مع الخلافة وذلك إما بسبب حقيقة أنه ما من قائد علوي قوي كان مستعداً لقيادة ثمره، وإما بسبب سياسة المنصور الناجحة في الوعد والوعيد. وفي النهاية تخلى الفقهاء والحدثون عن القضية العلوية راغبين أو كارهين وانضموا إلى طاعة المنصور.

والآن، بعد أن تحدثنا عن الوضع السياسي-الديني الراهن والأحداث المرافقة، أصبحنا أكثر قدرة على فحص عودة الإمامة الشرعية الحسينية بقيادة الصادق إلى الظهور، والدور الذي قام به الصادق في خضم هذه الظروف.

من بين كل الأحداث والأفكار التي حللناها سابقاً، بدت قضية جوهرية ورئيسة واحدة مؤكدة. هذه القضية هي أن كل العلويين المطالبين بقيادة المسلمين والذين ظهروا على الساحة الإسلامية أمسوا دعواهم على مبدأ أنهم الأئمة الحق بفضيل ظروف مولدهم ورفعة نسبهم، وأن الإمامة والخلافة لا ينفصلان: أي أن من حقهم الخاص تولي الإمامة الشرعية،

وبالتالي من واجبهم استعادة الخلافة من مفتصيها الأمويين أو العباسيين. وبكلام آخر، فكّر العلويون أن دور الإمام الحق أن يدير شؤون الخلافة، وهذا يعني إقامة العدل والمساواة، وبالتالي يصبح من الضروري للإمام أن يكون خليفة. وقَبِلَ هذا المبدأ ممثلو "الجماعة" الإسلامية من المعتزلة والمرجئة وأهل الحديث وفقهاء المدينة والكوفة - وهذا واضح من التأييد الكامل الذي منحه هؤلاء إلى القادة العلويين الذين قادوا حركات ثورية. ومن جهة أخرى تبنى العباسيون المبدأ ذاته، وهو عدم التفريق بين الإمامة والخلافة، ولكنهم في الوقت ذاته جادلوا العلويين ورفضوا دعاوهم بالحق في القيادة، وأكدوا أن العباسيين وحدهم هم القادة (خليفة/إمام) الشرعيون. ونجح أبو جعفر المنصور في سحق الثورات العلوية وربح تسليم ممثلي "الجماعة" له.

إن ذلك عني انهيار وفشل المدعين العلويين بالإمامة، لأنهم ربطوا الإمامة بالخلافة التي عجزوا عن الوصول إليها. هذا الوضع الخطير تطلب تفسيراً جديداً وتوضيحاً لمفهوم الإمامة بالكامل.

عند هذا المنعطف الصعب ظهر الإمام جعفر الصادق بتفسير شامل لدور الإمامة. وعدّل بشكل حاسم الرأي السائد حتى تلك اللحظة والذي يفترض أن الإمام يجب أن يكون خليفة أيضاً، وعرض فكرة جديدة تقضي بالفصل بين الإمامة والخلافة ليصبحا مؤسستين مستقلتين حتى يقضي الله بنصر الإمام. هذا الإمام الذي يشترط فيه أن يكون سليل النبي عبر عليّ وفاطمة يستقي سلطته حصراً لا من خلال دعاوي سياسية، وإنما بالنص، أي من خلال تعيينه صراحة من طرف الإمام السابق، ويرث علماً دينياً

خاصاً يتحدث إليه جيلاً بعد جيل. وبالتالي، يصبح مجال سلطة هذا الإمام هو القيادة الدينية، ونشر الهداية الروحية في الأمة، وليس السلطة الدنيوية. وسنرى في الفصل القادم كيف فصل الصادق شرح نظريته عن الإمامة وطبيعة ودور الإمام. ولكن يجب أن نوضح هنا أن الصادق لم يؤكد هذه النظرية عن الإمامة. فقد رأينا أن فكرة الإمام الشرعي صاحب المعرفة الخاصة نظرية تبناها زين العابدين، ثم طورها ابنه الإمام الباقر. أما مع الصادق فقد جاء الوقت المناسب والظروف السائدة فزوداه بأكثر الفرص المتاحة لتفصيل وتفسير الأفكار التي طرحها أبوه وجده. وهذه الفرصة العظيمة هي التي جعلت من إمامة الصادق حرجة وحاسمة بأن واحد.

وقبل أن ننهى هذا الفصل نرى أنه يجب ملاحظة نقطتين بشكل سريع. الأولى، هل فكر الصادق بنشر نظريته في الإمامة وأفكار والده أن يؤسس فريقاً أو جماعة أو حزباً خاصاً به منفصلاً عن بقية المسلمين، أم أنه أراد أن تكون إمامته مع ما ذكرنا من حقوق خاصة بها مقبولة لدى جميع المسلمين وأن تعترف بها الأمة الإسلامية؟ إن أصحاب الصادق المقربين وجههور المسلمين الذين حاول الصادق إقناعهم يؤكدون أن جعفر نفسه لم ينو تأسيس فريق مستقل يتبع وحده عقيدته في الإمامة. ولكن اضطراد الأحداث أثبت أن أولئك الذين كانوا ذوي خلفية وميول شيعية من نوع ما هم وحدهم الذين قبلوا عقيدة الإمامة كما شرحها الصادق وتطوروا فيما بعد ليشكّلوا فريقاً مسلماً مميزاً عن بقية الأمة.

والنقطة الثانية هي أن عقيدة الإمامة ودور الإمام كما فصلها الصادق خلال حياته وفي هذا الفصل التاريخي حدّدا المرجعية الأساسية للمتكلمين الاثني عشرين (علماء الكلام هم ما يطلق عليهم المسيحيون علماء اللاهوت، أو Theologians) والمنظرين لتفسير وحل العديد من مشاكل فترة ما قبل الصادق. لقد قام هؤلاء بتفسير وتبرير أعمال الأئمة الذين سبقوا الصادق من خلال العقيدة والمبادئ التي صاغها الصادق نفسه مثلاً: قبول علي بخلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة، وتخلي الحسن، وموقف الحسين غير الفعّال وسياسة زين العابدين الهادئة وكذلك الباقر. كل هذه المسائل حُلّت على ضوء ما طرحه الصادق من أن الإمام الشرعي لا يشترط فيه أن يكون خليفة يحوز على السلطة الدينية أو حتى يدعيها، إذا لم تسمح له الظروف بذلك. ومن جهة أخرى، يمكن القول أن نظرية جعفر هي نتيجة طبيعية لازمة لتاريخ عائلته وخبراتها.

## مراجع وملاحظات الفصل ١٠

- ١- عن التاريخ السابق انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٣٨١؛ ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٧؛ ابن الجوزي صفوة ج ٢ ص ٩٣؛ العاملي أعيان ج ٤ ص ٥٤؛ محمد بن طلحة، مطالب السؤل ص ٨٩ أما التاريخ الأخير انظر المسعودي مروج ج ٣ ص ٢١٩؛ سعد الأشعري مقالات ص ٧٩ ومن الصعب ترجيح أي التاريخين أصح، وإن كنا نميل إلى أن التاريخ الأول محتمل أكثر حيث أن ابن خلكان وآخرين حيث يضعون تاريخ ميلاده عام الجحاف وهو عام فيضان في مكة الذي حصل كما ذكر الطبري ج ٢ ص ١٠٤٠ عام ٨٠ هـ ٦٩٩ م.
- ٢- ابن سعد ج ٥ ص ٣٢٠؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٢٠؛ القاضي النعمان شرح الأخبار مخطوط ورقة ٣٢
- ٣- ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٧؛ النعمان سابقه
- ٤- الطبري ج ٣ ص ٢٥٠٩؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٨١؛ سعد الأشعري مقالات ص ٧٩ ابن خلكان سابقه؛ الكليني الكافي ص ١٩٤؛ العاملي أعيان ج ٤ ص ٤٥٢
- ٥- ابن سعد ج ٥ ص ٢١٦؛ ابن العماد الحنبلي شذرات السذهب ج ١ ص ١٠٤؛ اليعقوبي ج ٣ ص ٤٦؛ الكشي رجال ص ٧٦-٧٩؛ أبو نعيم حلية الأولياء ج ٣ ص ١٣٥
- ٦- ابن سعد ج ٥ ص ١٨٩؛ الطبري ج ٢ ص ١١٨٣؛ ابن عماد شذرات ج ١ ص ٦٢
- ٧- انظر الكليني الكافي حيث يقول أن إمامته دامت ٢٨ عاماً على أساس أن تاريخ ميلاده هو ٨٣ هـ ٧٠٣ م أما إذا كان ميلاده ٨٠ هـ ٦٩٩ م فتكون إمامته دامت ٣١ سنة.
- ٨- اليعقوبي ج ٢ ص ٣٨١
- ٩- القاضي النعمان شرح ورقة ٤٢



- ١٠- سابقه
- ١١- الشهرستاني الملل ج ١ ص ١٦٦
- ١٢- المسقطي تاريخ الشيعة مقال في مجلة RSO ١٩٥٥ ص ٢٥١
- ١٣- برنارد لويس أصول الإسماعيلية ص ٢٥ E
- ١٤- دعي الحسين بالمهدي بن المهدي ولكن هذا اللقب لم يكن يتضمن أية فكرة خلاصية messianic انظر الطبري ج ٢ ص ٥٤٦
- ١٥- البلاذري ج ٥ ص ٢١٨؛ الطبري ج ٢ ص ٦٠٦ و ٦٣٣
- ١٦- ابن سعد ج ٥ ص ٩٤
- ١٧- البلاذري سابقه
- ١٨- الطبري ج ٢ ص ٦٧٢-٧١٠؛ البلاذري ج ٥ ص ٢٥٣ من أجل ألقاب أخرى انظر الطبري ج ٢ ص ٦٩١؛ البلاذري سابقه
- ١٩- بخصوص اسم الكيسانية هناك آراء عديدة أما بخصوص شخصية أبو عمر كيسان فهي مشككة تاريخية. من أجل ذلك انظر الشهرستاني الملل والنحل ج ١ ص ١٤٧؛ البغدادي الفرق ص ٢٦؛ البلاذري ج ٥ ص ٢٢٩، لويس أصول ص ٢٧
- ٢٠- ابن سعد ج ٥ ص ١١٥
- ٢١- ابن خلدون ج ٣ ص ١٧٢ حيث يذكر أن أبا هاشم صار قائد هذا الجناح الشيعي. انظر دي خويه "أنساب الأشراف، البلاذري" ZD MG ١٨٨٤ ص ٣٩٤
- ٢٢- انظر بيت كثير في الأغاني ج ١٦ ص ١٤ ومدايح ابن الحنفية عند السيد الحميري في الأغاني ج ٧ ص ٢٢٧
- ٢٣- الكشي رجال ص ٣١٤
- ٢٤- أيفانوف، الحركة الشيعية المبكرة مقال في مجلة JBBRAS ص ٣ E
- ٢٥- نفسه
- ٢٦- سكاتش، مدخل إلى الفقه الإسلامي ص ٢٣ E
- ٢٧- المبرد، الكامل ج ١ ص ٧١٠

- ٢٨- الجاحظ كتاب فضل بني هاشم ص ٩٩؛ رسالة في بني أمية ص ٦٦ وانظر تفسير القرآن للآية ١٧ سورة ٥٠ في مختلف التفسير.
- ٢٩- مونغمري واط "الشيعه تحت بني أمية" مجلة JRAS ١٩٦٠ ص ١٦٩ وما يليها E
- ٣٠- الطبري ج ٢ ص ١٧٠٠
- ٣١- الطبري نفسه. بخصوص معنى كلمة "رافضة" انظروا مقال "الرافضة" مجلة المشرق عدد ١٦ ص ١١٦ E
- ٣٢- الطبري سابقه
- ٣٣- الطبري ج ٢ ص ١٧٠٩؛ الاصبهاني مقاتل ص ١٤٠
- ٣٤- الجاحظ البيان والتبيين ج ١ ص ٣١١-٣١٢
- ٣٥- نفسه
- ٣٦- المبرد، الكامل ج ١ ص ٢٦٠
- ٣٧- الطبري ج ٢ ص ١٧٧٤؛ مقاتل ص ١٥٢ وما يليها
- ٣٨- مقاتل ص ١٤٥ وما يليها
- ٣٩- الجاحظ، البيان ج ١ ص ٣٣٥، مقاتل ص ٢٣٣
- ٤٠- سنن أبي داود ج ٢ ص ١٣٥
- ٤١- الأغاني ج ١٢ ص ٨٥
- ٤٢- سنن أبي داود ج ٢ ص ١٣٥؛ ابن ماجه سنن ج ٢ ص ٢٦٩
- ٤٣- سعد الأشعري مقالات ص ٧٤ و ٧٧؛ النوبختي فرق ص ٥٩
- ٤٤- سعد الأشعري مقالات ص ٧٧؛ النوبختي، فرق ٤٣
- ٤٥- النوبختي فرق ص ٥٢؛ البغدادى، فرق ص ٣٦، سعد الأشعري، مقالات ص ٧٤
- ٤٦- مقاتل ص ٢٠٩ و ٢٩٢
- ٤٧- نفسه
- ٤٨- الطبري ج ٣ ص ١٤٣؛ مقاتل ص ٢٠٦ و ٢٥٣

- ٤٩- الطبري ج ٣ ص ٥٢؛ مقاتل ص ٢٠٩ و ٢٥٦ وعن الأبناء انظر ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٧٩. وفي مصدر آخر تمت هذه البيعة في سويقة انظر المقاتل ص ٢٩٣؛ دائرة المعارف الإسلامية مقال "محمد بن عبد الله" طبعة ١
- ٥٠- المقاتل ص ٢٠٨ و ٢٥٣ و ١٧٨
- ٥١- الطبري ج ٣ ص ١٥٢
- ٥٢- الطبري ج ٣ ص ١٤٣، ١٥٢؛ دائرة المعارف الإسلامية سابقة
- ٥٣- مقاتل ص ٢٠٩
- ٥٤- مقاتل ص ٢٠٧، ٢٥٤ ودائرة المعارف الإسلامية سابقة
- ٥٥- الأغاني ج ١٢ ص ٢١٣؛ الطبري ج ٢ ص ١٨٧٩ و ١٨٨١؛ وات سابقه ص ١٧٠
- ٥٦- الطبري ج ٢ ص ١٨٨١ و ١٨٨٣ و ١٨٨٧
- ٥٧- وات سابقه ص ١٧٠
- ٥٨- وات مقال دائرة المعارف الإسلامية طبعة ٢ "العباس بن عبد المطلب" E
- ٥٩- الكشي رجال ص ٥٦
- ٦٠- الكشي رجال ص ٢٧ فيشيا فيغليري مقالها في دائرة المعارف الإسلامية طبعة ٢ بعنوان (عبد الله بن عباس) E
- ٦١- المبرد، الكامل ص ١٨٠
- ٦٢- مقاتل ص ١٢٦، الكامل ج ٥ ص ٣٢-٣٩؛ مسقطي "وصية أبي هاشم مقال مجلة RSO العدد ٢٧ / ١٩٥٢ / ص ٤٢-٤٨ E
- ٦٣- المسعودي مروج ج ٣ ص ٢٣٨؛ مقاتل سابقه، الكامل سابقه؛ مسقطي سابقه، لويس مقال في دائرة المعارف الإسلامية "الهاشمية" طبعة ٢
- ٦٤- لويس سابقه ومقال "العباسيون"
- ٦٥- النوبختي فرق ص ٢٨-٢٩؛ نشوان الحميري حور العين ص ١٥٩-١٦٠

٦٦- لمعرفة جاهزية الخراسانيين لاتباع أي فرع من الشيعة انظر ابن قتيبة

عيون الأخبار ج ١ ص ٢٠٤؛ ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٣٥٢

٦٧- تبني إبراهيم الإمام العباسي أبا مسلم الخراساني كواحد من أهل البيت.

انظر الطبري ج ٢ ص ١٩٣٧ و ١٩٤٩ أما عن أبي مسلم الخراساني

نفسه انظر ابن خلكان ج ٣ ص ١٤٥-١٥٥؛ المسعودي مروج ج ٢

ص ٢٣٩؛ ابن قتيبة معارف ص ١٤٥؛ الدينوري ص ٣٣٧؛ الطبري ج ٢

ص ١٩٤٩ و R.N. Frye "دور أبي مسلم" مجلة العالم الإسلامي،

كانون الثاني ١٩٤٧ E

٦٨- ويلهاوزن مملكة العرب ص ٤٩٢-٥٦٦؛ لويس مقال "العباسيون" دائرة

المعارف الإسلامية طبعة ٢

٦٩- الطبري ج ٣ ص ٢٥؛ الدينوري ص ٣٥٧؛ المسعودي مروج ج ٣

ص ٢٤٤

٧٠- الطبري ج ٣ ص ٢٧؛ المسعودي مروج ج ٣ ص ٢٥٣

٧١- جهشياري الوزراء والكتاب ص ٨٣؛ المسعودي مروج ج ٣ ص ٢٥٣؛

ابن خلكان ج ٣ ص ١٤٨؛ الطبري ج ٣ ص ٢٧؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٤٥

و ٤٤٩

٧٢- المسعودي سابقه، الطبري سابقه، ويلهاوزن مملكة العرب ص ٢٤٤؛

مسقطي مقال في دائرة المعارف الإسلامية طبعة ٢ "أبو سلمة"

٧٣- الجهشياري ص ٨٦، الطبري ج ٣ ص ٢٧

٧٤- الجهشياري سابقه؛ ابن الطقطقي تاريخ الفخري ص ١٠٩

٧٥- المسعودي مروج ج ٣ ص ٢٥٣

٧٦- اليعقوبي سابقه المسعودي سابقه، الجهشياري سابقه

٧٧- مسقطي مقال د.م.س طبعة ٢ "أبو سلمة"

٧٨- اليعقوبي ج ٢ ص ٣٤٥ يقول إن الغيبة دامت شهرين؛ الطبري ج ٣

ص ٢٧ يجعلها أربعين يوماً، ولم تذكر المصادر الأخرى فترة محددة.

٧٩- لويس مقال في د.م.س. طبعة ٢ "العباسيون"

- ٨٠- الطبري ج ٣ ص ٢٨ الجهشيارى ص ٨٦؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٤٥؛  
المسعودي مروج ج ٣ ص ٢٥٥
- ٨١- الطبري ج ٣ ص ٢٩؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٥٠ ويقول أن أبا العباس لم  
يخطب بسبب حمى أصابته. المسعودي مروج ج ٣ ص ٢٥٥ ويذكر  
ملخص الخطبة في سطرين فقط.
- ٨٢- تذكر معظم المصادر خطبة داود انظر الطبري ج ٣ ص ٣١؛ اليعقوبي  
ج ٢ ص ٣٥٠؛ المسعودي مروج ج ٣ ص ٢٥٦ تلخيصاً
- ٨٣- الطبري ج ٣ ص ٦٠ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٥٢؛ المسعودي مروج ج ٣  
ص ٢٧٠ ابن خلكان ج ٢ سابقه
- ٨٤- الطبري ج ٣ ص ٥٨؛ المسعودي مروج سابقه
- ٨٥- لويس مقال د.م.س. طبعة "العباسيون"
- ٨٦- الطبري ج ٣ ص ٧٥ و ٨٥؛ المقرئى الراع ص ٥٢
- ٨٧- اليعقوبي ج ٢ ص ٣٦٩؛ المسعودي مروج ج ٣ ص ٢٩٥؛ الطبري ج ٣  
ص ١٥١
- ٨٨- الطبري ج ٣ ص ١٤٩
- ٨٩- الطبري ج ٣ ص ١٩٩؛ مقاتل ص ٢٧٧
- ٩٠- الطبري ج ٣ ص ٢٠٠
- ٩١- مقاتل ص ٢٩١
- ٩٢- الطبري ج ٣ ص ٢٤٨ و ٢٥٢ و ٢٥٤؛ مقاتل ص ٢٤٨ و ٢٧١؛  
الشهرستاني الملل ج ١ ص ١٥٦
- ٩٣- الطبري ج ٣ ص ٢٩١-٣٠٠؛ ومن أجل الأسماء والتفاصيل انظر المقاتل  
ص ٣٦٠ و ٣٦٥
- ٩٤- مقاتل ص ٣٦٥
- ٩٥- سابقه
- ٩٦- البغدادي فرق ص ٣٦ و ١٤٨؛ سعد الأشعري مقالات ص ٧٦

٩٧- لقب الرواندية هو اسم منح لاتباع أبي مسلم الخراساني وهم يعتقدهون أن أبا مسلم أورث الإمامة محمد بن علي العباسي. انظر لويس أصول

الإسماعيلية ص ٢٨ E

٩٨- كان أبو جعفر المنصور ابن أمة لذلك يبدو أن هذا السبب جعل إبراهيم الإمام يعين السفاح خلفاً له وليس المنصور رغم أن المنصور أكبر سناً.

٩٩- المبرد، الكامل ج ٤ ص ١١٤؛ الطبري ج ٣ ص ٢٠٩؛ ابن الطقطقي، الفخري ص ٢٢٥

١٠٠- الطبري ج ٣ ص ١٨٩

١٠١- مثلاً: فاطمة والدة أبي طالب، وفاطمة أم علي بن أبي طالب، وفاطمة بنت محمد، وفاطمة بنت الحسين والدة عبد الله المحض، وأخيراً هند بنت أبي عبيدة حفيد عبد المطلب والدة النفس الزكية. انظر مقاتل ص ٢٠٢ وقد استهزأ المنصور بهذا الشرف النسائي لأنه ابن أمة.

١٠٢- القرآن الكريم سورة ٣٣ آية ٤٠

١٠٣- الطبري ج ٣ ص ٢١١؛ المبرد الكامل ج ٤ ص ١١٦

١٠٤- الطبري ج ٣ ص ٢٠٠

١٠٥- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ج ٨ ص ٣٨٠؛ مقاتل ص ٣٦٦، ٣٦٥

١٠٦- البغدادي تاريخ بغداد ج ٨ ص ٤٢٢؛ الشهرستاني الملل ج ١ ص ١٥٨؛ مقاتل ص ٣٦٧ و ٣٦٨ ويذكر أن أبا حنيفة مات بالسم بأمر الخليفة.

١٠٧- الطبري ج ٣ ص ٤٢٦ وانظر أيضاً أرنولد، الخلافة ص ٥١. وقد تم تأكيد هذا المبدأ من طرف الخلفاء العباسيين المتأخرين انظر الطبري

ج ٣ ص ١٥٦٥

١٠٨- الطبري ج ٣ ص ٤٢٦

## الفصل الحادي عشر

### عقيدة الإمامة

لقد شرحنا في الفصول السابقة وبالتفصيل كيف جرى إخماد نشاطات ذرية علي، ويبدو أن حركاتهم الشعبية آلت إلى التوقف، وأصبح العباسيون هم السلطة الوحيدة، وأعلنوا أنفسهم سادة الدين والدنيا. ثم قام العباسيون بسلسلة متواصلة من التحركات لاستيعاب الجماعات السياسية-الدينية، أو الدينية-السياسية، وبالتدريج تم وضع هذه الجماعات تحت سيطرة الدولة من خلال "توليفة" عرفت فيما بعد باسم "الجماعة"، التي أمل العباسيون بتأييدها لهم، كما قاموا هم بدعمها.

وهكذا صار دور الإمام جعفر الصادق الاستراتيجي هو إنقاذ الطموح الشيعي الأساسي (إيصال الإمام إلى سدة الخلافة) من الذوبان في التوليفة الناشئة مجدداً برعاية الخلفاء العباسيين، وتطهير التشيع من الغلو والميول العنيفة داخله. وهكذا فإن الظروف المحيطة بإمامة جعفر وفّرت له فرصة فريدة لم تتح لوالده أو جده لكي يثبت ويشرح مبادئ الشرعية. لقد تمّ تقديم مفهوم ودور الإمام في خطب الإمام علي ورسائل الحسن إلى معاوية ورسائل الحسين إلى شيعة الكوفة والبصرة، وقد ناقشناها في الفصول السابقة. فقد تمّ تركيز مفهوم الشرعية على أنه مقصور على ذرية النبي محمد، وأن دور الإمام هو في الهداية الدينية الروحية التي يقدمها للمسلمين وقد قام بهذا الدور والتفسير كلا الإمامين زين العابدين ومحمد الباقر. والآن، بعد أن انزاح كل الطامعين بالإمامة من ذرية محمد عن

المشهد، تمتع الصادق بموقع استراتيجي متقدم، وأصبح دوره توضيح عقيدة الإمامة وتفصيلها في شكل محدد معروف.

ومن أجل ذلك أكد الإمام جعفر مبدأين أصليين. الأول: هو النص، مما يعني أن الإمامة حق خاص prerogative يمنحه الله لشخص معين من ذرية النبي، الذي يقوم قبل وفاته وإهداية من الله بنقل الإمامة لآخر بموجب نص جلي. وهذا يعني أنه بفضل النص تتحدد شخصية الإمام مهما كانت الظروف السياسية، بفرد معين من ذرية علي وفاطمة، سواء أكان هذا المنصوص عليه حاكماً دنيوياً أم لا. ومن الطبيعي أن لا تصح الإمامة بالنص وحده ما لم يتوفر النسب إلى علي الذي عينه النبي محمد هذا المقام. وهكذا صار النص الذي أروحه النبي متسلسلاً من علي إلى الحسن فالحسين وبقي فيما بعد ذلك حصراً في ذرية الحسين حتى وصل إلى الصادق. هذه النظرية المبدئية ميّزت - كما سنرى - إمامة الصادق من دعاوي المدعين الآخرين الذين لم يجوزوا على نص من أسلافهم. زيد بن علي نفى وجود نص من النبي على علي<sup>١</sup> أو أي نص من الأئمة الآخرين من أسلافهم. كما أن محمد النفس الزكية وأخاه إبراهيم لم يقلوا بوجود نص البتة من السلطات السابقة. وفي المقابل أشار الأشعري<sup>٢</sup> إلى أن فكرة النص هي الأساس عند الروافض<sup>٣</sup> في معارضتهم لحركة زيد بن علي والنفس الزكية من بعده. ورواية الأشعري تتفق مع إجماع الكتاب الالثنى عشرين أمثال النوبختي وسعيد الأشعري والكشّي من أتباع محمد الباقر الذين أيدوا إمامة الباقر ضد زيد بصفته الإمام العلوي الشرعي الوحيد على أساس سيادة مبدأ النص برغم أن فكرة النص لم تكن قد



وضحت وفُصِّلَت أيام الباقر. وبالمقارنة مع الروايات المنسوبة إلى الباقر والروايات المنسوبة للصادق يتضح لنا أن الصادق هو الذي أكد وشرح مبدأ النص. وبالتالي وبالمقارنة بين أتباع الباقر وأتباع الصادق نجد أن أتباع الصادق أصبحوا أكثر تماسكاً بفضل تأكيد مبدأ النص. وهذا واضح من موقف جماعة من شيعة الكوفة حيث اتبعوا الزيدية عقب وفاة الباقر، لكنهم تراجعوا سريعاً وعادوا لموالاته الصادق الذي وجدوه الممثل الشرعي لفكر الباقر.<sup>٤</sup> وقد اقتبس هودسن قول شتروطمان: "بأن شيعة الكوفة تخلوا عن إمامة زيد لأنهم اعتقدوا بأن الإمامة تكون بالوراثة".<sup>٥</sup> وأصبحت فكرة الإمامة بالنص وسيلة شائعة معروفة حتى أن بعض الغلاة أمثال بيان وأبي منصور والمغيرة<sup>٦</sup> ادعى وراثة إمامة الباقر، وهذا ما سنناقشه لاحقاً، ولاقوا بعض النجاح القصير المدى. ولدينا العديد من الروايات التي تذكر أن الصادق أذان ولعن هؤلاء الغلاة وحذر أتباعه منهم ومن دعاوهم ورواياتهم.

المبدأ الثاني الأساسي الذي جسده وأكدته الصادق فيما يخص الإمامة هو "العلم" وهذا يعني أن الإمام ملهم من الله بعلم يخصه به فيما يتعلق بالأمور الدينية، وهذا العلم يورثه الإمام لخلفه قبل وفاته. وبذلك يصبح الإمام الحاضر مصدر العلم الديني المعتمد، وبدون علمه فإنه ما من أحد يستطيع الثبات على الصراط المستقيم.<sup>٧</sup> وهذا العلم يتضمن علمي الظاهر والباطن أي علم القرآن.<sup>٨</sup> ويتدقق الروايات المأخوذة عن الباقر وأغلبها عن الصادق نجد هذه الروايات تؤكد أن الإمامة تقوم على هذين المبدأين: النص والعلم، وهما غير مترابطين أو مضاف أحدهما للآخر، بل

هما منصهران وموحدان في رؤية دينية لدى الإمام ويستحيل فصل أحدهما عن الآخر. وهكذا فإن النص في حقيقته عملية نقل ذلك العلم الخاص بأمور الدين الذي احتواه الإمام المختار إلهياً من ذرية النبي عبر عليّ والذي يمكن نقله من إمام إلى خلفه فقط وضمن العائلة (أهل البيت) المختارة. وهكذا، فإن أتباع الصادق لم ينظروا له بصفته إماماً ومن ذرية علي فقط بل رأوا فيه فرداً مميزاً من ذرية النبي عيّنه والده الباقر وبالتالي ورث مقامه في قيادة المؤمنين في المسائل الدينية.

وكما سنرى في هذا الفصل، إن تراث الباقر والصادق في تأكيد مفهوم "العلم الخاص" الذي يورثه الإمام لخلفه من ذريته وبالتالي من ذرية النبي، إنما هو نتيجة طبيعية واستجابة حتمية للوضع وللميول السائدة في ذلك العصر. فقد ساد في ذلك العصر البحث والتقصي لجمع الحديث النبوي، وجرت محاولة جادة لتأسيس نظام شامل لحياة التقوى في الإسلام. وقد أثمرت هذه الجهود في تشكيل نظام جامع للقانون الشرعي. إنه عصر مالك بن أنس وأبي حنيفة النعمان (إماما الفقه اللذان عملا على تأسيس نظام قانوني كلٌّ في بلده: مالك في المدينة وأبو حنيفة في الكوفة). أما الإمام جعفر الصادق بصفته سليل النبي ومعروفاً بعلمه ومعرفة عائلته بالقضايا الدينية، فقد نظرت إليه الجماعة المسلمة عامة على الأقل بصفته إمام الفقه مثل مالك وأبي حنيفة فقد اهتم بإيجاد نظام تفصيلي يساعد المؤمنين في حلّ القضايا المختلفة في المجالات العلمية التي يواجهونها. لذلك نجد المصادر السنية تروي آراءه الفقهية - كما ذكرنا سابقاً أن أبا حنيفة النعمان كان أحد تلاميذه. ولكنه لم يكن في نظر أتباعه مثل مالك أو أبي

حقيقة مجرد إمام في الفقه، بل فإنه بفضل موقعه إماماً بالنص له القول الفصل في المسائل الدينية، أما غير الشيعة فقد أقرّوا بأنه رغم تفوقه لم يكن أكثر أهمية من أي من أئمتهم.<sup>٩</sup>

"ربما كانت دعواه مبدئياً بحقه بالعلم الخاص الذي ورثه من والده أقل أهمية من قدرته على استخدام علمه كسلطة نهائية، أو بكلام آخر سيادته الموروثة لإصدار الأحكام النهائية في القضايا الدينية. إن أي صاحب سيادة (سلطة) يجب أن يتمتع بالقدرة على إصدار القرارات النهائية في أية قضية قانونية؛ وهكذا فإن دعوى الحاكم بالسيادة تعطيه الحق تلقائياً بالقرارات النهائية، وفي هذه الحالة في كل القضايا الدينية. والدعوى بهذا الحق يمكن نقلها من شخص إلى آخر ذي طبيعة علمية فوق عادية يقبلها كثير من العقول. لكن في حالة الإمام الشيعي حيث إنه لا يتمتع بأية سلطة زمنية دنيوية يبقى علمه الخاص على مستوى النظرية (بدون قوة فعلية)، فإن دعواه بأن علمه الخاص يهديه في اتخاذ القرارات، تكسب علمه فداسة خاصة ويصبح هذا العلم هبة فريدة من إمام إلى إمام يخلفه. وعلى المستوى نفسه، وبصفته سلطة خاصة مميزة بأنها مصدر المعرفة في كيفية أن يعيش الإنسان حياة تقوى، فإن للإمام دوراً فائق الأهمية سواء أكان حاكماً أم لا"<sup>١٠</sup>

ومع إمامة مؤسسة على مبدأي النص والعلم كما أسسها وشرحها جعفر الصادق، يجب ألا نجد أية صعوبة لفهم كيف تميز الصادق بموقع خاص رغم كل الصراعات على السلطة التي حدثت خلال حياته. إن تأسيس عقيدة الإمامة كما شرحها الصادق لم يعد من الضروري لإمام يتمتع بحق

إلهي (النص) أن يثور على الحكام (الخلفاء) كي يصبح حاكماً. فالإمام بموجب تفسيره صار فوق الحاكم الديني الذي أصبح من واجبه تنفيذ ما يقرره الإمام بصفته سلطة دينية عليا. وهكذا؛ وعلى هذا الأساس لم يعترض الصادق على دعاوي زيد، بل امتدحه أمام وفد شيعة الكوفة. وفي الوقت عينه صرح الصادق لفضيل بن راسان بأن زيدا إذا صار ملكاً فلن يعرف كيف يتصرف ولن يتجز واجباته.<sup>١١</sup> وبهذه الطريقة أقر الصادق بما يشبه ذلك حين ثار محمد النفس الزكية. كما أكد الصادق أنه ليس لأولاد الحسن بن علي أي حق في القيادة الدينية (الإمامة).<sup>١٢</sup> بل إن الإمامة تورث فقط في ذرية الحسين. هناك روايات عديدة بهذا الخصوص تؤكد أن الباقر نص على الصادق ليخلفه في الإمامة. لقد قال عنه: "إنه أفضل شخص في زمانه" و"قائم آل محمد"، واثمنه على كتب وصحف وسلاح النبي محمد التي كانت بحوزته.<sup>١٣</sup> هذه الكتب تتضمن علم الدين الخاص أما سلاح النبي فيجب أن يبقى في حوزة الإمام الحقيقي المعين بنص جلي من والده. وعندما أعلن الصادق أن هذه الأشياء في حوزته فإنه تلقائياً رفض حق النفس الزكية في الإمامة رغم أنه ادّعى أن سيف النبي عنده.<sup>١٤</sup> وسواء أكانت هذه النفائس في حوزة الصادق أم في حوزة الآخرين من أولاد الحسن (محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم) فإن الصادق بقي القائد الوحيد لجماعة المؤمنين على أساس المبدأ ذاته الذي أقره الباقر وبالتحديد "النص"

قال الصادق إن الإمامة تورث من الأب إلى أحد أولاده وليس شرطاً أن يكون الولد الأكبر سناً، كما اختار دانيال سليمان من ذريته، وهكذا

فالإمام يختار من أولاده من يراه جديراً بهذا المقام. وبذلك استطاع الصادق أن يبطل نصه على إسماعيل ولده الأكبر الذي توفي في حياته ولم يعين ولده الثاني عبد الله، بل نقل النص إلى ولده الثالث موسى الكاظم.<sup>١٥</sup> وفي شرحه لمقام الإمام أكد الصادق مراراً وبصورة مطلقة أن الإمامة ميثاق بين الله والناس جميعاً، وإن ولاية الإمام هي واجب مطلق على كل مؤمن.<sup>١٦</sup> قال: "من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية."<sup>١٧</sup> والأئمة حجج الله في الأرض، وكلامهم كلام الله وأمرهم أمره، وطاعتهم طاعته، ومعصيتهم معصيته. وهم في جميع أحكامهم ملهمون من الله ولهم حق الولاية على الناس. وإن الله أمر بطاعتهم.<sup>١٨</sup>

وأعلن الصادق أن الإمام هو الشاهد على الناس وأنه باب الله وسبيله والدليل إليه وناشر علم الله ومفسر وحيه. والإمام معصوم عن الخطأ والضلال. والأئمة هم أولئك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وهم أصحاب المعجزات والدلائل، وأمان الناس على هذه الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء، وهم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك، وبهم تقبل توبة التائبين.<sup>١٩</sup> وفي رواية أخرى "إن الله خص الأئمة بالقيادة الروحية فوق جميع البشر، وبالتالي لا بد من بقائهم قادة وهداة. حتى لو لم يبق في عمر الأرض إلا رجلان فإن أحدهما هو الإمام ما دام الناس في حاجة لهداية الله."<sup>٢٠</sup>

والواقع أنه بحسب شرح الإمام الصادق فإن هناك دائماً إمامين: الإمام المستقر (الناطق) وابنه -خلفه وهو الذي يبقى خلال حياة والده صامتاً.<sup>٢١</sup> ولا يعرف الإمام الصامت (الابن) موقعه السامي حتى وفاة والده، وعندها

فقط يؤمن على الكتب المقدسة وأسرار الدين. وعند وفاة الوالد-الإمام يرتقي المنصوص عليه عرش الإمامة ويصبح حجة للبشر.<sup>٢٢</sup>

وكما أشرنا سابقاً فلنكي يبرهن الإمام على حقه في الإمامة لا بـد مسن التأكيد على النص وبالتالي يجب التأكيد على حق علي بـقيادة الأمة الروحية بصفته المختار من الله باعتباره وصي الرسول. وليس هذا أمراً جديداً. فقد أكد علي هذا الحق مراراً منذ وفاة النبي وحتى استشهاده، وكذلك فعل الحسن والحسين وزين العابدين ومحمد الباقر وكلهم أكدوا حق علي وذريته وسموهم في وراثة النبي. وبذلك كانت فرصة الصادق أفضل حيث جرى تأسيس حق العلويين في الإمامة منذ زمن بعيد، ولم يكن دوره في ذلك سوى إعادة تأكيد وشرح وتوضيح هذا الحق. وبالتالي فإن الصادق اقتفى أثر والده واقتبس العديد من الآيات القرآنية التي رأى أنها تبين مصداقية تعيين علي للإمامة. والآيات العديدة المقتبسة والمذكورة في العديد من المصادر الشيعية<sup>٢٣</sup> هي كما يراها جميع المسلمين من الآيات المتشابهات، وبالتالي فهي تتطلب التأويل على عكس الآيات المحكمات الواضحات المعاني. ومن هذه الآيات: "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيسعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولوا الأبواب".<sup>٢٤</sup>

وحدث أن تأويل هذه الآيات لم يجر حتى أيام الصادق. وكان جعفر بفضل ميلاده وخلفية عائلته هو الأقدر على تفسير القرآن من بين

المفسرين الآخرين، وبالتالي كان من الطبيعي أن يفضل فريق من المسلمين (الشيعة) الموالين لذرية النبي تفسر الصادق على تفسير الآخرين الذين يحصلون على علمهم بعد تلمذة طويلة الأمد.

ومثل النص فإن العلم الديني الخاص الذي نسبته الصادق لنفسه يجب إرجاعه لعلي، هذا العلم الذي انتقل منه إلى خلفه إماماً بعد إمام حتى آل إلى جعفر نفسه. ولذلك قال جعفر إن النبي اتّمن علياً على اسم الله الأعظم وآثار النبوة.<sup>٢٥</sup> وهذه إحدى الروايات من بين العديد من أمثالها التي سجلتها المصادر الشيعية وكلها تتحدث عن علم فائق تميّز به علي من بين أصحاب النبي جميعاً. ومن المؤكد، أن هذه الروايات تحمل مصداقية كبيرة نظراً لشهرة علم علي وانتشاره بشكل لا نجد له مثيلاً، فلم تكن المصادر الشيعية وحيدة في نقل ما اشتهر عليّ به من علم بل نجد في المصادر السنية مثيلاً لذلك وكب الحديث السنية سجلت العديد من الأحاديث التي تنسب لعلي علماً سامياً غير عادي.<sup>٢٦</sup> وكما أشرنا سابقاً، فإن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب قال مراراً: "علي أفضى القضاة بين أهل المدينة وزعيم قراء القرآن".<sup>٢٧</sup> ولعل أشهر أحاديث علم عليّ مما دونته المصادر السنية هو قول النبي: "أنا مدينة العلم وعليّ بإمّا".<sup>٢٨</sup> ونظراً لكثرة الأحاديث التي تنسب علماً خاصاً لعلي وقد سجلتها مصادر الفرقاء فما عاد هناك مجال للشك بعلم علي الخاص، وقد أقرّ معاصروه بهذه الحقيقة. ولذلك صار هذا العلم الموروث في ذرية علي حجة لأثبات حقوق الإمام الشرعي من بين هذه الذرية.

هناك معضلة أخرى ذات صلة بدعوى الصادق بنص وعلم خاص موروث هي قضية صحة الانتساب لأهل البيت. فمن جهة أولى فإن جميع ذرية علي سواء من فاطمة أم من سواها أدعو الانتساب إلى "البيت المقدس" ومن جهة أخرى فإن العباسيين المتتمين إلى هاشم جد النبي أدعو حقاً خاصاً بانتسابهم لأهل البيت، وقد جلّهم أتباعهم باعتبارهم أئمة ملهمين من الله ومهدين. لذلك أكد الصادق مرة بعد أخرى على حديث نبوي يحدد أن المقصود بأهل البيت المطهرين المذكورين في القرآن هم علي وفاطمة وذريتهما. هذا الحديث معروف بأهل الكساء أو حديث أصحاب الكساء. وهو كما يلي: "أدخل النبي علياً وفاطمة والحسن والحسين تحت عباءته في بيت أم سلمة، وقال: لكل نبي أهل وثقل وهؤلاء عائلتي وثقلي، وعندما سمعت أم سلمة ذلك سألت النبي ألسنت من أهل بيتك؟ فأجابها النبي: لا لكنك على خير. إن هؤلاء الداخلين تحت العباءة هم وحدهم أهل بيتي وثقلي".<sup>٢٩</sup>

هذا الحديث طويل. لكن الجزء الهام منه هو نزول الملاك جبرائيل ليبلغ محمداً بقوله تعالى: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً".<sup>٣٠</sup> والمقصود بأهل البيت يتجلى من دعوة النبي جبرائيل لينبئهم قائلاً: "إن فاطمة وزوجها علي وطفليهما الحسن والحسين تحت العباءة".<sup>٣١</sup> ومن الواضح أن التركيز في هذا الحديث لم يكن على علي بل على فاطمة مع الإشارة إلى علي والحسن والحسين. وتقاليد ما قبل الإسلام لا تخلو من أمثلة حيث لجّد شخصيات عرفت بأفعالهم أو زوجاتهم. وفي حالة فاطمة رأينا كيف أشار محمد النفس



الزكية في رسالته إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور إلى نفسه بوصفه حفيد فاطمة. وكذلك فعل الأئمة الزيديون حيث رأوا أن الإمامة حق لأولئك المنحدرين من علي وفاطمة فقط. ولكنه جعفر الصادق بامتياز هو الذي أكد هذه النقطة بنجاح. وهذه الميزة تنطوي على قبول كبير لدى جماهير المسلمين وبالتالي تشكل قضية محورية في إثبات شرعية إمام ما. وهذا ما أدى لأن تصبح فاطمة في التراث الاثني عشري شخصية جليلة جداً.

استطاع الصادق خلال حياته ومن خلال هذه الأحاديث أن يؤسس قداسة خاصة للأئمة من سابقه ولا حقيه من أهل البيت، وأن هذه القداسة محدودة بأولاد وأحفاد الزهراء، وبالتالي رفض كل دعوى قام بها أي من الهاشميين سواء أكان علوياً أو عباسياً.

عرّضت دعوى الإمامة المؤسسة على النص والعلم الخاص كما شرحها الباقر والصادق كل مطالب بما إلى خطر الملاحقة والاضطهاد من طرف العباسيين الذين أدعوا قيادة الأمة الإسلامية الروحية. وهكذا ظهرت إلى الوجود عقيدة "التقية" التي صاغها وأكدها الصادق نفسه، وجعلها تقريباً أحد شروط الإيمان. ومن المهم أن نلاحظ أنه ما من حديث عن التقية قبل الباقر، وهذا يعني أن التقية كانت عقيدة من إنتاج فكر الباقر وقد شرحها وأكدها الصادق، وكانت في الحقيقة حاجة فرضها الزمن والظروف التي مرّ بها كلاهما حين كانا ينظمان عقيدة أتباعهما. ربما يرى المرء أن نظرية التقية تناسب جداً نظرية العلم غير العادي المتجسد في الأئمة والذي يجب أن يقتصر على أفراد قلة وهم الذين يرثون هذا العلم

من خلال النص. ولهذا قال الصادق: "هذا الأمر (الإمامة) وعلم باطن الدين مستور ومحجوب بميثاق وكل من يكشفه يلعنه الله".<sup>٣٢</sup>

في حديث مع المعلّى بن خنيس أحد غلاة الكوفة والذي لعنه الصادق قال له الصادق: "اكنم أمرنا ولا تدعه، فإنه من كنم أمرنا ولم يدعه أعزّه الله به في الدنيا وجعله نوراً بين عينيه في الآخرة، يقوده إلى الجنة، يا معلّى من أذاع أمرنا ولم يكتمه أذله الله في الدنيا ونزع النور من بين عينيه في الآخرة وجعله ظلمة تقوده إلى النار. يا معلّى إن التقية من ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له، يا معلّى إن الله يحب أن يعبد في السر كما يحسب أن يعبد في العلانية يا معلّى إن المذيع لأمرنا كالجاحد له".<sup>٣٣</sup>

إن أسرار الدين الباطنة هي ولاية الله، والله اتّمن جبرائيل على هذه الأسرار وهو بدوره أحضرها لمحمد. ثم نقلها النبي إلى علي، ثم صارت إرثاً يتوارثه الأئمة الملزومون بحفظها.<sup>٣٤</sup> وبالتالي فمن واجب المؤمنين ألاّ يذيعوا عقيدتهم إلا لمن يشاركهم العقيدة ذاتها. وقد اتّهم الصادق الكيسانية بالضلال حين أذاعوا أسرار الدين لدى العامة. قال الصادق: "ما زال سرّاً مكتوماً حتى صار في يدي ولد كيسان فتحدثوا به في الطريق وقرى السواد".<sup>٣٥</sup>

إن فحص التطورات في مفهوم وعقيدة التقية يكشف حقيقة أن التقية كانت نتيجة طبيعية للظروف المحيطة في ذلك الزمان، وضرورة فرضها الخطر الناتج عن الصراع السياسي والمذهبي. إن إعلان أن أشخاصاً محددين ملهمون من الله باعتبارهم أئمة، وهم وحدهم الذين فرض الله طاعتهم كان تحدياً مباشراً لسلطة الخلفاء العباسيين الذين أدّعوا لأنفسهم

السلطتين الزمنية والدينية. ولهذا كان على التشيع أن يوجد وسيلة لحماية نفسه في ذلك الوضع الصعب. وكانت التقيّة هي الوسيلة الناجحة، لكن العرف السائد يومئذٍ هو تبرير كل شيء بموقف ديني وذلك باقتباس سابقة من القرآن أو الحديث النبوي وهذا ما فعله الصادق. فقد أشار جعفر إلى أن النبي يوسف وإبراهيم تحولوا إلى التقيّة وأخفيا الحقيقة: الأول حين أتهم أخاه بالسرقة، والثاني حين ادعى أنه كان مريضاً.<sup>٣٦</sup> وكذلك فإن النبي محمد لجأ إلى التقيّة في بداية بعثته حتى جاءه الوحي يأمره بإعلان نبوته قال تعالى: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس.<sup>٣٧</sup> والآية الأخرى التي تؤكد عقيدة التقيّة تقول: "من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان."<sup>٣٨</sup>

تم تأسيس عقيدة التقيّة أيام الباقر، ويمكننا أن نسب أصولها له. ولكن الصادق هو الذي وضع اللمسات الأخيرة عليها وجعلها شرطاً مطلقاً لصدق الإيمان. قال الصادق: "اتقوا على دينكم فاحجبوه بالتقيّة، فإنه لا إيمان لمن لا تقيّة له."<sup>٣٩</sup> ويرى جولدزهر Goldzihr أن تاريخ التقيّة يعود إلى محمد بن الحنفية وأنه التجأ إليها، لكنه يعود فيقول أن جعفر شرح هذه العقيدة على أساس أنها أحد مبادئ الشيعة الناتجة عن حاجات الظرف السياسي.<sup>٤٠</sup>

وعلى كل حال، فإن من الصعب الجدل في عقيدة التقيّة، التي جعلها الصادق جزءاً ضرورياً من الإيمان، وبأنها خدمت الشيعة بصفقتها وسيلة مفيدة لحفظ إيمانهم خلال كل الظروف غير المواتية لهم أو بالأحرى

المعادية سياسياً. ويوضح ذلك حديث رواه الصدوق عن جعفر قال فيه: "خالطوا الناس ظاهراً ولكن عارضوهم مادامت المسألة قضية رأي".<sup>١</sup> وفي مناسبة أخرى وحين كان زكريا بن صادق يعدد الأئمة في مجلس الصادق وحين وصل إلى الباقر قاطعه الصادق قائلاً: "هذا يكفيك، لقد ثبت الله لسانك وهدى قلبك".<sup>٢</sup> ولعلنا نختم بعد عرض كل هذه الروايات بالقول: إن المعنى الحقيقي للتحية هو ليس قول الكذب أو الزور، كما يقال أحياناً، بل هي وسيلة لحماية الدين الصادق وأتباعه من الأعداء من خلال التستر في ظروف مخيفة حين يتعرضون للقتل أو الاعتقال أو الإهانة.

هناك قضية أخرى تستدعي مناقشة سريعة. وهي أن هناك مجموعة من الأحاديث في المصادر الشيعية المبكرة بخاصة مثل الكافي تصف الأئمة بأنهم بشر فوق عادين supernatural. فما هو مصدر هذه الأحاديث، وإلى أي مدى يعتبر الأئمة مسؤولين عنها؟ إن جميع هذه الأحاديث رويت ودونت بصفتهما مجموعة أحاديث شيعية، ونسبت لأحد الأئمة وبخاصة للباقر والصادق. ولكن هل من الصحيح أن الأئمة مسؤولون عن هذه الأحاديث؟ وفي الجواب على هذه التساؤلات نرى أن أول ما يجب ملاحظته هو أن هذين الإمامين عاشا في المدينة ومعظم أتباعهم عاشوا في الكوفة. هذه الحقيقة تقودنا إلى معضلة صعبة. فالكوفة كانت لفترة طويلة موطن الغلاة ومركز نشاطهم. وسواء كان عبد الله بن سبأ<sup>٣</sup> الذي ينتسب إليه تاريخ الغلاة شخصية حقيقية أم لا فإن مصطلح السبئية<sup>٤</sup> استخدم مراراً لوصف غلاة الكوفة الذين اعتقدوا بمواصفات

فوق طبيعية في عليّ. فبحسب روايات كتاب الفرق، فإن ابن سبأ هو أول من بشر بعقيدة الوقف (أي التوقف عن التصديق بموت علي)، والأول الذي سبّ الخليفين الأولين إضافة إلى عثمان.<sup>٤٥</sup>

يقول البغدادي أن السبئية تتكون من بقايا السبأين سكان سبأ في جنوب الجزيرة العربية نجوا من تقلب الأيام حتى أيام المختار وشكلوا مجموعة قدست كرميّه.<sup>٤٦</sup>

يبدو أن المجموعة الأولى من الغلاة ذابت في الكيسانية أتباع محمد بن الحنفية وهم يعتقدون بمهدويته ومن ثمّ اتبعوا ابنه أبا هاشم عبد الله. وقد كانت وفاة أبي هاشم نقطة تحول خطيرة في تاريخ الغلاة، لأنّها أدت إلى انقسام الغلاة إلى مجموعتين متميزتين. إحداهما تابعت خلفاء أبي هاشم وهم يعتقدون بالتقية وبالرجعة وهم الذين استوطنوا إيران. وقد نمت هذه المجموعة وعرفت بحركة الحرّميّة الثورية أواخر العهد العباسي. والأخرى تجاوزت الكيسانية، وبقيت في الكوفة، وبطريقة ما ربطت نفسها بالأئمة الحسينيين. وأشهر أسماء هذه المجموعة الذين اتبعوا الباقر ثمّ الصادق هي حمزة بن عمارة البريدي وبيان بن سميان وسعيد النجدي والمغيرة بن سعيد العجلي وابن قبيلة أبو منصور العجلي ومحمد بن أبي زينب مقلص بن الخطاب. ويطول بنا البحث لو استطردنا في بحث أفكارهم ودعواهم هنا؛ ويكفي القول بأنهم اعتقدوا بأن الإمام هو تجسد إلهي حيث أن جزءاً من الله تجسد في علي بن أبي طالب مكّنه من معرفة الغيب وأقدره على الإخبار عن المستقبل ومقاتلة الكفار وذلك أن قوة

عالم الملائكة الخفية كانت في علي مثل المصباح في مشكاة في حائط وأن نور الله كان في علي مثل ضوء في لهب الشمعة.<sup>٤٧</sup>

وفيما يتصل هؤلاء الغلاة وأفكارهم فإننا سندكر فقط أنه منذ عهد الباقر وما بعده لعن الأئمة الغلاة مراراً وحذروا المؤمنين من الأخذ بروايتهم التي نسبوها للأئمة.<sup>٤٨</sup> ينقل الكشي تدمير الصادق من المغيرة ووصفه له بأنه أساء تمثيل شيعة الباقر وأضاف أن الغلو المنسوب إلى الباقر يعود كله إلى المغيرة.<sup>٤٩</sup> ولم يقصر الصادق وخلفاؤه الأئمة في لعن الغلاة والتبرؤ من أفكارهم.

وكان في الكوفة مجموعة أخرى نشطة في الدعاية لإمامة الباقر والصادق. وأهم رجالها جابر بن يزيد الجعفي وأبو حمزة الثمالي ومعاذ بن فرّاح النحوي. وهؤلاء ترددوا على مجلس الأئمة في المدينة وعملوا كصلة وصل بين الأئمة وغلاة الكوفة. وقد جادل هؤلاء الغلاة نيابة عن الأئمة حول الأفكار الغالية، وعارضوهم وسفهاو آراءهم وبخاصة فيما يتعلق بشخصية الأئمة ودورهم. وبقي هؤلاء أمناء على أتباع الأئمة، بينما تجاوز الغلاة أوامر وأفكار الأئمة. ومع ذلك، حين ننظر إلى الأحاديث التي رواها جابر وأصحابه من هذه المجموعة يبدو لنا أنهم تأثروا إلى حد ما ببعض الأفكار التي دعا إليها الغلاة وبخاصة أفكار بيان بن سمعان والمغيرة بن سعيد.

ربما لم يكن من بين أتباع الأئمة من تجرأ كما فعل جابر. ونسروي هنا الأحاديث التي رواها جابر التي تظهر تطرفه semi ghluo. روى جابر أن الباقر قال: "يا جابر إن الله أول ما خلق خلقاً محمداً صلى الله عليه

وآله وسلم وعترته الهداة المهديين، فكانوا أشباح نور بين يدي الله، قلت: وما الأشباح؟ قال: ظلُّ النور أبدان نورانية بلا أرواح وكان مؤيداً بروح واحدة وهي روح القدس، فيه كان يعبد الله وعترته ولذلك خلقهم حلماً علماء بررة أصفاء يعبدون الله بالصلاة والصوم والسيجود والتسبيح والتهليل ويصلُّون الصلوات ويحجون ويصومون.<sup>٥٣</sup>

إذا قارنا فكري الغلاة المتعلقةين بنور الله في علي كما أشار جابر مع المواصفات التي نسبها للأئمة بصفتهم أبداناً نورانية وظل النور فيبدو لنا أن ثمة ميلاً عاماً في التفكير بين الحالين.

وربما كان لهذا السبب أن مجموعة الغلاة المتأخرين قبلوا جابر بصفته سابقهم. ويبدو هذا واضحاً من إعلان أبي الخطاب وخلفائه الذين ادعوا أن جابراً هو أستاذهم وسابقهم.

ولذلك قيل أن "أم الكتاب" تحتوي على تعليم الباقر وجابر بن عبد الله الأنصاري وجابر الجعفي.<sup>٥٤</sup> وهناك كتابة دينية أخرى هي رسالة الجعفي وهي تحتوي على عقائد إسماعيلية مؤسسة بشكل رئيسي على عرض جابر برواية عن الباقر.<sup>٥٥</sup> ويظهر أن لا أم الكتاب ولا رسالة الجعفي تمثل آراء الباقر وربما القليل مما نسب إلى جابر نفسه. ومع ذلك فإن اعتباره الأب الروحي كما ادعى خلفاء أبي الخطاب من الغلاة هي مسألة هامة.

وعلى كل حال، وبرغم الإدانات المتكررة التي أعلنها الباقر والصادق والأئمة الحسينيون للغلاة، فإن عدداً من الروايات التي تحمل أثر الغلو تسربت إلى كتب الحديث الشعبية. ومعظم هذه الروايات مأخوذة عن

جابر. ومن الصعب اليوم التأكيد بأن هذه الأحاديث رواها جابر، أو أنها من اختراع الغلاة المتأخرين ونسبوها لجابر، وجرى تداولها في بعض أوساط الشيعة. وفي علم الحديث سواء عند السنة أو الشيعة فإن موضوع وصلب الحديث قلما جرى التدقيق فيهما، وإغما تم قبول أو رفض الحديث بناء على مصداقية الرواة. وعند الشيعة تم قبول أحاديث كل من أثبت صدق ولأنه لإمام زمانه. وأما بالنسبة لجابر وبرغم ميله الغالية ومبالغاته بقي مخلصاً للباقر والصادق. وعندما صنف محمد بن يعقوب الكليني المتوفي ٣٢٨هـ - ٩٣٩م أول كتاب شيعي جامع للأحاديث وهو الكافي في علم الدين كان همه تدوين كل ما وصل إليه عن الأئمة من أولئك المعروفين بولائهم لأحد الأئمة. وبهذه الطريقة تسرب إلى التراث الشيعي كثير من الروايات التي تنسب للأئمة مواصفات فوق بشرية وغير طبيعية لأن هذه المواصفات كانت متداولة بين مجموعات الغلاة في الكوفة.

وعلى كل حال، يتضمن الكافي العديد من أحاديث الباقر والصادق والتي تنفي بوضوح أنهما يتمتعان بقوى غير طبيعية ويقللان من أهمية المعجزات التي نسبت إليهما.<sup>٦</sup> ولهذا السبب يمكن اعتبار الصادق غير مسؤول شخصياً عن الصفات غير الطبيعية التي نسبها الغلاة من شيعة الكوفة للأئمة. والواقع أن الصادق لم يلعنهم ويطردهم كما فعل مع أبي الخطاب، وكما فعل الباقر مع بيان وأبي منصور والمغيرة. كما يوجد في الكافي العديد من أحاديث الباقر والصادق وفيها يعلنان أنهما كانا ببساطة بخشيان الله، وميزا نفسيهما عن الآخرين لأنهما كانا من سلالة النبي،



وبالتالي فهما وصيان وحاميا رسالته. وبفضل تقواهما وحقيقة أن معرفة الله جاءتهما من خلال النص والعلم، فإنهما استطاعا أن يعيشا حياتهما مطيعين لإرادة الله.<sup>٥٧</sup> وأما ما يخص الأحاديث التي تنسب للأئمة صفات غير عادية، فإن حديث الصادق الحاسم بهذا الخصوص هو قوله: "إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإلا فإلذي جاء به فهو أولى به. وقوله: كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف"<sup>٥٨</sup> ومن الجدير بالملاحظة أن الصادق عاش قبل البخاري ومسلم بقرن من الزمان ونجده قد وضع معياراً حاسماً لتبين صدق الحديث (مقارنته بما في القرآن)، هذا المعيار المبدأ الأهم لضبط الحديث.<sup>٥٩</sup>

وزيادة على ذلك، فإن حقيقة أن الغلاة وأنصاف الغلاة نسبوا تصوراتهم إلى الأئمة، وأن الأئمة لم يكونوا مسؤولين عن ذلك فتضح من رواية الكشي، وهي أن أحد أتباع الإمام علي الرضى قرأ مرة في مجلسه أحاديث نقلها من مدونات شيعة العراق الذين أخذوا عن الصادق والباقر؛ عندها رفض الرضى بقوة صحة هذه الأحاديث وأعلن أن أبا الخطاب وأتباعه عملوا جاهدين كي يدون كذبهم في المدونات.<sup>٦٠</sup> وكذلك لاحظنا كيف تدمر الصادق من إساءة المغيرة في إبراز علم الباقر.

لقد ناقشنا حتى الآن مجموعة الغلاة وشبه الغلاة من بين أتباع الصادق الذين زعموا للأئمة مواصفات مبالغاً فيها؛ ولكن لم يكن جميع شيعة الصادق من الغلاة أو متطرفين. كان معظم الشيعة مميزين عن المسلمين الآخرين فقط بولائهم لذكرى علي وقناعتهم بأنه كان أفضل مسلم لتولي

قيادة الأمة الإسلامية دينياً ودنيوياً. ولذلك اعتبروا الإمامة حقاً خاصاً بعلي وذريته وأن هذا كان أمراً من الله. وأفضل مثال على هؤلاء هم الذين عرفوا فيما بعد باسم الإثني عشرية وخير من يمثلهم هو عبد الله بن أبي يعفور الكوفي. فقد عارض موطنه المعلّى بن خنيس الذي قال بأن الأئمة أنبياء. فقد رفض ابن أبي يعفور ذلك، وقال أن الأئمة كانوا مطهرين يخشون الله ومتكلمين (من علم الكلام) وأوصياء الله لقيادة الأمة على الصراط المستقيم.<sup>٦١</sup> كان ابن أبي يعفور مستقيماً في دينه وتمتع باحترام الصادق له.<sup>٦٢</sup> كما تمتع بثقة أهل الحديث المعتدلين، وعندما توفي في حياة الصادق تبع جنازته العديد من اثنى عشرين والمقربين من الشيعة وهم المرجئة.<sup>٦٣</sup>

وكان ثمة مجموعة أخرى ضمن أتباع الصادق شغلوا أنفسهم بنشاط فكري أو المسائل الجدلية في تلك الأيام، بالتوازي مع أفكار المعتزلة. جمع الصادق حوله رجالاً ساندوا قضية التشيع وتمتعوا بمواهب ومواقف صلبة جادلوا المفكرين المسلمين الذين كانوا يتأملون ويفكرون بالقضايا الفلسفية السائدة يومئذ. هذه المجموعة من الرجال شكلت أول المتكلمين الشيعة ودعمت بأفكارها عقيدة الإمامة، وظهرت في بداية أمرها من بين صفوف الشيعة المتطرفة في مناخ معاد وترددت أسماء أشهرهم في كتب الفرق. وقد أهتم هذه المجموعة أبو الحسن الأشعري، وميزهم بوضوح عن الغلاة وأشباه الغلاة من بين أتباع الصادق. وربما ساعدتنا دراسة متأنية ونقدية لكتب الفرق للتفريق والتمييز بين الأفكار الشيعية والسنية المتشابهة في المراحل الأولى لتطور المدرستين. وعلى كل حال، فإن قرب

هذه المجموعة من الصادق ساعدت إلى حد بعيد على تطور التشيع بعيداً عن أي تأثير جانبي. وقد أعتبر هؤلاء المتكلمون المفكرون نخبة المتكلمين الشيعة برغم أن الكلام لم يكن قد أخذ شكله النهائي كعلم خاص وكان هؤلاء متكلمين وفلاسفة ومحدثين في الوقت عينه.

وأول من يستحق ذكره من بين هؤلاء هو أبو الحسن بن أعيان بن سوسن الذي اشتهر بكنيته زرارة. كان زرارة مولى لبني شيبان في الكوفة، وحفيد راهب يوناني دخل في الإسلام.<sup>٦٤</sup> وقد أيد زرارة في بداية أمره زيد بن علي، وكان مع أخيه حمران بن أعين والطيار تلاميذ الحكم بن عتيبة الزيدي أحد مفكري المعتزلة أيضاً. وهذه التلمذة تشير إلى أن زرارة بتأثير من أفكار معلمه طور اهتمامه بالتأمل الفكري. بعدئذ غير حمران ولاءه وابتغى الإمام الباقر ثم تبعه في ذلك أخواه وأخيراً زرارة.<sup>٦٥</sup>

وبعد وفاة الباقر لازم زرارة الصادق الذي امتدحه قائلاً: "أحب أربعة من الرجال أحياءً وأمواتاً: بُريد بن معاوية العجلي، وزرارة، ومحمد بن مسلم والأحول."<sup>٦٦</sup> وقال عنه ابن أبي عمير<sup>٦٧</sup> بأنه كان إلى جانب معاصريه عند زرارة مثل الأطفال حول معلمهم.<sup>٦٨</sup> وقد واجه زرارة مصاعب بل مخاطر بسبب نشاطه الفعّال لصالح قضية الصادق. ولكي يجنبه الصادق المخاطر لجأ الصادق إلى عقيدة التقية حتى أنه تنكر علناً من زرارة بل وحتى لعنه. ولتبرير ذلك قال الصادق أنه فعل ذلك أسوة بالخضر الذي أغرق السفينة كي لا يأخذها الملك الجبار.<sup>٦٩</sup>

كان زرارة الذي عاش في الكوفة يزور الصادق من وقت لآخر والتقى به أحياناً في مكة، وفي الكوفة جمع حوله مجموعة كبيرة من التلامذة. واشتهر

زرارة باهتمامه بعلم الحديث والفقه والكلام ومن الكلام كسب شهرته  
النواصرة. والواقع أنه كان المؤسس لعلم الكلام الشيعي بمعناه الدقيق،  
وأول أساتذة هذا العلم،<sup>٧٠</sup> ضمن أتباع الصادق.

وكان من بين تلامذة زرارة المخلصين للتشييع أبنائه حسن<sup>٧١</sup> وحسين<sup>٧٢</sup>  
وعبيد الله<sup>٧٣</sup> وأخوه همران النحوي ومن أكثر المقربين من الباقر<sup>٧٤</sup>؛ وحمزة  
بن همران<sup>٧٥</sup> وبكر بن أعين<sup>٧٦</sup>، وابنه عبد الله<sup>٧٧</sup>، ومحمد بن الحكم<sup>٧٨</sup>،  
وحمد بن رباح<sup>٧٩</sup> ومحمد بن النعمان الأحول وهشام بن سالم الجواليقي.<sup>٨٠</sup>  
وعرفت مجموعة زرارة بالزرارية أو التيمية،<sup>٨١</sup> وقد أدى نشاطها في حقل  
علم الكلام إلى دعم التشيع وبخاصة أتباع الصادق ومن بعده موسى  
الكاظم.<sup>٨٢</sup> وقد طورت هذه المجموعة بقيادة زرارة ومتكلمين آخرين  
نظرية أن معرفة الله واجب على كل مؤمن، وأن هذه المعرفة غير ممكنة  
بغير إمام منصوب من الله، وبالتالي فإن طاعة الإمام التامة هي فرض ديني.  
وأن الإمام بالضرورة موهوب علماً خاصاً. وأن ما يحصل عليه الناس  
الآخرون بالتفكر والنظر يعرفه الإمام بعلمه الخاص الموهوب وأن علمه لا  
مثيل له. ونظم زرارة وأتباعه آراءهم في مختلف القضايا التي نعرفها اليوم  
باسم الفلسفة الحرفية scholastic philosophy مثل: صفات الله وذاته  
وأفعاله وإرادته ومقدرة الإنسان.<sup>٨٣</sup>

والانطباع الذي نكوّنه عن زرارة من المصادر وبخاصة الكتشي هو أن  
زرارة قام بدور هام جداً في تطوير الفكر الشيعي الشرعي legitimate  
وساهم إلى حد بعيد في تشكيل عقيدة الإمامة. وهو أحد المصادر التي  
يتكرر الاقتباس منها في الكتب الشيعية الرئيسية.

كما كان أبو جعفر محمد بن النعمان الأحول شخصية بارزة أخرى بين شيعة الكوفة وبرز نشاطه في مجال علم الكلام، وقد ربط قضية الإمامة مع الأسس النظرية الأخرى. وقد وصف كتاب الفرق مجموعة الأحول التي تركزت حوله باسم النعمانية، وقد ميز الأحول شخصيته من بين شيعة الصادق بمهارته في الجدل الكلامي، وبسلطة إجاباته على تحدي خصومه. وكان الأحول في بدايته من المقربين من الإمام الباقر، وقد تبني الأحول مناصرة قضية الباقر ضد دعوى أخيه زيد بن علي. ثم تبع بعد ذلك الصادق ثم موسى الكاظم.

لكن معظم نشاط الأحول في تدعيم معتقداته جرى خلال إمامة الصادق. وقد عدّ الأحول بين الشخصيات المقربة من الصادق، وقبل إمامة الكاظم فور وفاة الصادق دون التفاف لأي من أولاده الآخرين.<sup>٨٤</sup> ونقل عنه أنه أدار حوارات متعددة حامية مع الفقيه المشهور أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب الفقهي السني، وقد وبخ الأحول أبا حنيفة واتهمه بالإرجاء. وقد بادله أبو حنيفة الازدراء والافتام.<sup>٨٥</sup> وقد وصف الأحول بالشجاعة والصراحة المتناهية في عرض قناعاته فيما يخص حقوق الأئمة الشرعية على أسس عقلية.<sup>٨٦</sup> وبصفته مؤيداً متحمساً للأئمة الشرعيين فقد تمسك بنظرية أن الله فرض طاعة الأئمة الكاملة، وبأن الإمام يجوز علماً خاصاً وضرورياً هداية الناس. وقيل أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، وقد ذكر مؤلفاته العديد من المصادر. ومن بين مؤلفاته: كتاب الإمامة وكتاب الرد على المعتزلة في إمامة المفضول، وغيرها مما له طابع الجدل.<sup>٨٧</sup> ومن عناوين كتبه نستشف أن موضوع الإمامة كان مدار جدل بين المعتزلة

والمفكرين الشيعة في ذلك الوقت. ويذكر الكشي مجموعة من المجادلات التي أدارها الأحول تأييداً للصادق، ويقتبس قول الصادق: "الأحول من أحب الناس إليّ حياً وميتاً".<sup>٨٨</sup>

وكان من بين رجال هذه المجموعة هشام بن سالم الجواليقي، وأصله عبد من جرجان ثم أصبح مولى بشر بن مروان. وعاش في الكوفة، يبيع العلف. وجمع حوله مجموعة من التلاميذ كما فعل الأحول، وطوّر علم الكلام الشيعي وبخاصة في مجال صفات الله.<sup>٨٩</sup>

وربما كان من بين أهم مفكري شيعة الصادق أبو محمد هشام بن الحكم<sup>٩٠</sup> وعلي بن إسماعيل الميثمي.<sup>٩١</sup> كان هشام بن الحكم في بداياته تابعاً وتلميذاً للجهنم بن صفوان الجبر (القائل بالجبرية)، ولكنه تحول للعقيدة الشيعية وصار أكثر أتباع الصادق إخلاصاً له. ويبدو أنه تشيع وهو يافع، فقد عاش حتى أيام علي الرضى وأصبح أحد المقربين منه.<sup>٩٢</sup>

إن علم الكلام الشيعي الذي أسسه وطوّره هؤلاء المفكرون الخمسة أيام الصادق واسع جداً لا يمكن فحصه هنا. وما يهمنا الآن هو مساهمتهم في تطوير عقيدة الإمامة، التي ربطوها بأصول الدين. وثمة حقيقة عدهشة وهي أن هؤلاء المفكرين الخمسة غالباً ما اختلفوا فيما بينهم حول قضايا عديدة لكن أفكارهم وتعليمهم عقيدة الإمامة كانت متفقة تماماً.

وخلاصة عقيدة الإمامة عندهم أن النبي نصب علياً إماماً بنص جلي ثم خلفه ولداه الحسن والحسين بالطريقة عينها. وأن الإمامة ضرورية لهداية البشرية كما أن العقل ضروري لتنسيق نشاطات جسم الإنسان وقيادته.

ولكي يهدي الإمام البشرية ويردهم عن الضلال يجب أن يكون معصوماً. ذلك لأن الإمام الذي هو دون النبي لا يتلقى وحياً من الله. وبالتالي وحيث أن الإمام قائد معصوم معين بنعمة من الله، فإن طاعته هي طاعة الله، وعصيانته كفر.<sup>٩٣</sup>

وبينما كانت مجموعة من أتباع الصادق مهتمة بعلم الكلام فإن مجموعة أخرى ركزت اهتمامها على القضايا الفقهية. وقد بينا سابقاً أنه يصعب التمييز بين الخدثين والفقهاء يومئذ خاصة بين الشيعة منهم. ومع ذلك، كان هناك اختلاف بين اهتماماتهم. فقد اهتم بعضهم بأحاديث تخص العقائد (الأصوليون)، واهتم الآخرون بأحاديث تخص الفقه (النقلون أو الفقهاء). وهكذا فإن معظم الأحاديث التي تخص المسائل الفقهية رواها جميل بن دراج وعبد الله بن مسكان وعبد الله بن عثمان.<sup>٩٤</sup> وجميع هؤلاء كانوا من المقربين من الصادق واعتبرتهم الشيعة الأثنا عشرية موثوقين وفقهاء كبار بين أتباع الصادق. وقد وصفهم الكشي بأهم من أكثر أتباع الصادق موثوقية في المسائل الفقهية؛ وكذلك قال عنهم الشيعة عامة.<sup>٩٥</sup> ووافق الكشي على قوله أصحاب الكتب الصحاح الأربعة: الكافي للكليني، ومن لا يحضره الفقيه للصدوق، والاستبصار وقمّية الكافي للأحكام للطوسي، وتحوز هذه الكتب الأربعة على المصداقية عينها التي تحوزها كتب الصحاح الستة عند السنة.

ويجب أن نضيف إلى قائمة هؤلاء الفقهاء الذين عاشوا في أيام الصادق اسم أبان بن تغلب بن رباح<sup>٩٦</sup> فهو فقيه ومحدث مشهور ومهمم وقد عاصر الإمامين زين العابدين والباقر. وقيل أنه عندما توفي عام ١٤٠ هـ

٧٥٧م قال الصادق: "أحب أن تكون شيعتي مثل أبان بن تغلب." و"لقد أحزن موته قلبي." <sup>٧٧</sup> ويظهر اسم أبان راوية للحديث وبخاصة الأحاديث التي تتعلق بالمسائل الفقهية.

ولعل من المهم ملاحظة أن معظم هؤلاء المحدثين - الفقهاء الذين لازموا الصادق عاصروا ثلاثة أو على الأقل اثنين من الأئمة الشرعيين إما زين العابدين والباقر والصادق أو الباقر والصادق والكاظم، والبعض الآخر ممن لازموا الصادق فقد خدموا عقيدة الإمامة حتى زمن علي الرضا.

بعد هذه الخلاصة الموجزة لنشاطات الأفراد أو المجموعات العامة تحت قيادة الإمام جعفر الصادق في مختلف العلوم الدينية، صار بإمكاننا أن نستخلص نتيجتين. الأولى: في تلك المرحلة التأسيسية للفكر الإسلامي والمنظمات الإسلامية ساهم هؤلاء تحت رعاية الصادق بقسط وفير في إشادة أساس متين لتفسير أصول العقيدة الدينية، ونظام فقهي إمامي شيعي للمفكرين والفقهاء والمتكلمين من الشيعة الاثني عشريين المتأخرين. الثانية: حقيقة أن مجموعة كبيرة من الأفراد الذين عملوا في مختلف مناحي الحياة الدينية، واختاروا الالتفاف حول الصادق راضين بإمامته على أساس مبدأ "النص" وهذه الحقيقة وضعت عربة الإمامة الشيعية على طريق متميز الموصفات ضمن الإسلام.

وثمة الكثير من العقائد التي حفظتها لنا المصادر المبكرة التي تفسر عقائد الشيعة الإمامية خلال حياة جعفر الصادق. وإحدى هذه العقائد نطق بها عمر بن حريث أمام الصادق وهي كما يلي: "أحب أن أعرض عليك ديني وعقيدتي لتشهد على إيماني. إن ديني هو أشهد أن لا إله إلا الله، وأن



محمداً عبده ورسوله. وأشهد أن اليوم الآخر آت لا ريب فيه، وأن الله يبعث من في القبور، وأشهد أن الصلاة فرض وكذلك الزكاة وصيام شهر رمضان والحج إلى بيت الله لمن استطاع إليه سبيلاً. وأقر بولاية علي بن أبي طالب أمير المؤمنين بعد رسول الله عليهما السلام وولاية الحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وبعدهم ولايتك، وأقر بأنكم الأئمة، أحيا على هذا الدين وعليه سوف أموت وبه أعبد الله. "وبعد أن سمع الصادق ذلك، قال: "هذا والله فعلاً ديني ودين آبائي الذي عبدوا الله به سرّاً وجهراً؛ فآخض الله، واحفظ لسانك عن قول إلا الحق".<sup>٩٨</sup>

وثمة إعلانات مماثلة نقلها الكشي عن داوود بن يونس وخالد بن بجلة.<sup>٩٩</sup> وهناك رواية تفصيلية لعقائد الشيعة الاثني عشرية تتعلق بأصول الدين وفروعه دونها الشيخ ابن بابويه القمي المشهور باسم الشيخ الصدوق (توفي ٣٨١هـ - ٩٩١م) في كتابه "رسالة الاعتقادات". ويقر الشيعة الاثنا عشرية عامة بأن الشيخ الصدوق ثقة معتمدة، ورسالته مقبولة بصفتها من أبكر كتب العقائد المخطوطة ويقررون بصحة ما فيها من عقائد. وبمقارنة عقيدة الشيعة مع عقائد السنة مثل الفقه الأكبر الأول والفقه الأكبر الثاني ووصية أبي حنيفة فإن المرء يجد أن باستثناء الإمامة فإن الاختلافات بين السنة والشيعة لا تتعدى الاختلافات بين الأشاعرة والمعتزلة. وإن الآراء الشيعية تماثل إلى حد بعيد آراء المعتزلة، الذين كانوا جزءاً من المسلمين السنة، برغم أن آراءهم العقلانية رفضت مؤخراً من طرف "الجماعة"

وإن موضوع القرآن يوضح قضية هذه الوحدة الأساسية. يقول الشيخ الصدوق: "إن عقيدتنا بالقرآن أنه كلمة الله، وروحیه الذي أنزله، وكلامه وكتابه وأن الباطل لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد." سورة فصلت ٤١ وأن الله تعالى خالقه وموحيه وسيده وأن النبي بلغه. ونقر بأن القرآن الذي أوحاه الله تعالى لنبيه محمد هو ما بين الدفتين وما هو بين أيدي الناس جميعاً، وأنه ليس أكثر من ذلك. وأن سوره كما يعرفها الجميع مئة وأربع عشرة." ١٠٠

ثمة نقطتان تستلفتان النظر في تصريح الشيخ الصدوق هذا. الأولى: إن الشيعة مثل المعتزلة يعتقدون بأن القرآن كلمة الله المخلوقة، وليست غير مخلوقة وأزلية كما يقول الأشاعرة وقبلها كذلك الإسلام الرسمي. الثانية: أن القرآن هو هو كما يتداوله الناس جميعاً من سنة وشيعة. وهذا يعني أن ما يقال من أن جزءاً من القرآن حذف هو خطأ لا يقره الشيعة.

ليس من اهتمامنا هنا متابعة التطورات التفصيلية التي طرأت على عقيدة الشيعة في الأزمنة المتعاقبة، كما حصل فعلاً لعقيدة السنة. ولم يكن القصد من هذا الكتاب بحث مساهمة الأئمة الستة بعد الصادق، حيث صار الشيعة يعرفون بالشيعة الأثنى عشرية. بل كان هنا هو بحث أصول التشيع والتطور المبكر للميول الدينية التي من خلالها ميز الشيعة أنفسهم عن المسلمين الآخرين.

بعد ما بحثناه في هذا العمل وبنظرنا إلى نشاطات أولئك الذين تجمعوا حول جعفر الصادق الذي توفي عام ١٤٨هـ - ٧٦٥م نستطيع أن نختم بالقول أن الشيعة صار لها ميزات محددة. وإن الاختلافات الفعلية بين

السنة والشيعة سواء في العقائد أو الفقه لم تكن هامة بقدر الروح الخفية خلف هذه الاختلافات اليسيرة. هذه الروح نشأت منذ البدايات الأولى منهم وتفسير الإسلام، كما عرضنا في الفصل الأول، وتطورت من خلال مفهوم الشيعة لقيادة الأمة بعد النبي. إن هذا المفهوم حول القيادة هو الذي يميز الشيعة عن السنة ضمن الإسلام؛ وعلى هذا المفهوم كان تركيزنا خلال هذه الصفحات.

## مراجع وملاحظات الفصل ١١

- ١- انظر مناقشة ابن حزم لـ فردلاندر "فروق الشيعة كما يعرضها ابن حزم" مجلة Jaos العدد ٢٨، ١٩٠٧ ص ٧٤ E
- ٢- الأشعري، مقالات الإسلاميين، تح. هيلموت رتر، استنبول ١٩٢٩ ص ١٦، ١٧ E
- ٣- هو اللقب الذي أطلقه كتاب الفرق السنة لوصف الشيعة الاثني عشرية. ولتفصيل أكثر انظر وات "الرافضة" دراسة أولية oriens عدد ١٦، ١٩٦٣ E
- ٤- الطبري ج ٢ ص ١٧٠٠
- ٥- هودسن (كيف صار الشيعة لفرقة) Jaos ١٩٥٥ ص ١٠
- ٦- من أجل دعاوى الغلاة انظر النوبختي كتاب الفرق ص ٢٥ و ٣٠ و ٣٩ و ٥٢ - ٥٥ وسعيد الأشعري المقالات ص ٣٣ و ٣٥ و ٣٧، والشهرستاني الملل والنحل ج ١ ص ١٧٦ و ١٧٨ ويقول سعيد الأشعري ص ٣٧ أن بيان ادعى الإمامة خلفاً لأبي هاشم ولم يقل بإمامة الباقر.
- ٧- الكليني، الكافي ج ١ ص ٢٠٨
- ٨- نفسه ص ٢٦١
- ٩- هودسن، السابق ص ١١
- ١٠- نفسه
- ١١- الكليني، رجال ص ٢٨٥
- ١٢- الكليني، الكافي ج ١ ص ٢٧٤
- ١٣- الكليني، الكافي ج ١ ص ٣٥٦
- ١٤- نفسه ص ٢٦٥ والكليني، رجال ص ٤٢٧
- ١٥- الكليني، الكافي ج ١ ص ٣١٨
- ١٦- الكليني، الكافي
- ١٧- الكليني، الكافي ج ١ ص ٤٦٢

- ١٨- الكليني، الكافي ص ٢١٤-٢٢٠
- ١٩- الكليني، الكافي ص ٢٠٥ و ٢٠٧ رسالة الاعتقادات للصدوق
- ٢٠- الكليني، الكافي ج ١ ص ٢٠٥، ٢٠٧، ٣٠٤ وما بعدها
- ٢١- نفسه ص ٢٠٥
- ٢٢- نفسه
- ٢٣- الكليني، كتاب الحج، والشيخ المفيد، الإرشاد ج ١ ص ٣٠٤-٣١٣
- ٢٤- القرآن سورة ٣ آية ٦
- ٢٥- الكليني، الكافي ج ١ ص ٢٩٢
- ٢٦- وينسك wensinck التراث الحمدي تحت عنوان علي، لسيدن ١٩٦٠
- ٢٧- ابن سعد ج ٢ ص ١٠١
- ٢٨- نفسه
- ٢٩- الكليني، الكافي ج ١ ص ٣٣٠ وما بعد.
- ٣٠- "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً"
- ٣١- انظر تفسير الثعالبي ص ٤٠٢
- ٣٢- الكليني، الكافي ج ٢ ص ٤٨٨
- ٣٣- نفسه
- ٣٤- نفسه ص ٤٨٧
- ٣٥- نفسه ص ٤٨٦
- ٣٦- الكليني، الكافي ج ١ ص ٤٨٣
- ٣٧- القرآن سورة ٥ آية ٦٧
- ٣٨- القرآن سورة ١٦ آية ١٠٦
- ٣٩- الكليني، الكافي ج ١ ص ٤٨٣
- ٤٠- مبدأ التقية في الإسلام، LX, ZDMG (١٩٠٦)
- ٤١- الصدوق، رسالة الاعتقادات ص ١١٠
- ٤٢- الكشي، رجال، ص ٤١٩

- ٤٣- دائرة المعارف الإسلامية طبعة ٢ مقال "عبد الله بن سبأ" E
- ٤٤- سعد الأشعري، مقالات ص ٢٠، النوبختي، الفرق ص ٢٢
- ٤٥- نفسه
- ٤٦- النوبختي، الفرق ص ٣٢
- ٤٧- الكشي، رجال ص ٢٩٦، الشهرستاني، الملل ج ١ ص ١٥٢، الأشعري، مقالات ص ٦-٩
- ٤٨- الكشي، رجال ص ١٤٨، النوبختي، الفرق ص ٣٤
- ٤٩- الكشي، رجال ص ٢٢٣
- ٥٠- انظر أنساب السمعاني ص ١١٣، الكشي، رجال ص ١٩١ وما بعدها، النجاشي، رجال ص ٩٣
- ٥١- انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب
- ٥٢- الحائري، منتهى ص ٢٠٢، ابن النديم، الفهرست ص ٦٦
- ٥٣- الكافي ج ١ ص ٢٧٩
- ٥٤- انظر ايفانوف "ملاحظات على أم الكتاب" RE ١٩٣٢ بالإلمانية
- ٥٥- انظر EE. Salisbury ترجمة "رسائل لم تنشر، رسائل عربية" Jaos ١٨٥٣ ص ١٦٧-١٩٣
- ٥٦- الكافي ص ٣٦٥، الكشي، رجال ص ٣٢٤
- ٥٧- الكافي ج ١ ص ٣٠٨ شائع
- ٥٨- اليعقوبي ج ٢ ص ٣٨١، الكشي، رجال ص ٣٢٤
- ٥٩- انظر دونالدسن "المذهب الشيعي" ص ١٣٥ E
- ٦٠- الكشي، رجال ص ٢٢٤، وهودسن ص ١٣
- ٦١- الكشي، رجال ص ٢٤٧
- ٦٢- نفسه
- ٦٣- نفسه
- ٦٤- الطوسي، الفهرست، ص ١٤١، الحائري، منتهى ص ١٣٥-١٣٦، والحلي، رجال ص ٧٦

- ٦٥- الحائري، منتهى ص ١٢٠
- ٦٦- الكشي، رجال ص ١٣٥، الطوسي، الفهرست ص ١٤٦، الحائري، منتهى ص ١٣٦
- ٦٧- أبو أحمد محمد بن أبي عمر زيد بن عيسى محدث وصاحب موسى الكاظم وعلي الرضا. قيل أنه كتب أربعة كتب. انظر النجاشي ص ٢٢٨، والحائري، منتهى ص ٢٥٤
- ٦٨- الكشي، رجال ص ١٣٥
- ٦٩- الكشي، رجال ص ١٣٨ لمرجع عن الخضر انظر القرآن سورة الكهف
- ٧٠- ابن النديم ص ٢٢٠، الحائري ص ١٣٦
- ٧١- الحائري ص ٩٣ ابن النديم ص ٦٦
- ٧٢- الحائري ص ١١٠ ابن النديم ص ٦٦
- ٧٣- الحائري ص ٩٩ ابن النديم ص ٦٦ الطوسي الفهرست ص ٢٠٢ ويسميه عبيد بن زرارة
- ٧٤- ابن النديم ص ٦٦، الكشي ١٧٦
- ٧٥- الحائري ص ١٣١، الطوسي ص ١١٧
- ٧٦- الكشي ص ١٨١، الحائري ص ٦٨ ابن النديم ص ٦٦
- ٧٧- الطوسي ص ١٨٨، الحائري ص ١٨٢
- ٧٨- هو أخو هشام بن الحكم. الحائري ص ١٨٢
- ٧٩- الأشعري، مقالات ج ١ ص ٤٣
- ٨٠- بخصوص الأخيرين الجواليقي: متكلم عاش في الكوفة، كتب في الإمامة تفصيلاً عرفت جماعته باسم النعمانية وعرف بمجده. الأحوال: عناصر الباقر وناصره ضد أخيه زيد توفي في عهد الكاظم.
- ٨١- مقالات الأشعري ج ١ ص ٢٨ ويشير إلى التميمية
- ٨٢- لتفاصيل أكثر عن زرارة راجع رجال الكشي ص ١٣٣-١٦١
- ٨٣- لتفاصيل أكثر انظر مقالات الأشعري ج ٢ ص ٣٦، والبغدادي، الفرق ص ٤٣، والشهرستاني الملل ج ١ ص ١٨٦

- ٨٤- الكشي ص ١٨٥، النجاشي، رجال ص ٢٢٨، سعيد الأشعري، مقالات  
ص ٨٨، الطوسي الفهرست ص ٢٢٣
- ٨٥- النجاشي ص ٢٢٨، الكشي ص ١٨٧
- ٨٦- الكشي ص ١٣٥، ابن عبد ربه، العقد ج ٢ ص ٤٦٥، الشهرستاني الملل  
ج ١ ص ١٨٧
- ٨٧- ابن النديم ص ١٧٦، النجاشي ص ٢٢٨، الشهرستاني ج ١ ص ١٨٧
- ٨٨- الكشي ص ١٨٥
- ٨٩- الكشي ص ٢٨٠، النجاشي ص ٣٠٥، الطوسي ص ٣٣٤، الحائري  
ص ٣٢٣
- ٩٠- مولى بني كندة ولكن غالباً ما يوصف بأنه صاحب بني شيان، الكشي  
ص ٤٧٥، الطوسي ص ٣٥٣
- ٩١- مولى بني أسد، عاش في البصرة وتردد على المعتزلة المتكلمين.
- ٩٢- الكشي ص ٢٢١٤
- ٩٣- الأشعري ج ١ ص ٤٨، الشهرستاني ج ١ ص ١٨٤
- ٩٤- الكشي ص ٣٧٥ ورجال الكشي والنجاشي والحائري
- ٩٥- الكشي ص ٣٧٥
- ٩٦- الكشي ص ٣٣٠، الحائري ص ١٧، النجاشي ص ٧-١٠، الذهبي، الميزان  
ج ١ ص ٤-٥
- ٩٧- الكشي ص ٣٣٠
- ٩٨- الكشي ص ٤١٨
- ٩٩- الكشي ص ٤١٩
- ١٠٠- عقائد الصدوق ص ٨٤ وما بعدها.



## المراجع

### ١- المصادر الأولية

أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن المصطفى. القاهرة، بدون تاريخ  
أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، بيروت ١٩٧٣ مقاتل الطالبين،  
طهران، ١٩٤٩

أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، القاهرة ١٩٢٩  
أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، القاهرة ١٩٣٣  
أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، القاهرة ١٩٣٣  
علي المتقي، كثر العمال، حيدر آباد ١٣٦٤هـ

الأنباري أبو بكر محمد بن قاسم، شرح القصائد السبعة الطوال الجاهلية،  
تح. عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٣

الأشعري أبو الحسن علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين، تح. هلموت  
ريتر، استنبول ١٩٢٩

الأشعري محمد بن أبي بكر. التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، تح.  
محمد زياد، بيروت ١٩٦٤

الأشعري سعد بن عبد الله القمي، المقالات والفرق، تح محمد جواد  
مشكور، طهران ١٩٦٣

الأزرقي محمد بن عبد الله، أخبار مكة، تح رشدي الصالح، مكة  
١٣٥٢هـ

البغدادى أبو منصور عبد القاهر، الفرق بين الفرق، تح. الكوثري،  
القاهرة ١٩٤٨

أصول الدين، استنبول ١٩٢٨

البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف ج ١، تح. محمد حميد  
الله، القاهرة ١٩٥٥ ج ١-٦ تح. ماكس شلستجر، القدس، ١٩٣٦

فتوح البلدان ترجمة قليب حتي، أصل الدولة الإسلامية، نيويورك

١٩١٦

البيضاوي عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل، تح. فليشر، ١٨٤٦-١٨٤٨  
البيهقي محمد بن إبراهيم، كتاب المحاسن والمساوئ. تح. فريدرك شوالي،

جسن ١٩٠٢

البخاري محمد بن إسماعيل، جامع الصحاح، القاهرة ١٩٣٢

الداميري كمال الدين، حياة الحيوان، بولاق ١٢٨٤هـ

الدهبي أبو عبد الله محمد، تاريخ الإسلام، القاهرة ١٣٦٧هـ

تذكرة الحفاظ، حيدر آباد ١٣٣٣هـ، وميزان الاعتقاد بلا تاريخ

الدينوري أبو حنيفة أحمد بن داود، كتاب الأخبار الطوال، القاهرة

١٩٦٠

الديار بكري حسين بن محمد، تاريخ الخميس، القاهرة ١٣٠٩هـ

الفرزدق، الديوان، تح. عبد الله الصاوي، القاهرة ١٩٣٦

الحائري محمد بن إسماعيل، منتهى المقال، طهران ١٣٠٢هـ

الحلي حسن بن يوسف، الباب الحادي عشر، ترجمة ميلر، لندن ١٩٢٨

منهج الكرامة في معرفة الإمامة، طهران ١٨٨٠

كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين، طهران ١٨٨٠

الرجال، تح. محمد صادق، النجف ١٩٦١

ابن عبد البر، كتاب الاستيعاب، القاهرة بلا تاريخ

ابن عبد ربه أحمد بن محمد، العقد المفيد، تح. أحمد أمين، القاهرة

١٩٢٥-١٩٥٦

ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة

١٩٥٩

ابن عساكر علي بن الحسن، تبين كدل المفتري، دمشق ١٣٤٧هـ

التاريخ الكبير، دمشق ١٣٤٧هـ

ابن الأثير أبو الحسن علي بن كرم، الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٧٥

ابن الأثير علي بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة بلا تاريخ  
ابن دريد محمد بن الحسن، كتاب الاشتقاق، تح فرديناند وستفيلد -  
كوتنجن ١٨٤٥

ابن الحبيب محمد بن حبيب، كتاب المحبر، تح. لستشاتر، حيدر آباد  
١٩٤٢

ابن حجر أحمد بن محمد الهيثمي، الصواعق المحرقة، تح. عبد الوهاب،  
القاهرة ١٣٧٥هـ

ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، حيدر آباد ١٣٢٩هـ -  
قنذيب التهذيب، حيدر آباد ١٣٢٥هـ

ابن حنبل أحمد بن محمد، المسند، القاهرة، ١٨٩٥  
ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل،  
القاهرة ١٣٤٧هـ

ابن هشام أبو محمد عبد الملك، سيرة رسول الله، تح. مصطفى السقا،  
القاهرة ١٩٣٦

ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، القاهرة ١٣٥٠هـ -  
ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، كتاب صفوة الصفوة، حيدر آباد  
١٣٥٥هـ

تلبس إبليس، القاهرة ١٣٤٠هـ -  
ابن كثير إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، القاهرة ١٩٣٢  
تفسير القرآن العظيم، القاهرة بلا تاريخ

ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، القاهرة ١٨٦٧  
المقدمة، تح. علي عبد الواحد وافي.  
ابن خلكان أحمد بن محمد، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، بيروت  
١٩٧٢

ابن النديم محمد بن إسحاق، الفهرست، تح. غوستاف فلوجل، ليزبن  
١٨٧١

ابن نشوان الحميري، حور العين، تح. كميل مصطفى، القاهرة ١٩٤٨

ابن قتيبة محمد بن عبد الله، عيون الأخبار، القاهرة ١٩٢٥

كتاب المعارف، القاهرة بلا تاريخ

الإمامة والسياسة (منسوب له) القاهرة ١٩٥٧

ابن الصباغ نور الدين المالكي، الفصول المهمة في معرفة الأنمة، إيران

١٨٨٦

ابن سعد محمد، الطبقات الكبرى، بيروت ١٩٥٧

ابن الطقطقي محمد بن علي، الفخري في أدب السلطنة، القاهرة،

١٩٢١

الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح. عبد السلام

هارون، القاهرة ١٩٦٠

رسائل الجاحظ، تح حسن السندوبي، القاهرة ١٩٣٣

الجيلاني عبد القادر، غنية الطالبين، دلهي ١٣٠٠هـ

الكلبي هشام بن محمد، كتاب الأنساب، تح. أحمد زكي باشا، القاهرة

١٩١٤

الكشي عمر بن محمد، معرفة أخبار الرجال، مشهد بلا تاريخ

خليفة بين خياط، تاريخ، تح. سهيل زكار، القاهرة ١٩٦٧

الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، القاهرة ١٩٣١

الخياط بعد الرحيم، كتاب الانتصار، تح. نيورغ، بيروت ١٩٥٧

الكليني محمد بن يعقوب، الأصول الكافي، كراتشي ١٩٦٥

الكليني الفروع الكافي، طهران ١٨٩١

الكميت - الهاشميات، الصيداوي، القاهرة ١٩٥٠

المعري أبو العلاء، رسالة الغفران، القاهرة ١٩٥٠

الجليسي محمد باقر، بحار الأنوار، إيران ١٣٠١ - ١٣١٥هـ

مالك بن أنس، الموطأ، القاهرة ١٨٦٢

المقريزي أحمد بن علي، الزراع والخصاصم بين بني أمية وبني هاشم،  
التجف ١٣٦٨هـ

المسعودي علي بن حسين، مروج الذهب، بيروت ١٩٦٦  
كتاب التنبيه والأشراف، لندن ١٨٩٤

المنقري نصر بن مزاحم، وقعة صفين، القاهرة ١٣٦٥هـ  
المبرد محمد بن يزيد، كتاب الكامل، القاهرة بلا تاريخ

المفضل بن محمد، المفاضليات، تح. تشارلز جيمس ليال، اكسفورد ١٩٢١  
المفضل بن عمر الجعفي، كتاب الهفت والأظلة، منسوب له، تح. عارف  
تامر، بيروت ١٩٦٠

المفيد محمد بن محمد، الأمالي، التجف ١٣٥١هـ  
كتاب الإرشاد، طهران ١٣٤٤هـ

محمد الخطيب، مشكاة المصابيح، لوكتاو ١٩٢٤  
مرتضى بن داعي، كتاب تبصرة العوام، طهران ١٣١٣هـ  
مسلم أبو الحسين، الصحيح، القاهرة بلا تاريخ  
النايفة الذيباني، الديوان، تح. شكري فيصل، بيروت ١٩٦٨  
النجاشي أحمد بن علي، كتاب الرجال، طهران بلا تاريخ

النسائي أحمد بن شعيب، السنن، القاهرة ١٨٩٤  
النوبختي حسن بن موسى، فرق الشيعة، التجف ١٩٥٩  
القاضي النعمان أبو حنيفة، شرح الأخبار، مخطوطة مدرسة الدراسات  
الإفريقية والشرقية جامعة لندن رقم ٢٥٧٣٢

دعائم الإسلام تح. آصف فيضي، القاهرة ١٩٥١-١٩٦١  
الرازي فخر الدين، اعتقادات فرق المسلمين والمشركن، القاهرة  
١٣٣٨هـ

مفتاح الغيب، القاهرة بلا تاريخ  
الصدوق الشيخ ابن بابويه القمي، من لا يحضره الفقيه، إيران  
١٣٤٢هـ

- رسالة الاعتقادات، ترجمة آصف فيضي، عقيدة الشيعة، كلكتا ١٩٤٢
- عيون أخبار الرضى، إيران ١٨٥٨
- السمعي عبد الكريم بن محمد، كتاب الأنساب، ليدن ١٩١٢
- الشهرشوب محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب، النجف ١٩٥٦
- الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تح محمد سيد الكيلاني، القاهرة ١٩٦١
- شمس الدين محمد طولون، الأئمة الاثنى عشر، تح. صلاح الدين المنجد، بيروت ١٩٥٨
- السبكي أبو نصر عبد الوهاب، طبقات الشافعية، تح أحمد بن عبد الكريم، القاهرة بلا تاريخ
- السيوطي جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ١٣٥١هـ
- الطبري أبو جعفر، تاريخ الرسل والملوك، تح. دي غوي ليدن ١٨٧٩ - ١٩٠١
- المختصر من كتاب الزيل المنزل، القاهرة ١٩٢٩
- جامع البيان في تفسير القرآن، القاهرة ١٣٢٨هـ
- الطبرسي فضل بن حسن، الاحتجاج، طهران ١٣٠٢هـ
- الطوسي نصر الدين محمد بن حسن، الاستبصار، النجف ١٩٥٦
- تهديب الأحكام، النجف ١٩٥٩
- كتاب الفهرست تح. سيرانجر، كلكتا ١٨٥٥
- اليقوي أحمد بن علي يعقوب الوضاح، التاريخ، بيروت ١٩٦٠
- ياقوت الحموي شهاب الدين، معجم البلدان، بيروت ١٩٥٥
- زيد بن علي، مجمع الفقه، تح. جريفي، ميلان ١٩١٩

ب- المصادر الثانوية

- آبوت نيبا، دراسات في الأدب العربي، شيكاغو ١٩٥٧-١٩٧٢ E
- آغا بزغ الطهراني، الذريعة لتصانيف الشيعة، النجف ١٩٣٦ وما بعدها
- علي الوردي، واعظ السلاطين، بغداد ١٩٤٥
- أمير علي سيد، القانون المحمدي، لندن ١٩٣٦ E
- العالملي محسن بن عبد الكريم الحسيني، أعيان الشيعة، دمشق ١٩٣٥ وما بعدها
- ارنولد سير توماس، الخلافة، اكسفورد ١٩٢٤ مترجم إلى العربية
- بروكلمان دارل، الأدب العربي، لندن ١٩٣٧ بالألمانية، مترجم
- تاريخ الشعوب الإسلامية، لندن ١٩٥٩
- دونالدسن، المذهب الشيعي، لندن ١٩٣٣ E
- عبد العزيز الدوري، دراسة في بداية الكتابات التاريخية في الإسلام،
- BSOAS عدد ٢١، ١٩٥٧
- إقبال عباس خاندان، نوبخت، طهران ١٣١١هـ فارسي
- دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى ١٩١٣-١٩٣٨ الطبعة الجديدة
- ١٩٦٠ وما بعدها
- فريد لاندير، انحرافات الشيعة كما عرضها ابن حزم JAOS عدد ٢٧
- E
- فري ريتشارد، دور أبي مسلم في الثورة العباسية، مجلة عالم الإسلام عدد
- ٣٧، ١٩٤٧ E
- أصف فيضي، نظرية الفقه الشيعي، القانون في الشرق الأوسط، تحرير
- مجيد خدوري وليسيني واشنطن ١٩٥٥ E
- جيون ادوارد، تاريخ انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية، تحرير بري،
- لندن ١٩٠١ E

- جولد زيهير، دراسات محمدية، ترجمة سترن وباربر، دراسات إسلامية،  
لندن ١٩٦٧-١٩٧٢
- حميد الله محمد، الدولة المدنية في مكة، IC عدد ١٢، ١٩٣٨
- صحيفة همام بن منبه، حيدر آباد ١٩٦١
- حسن الصدر، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، كاظمين ١٩٥١
- حتي فيليب، تاريخ العرب، لندن ١٩٤٩ E مترجم
- هودسن مارشال، كيف صارت الشيعة المبكرة طائفة، JAOS ١٩٥٥
- نظام القنلة، مونتن ١٩٥٥ E
- ايفانوف W، الحركات الشيعة المبكرة JBRRAS ١٩٣٩ E
- المرشد إلى الأدب الإسماعيلي، لندن ١٩٣٣ E
- ملاحظات على أم الكتاب RE ١٩٣٢ بالألمانية
- كحالة عمر رضا، معجم قبائل العرب، دمشق ١٩٤٩
- خليف يوسف، حياة الشعر في الكوفة، القاهرة ١٩٦٨
- خدا بخش، السياسات في الإسلام، لاهور ١٩٣٢ E
- لسين W.E، معجم عربي-إنكليزي، لندن ١٨٦٣
- لويس بونارد، العرب في التاريخ، لندن ١٩٥٠ E
- أصول الإسماعيلية، كمبردج ١٩٤٠ E
- ماسينيون. L. شرح خطة الكوفة بيروت ١٩٦٣ ترجمها تقي المصعبي،  
خطط الكوفة، صيدا ١٩٣٩
- المودودي أبو الأعلى، الخلافة والملوكية، لاهور ١٩٦٦
- مور سير ولیم، الخلافة، ادنبرة ١٩١٥ E
- نيكلسون R.A، تاريخ العرب الأدبي، كمبردج ١٩٥٦ E
- بيترسون E.L، علي ومعاوية في الروايات العربية الأولى، كوبنهاجن  
١٩٦٤ E
- القزويني معز الدين، أساب القبائل العراقية، النجف ١٩١٨
- رمضان لاوند، الإمام الصادق، بيروت بلا تاريخ



- روسكا، تاريخ قضية جابر، ic عدد ١١، ١٩٣٧ E
- شاخت جوزيف، مقدمة للقانون الإسلامي، اكسفورد ١٩٦٤ E
- أصول القانون المحمدي، اكسفورد ١٩٥٠
- سيرجنت R.B.، الحرم واخوطة الحمية المقدسة في شبه الجزيرة العربية بالتعاون مع طه حسين، تحرير عبد الرحمن بدوي، القاهرة ١٩٦٢
- أسياد حضر موت، محاضرة افتتاحية BSOAS لندن ١٩٥٧ E
- سيجن ارمنولا، أبو مخنف ورعاية الأمويين لكتاب الفرق، ليدن ١٩٧١ بالألمانية
- الشهابي محمود، أدوار الفقه، طهران ١٣٢٩هـ
- وات مونصمري، الإسلام وتكامله الاجتماعي، لندن ١٩٦١ E
- الفكر الإسلامي السياسي، ادنبره ١٩٦٨
- محمد في مكة لندن ١٩٥٣
- محمد في المدينة لندن ١٩٥٥
- حنين المسلمين لتقذ: وجهات نظر الشيعة في العهد العباسي، تحرير براندون، اكسفورد ١٩٦٣
- الرافضة: دراسة أولية، مجلة أورينت عدد ١٦، ١٩٣٦ E
- الشيعة أيام الأمويين JRAS ١٩٦٠ E
- ويلهاوسن جوليس، الدولة العربية وسقوطها، كلكتا ١٩٢٧ E
- السياسة الدينية الأحزاب المعارضة في الإسلام ترجها عبد الرحمن بدوي، الخوارج والشيعة، القاهرة ١٩٥٨
- وينسك A.J. كتيب عن أحاديث محمد، ليدن ١٩٦٠ E
- العقيدة الإسلامية، كمبردج ١٩٣٢ E

## الفهرس

د	تقديم المحرر
هـ	مقدمة المؤلف
ز	تنوية المترجم
١	الفصل الأول أسس المفاهيم
٣٢	الفصل الثاني السقيفة: الظهورات الأولى
٧٤	الفصل الثالث علي والخليفة الأولان
١٠٢	الفصل الرابع البعث حزب علي من جديد
١٢٩	الفصل الخامس الكوفة: مركز للنشاطات الشيعية
١٦٩	الفصل السادس تنازل الحسن
٢٢٥	الفصل السابع استشهاد الحسين
٢٩٠	الفصل الثامن رد الفعل بعد كربلاء
٣٠٨	الفصل التاسع الكفاح من أجل الشرعية
٣٣٩	الفصل العاشر إمامة جعفر الصادق
٣٧٧	الفصل الحادي عشر عقيدة الإمامة
٤١١	المراجع

